

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ

٦٧



تَفْسِيرُ

# الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

المَجْرَآتُ، وَق، الذَّارِيَّاتُ، الطُّورُ  
النَّجْمُ، الْقَمَرُ، الرَّحْمَنُ، الْوَاقِعَةُ، الْحِيدُ

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلسَّامِعِينَ

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

تَفْسِيرُ  
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْمُحَرَّرَاتُ، قَفْ، الذَّرِّيَّاتُ، الطُّورُ  
الْبَغْمُ، الْقَمَرُ، الرَّحْمَنُ، الرَّافِعَةُ، الْحَبِيدُ



© مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير السور من الحجرات إلى الحديد. / محمد بن صالح العثيمين - ط ٧ - القصيم، ١٤٣٦ هـ

٦٠٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ٦٧)

ردمك: ٧-٦٢-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - التفسير الحديث

أ- العنوان

ديوي: ٢٢٧،٦

١٤٣٦/٩٠٥١

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٩٠٥١

ردمك: ٧-٦٢-٨١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة السابعة

هـ ١٤٣٧

يُطلب الكتاب من :

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

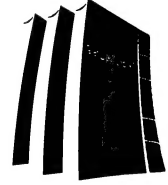
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - فاكس: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimeen.com

info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الألفة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سوپر ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

# تفسير القرآن الكريم

الطُّجُرَات، ق، الذَّرِيَّات، الطُّور  
النَّجْم، القَمَر، الرُّحْمَن، الوَاقِعَة، الحَدِيد

لفضيلة الشيخ العلامة

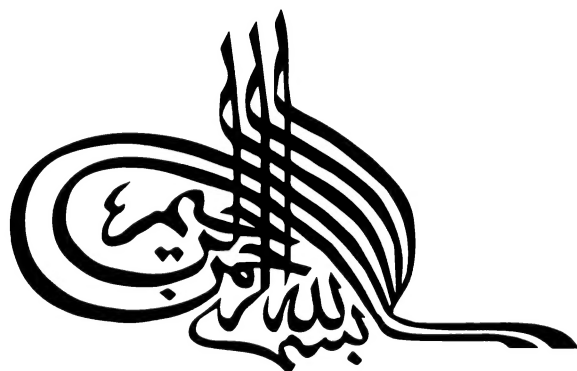
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تقديم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، ونعوذ بالله من شرورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا. أَمَّا بعد:

فإنَّ من توفيقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَسِّرَ لِفَضِيلَةِ شَيْخِنَا -نَعَمَدَهُ اللَّهُ بِوَاسِعِ رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ- تَفْسِيرَ سُورِ (الْحُجُرَاتِ، وَق، وَالذَّارِيَاتِ، وَالطُّورِ، وَالنَّجْمِ، وَالْقَمَرِ، وَالرَّحْمَنِ، وَالْوَاقِعَةِ، وَالْحَدِيدِ).

وَقَدْ عَهِدَتْ مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةَ إِلَى فَضِيلَةِ الشَّيْخِ فَهْدِ بْنِ نَاصِرِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ السَّلْمَانِ، أَثَابَهُ اللَّهُ، بِالْعَمَلِ لِإِعْدَادِ هَذَا الْكِتَابِ لِلنَّشْرِ، وَتَخْرِيجِ أَحَادِيثِهِ وَأَثَارِهِ، فَجَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، مُوَافِقًا لِمَرْضَاتِهِ، نَافِعًا لِعِبَادِهِ، وَأَنْ يَجْزِيَ فَضِيلَةَ شَيْخِنَا عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ، وَيُضَاعِفَ لَهُ الْمَثُوبَةَ وَالْأَجْرَ، وَيُعْلِي دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

### القِسْمُ الْعِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعُثَيْمِينَ الْخَيْرِيَّةِ





سورة الحجرات  
الآيتان (٢، ١)

••❦••

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُؤْا  
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا  
تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝  
[الحجرات: ١-٢].

••❦••

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد وعلى آله وأصحابه  
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:  
فإننا نبدأ بتفسير سور المفصل التي تبتدئ من سورة (ق) عند بعض العلماء،  
أو من سورة الحجرات عند آخرين.  
وستتكلَّم على سورة الحجرات لما فيها من الآداب العظيمة النَّافعة التي ابتدأها  
الله بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُؤْا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ  
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾.

اعلم أن الله تعالى إذا ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۝١﴾ فإنه كما قال  
عبد الله بن مسعود<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ، وإمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ، فَأَرِغِهِ سَمْعَكَ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠)، ط. الصميعي،  
وابن أبي حاتم في التفسير (١/١٩٦).

وَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحَقِيرِ، وَإِذَا صَدَّرَ اللَّهُ الْخِطَابَ بِ﴿تَأْيِئَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ التَّزَامَ مَا خُوِطِبَ بِهِ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ مُحَالَفَتَهُ نَقْصٌ فِي الْإِيمَانِ، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قِيلَ: مَعْنَى ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ أَي: لَا تَتَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالْمُرَادُ: لَا تَسْبِقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِقَوْلٍ أَوْ بِفَعْلٍ.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى لَا تُقَدِّمُوا شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكِلَاهُمَا يَصُوبٌ فِي مَصَبِّ وَاحِدٍ، وَالْمَعْنَى: لَا تَسْبِقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِقَوْلٍ وَلَا فَعْلٍ، وَقَدْ وَقَعَ لَذَلِكَ أَمْثَلَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَقَدِّمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلَا يَوْمَيْنِ»<sup>(١)</sup> لِأَنَّ الَّذِي يَتَقَدَّمُ رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ كَأَنَّهُ تَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَبَدَأَ بِالصَّوْمِ قَبْلَ أَنْ يَحِينَ وَقْتُهُ، وَلِهَذَا قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي يَشْكُ فِيهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

وَمِنَ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْبِدْعُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهَا، فَإِنَّهَا تَقَدَّمُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، بَلْ هِيَ أَشَدُّ التَّقَدُّمِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ»، وَأَخْبَرَ بَأَنَّ «كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»<sup>(٣)</sup>، وَصَدَقَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ حَالِ الْمُبْتَدِعِ أَنَّهُ يَسْتَدْرِكُ عَلَى اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب لا يتقدم رمضان بصوم يوم ولا يومين، رقم (١٩١٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين، رقم (١٠٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) علقه البخاري: كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمْ أَهْلَالَ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَافْطَرُوا» (٢٧/٣)، ووصله الترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في كراهية صوم يوم الشك، رقم (٦٨٦)، والنسائي: كتاب الصيام، باب صيام يوم الشك، رقم (٢١٨٨).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٦/٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه:

ورسوله ما فات، ممّا يدّعي أنّه شرع، كأنّه يقول: إنّ الشريعة لم تكمل، وأنّه كملها بما أتى به من البدعة، وهذا معارض تماماً لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فيقال لهذا الرجل الذي ابتدع: أهذا الذي فعلته كمال في الدين؟ إن قال: نعم، فإن قوله هذا يتضمّن أو يستلزم تكذيب قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وإن قال: ليس كمالاً في الدين، قلنا: إذن هو نقص؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

فالبدعة كما أنّها ضلالة في نفسها فهي في الحقيقة تتضمّن الطعن في دين الله، وأنّه ناقص، وأنّ هذا المبتدع كمله بما ادّعى أنّه من شريعة الله عزّ وجلّ، فالمبتدعون كلّهم تقدّموا بين يدي الله ورسوله، ولم يُبالوا بهذا النهي حتّى وإنّ حسن قصدهم، فإنّ فعلهم ضلالة، وقد يُتاب على حسن قصده، ولكنّه يؤزّر على سوء فعله.

ولهذا يجب على كلّ مبتدع علم أنّه على بدعة أن يتوب منها، ويرجع إلى الله عزّ وجلّ، ويلتزم سنّة الرسول ﷺ وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، والبدعة أنواع كثيرة: بدع في العقيدة، وبدع في الأقوال، وبدع في الأفعال.

أمّا البدع في العقيدة، فإنّها تدور على شيئين: إمّا تمثيل، وإما تعطيل.

فالتّمثيل أن يُثبت لله تعالى الصفات، لكنّ على وجه المماثلة، فإنّ هذا بدعة؛ لأنّه لم يكن من طريق النبيّ عليه الصّلاة والسّلام وخلفائه الراشدين، فيكون بدعة، فمثلاً يُثبت أنّ لله وجهاً ويجعله ممثلاً لأوجه المخلوقين، أو أنّ لله يداً ويجعلها ممثلة لأيدي المخلوقين، وهلمّ جرّاً، فهو لاء مُبتدعة بلا شكّ، وبدعتهم تكذيب لقوله تعالى:

= كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)، من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ولِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

أَمَّا التَّعْطِيلُ فهو أَنْ يُنْكَرَ مَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَفْسَهُ، فَإِنْ كَانَ إنْكَارُ جَحْدٍ وَتَكْذِيبٍ، فهو كُفْرٌ، وَإِنْ كَانَ إنْكَارُ تَأْوِيلٍ فهو تَحْرِيفٌ وليس بُكْفُرٌ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ يَحْتَمِلُهُ، فَإِنْ كَانَ لَا يَحْتَمِلُهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إنْكَارِ التَّكْذِيبِ، فَمَثَلًا إِذَا قَالَ إِنْسَانٌ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] والمُرَادُ بِالْيَدَيْنِ النُّعْمَةُ، نِعْمَةُ الدِّينِ وَنِعْمَةُ الدُّنْيَا، أَوْ نِعْمَةُ الدُّنْيَا وَنِعْمَةُ الْآخِرَةِ، فَهَذَا تَحْرِيفٌ؛ لِأَنَّ النُّعْمَةَ لَيْسَتْ وَاحِدَةً، وَلَا أَلْفًا وَلَا مِلْيِينَ.

﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] فليست النُّعْمَةُ اثْنَتَيْنِ لَا بِالْجِنْسِ وَلَا بِالنَّوعِ، فَيَكُونُ هَذَا تَحْرِيفًا وَبِدْعَةً؛ لِأَنَّهُ عَلَى خِلَافِ مَا تَلَقَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَالْأَئِمَّةُ الْهُدَاةُ مِنْ بَعْدِهِمْ.

أَمَّا الْبِدْعَةُ فِي الْأَقْوَالِ: فَمَثَلُ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ تَسْيِيحَاتٍ أَوْ تَهْلِيلَاتٍ أَوْ تَكْبِيرَاتٍ، لَمْ تَرِدْ بِهَا السُّنَّةُ، أَوْ يَتَّبِعُونَ أَدْعِيَةً لَمْ تَرِدْ بِهَا السُّنَّةُ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُبَاحَةِ.

وَأَمَّا بَدْعُ الْأَفْعَالِ: فَمَثَلُ الَّذِينَ يُصَفِّقُونَ عِنْدَ الذِّكْرِ، أَوْ يَهْزُونَ رُؤُوسَهُمْ عِنْدَ التَّلَاوَةِ تَعَبُّدًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَدْعِ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَتَمَسَّحُونَ بِالْكَعْبَةِ فِي غَيْرِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَتَمَسَّحُونَ بِحُجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، حُجْرَةِ قَبْرِهِ الشَّرِيفِ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَتَمَسَّحُونَ بِالْمِنْبَرِ الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ مِنْبَرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ يَتَمَسَّحُونَ بِجُدْرَانِ مَقْبَرَةِ الْبَقِيعِ أَوْ بغير ذلك.

والبدع كثيرة: العَقْدِيَّة والقَوْلِيَّة والفِعْلِيَّة، وكُلُّها من التَّقَدُّم بين يَدَيِ الله ورُسُوله، وكُلُّها مَعْصِيَةُ اللهِ ورُسُوله، فَإِنَّ الله يقول: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرُسُولِهِ﴾ والنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُور»<sup>(١)</sup>.

وَمِنَ الْبِدْعِ مَا يُصْنَعُ فِي رَجَب، كصلاة الرِّغَائِبِ<sup>(٢)</sup> الَّتِي تُصَلَّى لَيْلَةَ أَوَّلِ جُمُعَةٍ مِنْ شَهْرِ رَجَب، وَهِيَ صَلَاةُ أَلْفِ رَكْعَةٍ يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ بِذَلِكَ، وَهَذِهِ بِدْعَةٌ لَا تَزِيدُهُمْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِهَا لَمْ يَشْرَعْ فَإِنَّهُ مُبْتَدِعٌ ظَالِمٌ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ تَعَبُّدَهُ، لَمَّا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»<sup>(٣)</sup>.

وَمِنَ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُسُولِهِ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ قَوْلًا يَحْكُمُ بِهِ بَيْنَ عِبَادِ اللَّهِ أَوْ فِي عِبَادِ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: هَذَا حَرَامٌ، أَوْ هَذَا حَلَالٌ، أَوْ هَذَا وَاجِبٌ، أَوْ هَذَا مُسْتَحَبٌّ دُونَ دَلِيلٍ، فَإِنَّ هَذَا مِنَ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرُسُولِهِ، وَعَلَى مَنْ قَالَ قَوْلًا وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ أَخْطَأَ فِيهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ حَتَّى لَوْ شَاعَ الْقَوْلُ بَيْنَ النَّاسِ وَانْتَشَرَ وَعَمِلَ بِهِ مَنْ عَمِلَ مِنَ النَّاسِ، فَالوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ وَأَنْ يُعْلِنَ رُجُوعَهُ أَيْضًا، كَمَا أَعْلَنَ مُحَالَفَتَهُ الَّتِي قَدْ يَكُونُ مَعْدُورًا فِيهَا إِذَا كَانَتْ

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢٦/٤)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)، من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال النووي: الحديث المروي فيها باطل، شديد الضعف، أو موضوع. خلاصة الأحكام (٦١٥-٦١٦).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور رقم (١٧١٨/١٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

صَادِرَةٌ عَنْ اجْتِهَادٍ، فَالوَاجِبُ الرَّجُوعُ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنْ تَمَادَى الْإِنْسَانُ فِي مُخَالَفَةِ الْحَقِّ فَقَدْ تَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هَذَا تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ؛ لِأَنَّ التَّقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُخَالِفٌ لِلتَّقْوَى، لَكِنْ نَصَّ عَلَيْهِ وَقَدَّمَهُ لِأَهَمِّيَّتِهِ، وَمَعْنَى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيِ اتَّخَذُوا وَقَايَةً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا قَامَ الْإِنْسَانُ بِفِعْلِ الْأَوَامِرِ وَتَرَكَ النَّوَاهِي، بِفِعْلِ الْأَوَامِرِ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحُبَّةً لثَوَابِهِ، وَتَرَكَ النَّوَاهِي خَوْفًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، وَتَصَاعَدَ فِي نَفْسِهِ وَعِزٌّ فِي نَفْسِهِ، وَأَوْغَلَ فِي الْإِثْمِ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، وَقَالَ: أُمِثْلِي يُقَالُ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ! وَمَا عَلِمَ الْمُسْكِينُ أَنَّ اللَّهَ خَاطَبٌ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَمَنْ هُوَ أَتَقَى عِبَادَ اللَّهِ لِلَّهِ، فَأَمَرَهُ بِالتَّقْوَى، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطْغِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِّى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخُفِّى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وَمَنْ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤْمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ؟

فَكُلُّ وَاحِدٍ مَنَّا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤْمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَالوَاجِبُ أَنَّهُ إِذَا قِيلَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ، أَنْ يَزِدَادَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ، وَأَنْ يُرَاجِعَ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَنْظُرَ مَاذَا أَمَرَ بِهِ، إِنَّهُ لَمْ يُؤْمَرَ أَنْ يَتَّقِيَ فَلَانًا وَفُلَانًا، إِنَّمَا أَمَرَ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِذَا فَسَّرْنَا التَّقْوَى بِأَنَّهَا اتِّخَاذُ وَقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ، تَقَرُّبًا إِلَيْهِ وَحُبَّةً لثَوَابِهِ، وَتَرَكَ نَوَاهِيهِ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ، فَإِنَّ أَيَّْ إِنْسَانٍ يَتْرُكُ وَاجِبًا فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ، وَقَدْ نَقَصَ مِنْ تَقْوَاهُ بِقَدْرٍ مَا حَصَلَ مِنْهُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ.

فَالتَّقْوَى مُخَالَفَتُهَا تَخْتَلِفُ، فَقَدْ تَكُونُ مُخَالَفَتُهَا كُفْرًا وَقَدْ تَكُونُ دُونَ ذَلِكَ، فَتَرْكُ الصَّلَاةِ مَثَلًا تَرْتَفِعُ بِهِ التَّقْوَى نِهَائِيًّا؛ لِأَنَّ تَارِكَ الصَّلَاةِ كَافِرٌ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ



كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَقْوَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حَتَّى إِنْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ حَكَى إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ عَلَى أَنْ تَارَكَ الصَّلَاةَ كَافِرٌ كُفْرًا مُخْرَجًا عَنِ الْمِلَّةِ، وَمِنْهُمْ التَّابِعِيُّ الْمَشْهُورُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَقِيقٍ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حَيْثُ قَالَ: «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ»<sup>(١)</sup>.

وكَذَلِكَ نَقَلَ إِجْمَاعُهُمْ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَةَ<sup>(٢)</sup>، وَلَمْ يَصِحَّ عَنْ أَيِّ صَحَابِيٍّ أَنَّهُ قَالَ عَنْ تَارِكَ الصَّلَاةِ: إِنْ تَارَكَ الصَّلَاةَ فِي الْجَنَّةِ، أَوْ إِنَّهُ مُؤْمِنٌ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَالزَّائِي لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ؛ لِأَنَّهُ زَنَا فَخَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَعَصَاهُ، وَالسَّارِقُ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ، وَشَارِبِ الْخَمْرِ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ، وَالْعَاقُ لَوَالِدِيهِ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ، وَالْقَاطِعُ لِرَحِمِهِ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ، وَالْأَمِثْلَةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنفُوا اللَّهَ﴾ كَلِمَةٌ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ تَشْمَلُ كُلَّ الشَّرِيعَةِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَحْذِيرٌ لَنَا أَنْ نَقَعَ فِيهَا نَهَانًا عَنْهُ مِنَ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَوْ أَنْ نُخَالِفَ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ تَقْوَاهُ ﴿سَمِيعٌ﴾ أَيُّ سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ ﴿عَلِيمٌ﴾ أَيُّ عَلِيمٌ بِمَا تَقُولُونَ وَمَا تَفْعَلُونَ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ أَشْمَلُ وَأَعَمُّ، إِذْ إِنَّ السَّمْعَ يَتَعَلَّقُ بِالْمَسْمُوعَاتِ، وَالْعِلْمَ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْلُومَاتِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

يَقُولُ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ السَّمْعَ الَّذِي اتَّصَفَ بِهِ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: سَمْعٌ إِدْرَاكٌ وَسَمْعٌ إِجَابَةٌ، فَسَمْعُ الْإِدْرَاكِ مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ كُلَّ صَوْتٍ خَفِيٍّ أَوْ ظَهَرٍ، حَتَّى إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢٢)، والحاكم (٧/١) وعنده عن عبد الله بن شقيق عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/٩٢٩).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ - أَيْ حُجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ - وَالْمَرْأَةُ تُجَادِلُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهَا وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا»<sup>(١)</sup>، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَ بَأَنَّهُ سَمِعَ كُلَّ مَا جَرَى بَيْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةِ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهَذَا سَمْعٌ إِدْرَاكِ، ثُمَّ إِنَّ سَمْعَ الْإِدْرَاكِ قَدْ يُرَادُ بِهِ بَيَانُ الْإِحَاطَةِ وَالشُّمُولِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ التَّهْدِيدُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ التَّأْيِيدُ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

الأول: يُرَادُ بِهِ بَيَانُ الْإِحَاطَةِ وَالشُّمُولِ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ.

الثاني: يُرَادُ بِهِ التَّهْدِيدُ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وَانْظُرْ كَيْفَ قَالَ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ حِينَ وَصَفُوا اللَّهَ تَعَالَى بِالنَّقْصِ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ وَصْفَ اللَّهِ بِالنَّقْصِ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ.

الثالث: سَمْعٌ يُرَادُ بِهِ التَّأْيِيدُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فَالْمُرَادُ بِالسَّمْعِ هُنَا التَّأْيِيدُ، يَعْنِي: أَسْمَعُكَ وَأُوَيِّدُكَ، يَعْنِي أَسْمَعُ مَا تَقُولَانِ وَمَا يُقَالُ لَكُمَا.

أَمَّا سَمْعُ الْإِجَابَةِ فَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أَيْ مَجِيبُ الدُّعَاءِ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُصَلِّي: (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) يَعْنِي اسْتَجَابَ لِمَنْ حَمِدَهُ فَأَثَابَهُ.

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، (٩/١١٧).  
ووصله الإمام أحمد (٦/٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

ولا أدري أنحنُ نُدرك معنى ما نقوله في صلاتنا أو أننا نقوله تَعَبُّداً ولا ندري ما المعنى؟! عندما نقول: الله أكبر، تكبيرة الإحرام، يعني أن الله أكبر من كل شيء عَزَّوَجَلَّ، ولا نُحيط بذلك؛ لأنه أعظم من أن نُحيط به عقولنا، وعندما نقول: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، يعني استجاب الله لِمَنْ حَمِدَهُ، وليس المعنى أَنَّهُ يَسْمَعُهُ فقط؛ لأنَّ الله يَسْمَعُ مَنْ حَمِدَهُ وَمَنْ لَا يَحْمَدُهُ إِذَا تَكَلَّمَ، لكنَّ المراد أَنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِمَنْ حَمِدَهُ بِالثَّوَابِ، فهذا السَّمْعُ يَقْتَضِي الاستِجَابَةَ لِمَنْ دَعَاهُ.

أمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَلِيمٌ﴾ فالمراد أَنَّهُ ذُو عِلْمٍ وَاسِعٍ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

فعندما تُؤْمِنُ بَأَنَّ الله سَمِيعٌ، وَأَنَّ الله عَلِيمٌ، هل يُمكن وأنت في عقلك الرَّاشِد أن تقول ما لا يُرضيه؟ لا؛ لأنَّه يَسْمَعُ، فلا ينبغي لك أن تُسْمِعَ الله ما لا يَرْضاه منك، أَسْمِعُهُ ما يُحِبُّه ويرضاه إذا كنت مؤمناً حقاً بَأَنَّ الله سَمِيعٌ، وأعتقد لو أَنَّ أَبَاكَ هناك عن قولٍ من الأقوال فهل تَتَجَرَّأُ أن تُسْمِعَهُ ما لا يَرْضاه أو أن تُسْمِعَهُ ما هناك عنه؟ فالله أعظم وأجل، فاحذر. أن تُسْمِعَ الله ما لا يَرْضاه منك، وإذا آمَنتَ بَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وهذا أَعَمُّ من السَّمْعِ؛ لأنَّه يَشْمَلُ القولَ والفعلَ وحديثَ النَّفْسِ، حتَّى ما تُؤَسِّسُ به نَفْسُكَ يَعلَمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا عَلِمْتَ ذلك هل يُمكن أن تفعل شيئاً لا يُرضيه؟ لا؛ لأنَّه ليس المقصودُ من إخبار الله لنا بَأَنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، أن نَعْلَمَ هذا وأن نَعْتَقِدَهُ فقط، بل المقصودُ هذا، والمقصودُ شيء آخر، وهو الثَّمَرَةُ والنَّيْجَةُ الَّتِي تَتَرَتَّبُ على أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

فإذا عَلِمْنَا بَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فهل نقول بما لا يَرْضَى؟ لا؛ لأنَّه سوف يَعلَمُهُ، وإذا عَلِمْنَا بَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هل نَعْتَقِدُ ما لا يَرْضَى؟ لا؛ لأنَّنا نَعْلَمُ أَنَّهُ



يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِنَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ قَلْبِكَ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا إِذَا مَرَّ بِنَا اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْاسْمِ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ، وَأَنْ نَقُومَ بِمَا هُوَ الثَّمَرَةُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهَذَا الْاسْمِ، أَوْ الصِّفَةِ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ أَدَبٍ عَظِيمٍ وَجَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ الْأَدَبُ الْأَوَّلُ.

أَمَّا الْأَدَبُ الثَّانِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، الْآيَةُ الْأُولَى فِيهَا النَّهْيُ عَنِ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي أَيِّ شَيْءٍ، سِوَا مِنْ الْأَقْوَالِ أَوْ الْأَفْعَالِ أَوْ غَيْرِهَا، أَمَّا هَذِهِ الْآيَةُ فَهِيَ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَقَدُّمٌ فِي الْأَحْكَامِ مِنْ تَحْلِيلٍ أَوْ تَحْرِيمٍ أَوْ إِجْبَابٍ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ فَإِذَا خَاطَبَكَ النَّبِيُّ ﷺ بِصَوْتٍ فَاخْفِضْ صَوْتَكَ عَنْ صَوْتِهِ، وَإِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ فَارْفَعْ صَوْتَكَ لَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ دُونَ صَوْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ يَعْنِي لَا تُنَادُونَهُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ، كَمَا يُنَادِي بَعْضُكُمْ بَعْضًا، بَلْ يَكُونُ جَهْرًا بِأَدَبٍ وَتَشْرِيفٍ وَتَعْظِيمٍ، يَلِيْقُ بِهِ ﷺ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، يَعْنِي إِذَا دَعَاكَ لَشَيْءٍ فَلَا تَجْعَلُوا دُعَاءَهُ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ، إِنْ شِئْتُمْ أَجَبْتُمْ وَإِنْ شِئْتُمْ فَلَا تُجِيبُوا، بَلْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ الْإِجَابَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وَهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ۖ كَذَلِكَ أَيْضًا لَا تُنَادُونَهُ بِمَا تَنَادَوْنَ بِهِ، فَلَا تَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، وَلَكِنْ قُولُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ يعني كراهة أن تحبط أعمالكم، والمعنى إنما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضكم لبعض كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون، ففي هذا دليل على أن الذي يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، أو يجهر له بالقول كجهره لبعض الناس، قد يحبط عمله من حيث لا يشعر؛ لأن هذا قد يجعل في قلب المرء استهانة بالرسول ﷺ، والاستهانة بالرسول ﷺ ردة عن الإسلام تُوجب حُبوب العمل.

ولما نزلت هذه الآية كان ثابت بن قيس بن شماس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَهْوَري الصوت، وكان من خطباء النبي ﷺ، فلما نزلت هذه الآية تغيب في بيته وصار لا يحضر مجالس النبي ﷺ، فافتقده الرسول ﷺ وسأل عنه، فأخبروه أنه في بيته منذ نزلت الآية، فأرسل إليه رسولاً يسأله، فقال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

وإنه قد حبط عمله، وإنه من أهل النار، فدعاه الرسول ﷺ فحضر، وأخبره النبي ﷺ أنه من أهل الجنة، وقال: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَيِّدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟» قال: بلى رَضِيتُ، فقتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَهِيدًا في وقعة اليمامة<sup>(١)</sup>، وعاش حَيِّدًا،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٦٦ رقم ١٣١٠) من حديث ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصل القصة متفق عليها، أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله، رقم (١١٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسيدخل الجنة بشهادة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولذلك كان ثابتٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَن يُشَهِدُ له بأنه من أهل الجنة بعينه؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ يَشْهَدُ له النَّبِيُّ ﷺ بأنه في الجنة فهو في الجنة، وكُلَّ إنسانٍ يَشْهَدُ له بأنه في النَّارِ فهو في النَّارِ، وأما مَن لم يَشْهَدُ له الرَّسُولُ ﷺ فنَشْهَدُ له بالعموم، فنقول: كُلُّ مؤمنٍ في الجنة، وكُلُّ كافرٍ في النَّارِ، ولا نَشْهَدُ لشخصٍ معيَّنٍ بأنه من أهل النَّارِ أو من أهل الجنة إلا مَن شَهِدَ له اللهُ تعالى ورسوله ﷺ.

ففي هذه الآية الكريمة بيانٌ تعظيمِ الرَّسُولِ ﷺ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يَجْهَرَ له بالقول كجَهْرِهِ لِسائرِ النَّاسِ، وأنه لا يجوز له أن يرفع صَوْتَهُ على صَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ، ولما نزلت هذه الآية تَأَدَّبَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بذلك حتَّى كان بعضهم يُكَلِّمُهُ مَسَارَةً ولا يَفْهَمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما يقول من إِسْرَارِهِ، حتَّى يَسْتَسْتَبْته مرةً أخرى.

وفي هذه الآية دليل على أنَّ كُلَّ من استهان بأمر الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ عَمَلَهُ حَاطِبٌ؛ لأنَّ الاستِهانةَ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رِدَّةٌ، والاستِهزاءُ به رِدَّةٌ، كما قال اللهُ تعالى في المُنافقين الَّذِينَ كانوا يَسْتَهْزِئُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]، وكانوا يقولون: ما رأينا مثل قُرْآننا هؤلاء -يعنون الرَّسُولَ ﷺ وأصحابه- أَرغبَ بطوناً -يعني أوسعَ- ولا أَجبنَ عند اللِّقاءِ، ولا أَكذبَ ألسُنًا، فأنزل اللهُ هذه الآية، ولما سألهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن ذلك، قالوا: إِنما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، يَعْنِي نَتَكَلَّمُ بِكلامٍ لا تُريده، ولكن لِنَقْطَعَ به عَنَّا عِناءَ الطَّرِيقِ، فأنزل اللهُ هذه الآية: ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۚ لَا تَعْدِرُوا فَمَا كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

ولهذا كان الصَّحِيحُ أَنَّ مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ كَافِرًا مُرْتَدًّا،  
 فَإِنْ تَابَ قَبْلُنَا تَوْبَتَهُ، لَكُنَّا لَا نَرْفَعُ عَنْهُ الْقَتْلَ، بَلْ نَقْتُلُهُ أَخْذًا بِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،  
 وَإِذَا قَتَلْنَاهُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ النَّصُوحِ الصَّادِقَةِ صَلَّيْنَا عَلَيْهِ كَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَتُوبُونَ  
 مِنَ الْكُفْرِ أَوْ مِنَ الْمَعَاصِي.



الآية (٣)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

• • ❦ • •

ثم أثنى الله تعالى على الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عند الرَّسُولِ ﷺ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لما نهى عن رفع الصوت فوق صوته، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضنا لبعض، أثنى على الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عند رسول الله، أي يخفصونها ويتكلمون بأدب، فلا إزعاج ولا صخب، ولا رفع صوت، لكن يتكلمون بأدب وغيض، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ أعاد الإشارة ﴿أُولَئِكَ﴾ تعظيماً لشأنهم ورفعة لمنزلتهم؛ لأنَّ ﴿أُولَئِكَ﴾ من أسماء الإشارة الدالة على البعد، وذلك لعلو منزلتهم، فأتى باسم الإشارة بياناً لرفعة منزلتهم وعلوها.

﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ قال العلماء: معناها أخلصها للنقوى، فكانت قلوبهم مملوءةً بتقوى الله عزَّوَجَلَّ، ولهذا نأدبوا بأداب الله تعالى التي وجَّه لها فغضوا أصواتهم عند الرسول ﷺ، فأخبر عن ثوابهم: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، مغفرة من الله لذنوبهم، وأجر عظيم على أعمالهم الصالحة، وفي هذه الآية إشارة إلى أنَّ الصَّلاح صلاح القلب؛ لقوله: ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾.



وكما قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «التَّقْوَى هَاهُنَا» وأشار إلى صدره الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْقَلْبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا»<sup>(١)</sup>، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّقْوَى تَقْوَى الْقَلْبِ، أَمَّا تَقْوَى الْجَوَارِحِ وَهِيَ إِصْلَاحُ ظَاهِرِ الْعَمَلِ، فَهَذَا يَقَعُ حَتَّى مِنَ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] لَكِنِ الْكَلَامُ عَلَى تَقْوَى الْقَلْبِ الَّتِي هِيَ بِهَا الصَّلَاحُ، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا ذَلِكَ.

وبعض النَّاسِ يَفْعَلُ الْمَعَاصِيَ كإِسْبَالِ الثُّوبِ مِثْلًا، أَوْ حَلْقِ اللَّحْيَةِ، أَوْ شُرْبِ الدُّخَانِ، وَتَنْهَاهُ وَتُخَوِّفُهُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، فَيَقُولُ: التَّقْوَى هَاهُنَا، كَأَنَّهُ يُزَكِّي نَفْسَهُ، وَهُوَ قَائِمٌ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَنَقُولُ لَهُ بِكُلِّ سَهُولَةٍ: لَوْ كَانَ مَا هُنَا مُتَّقِيًا لَكَانَتِ الْجَوَارِحُ مُتَّقِيَةً؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»<sup>(٢)</sup>.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات: ٤].

• • • • •

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ هذه الآية تُشير إلى قوم أتوا إلى رسول الله ﷺ، وكان معهم قومٌ جُفَاءٌ لَا يَقْدِرُونَ الْأُمُورَ قَدَرَهَا، فجعلوا يُنَادُونَ النَّبِيَّ ﷺ من وراء حُجُرَاتِهِ -أي حُجُرَاتِ نِسَائِهِ- وَيَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِذَلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ<sup>(١)</sup>، يقول الله تعالى في هؤلاء: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يعني ليس عندهم عقل، والمراد بالعقل هنا عقل الرُّشْد؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ عَقْلَانِ: عقل رُشْد، وعقل تَكْلِيف.

فأما عقل الرُّشْد فضِدُّهُ السَّفَه، وأما عقل التَّكْلِيف فضِدُّهُ الْجُنُون.

فمثلاً: إذا قلنا: يُشْتَرَطُ لَصِحَّةِ الْوُضُوءِ أَنْ يَكُونَ الْمُتَوَضِّئُ عَاقِلًا مُمَيِّزًا، فالمراد بالعقل هنا عقل التَّكْلِيف، وإذا قلنا: يُشْتَرَطُ لِلتَّصَرُّفِ فِي الْمَالِ أَنْ يَكُونَ الْمُتَصَرِّفُ عَاقِلًا، أي عقل رُشْد، يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ، فالمراد بقوله هنا: ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٤٥-٣٤٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٢١٠ رقم ٥١٢٣)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٥٥٢-٥٥٣) لابن راهويه ومسدد وأبي يعلى والطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم، وقال: بسند حسن.

أي: عقل رُشد؛ لأنَّهم لو كانوا لا يَعْقِلُونَ عقلَ تكليف لم يَكُنْ عليهم لوم ولا ذمُّ؛ لأنَّ المَجْنُون فاقِدَ العقل لا يَلْحَقُه لومٌ ولا ذمُّ، وهذا واضح.

وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يُفْهَمُ منه أنَّ بَعْضَهُمْ يَعْقِلُ وَأَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ منه رَفْعُ صَوْتٍ، بل هو مُتَأَدِّبٌ مع رسول الله ﷺ.



(الآية ٥)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾﴾ [الحجرات: ٥].

• • • • •

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي لو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم من بيتك، وتكلمهم بما يريدون لكان خيراً لهم في أنهم يلتزمون الأدب مع النبي ﷺ وحاجتهم ستقضى؛ لأن رسول الله ﷺ لم يأت أحد في حاجة إلا قضاه، إذا كان يدركه، وهو أحق الناس بقول الشاعر<sup>(١)</sup>:

مَا قَالَ لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشْهِدِهِ      لَوْلَا التَّشَهُدُ كَانَتْ لَاءُهُ نَعَمٌ

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ في قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إشارة إلى أن الله غفر لهم ورحمهم، وهذا من كرمه جلَّ وعلا أنه يغفر ويرحم، وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الله لا يغفر الشرك به، ويغفر ما دون ذلك، أي سوى الشرك لمن يشاء، فكلُّ أحد أذنب ذنباً دون الشرك مهما عظم فإنه تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له ما لم يتب، فإذا تاب فلا عذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهْكًا﴾ ﴿٦﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ

(١) البيت للفرزدق. انظر: ديوانه (ص ٥١٢).

وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾  
[الفرقان: ٦٩-٧٠].

وقلنا: إِنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُمْ وَرَحِمَهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَفَرَ لَهُمْ وَرَحِمَهُمْ، ولذلك قال العلماء في قول الله تعالى فِي الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، قَالَ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

أَخَذَ الْعُلَمَاءُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدِينَ الْمُحَارِبِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، إِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ سَقَطَ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، وَاسْتَدَلُّوا بِأَنَّ اللَّهَ خَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيِ قَدْ غَفَرَ لَهُمْ فَرَحِمَهُمْ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ يَنْبَغِي لَطَالِبَ الْعِلْمِ أَنْ يَنْتَبِهَ لَهَا فِي الْآيَاتِ، إِنَّ خَتَمَ الْآيَةَ بَعْدَ ذِكْرِ الْحُكْمِ دَلِيلٌ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي خَتَمَتْ بِهَا الْآيَةَ.

ولهذا قَرَأَ رَجُلٌ فَقَالَ: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فَسَمِعَهُ أُعْرَابِيٌّ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَعِدِ الْآيَةَ، فَأَعَادَهَا وَقَالَ: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قَالَ لَهُ: أَعِدِ الْآيَةَ، فَأَعَادَهَا فَقَالَ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فَقَالَ: الْآنَ أَصَبْتُ، ثُمَّ عَلَّلَ فَقَالَ: لِأَنَّهُ لَوْ غَفَرَ وَرَحِمَ مَا قَطَعَ، وَلَا تَتَنَاسَبُ الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ مَعَ الْقَطْعِ،

لَكِنَّهُ عَزَّ وَحَكَمَ فَقَطَعَ. فَتَأَمَّلْ هَذَا الْفَهْمَ فَإِنَّهُ مُفِيدٌ جِدًّا، وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أَنَّ قَوْلَهُ  
 تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ  
 اللَّهَ غَفَرَ لَهُمْ وَرَحِمَهُمْ.



## الآية (٦)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾﴾ [الحجرات: ٦].

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ﴿تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾﴾ ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ﴾ ﴿الْفَاسِقُ: هُوَ مَنْ انْحَرَفَ فِي دِينِهِ وَعَقِيدَتِهِ وَمُرُوءَتِهِ، وَضِدُّهُ الْعَدْلُ: وَهُوَ مَنْ اسْتَقَامَ فِي دِينِهِ وَمُرُوءَتِهِ.

فَإِذَا جَاءَنَا فَاسِقٌ مُنْحَرِفٌ فِي دِينِهِ وَمُرُوءَتِهِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى الْمَعَاصِي تَارِكٌ لِلْوَاجِبَاتِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَصِلْ إِلَى حَدِّ الْكُفْرِ، أَوْ مُنْحَرِفٌ فِي مُرُوءَتِهِ لَا يُبَالِي بِنَفْسِهِ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ مِشْيَةَ الْهُوجَاءِ، وَيَتَحَدَّثُ بَرَفْعِ صَوْتٍ، وَيَأْتِي مَعَهُ بِأَغْرَاضٍ بَيْنَتِهِ، يَطُوفُ بِهَا فِي الْأَسْوَاقِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يُخَالِفُ الْمُرُوءَةَ، فَهَذَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ لَيْسَ بِعَدْلٍ.

﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ أَيِ جَاءَكُمْ بِخَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَهُوَ فَاسِقٌ، مِثَالُ ذَلِكَ: جَاءَنَا رَجُلٌ حَالِقٌ لِلْحَيَّةِ، وَحَالِقُ اللَّحْيَةِ فَاسِقٌ؛ لِأَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَعْفُوا اللَّحْيَ»<sup>(١)</sup>، وَهَذَا لَمْ يُعْفَ لِحْيَتَهُ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْبَلَّاسِ، بَابُ إِعْفَاءِ اللَّحْيِ، رَقْمُ (٥٨٩٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ خِصَالِ الْفُطْرَةِ، رَقْمُ (٢٥٩)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بل حَلَقَهَا، فهذا الرَّجُل من الفاسقين؛ لَأَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةٍ، جَاءَنَا بِخَبَرٍ فَلَا نَقْبَلُهُ لَمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْفِسْقِ، وَلَا نَرُدُّهُ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا؛ ولهذا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَيَبَّنَا﴾ ولم يَقُلْ فَرُدُّوهُ، ولم يَقُلْ فاقْبَلُوهُ، بل يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ تَتَبَّنَ، وفي قِرَاءَةِ: ﴿فَتَتَّبِعُوا﴾ وهما بمعنى مُتَقَارِبٍ، والمعنى: أَنْ تَتَّبَعْتَ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِذْنٌ لَا فَائِدَةَ مِنْ خَبَرِهِ.

قُلْنَا: لَا، بل فِي خَبَرِهِ فَائِدَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ يُحَرِّكُ النَّفْسَ حَتَّى نَسْأَلَ وَنَبْحَثَ؛ لَأَنَّهُ لَوْلَا خَبَرُهُ مَا حَرَكْنَا سَاكِنًا، لَكِنْ لَمَّا جَاءَ بِالْخَبَرِ نَقُولُ: لَعَلَّهُ كَانَ صَادِقًا، فَتَحَرَّكَ وَنَسْأَلَ وَنَبْحَثَ، فَإِنْ شَهِدَ لَهُ الْوَاقِعُ بِالْحَقِّ قَبْلِنَاهُ لَوْجُودِ الْقَرِينَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِ، وَإِلَّا رَدَدْنَاهُ.

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْ﴾ يُفِيدُ بَأَنَّهُ إِنْ جَاءَنَا عَدْلٌ فَإِنَّا نَقْبَلُ الْخَبَرَ، لَكِنْ هَذَا فِيهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ تَفْصِيلٌ، دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، فَمَثَلًا الشَّهَادَةُ بِالزَّوْنِ: لَوْ جَاءَنَا رَجُلٌ عَدْلٌ فِي دِينِهِ، مُسْتَقِيمٌ فِي مَرْوَعَتِهِ، وَشَهِدَ أَنْ فَلَانًا زَانًا فَلَا نَقْبَلُ شَهَادَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَدْلًا، بَلْ نَجْلِدُهُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً؛ لَأَنَّهُ قَذَفَ هَذَا الرَّجُلَ الْبَرِيءَ بِالزَّوْنِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، فَنَجْلِدُهُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا نَقْبَلُ لَهُ شَهَادَةً أَبَدًا، وَنَحْكُمُ بَأَنَّهُ فَاسِقٌ، وَإِنْ كَانَ عَدْلًا حَتَّى يَتُوبَ، وَإِذَا شَهِدَ رَجُلَانِ عَدْلَانِ عَلَى زَيْدٍ أَنَّهُ زَانٌ فَلَا نَقْبَلُ شَهَادَتَهُمَا، وَلَا ثَلَاثَةً، فَإِذَا كَانُوا أَرْبَعَةً عُدُولًا فَنَعْمَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ



عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ [النور: ١٣] حَتَّىٰ وَإِنْ كَانُوا صَادِقِينَ، فَلَوْ جَاءَنَا ثَلَاثَةٌ نَعْرِفُ  
أَنَّهُمْ ثِقَاتٌ عُدُولٌ وَشَهِدُوا بِالزُّنَا عَلَى شَخْصٍ فَهَمَّ عِنْدَ اللَّهِ كَاذِبُونَ غَيْرَ مَقْبُولِينَ،  
نَجْلِدُ كُلَّ وَاحِدٍ ثَمَانِينَ جَلْدَةً، وَإِذَا جَاءَنَا رَجُلٌ شَهِدَ عَلَى شَخْصٍ بِأَنَّهُ سَرَقَ فَلَا نَقْبَلُ  
شَهَادَتَهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ رَجُلَيْنِ، وَإِذَا جَاءَنَا رَجُلٌ شَهِدَ بِأَنَّهُ رَأَىٰ هِلَالَ رَمْضَانَ فَنَقْبَلُ  
شَهَادَتَهُ؛ لِأَنَّ السَّنَةَ وَرَدَتْ بِذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تَرَأَى النَّاسُ  
الْهِلَالَ - يَعْنِي لَيْلَةَ الثَّلَاثِينَ مِنْ شَعْبَانَ - فَرَأَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنِّي رَأَيْتُهُ، فَصَامَهُ،  
وَأَمَرَ النَّاسَ بِالصَّيَامِ <sup>(١)</sup>.

وَإِذَا كَانَ رَجُلٌ غَنِيًّا ثُمَّ أَصِيبَ بِجَائِحَةٍ ثُمَّ جَاءَ يَسْأَلُ الزَّكَاةَ، وَأَتَى بِشَاهِدٍ أَنَّهُ  
كَانَ غَنِيًّا وَأَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ وَافْتَقَرَ فَلَا نَقْبَلُ شَهَادَةَ الْوَاحِدِ، وَلَا نَقْبَلُ شَهَادَةَ اثْنَيْنِ، بَلْ  
لَا بُدَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِقَبِيصَةَ: «إِنَّهَا لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ» وَذَكَرَ مِنْهَا رَجُلًا  
أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ - يَعْنِي اجْتَاَحَتْ مَالَهُ - فَشَهِدَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: إِنَّ  
فَلَانًا قَدْ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ <sup>(٢)</sup> (ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا) يَعْنِي مِنْ ذَوِي  
الْعَقْلِ، وَكَذَلِكَ نَقْبَلُ رَجُلًا مَعَ يَمِينِ الْمُدَّعِي، كَمَا لَوْ ادَّعَى شَخْصٌ عَلَى آخَرٍ بِأَنَّهُ  
يَطْلُبُهُ أَلْفَ رِيَالٍ، فَقُلْنَا لِلْمُدَّعِي: هَاتِ بَيِّنَةً، قَالَ: عِنْدِي رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَإِذَا أَتَى بِرَجُلٍ  
وَاحِدٍ وَحَلَفَ مَعَهُ، حَكَمْنَا لَهُ بِمَا ادَّعَاهُ، وَهَنَّاكَ أَشْيَاءُ أَيْضًا لَا يَتَّسِعُ الْمَجَالُ لِذِكْرِهَا.

وَعَلَىٰ هَذَا فَخَبَرُ الْعَدْلِ فِيهِ تَفْصِيلٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، وَخَبَرُ الْفَاسِقِ يُتَوَقَّفُ فِيهِ  
حَتَّىٰ يُتَبَيَّنَ الْأَمْرُ، ثُمَّ يَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحِكْمَةَ مِنْ كَوْنِنَا نَتَّبِعِينَ بِخَبَرِ الْفَاسِقِ فَقَالَ: ﴿أَنْ  
نُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِمْ فَنُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ تَدْمِيمًا﴾ يَعْنِي أَمْرَنَا أَنْ تَتَّبِعُوا كَرَاهَةً أَنْ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، رقم (١٠٤٤)، من حديث قبيصة بن

مخارق الهلالي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تُصَيِّبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ؛ لَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَسَرَّعَ وَلَمْ يَتَثَبَّتْ فَقَدْ يَعْتَدِي عَلَى غَيْرِهِ بِنَاءً عَلَى الْخَبَرِ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ الْفَاسِقِ، وَقَدْ يَكْرَهُهُ، وَقَدْ يَتَحَدَّثُ فِيهِ فِي الْمَجَالِسِ، فَيُصْبِحُ بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ أَنَّ خَبَرَ الْفَاسِقِ كَذِبٌ نَادِمًا عَلَى مَا جَرَى مِنْهُ.

وفي هذه الآية دليل على أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَثَبَّتَ فِيمَا يَنْقُلُ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَلَا سِيَّامَا مَعَ الْهَوَى وَالْتَّعَصُّبِ، فَإِذَا جَاءَكَ خَبَرٌ عَنْ شَخْصٍ وَأَنْتَ لَمْ تَثِقْ بِقَوْلِ الْمُخْبِرِ فَيَجِبُ أَنْ تَتَثَبَّتَ، وَأَلَّا تَتَسَرَّعَ فِي الْحُكْمِ؛ لِأَنَّكَ رَبَّمَا تَتَسَرَّعُ وَتَبْنِي عَلَى هَذَا الْخَبَرِ الْكَاذِبِ فَتَنْدُمُ فِيمَا بَعْدَ، وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ التَّحْذِيرُ مِنَ النَّمِيمَةِ، وَهِيَ نَقْلُ كَلَامِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ لِلْإِسْفَادِ بَيْنَهُمْ، حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ»<sup>(١)</sup> أَي نِّمَامٌ، وَصَحَّ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» - أَي فِي أَمْرٍ شَاقٍّ عَلَيْهِمَا - «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ»، أَوْ لَا يَسْتَبِرِي أَوْ لَا يَسْتَنْزِعُهُ مِنَ الْبَوْلِ «وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ» يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ يَنْمُو الْحَدِيثَ إِلَى الْآخَرِينَ لِيُفْسِدَ بَيْنَ النَّاسِ، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ وَغَرَسَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسَسَا»<sup>(٢)</sup>.

وَمِنْ هَذَا النَّوعِ مَا يُنْسَبُ إِلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْفُتَاوَى الَّتِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا إِطْلَاقًا، أَوْ تَكَلَّمْ وَلَكِنْ فُهِمَ مَا يُنْقَلُ عَنْهُ خَطَأً، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَفْهَمُ مِنَ الْعَالِمِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٦٠٥٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلط تحريم النميمة، رقم (١٠٥)، من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم (٢١٦)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كلمةً على غير مُراد العالم بها، وقد يسأل العالم سؤالاً يتصوره العالم على غير ما في نفس هذا السائل، ثمَّ يُجيب على حسب ما فهمه، ثمَّ يأتي هذا الرجلُ وينشر هذا القول الذي ليس بصحيح، وكم من أقوال نُسبت إلى علماء أجلاء، لم يكن لها أصل، لهذا يَجِبُ الثَّبْتُ فيما يُنقل عن العلماء أو غير العلماء، ولا سيما في هذا الزمن الذي كَثُرَتْ فيه الأهواء، وكَثُرَ فيه التَّعَصُّبُ، وصار النَّاسُ كأنَّهم يمشون في عَمَى.



## الآية (٧)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧].

• • •

قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴿ وسبب ما سبق أن النبي ﷺ بلغه عن قوم ما ليس فيهم، فأمر الله تعالى بالتأكد من الأخبار إذا جاء بها من لا تعرف عدالته، وكان بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أرادوا من النبي ﷺ أن يعاقب هؤلاء الذين بلغه عنهم ما بلغه (١)، ولكن النبي ﷺ لم يفعل بعد أن نزلت عليه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ولكن العبرة بعموم اللفظ وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أي لَشَقَّ عَلَيْكُمْ ما تَطْلُبُونَهُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ.

وهذا له أمثلة كثيرة منها: أن النبي ﷺ قام بأصحابه في رمضان يُصَلِّيَ بهم صلاة القيام فانصرفوا وقد بقي من الليل ما بقي، وقالوا: يا رسول الله، لو نفلتنا

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/٣٤٩-٣٥١).

بقية ليلتنا - يعني طلبوا منه أن يقوم بهم كل الليل - ولكنه ﷺ قال لهم: «مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ»<sup>(١)</sup> ولم يُوافِقْهم على طلبهم، لما في ذلك من العنت والمشقة، ومنها أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَحَثُوا عَنْ أَمْرِهِ فِي السِّرِّ - يعني فيما لا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ - وهو العمل الَّذِي يَفْعَلُهُ فِي بَيْتِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ فَكَأَنَّهُمْ تَقَالُوهَا فَقَالُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ذَلِكَ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَنَا أَصُومُ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ الثَّانِي: أَنَا أَقُومُ وَلَا أَنَامُ، وَقَالَ الثَّلَاثُ: أَنَا لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>(٢)</sup> فحذَّره أن يَعْمَلُوا عَمَلًا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ.

ومن ذلك أيضًا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه وعن أبيه - أَنَّهُ بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ قَوْلُهُ: إِنَّهُ لَيَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلَيَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عَاشَ، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «أَنْتَ قُلْتَ هَذَا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «إِنَّكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»<sup>(٣)</sup> ثُمَّ أَرْشَدَهُ لِمَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَهْوَنُ.

والْحَاصِلُ: أَنَّهُ يُوجَدُ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَنْ لَهُ هِمَّةٌ عَالِيَةٌ لَكِنَّ الرَّسُولَ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في قيام شهر رمضان، رقم (١٣٧٥)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في قيام شهر رمضان، رقم (٨٠٦)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في قيام شهر رمضان، رقم (١٣٢٧)، والنسائي: كتاب السهو، باب ثواب من صلى مع الإمام حتى ينصرف، رقم (١٣٦٤)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه، رقم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب صوم الدهر (١٩٧٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقًا...، رقم (١١٥٩).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يُطِيعُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُ أَطَاعَهُمْ.  
ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾.

قد يقول قائل: ما هو ارتباط قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾؟

والجواب: أنكم تُطِيعونه - أي الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فيما يُخالفكم فيه؛ لأنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ فَتُقَدِّمُونَ طَاعَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيما يُخالفكم فيه؛ لأنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ، وهذا استدراك من أبلغ ما يكون من الاستدراك، يعني: ولكن إذا خالفكم النبي ﷺ في كثير من الأمر الذي تُريدونه فإنكم لن تَكْرَهُوا ذلك، ولن تُخالفوه، ولن تَحْمِلُوا على الرسول ﷺ بسببه.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ - أي جعله محبوباً في قلوبكم - ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ بحيث لا تَتَرَكُونَهُ بعد أن تقوموا به، وذلك أَنَّ فَعَلَ الْإِنْسَانِ الشَّيْءَ لِلْمَحَبَّةِ قد يكون محبةً عارضةً، لكن إذا زَيَّنَ لَهُ الشَّيْءُ ثُبَّتَ فِي الْمَحَبَّةِ وَدَامَتْ؛ ولهذا قال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ وهذا في القلب.

﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أيضاً في القلب، لكن إذا زَيَّنَ الشَّيْءُ الْمَحْبُوبُ لِلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ يَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ وَيَثْبُتُ عَلَيْهِ ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ كَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ الَّذِي هُوَ مُقَابِلُ الْإِيمَانِ، وَالْفُسُوقَ الَّذِي هُوَ مُقَابِلُ الْإِسْتِقَامَةِ، وَالْعِصْيَانَ الَّذِي هُوَ مُقَابِلُ الْإِذْعَانِ.

وهذا تَدْرُجُ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى مَا دُونَ: فَالْكُفْرُ أَعْظَمُ مِنَ الْفِسْقِ، وَالْفُسْقُ أَعْظَمُ مِنَ الْعِصْيَانِ، فَالْكُفْرُ هُوَ الْخُرُوجُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَهُ أَسْبَابُ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ ذَكَرَهَا الْفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي بَابِ أَحْكَامِ الْمُرْتَدِّ، وَأَمَّا الْفِسْقُ فَهُوَ دُونَ الْكُفْرِ،

لَكِنَّهُ فَعَلَ كَبِيرَةً، مثل أن يفعل الإنسان كبيرةً من الكبائر ولم يُتَب منها، كالزنا، وشرب الخمر، والسَّرقة، والقَذْف، وما أشبه ذلك، والعِصيان: هو الصَّغَائِرُ الَّتِي تُكْفَرُ بالأعمال الصَّالِحَةِ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «الْصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفَرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنِبْتَ الْكَبَائِرُ»<sup>(١)</sup>.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾: ﴿أُولَئِكَ﴾ المُشَارُ إِلَيْهِ مَن حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ سَلَكَوا طَرِيقَ الرُّشْدِ، وَالرُّشْدُ فِي الْأَصْلِ: حُسْنُ التَّصَرُّفِ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ، فَالرُّشْدُ فِي الْمَالِ أَنْ يُحْسِنَ الْإِنْسَانُ التَّصَرُّفَ فِيهِ، وَلَا يَبْذُلَهُ فِي غَيْرِ فَائِدَةٍ، وَالرُّشْدُ فِي الدِّينِ: هُوَ الْإِسْتِقَامَةُ عَلَى دِينِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَكَرَّهَ إِلَيْهِمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ هُمُ الرَّاشِدُونَ. وهنا تجد هذه الأفعال كلها مُضَافَةً إِلَى اللَّهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا: ﴿فَضَلَّ مَن

اللَّهُ﴾.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان...، رقم (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٨)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨].

• • ❦ • •

يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ أَفْضَلُ عَلَيْكُمْ فَضْلًا أَيْ تَفَضُّلاً مِنْهُ، وَلَيْسَ بِكَسْبِكُمْ، وَلَكِنَّهُ مِّنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِي يُعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، وَأَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ الْإِيمَانَ فِي الشَّخْصِ، فَمَنْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ حُسْنَ النِّيَّةِ، وَحُسْنَ الْقَصْدِ وَالْإِخْلَاصِ حَبَّبَ إِلَيْهِ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قَلْبِهِ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ اللَّهُ مِنْهُ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْتُ أَنِّي يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

فَالذُّنُوبُ سَبَبٌ لِلْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً الدِّينِ هُمْ الَّذِينَ وَفَّقُوا لِلْحَقِّ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ يَعْنِي إِنْعَامًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ، وَالنِّعْمَةُ نِعْمَتَانِ: نِعْمَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَنِعْمَةٌ فِي الْآخِرَةِ، فَنِعْمَةُ الدُّنْيَا مُتَّصِلَةٌ بِنِعْمَةِ الْآخِرَةِ فِي حَقِّهِمْ.

وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَهُمْ مُنْعَمُونَ فِي الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ۖ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٧] أَيْ تَنْعَمُ، فَهَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ فِي الدُّنْيَا، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ وَاللَّعْنَةُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ عَلَى النَّعْمَتَيْنِ جَمِيعًا، عَلَى نِعْمَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَنِعْمَةٍ فِي الْآخِرَةِ،



حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا أَوْ مَرِيضًا أَوْ عَقِيمًا، أَوْ لَا نَسَبَ لَهُ، فَإِنَّهُ فِي نِعْمَةٍ، لقول الله تعالى:  
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وُخْلاصةُ الكلامِ في النِّعمة، أَنَّ هُنَاكَ نِعْمَتَيْنِ: نِعْمَةٌ عَامَّةٌ لِّجَمِيعِ الْخَلْقِ، الْكَافِرِ  
وَالْمُؤْمِنِ، وَالْفَاسِقِ وَالْمُطِيعِ، وَنِعْمَةٌ خَاصَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَهَذِهِ النِّعْمَةُ الْخَاصَّةُ تَتَّصِلُ بِنِعْمَةِ  
الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَأَمَّا الْأَوَّلَىٰ فَإِنَّهَا خَاصَّةٌ بِنِعْمَةِ الدُّنْيَا فَقَطْ لِتَقُومَ عَلَى الْكَفَّارِ الْحُجَّةُ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ هَذَانِ اسْمَانِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ يَقْرِنُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا دَائِمًا: الْعِلْمُ  
وَالْحِكْمَةُ، عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ  
أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ  
الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ  
تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي  
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا  
يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ  
وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

فَعِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ  
مَا يُضْمِرُهُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنَّهُ يَخَافُ وَيَرْهَبُ وَيَهْرَبُ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يَقُولُ قَوْلًا  
يُغْضِبُ اللَّهَ، وَلَا يَفْعَلُ فِعْلًا يُغْضِبُ اللَّهَ، وَلَا يُضْمِرُ عَقِيدَةً تُغْضِبُ اللَّهَ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ  
اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ ذَلِكَ، لَا يُخْفَىٰ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا الْحَكِيمُ فَهُوَ ذُو الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالْحِكْمَةُ هِيَ أَنَّ جَمِيعَ مَا يَحْكُمُ بِهِ جَلَّوَعَلَا  
مُوَافِقٌ وَمُطَابِقٌ لِلْمَصَالِحِ، مَا مِنْ شَيْءٍ يَحْكُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَّا وَهُوَ حَكْمَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ اللَّهُ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْتَذَرُ﴾ [القمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].  
فمعنى الحكيم، أي ذو الحكمة البالغة.

وله معنى آخر وهو: ذو الحكم التام، فإن الله تعالى له الحكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَزِدْهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولُ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، ولا أحد يحكم بهواه ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْآخِ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].



## الآية (٩)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾﴾ [الحجرات: ٩].

• • ❦ • •

﴿طَائِفَتَانِ﴾ مفردهما طائفة، وهي الجماعة من الناس.

وقوله: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ جمع، وإنما جمع؛ لأنَّ الطائفة تشتمل على أفراد كثيرين، فلذلك صحَّ أن يعود الضمير على مُثْنَى، مراعاة للمعنى، وإلا لكان مُقْتَضَى اللُّغَةِ أن يقول: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا)، ليطابق الضمير مَرَجَعَهُ لكنه عاد إليه بالمعنى.

والاقتتال بين المؤمنين له أسباب متعددة، والشيطان قد يئس أن يُعْبَدَ في جزيرة العرب، ولكنه رضي بالتحريش بينهم<sup>(١)</sup>، يُحَرِّشُ بينهم حتى يكون بعضهم يَقْتُلُ بعضًا، فإذا حصل الاقتتال فالواجب على المؤمنين الآخرين الصُّلَحَ بينهما؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾، أي اسعوا إلى الصُّلَحِ بكلِّ وسيلة حتى ولو كان ببذل المال، والتَّنَازُلِ عن الحقِّ لأحدهما عن الآخر؛ لأنَّ الصُّلَحَ لا بُدَّ فيه من أن يتنازل أحدُ

(١) كما أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس...، رقم (٢٨١٢)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الطرفين عما يُريد من كمال حقه، وإلا لما تَمَّ الصُّلْحُ؛ ولهذا لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]؛ لِأَنَّ كُلَّ إنسان يُريد أن يُتِمَّ قوله فلا بُدَّ من التَّنَازُل، فإذا أصلحنا بينهما ثمَّ حصل بَغْيٌ قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ يعني لو فرض أنه بعد الصُّلْح عادت إحدى الطائفتين تُقاتِل الأخرى فهنا لا صلح، بل نُقاتِل الَّتِي تَبْغِي ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ترجع إليه، وأمر الله يعني دينه وشرعه.

انظر في أوَّل الأمر الإصلاح، فإذا تَمَّ الصُّلْح وبغت إحداهما على الأخرى، وجب أن تُساعد المَبْغِيَّ عليها، فنُقاتِل معها ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ فَإِنَّه يجب الكَفُّ عن قتالهم، ولا يجوز أن نُجهِز على جريح، ولا أن نَتَّبِع مُدْبِرًا، ولا أن نَسْلُب مَالًا ولا أن نَسْبِي ذُرِّيَّةً؛ لِأَنَّ هؤلاء مُؤْمِنُونَ.

﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: فإن فَاءَتْ إلى أمر الله بعد أن قاتلناها وَرَجَعَتْ وَوَضَعْتَ الحرب، وجب أن نُصلح بينهما بالعدل، وهذا غير الإصلاح الأوَّل، الإصلاح الأوَّل لوقف القتال، وهذا الإصلاح بالتقدير فننظر ماذا تلف على كُلِّ طائفة، ثمَّ نُسوِّي بينهما، فمثلاً إذا كانت إحدى الطائفتين أَتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، والثانية أَتلفت على الأخرى ما قيمته مليون ريال، فحيثُ تَعَادَل الطائفتان، فإن كانت إحداهما أَتلفت على الأخرى ما قيمته ثمان مئة ألف ريال، والأخرى أَتلفت ما قيمته مليون، فالفرق مِثْثَا أَلْف ريال نَحْمِلُهَا على الأخرى الَّتِي أَتلفت ما قيمته مليون؛ ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي يحبُّ العادلين.

قد ثَبَتَ عن النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ الْمُقْسِطِينَ على مَنَابِرَ من نُورٍ عن يَمِينِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ<sup>(١)</sup>،  
الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في أَهْلِيهِمْ، وما وَلُوا من أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ.




---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر...، رقم (١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآية (١٠)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

• • ❦ • •

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ يعني إنما أوجب الله علينا الإصلاح بين الطائفتين المقتلتين؛ لأن المؤمنين إخوة. الطائفتان المقتلتان هما أخوان، ونحن أيضًا إخوة لهم حتى مع القتال. فإذا قال قائل: أليس النبي ﷺ قد قال: «سبب المسلم فسوق، وقتاله كفر»<sup>(١)</sup>، والكافر ليس أخًا للمؤمن؟

فالجواب: أن يقال: إن الكفر الذي ذكره النبي ﷺ هو كفر دون كفر، فليس كل ما أطلق الشرع عليه أنه كفر يكون كفرًا، فهنا صرح الله سبحانه وتعالى بأن هاتين الطائفتين المقتلتين إخوة لنا مع أن قتال المؤمن كفر. فيقال: هذا كفر دون كفر، وقال النبي ﷺ: «اثنان في الناس هما بهما كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سبب المسلم فسوق وقتاله كفر»، رقم (٦٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، رقم (٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومعلوم أَنَّ الطَّاعِنَ فِي النَّسَبِ وَالنَّائِحَ عَلَى الْمَيِّتِ لَا يَكْفُرُ كُفْرًا أَكْبَرَ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ فِي الْكِتَابِ وَفِي السُّنَّةِ كُفْرَانٌ: كُفْرٌ مُخْرِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ، وَكُفْرٌ لَا يُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وفي هذا من الحِمْلِ عَلَى الْعَطْفِ عَلَى هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُقْتَسِلَتَيْنِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ كَمَا أَنَّكَ تُصْلِحُ بَيْنَ أَخَوَيْكَ الْأَشِقَّاءِ مِنَ النَّسَبِ، فَأَصْلِحْ بَيْنَ أَخَوَيْكَ فِي الْإِيمَانِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يَعْنِي: اتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى بِأَنْ تَفْعَلُوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَتَتْرَكُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ؛ لِأَنَّكُمْ إِذَا قُمْتُمْ بِهَذَا فَقَدْ اتَّخَذْتُمْ وَقَايَةً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَهَذِهِ هِيَ التَّقْوَى، وَعَلَى هَذَا كُلِّهَا سَمِعْتَ كَلِمَةَ تَقْوَى فِي الْقُرْآنِ فَالْمَعْنَى أَنَّهَا اتِّخَاذُ الْوَقَايَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أَي: لِيَرْحَمَكُمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ إِذَا اتَّقَيْتُمُوهُ.



### (الآية ١١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

• • • • •

ثم قال الله سبحانه وتعالى في جملة ما بين لعباده من الآداب والأخلاق الفاضلة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ السخرية: هي الاستهزاء والازدراء، ومن المعلوم أن الله تعالى جعل الناس في هذه الحياة الدنيا طبقات، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّتَسْخَذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًا﴾ [الزخرف: ٣٢] أي: ليسخر بعضهم بعضاً في المصالح، وليس المراد هنا الاستهزاء، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

إذا ثبت هذا التفضيل بين الناس فهم يتفاضلون في العلم، فبعضهم أعلم من بعض في علوم الشريعة، وعلوم الوسيلة إلى علوم الشريعة، كعلوم اللغة العربية من النحو والبلاغة وغيرهما، وهم يتفاضلون في الرزق، فمنهم من بسط له في رزقه، ومنهم من قدير عليه في رزقه، وهم يتفاضلون في الأخلاق، فمنهم ذوو الأخلاق



الفاضلة العالية، ومنهم دُونَ ذلك، وهم يتفاضلون في الخَلقة، منهم السَّوِيّ الخَلقة، ومنهم مَنْ دُونَ ذلك، ويتفاضلون كذلك في الحَسَب، منهم مَنْ هو دُو حَسَب ونَسَب، ومنهم دُونَ ذلك، فهل يجوز لأحد أن يَسْخَر مِّن دُونِهِ؟

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ فيُخَاطِبُنَا جَلَّ وَعَلَا بوصف الإيمان، وينهانا أن يَسْخَر بعضنا مِن بعض؛ لأنَّ المفضَّل هو الله عَزَّجَلَّ وإذا كان هو الله لَزِمَ من سُخْرِيتك بهذا الشخص الَّذي هو دُونك أن تكون ساخرًا من تقدير الله عَزَّجَلَّ، وإلى هذا يوحى قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»<sup>(١)</sup>، وفي الحديث القدسي: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»<sup>(٢)</sup>.

فلماذا تَسْخَر من هذا الرَّجُل الَّذي هو دُونك في العِلْم أو في المال، أو في الخُلُق، أو في الخَلقة، أو في الحَسَب، أو في النَّسَب، لماذا تَسْخَر منه؟ أليس الَّذي أعطاك الفَضْل هو الله الَّذي حَرَمه هذا -في تَصَوُّرك- فلماذا؟ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ رَبِّ سَاخِرِ الْيَوْمَ مَسْخُورٌ مِنْهُ فِي الْغَدِ، وَرُبَّ مَفْضُولِ الْيَوْمِ يَكُونُ فَاضِلًا فِي الْغَدِ، وهذا شيء مُّشَاهَد، وفي بعض الآثار يُروى: «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يَلِكُ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الآية، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٥)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ..

وفي الآثار أيضاً: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ اللَّهُ وَيَتَلَيَّكَ»<sup>(١)</sup>.

إذن: يجب على الإنسان أن يتأدب بما أدبه الله به، فلا يسخر من غيره عسى أن يكون خيراً منه.

﴿وَلَا فِسَاءَ مِّنْ نِّسَاءٍ عَمَّ أَنْ يُكَنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ونَصَّ على النساء والرجال بالتفصيل، حتَّى لا يقول أحدٌ: إن هذا خاصٌّ بالرجال، لو ذَكَرَ الرجال وحدهم، أو خاصٌّ بالنساء وحدهنَّ، وبهذا نعرف الفرق بين القوم والنساء.

إذا جَمَعَ بين القوم والنساء، فالقوم هم الرجال، والنساء هنَّ الإناث، وإن ذَكَرَ القوم وحدهم شَمِلَ الرجال والنساء، مثل ما يَذْكُرُ في الرُّسُل عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ أَنَّهُمْ أُرْسِلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، فهو يَشْمَلُ الذُّكُورَ والإناث، لكن إذا ذَكَرَ القوم والنساء صار النساء هنَّ الإناث، والقوم هم الذُّكُور.

وهذا الأدب عامٌّ لجميع الأُمَّة، ويَجِبُ على كُلِّ طَالِبٍ عِلْمٍ أن يكون أوَّلَ من يَمْتَثِلُ أمرَ الله عَزَّجَلَّ وَيَحْتَنِبُ نَهْيَهُ؛ لِأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأوَّل: أَنَّهُ كغيره من المُكَلَّفِينَ.

والثاني: أَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ قُدُوءٌ، أَيُّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ فسوف يَقْتَدِي به النَّاسُ، وَيَحْتَجُّونَ به، فإذا كان طَالِبُ الْعِلْمِ هو الَّذِي يَسْخَرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ أو مِنْ دُونِ الْعُلَمَاءِ فهذه بَلِيَّةٌ فِي الْوَاقِعِ، فالواجب على الإنسان إذا خَالَفَ غَيْرُهُ أَنْ يَلْتَمِسَ لَهُ الْعُذْرَ، ثُمَّ يَتَّصِلَ بِهَذَا الْمُخَالَفِ وَيَبْحَثَ مَعَهُ، فربَّما يكون الْحَقُّ مَعَ مَنْ خَالَفَهُ وَيُنَاقِشُهُ بِأَدَبٍ واحترام وهُدوء، حتَّى يَتَبَيَّنَ الْحَقُّ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٦)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا سُخْرِيُهُ مَن خَالَفَ رَأْيَهُ أَوْ رَأَى شَيْخَهُ فَهَذَا غَلَطٌ، وكل إنسان يُخَالَفُكَ في قولك فَإِنَّ الواجب عليك أن تَحْمِلَهُ على أحسن المَحَامِلِ وَأَنَّ هذا اجتهاده، وَأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَيَأْجُرُهُ على اجتهاده إذا أخطأ، وإن أصاب فله أَجْرَانِ، ثُمَّ تَتَّصِلُ بِهِ وَتُنَاقِشُهُ، ولا تستح، فربما تَبَيَّنَ أَنَّ الحقَّ معك فتكون لك مِثْنَةٌ على هذا الرَّجُلِ، وربما يَتَبَيَّنُ لك أَنَّ الحقَّ معه فيكون له مِثْنَةٌ عليك، وَأَمَّا السُّخْرِيَةُ فهذا ليس من آداب طالب العلم، بل ولا من آداب المؤمن مع أخيه.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ اللَّمَزَ: العَيِبَ، بأن تقول: فلان بَلِيدٌ، فلان طَوِيلٌ، فلان قَصِيرٌ، فلان أَسْوَدٌ، فلان أَحْمَرٌ، وما أَشَبَّهُ ذلك مِمَّا يُعَدُّ عِيًّا، وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فَسَّرَ بِمَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: لا يَلْمِزُ بعضُكم بعضًا؛ لِأَنَّ كُلَّ واحد منا بمنزلة نفس الإنسان، أخوك بمنزلة نفسك، فإذا لَمَزْتَهُ فَكَأَنَّمَا لَمَزْتَ نَفْسَكَ.

والمعنى الثاني: إِنَّ المعنى لا تَلْمِزْ أَحَاكَ؛ لِأَنَّكَ إِذَا لَمَزْتَهُ لَمَزَكَ، فَلَمَزُكَ إِيَّاهُ سَبَبٌ لِكُونِهِ يَلْمِزُكَ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ كَأَنَّكَ لَمَزْتَ نَفْسَكَ، وعليه قول النَّبِيِّ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» فقالوا: يا رسول الله، كيف يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قال: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»<sup>(١)</sup>.

وعلى كُلِّ حال: في الآية تحريم عيب المؤمنين بعضهم بعضًا، فلا يجوز لك

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم (٥٩٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٩٠)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وليس فيها قوله: «لعن الله من لعن والديه» وإنما أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن تعيب أخاك بصفة خُلِقِيَّة أو صفة خُلِقِيَّة، أمَّا الصِّفَةُ الخُلُقِيَّة التي تعود إلى الخُلُقَة فإن عيبك إيَّاه في الحقيقة عيبٌ لِخالِقه عَزَّوَجَلَّ فالَّذي خَلَقَ الإنسان هو الله عَزَّوَجَلَّ، والَّذي جعله على هذه الصِّفَة هو الله عَزَّوَجَلَّ، والإنسان لا يُمكن أن يُكَمِّل خُلُقَتَه فيكون الطَّويل قصيرًا، أو القصير طويلاً، أو القبيح جميلاً، أو الجميل قبيحاً؟

أنت إذا لمَرت إنساناً وعَبْتَه في خُلُقَتَه فقد عِبتَ الخالقَ في الواقع؛ ولهذا لو وجدنا جِداراً مَبْنِياً مائلاً وعَبْنَا الجدارَ فَعَبْنَا لِبَاني الجدار.

إذن: إذا عِبتَ إنساناً في خُلُقَتَه فكأنَّما عِبتَ الخالقَ عَزَّوَجَلَّ.

فالمسألة خطيرة، أمَّا عَيْبُه بالخُلُق بأن يكون هذا الرَّجُل سريعَ الغضب، شديدَ الانتقام، بذِيء اللِّسان، فلا تَعِبُه؛ لأنَّه ربَّما إذا عِبتَه ابتلاك اللهُ بنفسِ العيب؛ ولهذا جاء في الأثر: «لَا تُظْهِرِ الشَّهَادَةَ بِأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ اللهُ وَيَبْتَليكَ»<sup>(١)</sup> لكن إذا وجدتَ فيه سوءَ خُلُقٍ فالواجب النَّصِيحَةُ، أن تَتَّصِلَ به إن كان يُمكن الاتِّصالَ به، وتُبَيِّنَ له ما كان به من عَيْب، أو أن تَكْتُبَ له كتاباً: رسالة باسمك أو باسم ناصح مثلاً.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ يعني: لا يَنْبِزَ بعضُكم بعضاً باللقب، فتقول له مثلاً: يا فاسق، يا فاجر، يا كافر، يا شارب الخمر، يا سارق، يا زان، لا تفعل هذا؛ لأنَّك إذا نَبَزْتَه باللقب فإمَّا أن يكون اللقبُ فيه، وإمَّا ألا يكون فيه، فإن كان فيه فقد ارتكبت هذا النَّهْيَ، وإن لم يكن فيه فقد بهتته وارتكبت النَّهْيَ أيضاً، ثمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يعني: بِئْسَ لكم أن تُنْقَلُوا من وصف الإيمان إلى وصف الفُسُوق، فإذا ارتكبتُم ما نهى اللهُ عنه صِرْتُم فَسَقَةً.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥٠٦)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَالْإِنْسَانُ إِذَا ارْتَكَبَ كَبِيرَةً وَاحِدَةً مِنَ الْكِبَائِرِ صَارَ فَاسِقًا، وَإِذَا ارْتَكَبَ صَغِيرَةً وَكَرَّرَهَا وَأَصْرَرَ عَلَيْهَا صَارَ فَاسِقًا، فَلَا تَجْعَلْ نَفْسَكَ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَكَمَالِ الْإِيمَانِ فَاسِقًا، هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ لِأَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ جُمْلَةٌ إِنْشَائِيَّةٌ تُفِيدُ الذَّمَّ، وَمَا أَفَادَ الذَّمَّ فَإِنَّهُ مَنَهِئٌ عَنْهُ بِلَا شَكٍّ.

فَاسْتَفَدْنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَحْرِيمَ السُّخْرِيَةِ، وَتَحْرِيمَ لَمَزِ الْغَيْرِ، وَتَحْرِيمَ التَّنَابُزِ بِالْأَلْقَابِ، وَأَنَّ مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ فَهُوَ فَاسِقٌ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُؤْمِنًا، وَالْفِسْقُ لَيْسَ وَصْفًا عَلَى اللُّسَانِ فَقَطْ، بَلْ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ أَحْكَامٌ، فَمَثَلًا قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْفَاسِقُ لَا يَصَحُّ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا عَلَى ابْنَتِهِ، فَيُزَوِّجُهَا مَنْ يَصَحُّ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا مِنْ أَقَارِبِهَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَقَارِبٌ أَوْ خَافُوا مِنْ أَبِيهَا إِنْ زَوَّجَهَا فَيُزَوِّجُهَا الْقَاضِي.

وَالْفَاسِقُ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِي قَبِيلَتِكَ فَيَشْهَدْ عِنْدَ الْقَاضِي بِحَقٍّ، فَيَقُولُ الْقَاضِي: لَا نَقْبَلُكَ؛ لِأَنَّكَ فَاسِقٌ، وَالْفَاسِقُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا بِالنَّاسِ فِي الصَّلَاةِ، وَالْفَاسِقُ الَّذِي يَظْهَرُ فِسْقُهُ لَا يَصَحُّ أَذَانُهُ، كُلُّ هَذَا قَالَ بِهِ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَإِنْ كَانَ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ خِلَافٌ، لَكِنِّي أَقُولُ: إِنْ كَلِمَةُ فَاسِقٍ لَيْسَتْ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ حَتَّى يَقُولَهَا الْإِنْسَانُ ﴿يَسَّ الْأَسْمُ﴾ وَهَذَا ذَمُّهُ اللَّهُ، فَقَالَ: ﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يَعْنِي: مَنْ كَانَ يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الثَّلَاثَةَ، وَلَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، فَالَّذِي لَا يَتُوبُ يَكُونُ ظَالِمًا، وَالظُّلْمُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>، وَإِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، فَهُوَ لَاءُ الظُّلْمَةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، رقم (٢٤٤٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ليس لهم نور، فيجب الحذر مما نهى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنك أيها العبد، عبدُ الله تَأْمُرُ بأمره، وتَنْهِي عن نهيه.

فإن قال قائل: ما معنى التَّوْبَةِ؟

فنقول: التَّوْبَةُ من العبد أن يَنْتَقِلَ من مَعْصِيَةِ الله إلى طَاعَتِهِ، والتَّوْبَةُ من الله أن يَقْبَلَ الله من العبد فيُبدِلَ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ.

قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى أن قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقد تُطْلَقُ التَّوْبَةُ من الله على تَوْفِيقِ العبدِ إلى التَّوْبَةِ، فلهذا تعالى على العبد تَوْبَتَانِ: توبة بمعنى التَّوْفِيقِ للتَّوْبَةِ، وتوبة بمعنى قَبُولِ التَّوْبَةِ، والدليل على هذا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: وفقهم للتَّوْبَةِ فتابوا، أمَّا التَّوْبَةُ الأُخْرَى وهي قَبُولُ توبة العبد، فمثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وتوبة العبد تحتاج إلى شروط، إذ ليس كُلُّ توبة مقبولة، وليس كُلُّ مَنْ قال: أنا تائب إلى الله يكون تائبًا، بل لا بُدَّ من شروط:

الشرط الأول: أن يُخْلِصَ لله تعالى في التَّوْبَةِ، أي لا يَحْمِلُهُ على التَّوْبَةِ أَنَّهُ خَائِفٌ من أبيه، أو خَائِفٌ من أخيه الأكبر، أو خَائِفٌ من السُّلْطَاتِ، أو تاب لأجل أن يُقَالَ: فلان مُسْتَقِيمٌ، والإخلاص لله في التَّوْبَةِ أن يكون الحَامِلُ له على التَّوْبَةِ طَلَبُ رِضَا الله عَزَّوَجَلَّ والوصولُ إلى كرامَتِهِ، والإخلاصُ شَرْطٌ في كلِّ عِبَادَةٍ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ، وَمَعْنَى يَنْدَمُ أَي: يَتَحَسَّرُ، وَيَتَكَدَّرُ أَنَّهُ وَقَعَ مِنْهُ هَذَا الشَّيْءُ، وَيُحْجَلُ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الذَّنْبِ فِي الْحَالِ. وَذَلِكَ بِأَنْ يَأْتِيَ بِالْوَاجِبِ إِنْ أَمَكْنَ تَدَارُكُهُ، أَوْ بَدَلَهُ إِذَا لَمْ يُمَكِّنْ تَدَارُكُهُ، وَأَنْ يُقْلَعَ عَنِ الْمُحَرَّمَ إِذَا كَانَ الذَّنْبُ فِعْلًا مُحَرَّمًا، فَإِذَا كَانَ الذَّنْبُ فِي حَقِّ الْإِنْسَانِ بِأَنْ يَكُونَ شَخْصٌ سَرَقَ مِنْ إِنْسَانٍ مَالًا، وَالسَّرَقَةُ حَرَامٌ، وَتَابَ الرَّجُلُ وَنَدِمَ وَعَزَمَ عَلَى أَلَّا يَعُودَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُوَصَلَ هَذَا الْمَالُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَمَّ التَّوْبَةُ إِلَّا بِهَذَا.

فَإِذَا قَالَ: أَخْشَى إِنْ ذَهَبْتُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ وَأَعْطَيْتُهُ الْمَالَ أَنْ يَتَرْتَّبَ عَلَى ذَلِكَ ضَرَرٌ عَلَيَّ، وَعَلَى سُمْعَتِي، وَرَبِّمَا أَحْبَسَ، وَرَبِّمَا يَدَّعِي أَنَّ الْمُبْلَغَ الْمَسْرُوقَ أَكْثَرَ، وَأَنَا قَدْ ثُبْتُ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَيَّ فَكَيْفَ تَكُونُ الْحَالُ؟ فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ عَنْ صَاحِبِهِ؟

الْجَوَابُ: لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ مَعْلُومٌ، أَمَّا لَوْ كَانَ مَجْهُولًا كَمَا لَوْ سَرَقَ مِنْ أَنْاسٍ نَسِيهِمْ أَوْ جَهْلَهُمْ وَلَا يَدْرِي أَيْنَ هُمْ، فَهَذَا يَتَصَدَّقُ بِمَا سَرَقَ عَنْهُمْ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مَعْلُومًا لَا بُدَّ أَنْ يُوصَلَهُ، وَيُمَكِّنُ أَنْ يُعْطِيَ شَخْصًا يَثِقُ بِهِ، وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي سَرَقْتُ هَذَا الْمَالَ مِنْ فُلَانٍ، وَقَدْ نَدِمْتُ وَتُبْتُ إِلَى اللَّهِ، وَمِنْ فَضْلِكَ أَعْطِهِ إِيَّاهُ، وَقُلْ لَهُ: هَذِهِ دِرَاهِمٌ مِنْ إِنْسَانٍ تَسْتَحِقُّهَا عَلَيْهِ، وَهُوَ الْآنَ يَبْذُلُهَا، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي وَكَّلَهُ أَنْ يُوَصَلَ الدِّرَاهِمُ مَوْثُوقًا عِنْدَ صَاحِبِ الْمَالِ وَأَمِينًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْثُوقًا لَأَتَّهَمَهُ صَاحِبُ الْمَالِ، وَقَالَ: أَنْتَ السَّارِقُ، وَالْمَسْرُوقُ أَكْثَرَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ثِقَّةً، وَإِذَا لَمْ يُمَكِّنْ، فَيُمَكِّنُ أَنْ تُرْسَلَ بِالْبَرِيدِ، وَيُقَالَ: هَذِهِ دِرَاهِمٌ مِنْ شَخْصٍ تَسْتَحِقُّهَا عَلَيْهِ.

وفي هذه الحال من المعلوم أنك لن تكتب اسمك، وأيضاً يحسن ألا تكتبها بقلمك؛ لأنه ربّما يمرُّ عليه ويعرف خطك يوماً من الدهر، هذا إذا كان الحقُّ مالياً، أمّا إذا كان الحقُّ غيرَ ماليٍّ، مثل أن يكون شخصاً اغتبتَه، في مجلس أو مجالس، فكيف تكون التوبة من هذا؟ قال كثير من العلماء: لا بُدَّ أن تذهب إليه، وتستحله، وإلا فسيأخذ من حسناتك يوم القيامة، فاذهب إليه وقل له: يا فلانُ سامحني.

وقال بعض العلماء: لا يجب أن تستحله، وإنما تستغفر له وتُثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والحسنات يُذهبن السيئات، وقد جاء في الحديث: «كَفَّارَةٌ مَنْ اغْتَبَتْهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

**القول الثالث:** وهو قول وَسَط، ولعله الصواب: إن كان صاحبك الذي اغتبتَه قد عَلمَ بذلك فلا بُدَّ من أن تذهب إليه وتستحله؛ لأنه لن يزول ما في قلبه حتّى تستحله، أمّا إذا لم يَعْلَمْ فيكفي أن تستغفر له، وأن تُثني عليه في المجالس التي كنت تغتابه فيها، والله غفورٌ رحيم، وينبغي لمن جاء إليه أخوه يعتذر منه أن يسامحه، ولا ينبغي أن يُناقش ويرى ما الذي حصل؛ لأنه ربّما يذكر شيئاً كبيراً فتعجز نفسُ صاحبه عن أن يُحمله؛ لأنَّ النفسَ أمارَةٌ بالسوء، فالأولى ألا يسأل، وأن يحتسب الأجرَ من الله، ويقول: هذا جاء مُعتذراً، ومن عفا فأجره على الله، ويرجى في المستقبل أن تعود هذه الغيبةُ ثناءً حسناً.

وهذا التفصيل هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية<sup>(٢)</sup> وهو الحقُّ، وهو أنّه إن

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده كما في زوائده رقم (١٠٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت رقم (٢٩١)، والبيهقي في الدعوات الكبير رقم (٥٧٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الفتاوى الكبرى (١/١١٣).



كان عالمًا فلا بُدَّ أن تستحلَّه حتَّى يزولَ ما في قلبه، وإن كان غيرَ عالمٍ فلا حاجة إلى استحلاله، هذا بالنسبة للذي اغتاب غيره، أمَّا الذي اغتِيبَ وطُلب منه السَّحاحُ، فالَّذي نرى أنَّ الأفضلَ والأكملَ أن يُحلَّله؛ لأنَّه أخوه جاءه مُعتذِرًا نادِمًا فليُحلَّله، وثقوا أنَّه إذا حلَّله ستكون كبيرة وعظيمة على الشخص الذي استحلَّه، سيَرى أنَّه أهدى إليه أكبرَ هديَّة، فتَنقَلِبُ الكراهيةُ الَّتِي كانت مِن قَبْلِ إلى مَحَبَّةٍ وأُلفةٍ، وهذا هو المطلوب من المسلمين أن يكون بعضهم لبعض إلفًا مُحِبًّا وادًّا.

**الشَّرْطُ الرَّابِعُ:** أن يَعِزِمَ على ألاَّ يَعُودَ في المُستَقْبَلِ، أي يكون في نفسه نيَّةٌ عَازِمَةٌ جَازِمَةٌ ألاَّ يَعُودَ لهذا الذَّنْبِ في المُستَقْبَلِ، فإن تاب وهو يقول: ربِّما أَنَّهُ يَطْرَأُ عَلَيَّ أن أَفْعَلَ الذَّنْبَ، فهذا التَّائِبُ لا تَصَحُّ تَوْبَتُهُ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يَعِزِمَ على ألاَّ يَعُودَ في المُستَقْبَلِ.

**الشَّرْطُ الْخَامِسُ:** أن تكون التَّوبَةُ في وقت قَبُولِها؛ لأنَّه يأتي وقت يُسَدُّ فِيهِ بابُ التَّوبَةِ، ولا تُقْبَلُ من الإنسان، والباب الَّذِي يُغْلَقُ عن التَّائِبِينَ عامٌّ وخاصٌّ، أمَّا العامُّ: فهو طُلُوعُ الشَّمْسِ من مَغْرِبِها، فسيأتي زمنٌ تَخْرُجُ الشَّمْسُ من المَغْرِبِ، والَّذِي يَرُدُّها اللهُ عَزَّجَلَّ لو اجْتَمَعَتِ الحَلَالُتُ كُلُّها على أن تُرَدَّها ما رَدَّتْها، لكن يَرُدُّها اللهُ عَزَّجَلَّ الَّذِي أَمَرُهُ ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] تَرَجِعُ هذه الشَّمْسُ العظيمة إذا غَرَبَتْ من مَغْرِبِها.

وَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ من مَغْرِبِها آمَنَ كُلُّ مَنْ على الأرض، اليهوديُّ، والنصرانيُّ، والبوذيُّ، والشُّعُوبُ، وغيرهم كُلُّهم يؤمنون؛ لأنَّهم يَرَوْنَ شَيْئًا وَاضِحًا في الدَّلالة على الرَّبِّ عَزَّجَلَّ، لكن لا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ

لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا خَيْرًا ﴿[الأنعام: ١٥٨]، وفسّر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ﴾ أَنَّهُ خُرُوجُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا<sup>(١)</sup> وحيثُ لا تنفعُ التَّوبَةُ، مع أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ، لكن لا تنفع؛ لأنَّه انسَدَّ البابُ، وإذا سُدَّ كيف يدخل النَّاسُ؟

أما الخاصُّ فهو أن يَحْضُرَ الإنسانَ أَجَلُهُ، فإذا حَضَرَ الإنسانَ الأَجْلُ فلا تَنَفَّعَ التَّوبَةُ، لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْقَنَ﴾ [النساء: ١٨]، وإني أسأل: هل أحدٌ منا يعلم متى يموت؟! أبداً، ربَّما يموت الإنسانُ وهو على مَكْتَبِهِ، أو وهو على فِرَاشِهِ، أو وهو في صَلَاتِهِ، في أي لحظة، وإذا كُنَّا نَعْلَمُ هذا ونُوقِنُ به، فالواجب أن نُبادِرَ بالتَّوبَةِ لئَلَّا يَفْجَأَنَا الموتُ، فينسَدَّ البابُ.

ولهذا كانت التَّوبَةُ ممَّا يجب على الفُور، فلنُبادِرَ بالتَّوبَةِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَلَيْسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْقَنَ﴾ [النساء: ١٨]، هذا الخبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له أمر واقع يدُلُّ عليه لما أَغْرَقَ الله تعالى فِرْعَوْنَ وقومَه، قال فِرْعَوْنُ حين أَدْرَكَهُ الغَرَقُ: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ يعنِي الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فِقِيلَ له: ﴿ءَالْقَنَ﴾ أي: الآن تُتُوب؟ لماذا لم تُتُبْ قَبْلُ؟ ﴿ءَالْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١] فلم تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ -والعياذ بالله-.

وإذا تاب العبدُ فإنَّ الله يَفْرَحُ بهذا فرحاً عظيماً لا يتصوَّره إنسان، قال النبي

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، رقم (٣٠٧١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ» أو قال: «بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ» الرَّاحِلَةُ هِيَ الْبَعِيرُ «كَانَ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَصْلَحَهَا» يَعْنِي ضَاعَتْ عَنْهُ «فَطَلَبَهَا فَلَمْ يَجِدْهَا، فَنَامَ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ» ضَعُفَتْ قُوَاهُ وَخَارَتْ وَاضْطَجَعَ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا بِنَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا زِمَامُهَا بِالشَّجَرَةِ فَأَخَذَ الزِّمَامَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ» يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، لَكِنَّهُ «أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»<sup>(١)</sup>.

وهل يمجّدون فرحاً أعظم من هذا؟ لا؛ لأنّه لا فرح أشدّ من حياة بعد الإشراف على الموت، فالرّبُّ عزّ وجلّ يفرح بتوبة أحدنا أشدّ من فرحة هذا الرّجل بِنَاقَتِهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التوبة، رقم (٦٣٠٩)، ومسلم: كتاب التوبة، باب الخوض على التوبة والفرح بها، رقم (٢٧٤٧)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(الآية ١٢)

••❦••

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

••❦••

﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تصدير الخطاب بـ ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يدلُّ على العناية به؛ ولهذا روي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَزْعِهَا سَمْعَكَ: فَإِمَّا خَيْرٌ تُؤَمِّرُ بِهِ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ<sup>(١)</sup>.

ويعني: وإما خير تحصيل به العبرة والاتعاظ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وهنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾، الظَّنُّ: هو أن يكون لدى الإنسان احتمالان يترجح أحدهما على الآخر، وهنا عبّر الله تعالى بقوله: ﴿كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ ولم يقل: اجتنبوا الظنَّ كله؛ لأنَّ الظنَّ ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ظنٌّ خير بالإنسان، وهذا مطلوب أن تظنَّ بإخوانك خيراً

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠)، ط. الصميعي، وابن أبي حاتم في التفسير (١/١٩٦).

ما داموا أهلاً لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يُظنُّ به خيراً، ويُثنى عليه بما ظهرَ لنا من إسلامه وأعماله.

**القسم الثاني:** ظنُّ السَّوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنَّه لا يحلُّ أن يظنَّ به ظنُّ السَّوء، كما صرَّح بذلك العلماء، فقالوا رَحِمَهُمُ اللهُ: يحرم ظنُّ السَّوء بمسلم ظاهره العدالة.

أما ظنُّ السَّوء بمن قامت القرينةُ على أنَّه أهلٌ لذلك، فهذا لا حَرَجَ على الإنسان أن يظنَّ السَّوءَ به؛ ولهذا من الأمثال المضروبة السائرة: (احترسوا من النَّاس بسُوء الظَّنِّ)، ولكن هذا ليس على إطلاقه، كما هو معلوم، وإنَّما المراد: احترسوا من النَّاس الَّذِينَ هم أهلٌ لظنِّ السَّوء فلا تَثِقُوا بِهِمْ، والإنسان لا بُدَّ أن يَقَعَ في قلبه شَيْءٌ مِنَ الظَّنِّ بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لِقَرَائِنٍ تَحْتَفُّ بِذَلِكَ، إما لظُّهور علامة في وَجْهِه؛ بحيثُ يَظْهَرُ من وَجْهِه العُبُوسُ والكِرَاهِيَةُ في مُقَابَلَتِكَ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو مِن أحواله الَّتِي يَعْرِفُهَا الإنسانُ مِنْهُ أو مِن أقواله الَّتِي تَصْدُرُ مِنْهُ فَيَظُنُّ به ظنَّ السَّوء، فهذه إذا قامت القرينةُ على وُجُوده فلا حَرَجَ على الإنسان أن يَظُنَّ به ظنَّ السَّوء.

**فإذا قَالَ قائلٌ: أَيُّهَا أَكْثَرُ الظَّنِّ الْمَنْهِيٌّ عَنْهُ أَمْ الظَّنُّ الْمُبَاحُ؟**

**قُلْنَا:** الظَّنُّ الْمُبَاحُ أَكْثَرُ؛ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ نَوْعًا كَامِلًا مِنْ أَنْوَاعِ الظَّنِّ، وَهُوَ ظَنُّ الْحَقِيرِ، وَيَشْمَلُ كَثِيرًا مِنْ ظَنِّ السَّوءِ الَّذِي قَامَتِ الْقَرِينَةُ عَلَى وُجُوده؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الظَّنِّ السَّيِّئِ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَّصِفَ بِهَذَا الظَّنِّ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿كَبِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَكْثَرُ الظَّنِّ، وَلَا كُلُّ الظَّنِّ، بَلْ قَالَ: ﴿كَبِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وَقَدْ تُوحِي هَذِهِ الْجُمْلَةُ أَنَّ أَكْثَرَ الظَّنِّ لَيْسَ بِإِثْمٍ، وَهُوَ مُنْطَبِقٌ تَمَامًا عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ وَقَسَّمْنَاهُ، أَنَّ الظَّنَّ نَوْعَانِ: ظَنُّ خَيْرٍ، وَظَنُّ سَوْءٍ، ثُمَّ

ظَنُّ السَّوِّ لَا يَجُوزُ إِلَّا إِذَا قَامَتِ الْقَرِينَةُ عَلَى وُجُودِهِ.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فما الظَّنُّ الَّذِي لَيْسَ بِإِثْمٍ؟ نقول: هو ظن الخير، وظن السَّوِّ الَّذِي قَامَتِ عَلَيْهِ الْقَرِينَةُ هَذَا لَيْسَ بِإِثْمٍ؛ لِأَنَّ ظَنَّ الْخَيْرِ هُوَ الْأَصْلُ، وَظَنُّ السَّوِّ الَّذِي قَامَتِ عَلَيْهِ الْقَرِينَةُ هَذَا أَيْضًا أَيْدَتْهُ الْقَرِينَةُ.

﴿وَلَا تَحَسُّوا﴾ التَّحَسُّسُ طَلَبُ الْمَعَايِبِ مِنَ الْغَيْرِ، أَيْ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْظُرُ وَيَتَصَنَّتْ وَيَتَسَمَّعُ لَعَلَّهُ يَسْمَعَ شَرًّا مِنْ أَخِيهِ، أَوْ لَعَلَّهُ يَنْظُرُ سَوْءًا مِنْ أَخِيهِ، وَالَّذِي يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعْرِضَ عَنْ مَعَايِبِ النَّاسِ، وَأَلَّا يَحْرِصَ عَلَى الْاطِّلَاعِ عَلَيْهَا؛ وَهَذَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ ﷺ: «لَا تُخْبِرُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا»، يَعْنِي شَيْئًا مِمَّا يُوجِبُ ظَنَّ السَّوِّ بِهِ «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»<sup>(١)</sup>.

فَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَحَسَّسَ، بَلْ يَأْخُذُ النَّاسَ عَلَى ظَاهِرِهِمْ، مَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ الظَّاهِرِ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْآيَةِ قِرَاءَةٌ أُخْرَى «وَلَا تَحَسُّوا» فَقِيلَ: مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَقِيلَ: بَلْ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَعْنَى، وَالْفَرْقُ هُوَ أَنَّ التَّحَسُّسَ أَنْ يُجَاوِلَ الْإِنْسَانُ الْاطِّلَاعَ عَلَى الْعَيْبِ بِنَفْسِهِ، وَالتَّحَسُّسُ أَنْ يَلْتَمِسَهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ مَثَلًا: مَا تَقُولُونَ فِي فَلَانٍ، مَا تَقُولُونَ فِي فَلَانٍ؟

وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ الْقِرَاءَتَانِ مُبَيِّنَتَيْنِ لِمَعْنَيْنِ كِلَيْهِمَا مِمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، لِمَا فِي هَذَا مِنْ إِشْغَالِ النَّفْسِ بِمَعَايِبِ الْآخَرِينَ، وَكَوْنِ الْإِنْسَانِ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَطَّلَعَ عَلَى

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٣٩٦/١)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ فِي رَفْعِ الْحَدِيثِ مِنَ الْمَجْلِسِ، رَقْمُ (٤٨٦٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ فِي فَضْلِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمُ (٣٨٩٦)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المعائب؛ ولهذا من أثبتلي بالتجسس أو بالتجسس نَجِدُهُ في الحقيقة قَلَقًا دائمًا في حياته،  
وَيَنْشَغِلُ بِعُيُوبِ النَّاسِ عَنْ عُيُوبِهِ، ولا يهتمُّ بنفسه، وهذا يوجد كثيرًا من بعض  
النَّاسِ الَّذِينَ يَأْتُونَ إِلَى فُلَانٍ وَإِلَى فُلَانٍ، مَا تَقُولُ فِي كَذَا؟ مَا تَقُولُ فِي كَذَا؟

فَتَجِدُ أَوْقَاتَهُمْ ضَائِعَةً بِلَا فَائِدَةٍ، بَلْ ضَائِعَةٌ بِمَضَرَّةٍ؛ لِأَنَّ مَا وَقَعُوا فِيهِ فَهُوَ  
مَعْصِيَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، هَلْ أَنْتِ وَكِيلٌ عَنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ تَبْحَثُ عَنْ مَعَايِبِ عِبَادِهِ؟ وَالْعَاقِلُ  
هُوَ الَّذِي يَتَحَسَّسُ مَعَايِبَ نَفْسِهِ، وَيَنْظُرُ مَعَايِبَ نَفْسِهِ لِيُصْلِحَهَا، لَا أَنْ يَنْظُرَ فِي  
مَعَايِبِ الْغَيْرِ لِيُشِيعَهَا، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ سُُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ  
أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩]، فعلى كُلِّ حَالٍ، هَذِهِ  
آدَابٌ وَتَوْجِيهٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَى أَخْلَاقٍ فَاضِلَةٍ، مَأْمُورٌ بِهَا، وَأَخْلَاقٍ مَنَهِيٍّ عَنْهَا.

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الْغِيبة فَسَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا  
يَكْرَهُ» وَهَذَا تَفْسِيرٌ مِنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمُرَادِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى  
فِي كَلَامِهِ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي خِلْقَتِهِ، أَوْ خُلُقِهِ، أَوْ فِي أَحْوَالِهِ،  
أَوْ فِي عَقْلِهِ، أَوْ فِي ذِكَاثِهِ، أَوْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، مِثْلُ أَنْ تَقُولَ: فُلَانٌ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، دَمِيمٌ،  
فِيهِ كَذَا، فِيهِ كَذَا، تَرِيدُ مَعَايِبَ جَسَمِهِ، أَوْ فِي خُلُقِهِ بِأَنْ تَقُولَ: فُلَانٌ أَهْمَقٌ، سَرِيعُ  
الْغَضَبِ، سَيِّئُ التَّصَرُّفِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أَوْ فِي خِلْقَتِهِ الْبَاطِنَةِ، كَأَنْ تَقُولَ: فُلَانٌ بَلِيدٌ،  
فُلَانٌ لَا يَفْهَمُ، فُلَانٌ سَيِّئُ الْحِفْظِ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا.

وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهَا بِحَدِّ وَاضِحٍ بَيْنَ «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قَالُوا:  
يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبَتَهُ،  
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَهُ»<sup>(١)</sup>، أَي: جَمَعَتْ بَيْنَ الْبُهْتَانِ وَالْغِيبةِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعلى هذا فيجب الكَفُّ عن ذِكر النَّاسِ بما يَكْرَهُونَ، سواء كان ذلك فيهم، أو ليس فيهم، واعلم أنَّكَ إذا نَشَرْتَ عُيُوبَ أَخِيكَ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُسَلِّطُ عَلَيْكَ مَنْ يَنْشُرُ عُيُوبَكَ، جزاءً وفاقاً، لا تظنَّ أَنَّ اللَّهَ غَافِلٌ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، بل سَيُسَلِّطُ عَلَيْهِ مَنْ يُعَامِلُهُ بِمِثْلِ مَا يُعَامِلُ النَّاسَ، لكن إذا كانت الغِيبةُ للمصلحة فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهَا، وَلَا حَرَجَ فِيهَا.

ولهذا لما جاءت فَاطِمَةُ بِنْتُ قَيْسٍ إلى رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَسْتَشِيرُهُ فِي رَجَالٍ خَطَبُوهَا، بَيْنَ مَعَايِبَ مَنْ يَرَى أَنَّ فِيهِ عَيْبًا، فَقَدْ خَطَبَهَا ثَلَاثَةَ: مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَبُو جَهْمُ بْنُ حَارِثٍ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكَ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضُغُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ»<sup>(١)</sup>، فَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَيْبًا فِي هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، لِلنَّصِيحَةِ وَبَيَانِ الْحَقِّ، وَلَا يُعَدُّ هَذَا غِيبةً بِلَا شَكٍّ.

ولهذا لو جاء إنسان يَسْتَشِيرُكَ فِي مُعَامَلَةِ رَجُلٍ، قَالَ: فَلَانِ يَرِيدُ أَنْ يُعَامِلَنِي بِبَيْعٍ، أَوْ شِرَاءٍ، أَوْ إِجَارَةٍ، أَوْ فِي تَزْوِيجٍ أَوْ مَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ فِيهِ عَيْبًا فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَنْ تُبَيِّنَ لَهُ ذَلِكَ، وَلَا يُعَدُّ هَذَا كَمَا يَقُولُ الْعَامَّةُ مِنْ قَطْعِ الرِّزْقِ، بَلْ هُوَ مِنْ بَيَانِ الْحَقِّ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُعَامِلُهُ هَذَا الشَّخْصَ بَيْعَ أَنَّهُ مُمَاطِلٌ كَذَّابٌ مُحْتَالٌ، فَقُلْ لَهُ: يَا أَخِي، لَا تَبِعْ لِهَذَا إِنَّهُ كَذَّابٌ مُمَاطِلٌ، إِنَّهُ مُحْتَالٌ، رَبِّمَا يَدَّعِي أَنَّ فِي السِّلْعَةِ عَيْبًا وَلَيْسَ فِيهَا عَيْبٌ، وَرَبِّمَا يَدَّعِي الْغُبْنَ وَلَيْسَ مُغْبُونًا، وَمَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠)، من حديث فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



أشبه ذلك فتقع معه في صراع ومُخاصمة، أو جاء إنسان يستشيرك في شخص خطب منه ابنته، والشخص ظاهره العدالة والاستقامة، وظاهره حسن خلق، ولكنك تعرف فيه خصلة معيبة فيجب عليك أن تبين هذا.

فمثلاً: تعرف أن في هذا الرجل كذباً، أو تعرف أنه يشرب الدخان لكنه يجحده ولا يبيته للناس، يجب أن تبين تقول: هذا الرجل ظاهره أنه مستقيم، وأنه خلوق، وأنه طيب، ولكن فيه العيب الفلاني، حتى لو كان هذا مُتجهاً إلى أن يزوجه، ثم هو بعد ذلك بالخيار؛ لأنه سيدخل على بصيرة، وعلى كل حال يستثنى من الغيبة وهي ذكر الرجل بما يكرهه، إذا كان على سبيل النصيحة، ومنه ما يُذكر في كتب الرجال مثلاً، فلان ابن فلان سئى الحفظ، فلان ابن فلان كذوب، فلان ابن فلان فيه كذا وكذا، يذكرون ما يكرهه من أوصافه، نصيحة لله تعالى ورسوله ﷺ فإذا كان الغرض من ذكرك أخاك ما يكره النصيحة فلا بأس.

كذلك لو كان الغرض من ذلك الظلم والتشكي، فإن ذلك لا بأس به، مثل أن يظلمك رجل وتأتي إلى رجل يستطيع أن يزيل هذه المظلمة، فتقول: فلان أخذ مالي، فلان جحد حقّي، وما أشبه ذلك، فلا بأس؛ فإن هند بنت عتبة جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها أبا سفيان، تقول: إنه رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها الرسول ﷺ: «خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ»<sup>(١)</sup>، فذكرت وصفاً يكرهه أبو سفيان بلا شك، ولكنه من باب التظلم والتشكي، وقد قال الله تعالى في كتابه ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨] يعني:

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون، رقم (٢٢١١)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب قضية هند رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (١٧١٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فله أن يجهر بالسوء من القول لإزالة مظلمته.

ولكن هل يجوز مثل هذا إذا كان قصد الإنسان أن يخفف عليه وطأة الحزن والألم الذي في قلبه؛ بحيث يحكي الحال التي حصلت على صديق له، وصديقه لا يمكن أن يُزيل هذه المظلمة لكنه يُفَرِّج عنه أو لا؟

الظاهر أنه يجوز؛ لعموم قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾ وهذا يقع كثيراً، كثيراً ما يؤذي الإنسان، ويُجنى عليه بجحد مال أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك فيأتي الرجل إلى صديقه ويقول: فلان قال فيّ كذا، يريد أن يخفف ما في قلبه من الألم والحسرة، أو يتكلم في ذلك مع أولاده، أو مع أهله، أو مع زوجته أو ما أشبه ذلك، هذا لا بأس به؛ لأن الظالم ليس له حرمة بالنسبة للمظلوم.

﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ التقوى يكثر الأمر بها في القرآن الكريم، وكذلك في السنة، فما هي التقوى التي يكثر ورودها في كتاب الله وعلى لسان رسول الله ﷺ؟ إنها كلمة عظيمة، إنها تعني الوقاية من عذاب الله، وتكون الوقاية من عذاب الله بأمرين:

الأمر الأول: امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى بأن يقول القائل إذا سمع أمر الله ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فإن هذا هو قول المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، ولا تقل: ما الفرق بين كذا وكذا؟ يعني: لماذا يأمر الله بكذا ولا يأمر بكذا؟ فمثلاً في لحوم الإبل أمر النبي ﷺ أن نتوضأ من لحومها<sup>(١)</sup>؛ ولهذا كان أكل لحوم الإبل ناقضاً للوضوء على

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القول الرَّاجِح من أقوال العلماء، فلا تُقَل: لماذا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم الإبل، ولا يأمرنا بالوضوء من أكل لحم البقر؟ مع أنَّ كُلًّا منهما يُسمَّى بَدَنَةً، ولا تُقَل: لماذا تُؤمَر الحائِضُ بقضاء شهر الصَّوم ولا تُؤمَر بقضاء الصَّلَاة، على سبيل التَّشكِيك، ولكن قُل: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

الأمر الثاني: اجتناب ما نهى الله عنه، فإذا نهى الله عن شيء فقل: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا واجتَنَبْنَا.

وتأمل قول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في الحَمَرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ؛ حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٠١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ أَلْعَادَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿[المائدة: ٩٠-٩١]، أي فَبَعْدَ هَذَا التَّبْصِيرِ وَالتَّبَيُّنِ هل تَنْتَهُونَ أَوْ لَا؟ وهذا الاستفهام بمعنى الأمر، أي فانتَهُوا؛ ولهذا قال الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «انْتَهَيْنَا أَنْتَهَيْنَا»<sup>(١)</sup>، فصارت التَّقْوَى تَحَقُّقًا بِأَمْرَيْنِ:

الأوَّل: امتثال أمر الله عَزَّجَلَّ دُونَ تَرَدُّدٍ.

والثَّانِي: اجتناب نَهْيِ الله عَزَّجَلَّ دُونَ تَرَدُّدٍ.

يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ هو الله عَزَّجَلَّ رَحِيمٌ وَهُوَ رَحْمَنٌ، وقد اجتمع الاسمان في أعظم سورة في كتاب الله، في الفَاتِحَةِ، قال العلماء: إِذَا ذُكِرَ الرَّحْمَنُ وَحْدَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾ [الفرقان: ٦٠]،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥٣/١)، وأبو داود: كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر، رقم (٣٦٧٠)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٤٩)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، رقم (٥٥٤٠)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أو ذُكِرَ الرَّحِيمُ وحده كما في هذه الآية ﴿تَوَابُّ رَحِيمٌ﴾ فمعناها واحد، يعني أنَّ الرَّحِيمَ ذو الرَّحمة الواسعة الشاملة، والرَّحْمَنُ إذا ذُكِرَ وحده كذلك هو ذو الرَّحمة الواسعة الشاملة، أمَّا إذا اجتمعا جميعًا فالرَّحْمَنُ باعتبار الوَصْفِ، والرَّحِيمُ باعتبار الفعل، يعني أنَّه عَزَّجَلَّ ذو رحمة واسعة، وهو أيضًا راحِمٌ ومُوصِلُ الرَّحمة إلى مَنْ يشاء من عباده، كما قال الله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١].

أسأل الله أن يعمَّني وجميع إخواننا المسلمين برحمته، وأن يجعلنا من دُعاة الخير والإصلاح، إنَّه على كل شيء قديرٌ.



## الآية (١٣)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

• • •

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الْخِطَابُ هُنَا مُصَدَّرٌ بِنِدَاءِ النَّاسِ عُمُومًا، مَعَ أَنَّ أَوَّلَ السُّورَةِ وَجَّهَ الْخِطَابُ فِيهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْخِطَابَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُوجَّهٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ التَّفَاخُرُ بِالْأَنْسَابِ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ﴾، وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ.

﴿إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾: ﴿مِنْ ذَكَرٍ﴾ هُوَ آدَمُ، ﴿وَأُنْثَى﴾ هِيَ حَوَاءُ، هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى هُنَا الْجِنْسُ، يَعْنِي أَنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَكَوَّنُ مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، أَيْ يُخْلَقُ مِنَ الْأُمِّ وَالْأَبِ، وَلَا يُعَارِضُ هَذَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَلَأٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

فَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْمُرَادَ بِالصُّلْبِ صُلْبُ الرَّجُلِ، وَالتَّرَائِبِ تَرَائِبُ الْمَرْأَةِ فَلَا إِشْكَالَ، وَإِنْ قُلْنَا بِالْقَوْلِ الرَّاجِحِ: إِنَّ الصُّلْبَ وَالتَّرَائِبَ وَصِفَانِ لِلرَّجُلِ، يَعْنِي الْمَاءَ الدَّافِقَ

هو ماء الرَّجُل، أمَّا المرأة فلا يكون ماؤها دافقًا<sup>(١)</sup>، وعلى هذا فيكون الإنسان مخلوقًا من ماء الرَّجُل، لكنَّ ماء الرَّجُل وحده لا يكفي، بل لا بُدَّ أن يتَّصل بالبُويضة التي يُفْرِزها رَحِمُ المرأة فيزدوج هذا بهذا، فيكون الإنسان مخلوقًا من الأمرين جميعًا، أي من أبيه وأُمِّه.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ أي صَيَّرْنَاكُمْ شُعُوبًا ﴿وَقَبَائِلَ﴾ فالله تعالى جَعَلَ بني آدم شُعُوبًا وهم أصول القبائل، وقبائل وهم ما دُون الشُّعُوب، فمثلًا بنو تميم يُعتبرون شُعْبًا، وأفخاذ بني تميم المُتَفَرِّعون من الأصل يُسمَّون قبائل.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ هل الحِكْمَةُ من هذا الجَعْل أن يتفاخر النَّاسُ بعضهم على بعض، فيقول هذا الرَّجُل: أنا من قُرَيْش، وهذا يقول أنا من كذا، أنا من كذا؟ ليس هذا المراد، المراد التَّعَارُفُ، أن يَعْرِفَ النَّاسُ بعضهم بعضًا، إذ لولا هذا الَّذي صَيَّرَهُ اللهُ عَزَّجَلَّ ما عُرِفَ الإنسانُ من أيِّ قبيلة؛ ولهذا كان من كبائر الذُّنُوب أن يَتَنَسَّبَ الإنسانُ إلى غير أبيه<sup>(٢)</sup>؛ لأنَّه إذا انتسب إلى غير أبيه غيَّرَ هذه الفِطْرَةَ الَّتِي فَطَرَ اللهُ النَّاسَ عَلَيْهَا، وهي أَنَّهُمْ شُعُوبٌ وَقَبَائِلُ من أَجْلِ التَّعَارُفِ، فيقال: هذا فلان ابن فلان إلى آخر الجَدِّ الَّذِي كان أَبًا للقبيلة.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ أي: لا لِتَفَاخَرُوا بالأحساب والأنساب.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ ليس الكَرَمُ أن يكون الإنسانُ من القبيلة الفُلَانِيَّة، أو من الشَّعْبِ الفُلَانِيِّ، الكرم الحقيقي النَّافِعُ هو الكَرَمُ عِنْدَ اللهِ، ويكون

(١) انظر تفسير جزء عم لفضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، رقم (٣٥٠٩)، من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ:

«إن من أعظم الفري أن يدَّعي الرجل إلى غير أبيه».

بالتَّقْوَى، فكلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَتَقَى اللَّهَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ أَكْرَمَ، فَإِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ تَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ كَرِيمًا، فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالتَّقْوَى كُلُّهَا خَيْرٌ، وَكُلُّهَا بَرَكَةٌ، وَكُلُّهَا سَعَادَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢-٦٣]، وما أكثر ما تَرَدُّ على أَسْمَاعِنَا كَلِمَةُ التَّقْوَى، وَلَيْسَ لَفْظًا يَجْرِي عَلَى الْأَلْسُنِ وَيَمُرُّ بِالْأَذَانِ بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَفْظًا عَظِيمًا مُوقِّرًا مُعْظَمًا مُحْتَرَمًا، وَيَفُوتُ الْإِنْسَانُ مِنَ التَّقْوَى بِقَدَرِ مَا خَالَفَ فِيهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ، فَإِذَا رَأَيْنَا مَثَلًا إِنْسَانًا يَتَقَدَّمُ إِلَى الْمَسْجِدِ وَيُصَلِّي مَعَ الْجَمَاعَةِ وَيَتَشَعُّ فِي صَلَاتِهِ، وَيُؤَدِّيهَا بِكُلِّ طُمَأْنِينَةٍ، وَآخَرَ بِالْعَكْسِ يُصَلِّي فِي بَيْتِهِ وَيَقْتَصِرُ فِيهَا عَلَى الْوَاجِبِ، فَالْأَوَّلُ أَتَقَى.

إِذَنْ: فَهُوَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ حَتَّى لَوْ كَانَ مَوَلًى مِنَ الْمَوَالِي، وَالْآخِرُ مَنْ أَرْفَعَ النَّاسُ نَسَبًا، فَإِنَّ الْأَتَقَى لِلَّهِ هُوَ الْأَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ أَنْ يَحْطَى عِنْدَ السُّلْطَانِ فِي الدُّنْيَا، وَيَكُونَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ لَا نُحِبُّ أَنْ نَكُونَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ، وَأَكْرَمَهُمْ عِنْدَهُ؟!

المَسْأَلَةُ هُوَ وَشَيْطَانٌ، وَإِلَّا لَكَانَ الْأَمْرُ وَاضِحًا، فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَتَنَالَ الْكَرَمَ عِنْدَ اللَّهِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ هُنَا مُطْلَقٌ، وَلَمْ يُقَيَّدْ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. ﴿خَيْرٌ﴾ الْخَبْرَةُ هِيَ الْعِلْمُ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ، وَالْعِلْمُ بِالظُّوَاهِرِ لَا شَكَّ أَنَّهُ صِفَةُ مَدْحٍ وَكَمَالٍ، لَكِنِ الْعِلْمُ بِالْبَوَاطِنِ أَبْلَغُ، فَيَكُونُ عَلِيمًا بِالظُّوَاهِرِ، وَخَيْرًا بِالْبَوَاطِنِ، فَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِلْمُ وَالْخَبْرَةُ صَارَ هَذَا أَبْلَغَ فِي الْإِحَاطَةِ، وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ الْخَبْرَةَ لَهَا مَعْنَى

زائد على العلم؛ لأنَّ الحَيِّرَ عند النَّاسِ هو العَلِيمُ بِالشَّيْءِ الحَاضِرِ فِيهِ، بخلاف الإنسان الَّذي عنده عِلْمٌ فقط، ولكن ليس عنده حِذْقٌ، فَإِنَّهُ لَا يُسَمَّى خَبِيرًا، فعلى هذا يكون الخبيرُ مُتَضَمِّنًا لمعنى زائد على العلم.





## الآية (١٤)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

• • • • •

ثم قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ الأعراب اسم جمع لأعرابي، والأعرابي هو ساكن البادية كالبديوي تماماً، فالأعراب افتخروا، فقالوا: آمنا آمنا، افتخروا بإيمانهم، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ قيل: إن هؤلاء من المنافقين، لقول الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ [التوبة: ١٠١]، والمنافق مسلم، ولكنه ليس بمؤمن؛ لأنه مُستثنى في الظاهر، إذ إن حال المنافق أنه كالمسلمين؛ ولهذا لم يقتلهم النبي ﷺ مع علمه بنفاقهم مع أنهم مسلمون ظاهراً لا يُخالفون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً.

وقيل: إنهم أعراب غير منافقين، لكنهم ضعفاء الإيـان، يمشون مع الناس في ظاهر الشرع، لكن قلوبهم ضعيفة، وإيمانهم ضعيف.

وعلى القول الأول: يكون قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أنه لم يدخل أصلاً، وعلى الثاني: أي لما يدخل الإيمان الدخول الكامل المطلق، ففيهم إيمان لكن لم يصل الإيـان في قلوبهم على وجه الكمال، والقاعدة عندنا في التفسير أن الآية إذا

اَحْتَمَلْت مَعْنَيْنِ، فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا إِذَا لَمْ يَتَنَافَا، فَإِنْ تَنَافَا طُلِبَ الْمَرْجُحُ.

فالأعراب الغالب عليهم أنهم لا يعرفون حُدُودَ ما أنزل الله على رسوله، فيقولون آمَنَّا، فقال الله تعالى يُحَاطَبُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ووجه ذلك أَنَّ الإِيْمَانِ فِي الْقَلْبِ، وَهُوَ صَعْبٌ، وَالْإِسْلَامُ عَلَامَةٌ فِي الْجَوَارِحِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُمَكِّنُ أَنْ يَعْمَلَ بِجَوَارِحِهِ عَمَلًا مُتَقَنًا كَأَحْسَنَ مَا يَكُونُ، فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ الْخَوَارِجِ أَنَّهُمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَأَنَّهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الصَّحَابَةِ يَحْقِرُ صَلَاتَهُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ، وَقِرَاءَتَهُ عِنْدَ قِرَاءَتِهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»<sup>(١)</sup> نَسَأَلَ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، وَأَنَّهُمْ يَمِرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمِرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ.

وهذا يدلُّ على أَنَّ الْإِسْلَامَ يَسْتَطِيعُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ يُمَكِّنُ أَنْ يُصَلِّيَ وَيَسْجُدَ وَيَقْرَأَ وَيَصُومَ وَيَتَصَدَّقَ وَقَلْبُهُ خَالٍ مِنَ الْإِيْمَانِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وَهُنَا التَّعْيِيرُ يَقُولُ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (وَلَمْ يَدْخُلْ)، قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِذَا أَتَتْ (لَمَّا) بَدَلْ (لَمْ) كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى قُرْبِ وَقُوعِ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَمَثَلًا إِذَا قُلْتَ: (فُلَانٌ لَمَّا يَدْخُلُهَا) أَيُّ أَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ﴾ [ص: ٨] أَيُّ لَمْ يَذُوقُوهُ، وَلَكِنْ قَرِيبٌ مِنْهُ، وَهَذَا قَالَ: (لَمَّا يَدْخُلْ) أَيُّ لَمْ يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَكِنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الدُّخُولِ.

﴿وَلِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ إِنْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَنْقُصَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا بَلْ سَيُوفِّرُهَا لَكُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب، رقم (٤٣٥١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كاملة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فكلُّ إنسان يُجْزَى على عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ، لكن رحمة الله عزَّ وجلَّ سَبَقَتْ غَضَبَهُ <sup>(١)</sup> ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وقد يُعاقب، وقد يعفو الله عنه، فالسَّيِّئَات يُمكن أن تُمحى، والحسنات لا يُمكن أن تُنْقَص؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَلْتَكُرُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي لا ينقصكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ختم الآية بالمغفرة والرحمة، إشارة إلى أن هؤلاء الذين قالوا إنهم آمنوا، قرييون من المغفرة والرحمة، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولكنه قريب من دُخوله.

في هذه الآية الكريمة فرق بين الإسلام والإيمان، وكذلك في حديث جبريل عليه السلام فرق بين الإسلام والإيمان، ففي حديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام قال: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحْجَّ الْبَيْتَ».

وفي الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» <sup>(٢)</sup>، ففرق بين الإسلام والإيمان، وفي أدلة أخرى يجعل الله الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان؛ فهل في هذا تناقض؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (٧٤٠٤)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

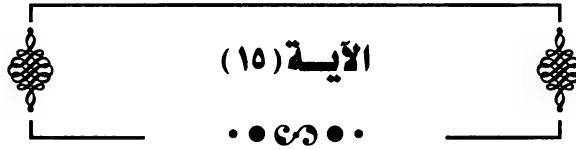
والجواب: لا، فإذا قُرِنَ الإسلام بالإيمان صاراً شَيْئَيْنِ، وإذا ذُكِرَ الإسلام وحده، أو الإيمان وحده صاراً بمعنى واحد؛ ولهذا نظائر في اللغة العربية كثيرة؛ ولهذا قال أهل السُّنَّة والجماعة: إِنَّ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا، يعني إذا ذُكِرَا في سياق واحد فهما شَيْئَانِ، وإذا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا دُونَ الآخر فهما شَيْءٌ واحد، ويدلُّ على هذا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عدَّد أَعْمَالاً هي من الإسلام، وجعلها من الإيمان فقال: «الإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» مع أَنَّها من الإسلام، قال: «الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». «وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ».

وإِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطريق من الإسلام؛ لِأَنَّهَا عَمَلٌ، والأعمال جَوَارِحُ «وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»<sup>(١)</sup> وهذا في القلب.

فالمهمُّ: الإيمان والإسلام إذا افترقا فهما شَيْءٌ واحد، وإن اجتمعا فهما شَيْئَانِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، رقم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ﴾ [الحجرات: ١٥].

• • • • •

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ﴿ إِنَّمَا أَدَاهُ حَضَرَ تُفِيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، أي ما المؤمنون إلا هؤلاء، والمراد: المؤمنون حقاً الذين تمَّ إيمانهم إلا هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، (آمنوا) أقرُّوا إقراراً مُستلزماً للقبول والإذعان، وليس مجرد الإقرار كافياً، بل لا بُدَّ من قبول وإذعان، والدليل على أن مجرد الإقرار ليس بكافٍ أن النَّبِيَّ ﷺ أخبر عن عمه أي طَالِب أَنَّهُ فِي النَّارِ<sup>(١)</sup>، وذلك مع أَنَّهُ مُؤْمِن بِالرَّسُولِ ﷺ مُصَدِّقُ بِهِ، يقول في لاميته المشهورة<sup>(٢)</sup>:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّا ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

ويقول عن دين الرسول<sup>(٣)</sup>:

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه، رقم (٢٠٩)، من حديث العباس عم الرسول ﷺ ورضي الله عنه.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠)، وديوان أبي طالب (ص ٨٤). وقال ابن هشام بعد أن ذكرها: هذا ما صح لي من هذه القصيدة، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

(٣) انظر: تهذيب اللغة (١٠ / ١١١)، وخزانة الأدب (٢ / ٧٦)، وديوان أبي طالب (ص ٨٧، ١٨٩).

## وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ خَيْرٌ أَذْيَانِ الرِّيَّةِ دِينَا

لكنه -والعياذ بالله- لم يقبل هذا الدين، ولم يُدعِن له، وكان آخر ما قال: إنه على الشرك على ملة عبد المطلب<sup>(١)</sup>، فالذين آمنوا بالله ورسوله، هم الذين أقرؤا إقرارًا تامًا بما يستحقُّ الله عزَّ وجلَّ وبما يستحقُّ الرسول ﷺ، وقبلوا بذلك وأذعنوا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا في موقعٍ من أحسن المواقع؛ لأنَّ (ثُمَّ) تدلُّ على الترتيب والمهلة، ثمَّ استقرُّوا وثبتوا على الإيمان مع طول المدة. ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾: أي لم يلحقهم شكٌّ في الإيمان بالله ورسوله.

وهنا ننبه إلى مسألة يكثر السؤال عنها في هذا الوقت -وإن كان أصلها موجودًا في عهد الرسول ﷺ- وهي الوسَّوس التي يلقيها الشيطان في قلب الإنسان، فيُلقي الشيطان في قلب الإنسان أحيانًا وسَّوسًا وشكوكًا في الإيمان أو في القرآن، أو في الرسول، يُحبُّ الإنسان أن يُمزَّق لحَمَه، ويكسر عظمه ولا يتكلَّم بذلك، فما موقف الإنسان من هذا؟

موقف الإنسان من هذا: أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وينتهي، ويُعرِّض عن هذا، ولا يُفكِّر فيه إطلاقًا، وقد أخبر النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ مثل هذه الوسَّوس صريح الإيمان<sup>(٢)</sup>، أي خالص الإيمان، وهذا إنما كان خالص الإيمان؛ لأنَّ الشيطان لا يأتي للإنسان الشاكَّ يُشكِّكه في دينه، وإنما يأتي لإنسان ثابت مُستقر؛

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، رقم (٤٧٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، رقم (٢٤)، من حديث المسيب ابن حزن رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

لِيُشَكِّكَ فِي دِينِهِ، فَيُفْسِدَهُ عَلَيْهِ.

فَالْمُؤْمِنُ الَّذِي اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ وَاطْمَأَنَّ قَلْبُهُ بِالْإِيمَانِ هُوَ الَّذِي يَأْتِيهِ الشَّيْطَانُ لِيُفْسِدَ عَلَيْهِ، أَمَّا مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَأْتِيهِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ؛ لِأَنَّهُ مُتَّبِعُهُ مِنْهُ.

وَالْمِهْمُ: أَنْ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْكَأُوا﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ ثَبَتُوا عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَوْ طَالَتِ الْمُدَّةُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا الطَّرِيقَةُ الَّتِي تُوجِبُ لِلْإِنْسَانِ ثُبُوتَ الْإِيمَانِ وَاسْتِقْرَارَهُ؟

قُلْنَا: أَوَّلًا: أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ لَمْ تَكُنْ وَلِيدَةً الصَّدْفَةِ، وَلَمْ تَكُنْ وَلِيدَةً بِنَفْسِهَا.

ثَانِيًا: أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ وَكَمَالِهَا.

ثَالِثًا: أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَآيَاتِهِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

رَابِعًا: أَنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ، وَيُكْثِرُ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ لِأَنَّ الطَّاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةَ تَزِيدُ فِي الْإِيمَانِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هَذَا أَيْضًا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ءَامِنُوا﴾، أَي: هُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَقِينِهِمْ وَعَدَمِ ارْتِيَابِهِمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُصْلِحُوا عِبَادَةَ اللَّهِ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يُجَاهِدُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ لِيَرْجِعُوا إِلَى دِينِ اللَّهِ وَيَسْتَقِيمُوا عَلَيْهِ، لَا لِلانْتِقَامِ مِنْهُمْ، وَلَا لِلانْتِصَارِ لَأَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِيَدْخُلُوا فِي دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

والجهد في سبيل الله هو القتال، لتكون كلمة الله هي العليا، لا للانتقام، فالقتال للانتقام ليس إلا مدافعة عن النفس، أو أخذًا بالثأر فقط، لكن الجهاد حقيقة هو أن يُقاتل الإنسان لتكون كلمة الله هي العليا.

أمّا الجهاد انتصارًا للنفس، أو دفاعًا عن النفس فقط، فليس في سبيل الله، لكن لا شك أن من قاتل دفاعًا عن نفسه فإنه إن قُتل فهو شهيد، وإن قتلته صاحبه فصاحبه في النار كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ، فيمن أراد أن يأخذ مآلَكَ قال: «لَا تُعْطِهِ»، قال: يا رسول الله، أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي، قَالَ: «قَاتِلُهُ»، قال: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «أَنْتَ شَهِيدٌ»، قال: إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «فَهُوَ فِي النَّارِ»<sup>(١)</sup>، فالجهاد في سبيل الله هو القتال لتكون كلمة الله هي العليا، هذا هو الذي حدّده النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وفصله تفصيلًا قاطعًا.

﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقُتِلُوا أَوْ هَلَكُوا بِالسَّيْفِ أَوْ بِالْجُنَّةِ أَوْ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَمْ يَكُن لَهُمْ بَأْسٌ فَاتُوا﴾ في إيمانهم وعدم ارتيابهم، أمّا الذين قالوا من الأعراب آمنّا ولكنهم لم يؤمنوا حقيقة ولكن أسلموا فإنهم ليسوا صادقين؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه، رقم (١٤٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



## الآية (١٦)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٦].

• • ❦ • •

﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا إنكار لقول الذين قالوا آمنا، يعني: اتعلمون الله تعالى بأنكم آمتتم وهو عليم بكل شيء، وتعلمون الله بمعنى: تخبرون الله، وليس المراد أن ترفعوا جهله عن حالكم، فهو يعلم حالهم سبحانه وتعالى ويعلم أنهم مؤمنون أو غير مؤمنين، لكن تعلمون هنا بمعنى تخبرون، وليس معناه أن ترفعوا الجهل عن الله عز وجل؛ لأن الله ليس جاهلاً بحالهم، بل هو عالم.

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ حينما قلتم آمنا.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ومنها أي ما في السموات وما في الأرض حالكم إن كنتم مؤمنين أو غير مؤمنين، وفي هذه الآية إشارة إلى أن النطق بالنية في العبادات منكراً؛ لأن الإنسان الذي يقول: أريد أن أصلي، يعلم الله عز وجل بما يريد من العمل، والله يعلم، والذي يقول: أريد أن أصوم كذلك، والذي يقول: نويت أن أتصدق كذلك، والذي يقول: نويت أن أحج كذلك أيضاً؛ ولهذا لا يُسنُّ النطق بالنية في العبادات كلها لا في الحج ولا في الصدقة، ولا في الصوم، ولا في

الْوُضُوءُ، وَلَا الصَّلَاةَ، وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ مُحَلُّهَا الْقَلْبَ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ،  
وَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ تُخْبِرَ اللَّهُ بِهَا.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فَمَا فِي السَّمَوَاتِ عَامٌّ، وَمَا فِي الْأَرْضِ عَامٌّ، فَكُلُّ  
شَيْءٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا الْكَلَامُ مَرَارًا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَالَّتِي  
هِيَ مِنْ أَوْسَعِ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ خَفِيٌّ أَوْ بَيِّنٌ، عَامٌّ أَوْ خَاصٌّ،  
فَهُوَ عَالِمٌ بِهِ جَلَّ وَعَلَا.



## الآية (١٧)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

• • ❦ • •

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في هذه الآية تكررَت ﴿أَنْ﴾ ثلاث مرَّات: أي يَمُنُونَ عليك يا مُحَمَّدُ بِإِسْلَامِهِمْ، وحذفُ الجارِ مع (أَنْ) مُطَرَّدٌ كما قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْأَلْفِيَّةِ<sup>(١)</sup>.

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أي: بأن أسلموا أي بإسلامهم، ويعني بذلك قومًا أسلموا من دُون قتال فجعلوا يَمُنُونَ على الرِّسُولِ ﷺ يَذْكُرُونَ لَهُ الْفَضَائِلَ ويقولون: نحنُ آمَنَّا بِكَ مِنْ دُونِ قتال، مع أنَّ المصلحةَ لهم؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، وقولُه: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ هذا إضرابٌ لِإِبْطَالِ مَا سَبَقَ، أي: ليس لكم مِنَّةٌ على الرِّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِسْلَامِكُمْ، بل المِنَّةُ لله عَزَّوَجَلَّ عليكم أن هداكم للإيمان، ولا شكَّ أنَّ هذا أعظمُ مِنَّةٍ أن يَمُنَّ اللهُ على العبدِ بالهداية إلى الإيمان، مع أنَّ الله أضلَّ كثيرًا من الأمَّةِ عنه، وقد أخبرَ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ من كُلِّ

(١) الألفية (ص: ٢٨). حيث قال:

وإن حذف فالتصب للمنجر  
مع أمن لبس كمعجت أن بدوا

وعد لازما بحرف جر  
نقلا وفي أن وأن يطرد

ألف تسع مئة وتسعة وتسعين كلهم في النار وواحدًا من الجنة<sup>(١)</sup>، فَمَنْ وَفَّقَ لَأَنْ  
يكون في الجنة فَإِنَّ هذه مِنَّةٌ عظيمة.

ولهذا كان الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حين جَمَعَهُم النَّبِيُّ ﷺ يوم قَسَمَ غنائم حُنَيْنٍ  
كُلَّمَا ذَكَرَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُ، قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ فِي ضَلَالٍ فَهَذَا كُمْ  
اللهُ بِي»، قالوا: الله ورسوله أَمَنُ، قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمْ اللهُ بِي؟»  
قالوا: الله ورسوله أَمَنُ<sup>(٢)</sup>، كُلَّمَا ذَكَرَ شَيْئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُ، فالْمِنَّةُ لله على كُلِّ  
من هداه الله بِنِعْمِهِ، فالْمِنَّةُ لله عَزَّوَجَلَّ عليه.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إِنْ كُنْتُمْ من ذَوِي الصِّدْقِ القائلين بالصِّدْقِ،  
فإِنَّ الْمِنَّةَ لله عليكم ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، رقم (٦٥٣٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب يقول الله تعالى لأدم: أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)،  
من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب  
إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن  
زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (١٨)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[الحجرات: ١٨].

• • •

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أخبر الله في هذه الآية أنه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض، وما ظهر فهو من باب أولى، وأخبر عزَّجَلَّ أن من جملة ما يعلمه عمل بني آدم؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وهذه الآية تُفيد مسألة عظيمة في سلوك الإنسان وعمله، وهي أن يعلم بأن الله تعالى بصيرٌ بعمله مُحيطٌ به، فيخشى الله ويتقيه، وفيها التَّوَقُّفُ في الأعمال الصَّالحة فإنَّها لن تَضِيْعَ، وفيها التَّرهيب من العمل السيِّئ؛ لأنَّ العبدَ سيُجازى عليه؛ لأنَّ الكلَّ معلوم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نسأل الله تعالى أن يَمُنَّ علينا بالهداية والتَّوفيق.

• • •



سورة ق  
الآية (١)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

• • ❦ • •

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، البَسْمَلَةُ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا، وَأَنَّهَا آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ يُؤْتَى بِهَا فِي ابْتِدَاءِ كُلِّ سُورَةٍ إِلَّا سُورَةَ بَرَاءَةِ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمْ يَكْتُبُوا أَمَامَهَا بِسْمَلَةً، وَلَكِنْ جَعَلُوا فَاصلًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ آخِرِ سُورَةِ الْاَنْفَالِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ ذِكْرٌ يُذَكِّرُ بِدَلَالَةٍ عَنِ الْبَسْمَلَةِ، كَمَا يُوجَدُ فِي هَامِشِ بَعْضِ الْمَصَاحِفِ؛ حَيْثُ كَتَبَ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ كِيدَ الْفَجَّارِ، وَمَنْ غَضِبَ الْجَبَّارِ، الْعِزَّةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا كَلَامٌ بِذَعْيٍ لَا أَصْلَ لَهُ.

﴿قَ﴾ حَرْفٌ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَهْجَائِيَّةِ الَّتِي يُتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ، وَهِيَ كَسَائِرُ الْحُرُوفِ، لَيْسَ لَهَا مَعْنَى فِي حَدِّ ذَاتِهَا، وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، فَهِيَ كَذَلِكَ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى الذَّاتِيَّةُ لَهَا.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَغْزَى الْعَظِيمِ الْكَبِيرِ، فَلَهَا مَغْزَى عَظِيمٌ كَبِيرٌ، أَلَا وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَعْجَزَ الْعَرَبَ مَعَ بِلَاغَتِهِمْ وَفَصَاحَتِهِمْ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ جَدِيدٍ مِنْ حُرُوفٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا، بَلْ هُوَ بِالْحُرُوفِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ عَجَزُوا عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ جَلَّ وَعَلَا؛ وَهَذَا لَا تَكَادُ تُجِدُ سُورَةً ابْتَدَأَتْ بِالْحُرُوفِ الْمَهْجَائِيَّةِ إِلَّا وَبَعْدَهَا ذِكْرُ الْقُرْآنِ<sup>(١)</sup>.

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ الواو هنا حَرَفٌ قَسَمٌ، أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُقْسِمَ بِمَا شَاءَ، وَإِقْسَامُهُ هُنَا بِالْقُرْآنِ إِقْسَامٌ بِكَلَامِهِ، وَكَلَامُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ صِفَاتِهِ، وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ يَجُوزُ الْإِقْسَامُ بِاللَّهِ تَعَالَى، أَوْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وَأَمَّا آيَاتُهُ فَلَا يُقْسَمُ بِهَا إِلَّا إِذَا قَصَدَ الْإِنْسَانُ بِالْآيَاتِ كَلِمَاتِهِ، كَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالتَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَأَمَّا الْآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُقْسِمَ بِهَا، أَمَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَلَهُ أَنْ يُقْسِمَ بِمَا شَاءَ، وَالْقُرْآنُ مَأْخُذٌ مِنْ قَرَأَ إِذَا تُلِيَ، أَوْ مِنْ قَرَأَ إِذَا جُمِعَ، وَمِنْهُ قَرِيبَةٌ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا، وَالْقُرْآنُ يَتَضَمَّنُ الْمَعْنَيْنِ، فَهُوَ مَتْلُوٌّ وَهُوَ مَجْمُوعٌ أَيْضًا.

﴿الْمَجِيدِ﴾ أَيُّ ذُو الْمَجْدِ، وَهُوَ الْعَظَمَةُ وَالسُّلْطَانُ الْمَطْلُوقُ، فَالْقُرْآنُ لَهُ عَظَمَةٌ عَظِيمَةٌ، مُهَيِّمٌ مُسَيِّطِرٌ عَلَى جَمِيعِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، حَاكِمٌ عَلَيْهَا، لَيْسَ مُحْكَمًا عَلَيْهِ، وَهُوَ أَيْضًا مُجِيدٌ، بِهِ يُمَجَّدُ وَيَعْلُو وَيُظْهَرُ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝١١﴾ فِي تَوْجِ تَحْفُوطٍ ﴿٢﴾ [البروج: ٢١-٢٢].



(١) انظر تفصيل ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ سورة البقرة.

(٢) انظر تفسير جزء عم لفضيلة الشيخ رحمه الله.



## الآيتان (٢، ٣)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِنْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٢-٣].

• • •

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ هنا لا يتراءى للإنسان التالي جواب القسم.

فاختلف العلماء رَجْعَهُمُ اللَّهُ في مثل ذلك: هل له جواب، أو جوابه يُعرف من السياق، أو يُعرف من المُقَسَم به؟

وأظهر ما يكون أن نقول: إن مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب القسم؛ لأنه معروف من عظمة المُقَسَم عليه، فكأنه أقسم بالقرآن على صحة القرآن، فالقرآن المجيد لكونه مجيداً كان دليلاً على الحق، وأنه مُنَزَّل من عند الله سُبحانه وتعالى، وحينئذ لا يحتاج القسم إلى جواب؛ لأنَّ الجواب في ضمن القسم.

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾: ﴿عَجِبُوا﴾ الواو تعود على المكذِّبين للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِينَ كَذَّبُوا رسالته، وكذبوا بالقرآن، وكذبوا بالبعث، وكذبوا باليوم الآخر؛ ولهذا ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ عَجِبُوا عَجَبَ استغراب واستنكار، وإنَّا قلنا ذلك لأنَّ العَجَب تارة يُراد به الاستنكار والتكذيب، وتارة يُراد به الاستحسان، فقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ الرَّسُولُ ﷺ

يُعْجِبُهُ التَّيْمُنُ فِي تَعْلِهِ، وَتَرْجُلِهِ، وَطَهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»<sup>(١)</sup>.

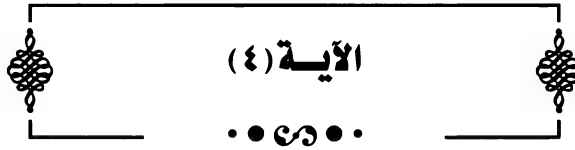
والمراد بالعجب هنا الاستحسان، وقوله هنا: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ المراد به الاستنكار والتكذيب.

﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: ليس بعيداً عنهم بل هو منهم نسباً وحسباً ومسكناً، يعرفونه، ومع ذلك قالوا هذا شيء عجيب ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ لما جاءهم محمد رسول الله ﷺ أخبرهم بأن الله سوف يبعثهم، ويحاسبهم تعجبوا كيف هذا؟ أيجبى الإنسان بعد أن كان رفاتاً، قال الكافرون: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٢) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴿: (إذا) من المعروف أنها ظرفية، وكل ظرف يحتاج إلى عامل، والعامل محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نرجع ونبعث ثم قال: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

ولهذا يحسن عند التلاوة أن تقف على قوله: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ لأن قوله: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ جملة استثنائية لا علاقة لها من حيث الإعراب بما قبلها، والاستفهام هنا بمعنى الإنكار والتكذيب، كأنهم يقولون: لا يمكن أن نرجع ونبعث بعد أن كنّا تراباً وعظاماً، ولكن بين الله عز وجل أنه قادر على ذلك، فلما قالوا: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ومُرَادُهُم بِالْبُعْدِ هُنَا الاستحالة، فهم يرون أن ذلك مستحيل، وربما تلطّف بعضهم وقال: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فهم تارةً يُنْكِرُونَ إنكاراً مطلقاً، ويقولون هذا محال، وتارةً يقولون: هذا بعيد.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل، رقم (١٦٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره، رقم (٢٦٨).



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْزٌ حَفِیْظٌ ﴾ [ق: ٤].



قال الله تعالى مُبَيِّنًا قُدْرَتَهُ عَلَى ذَلِكَ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ الأرض تأكل الإنسان إذا مات، فالله تعالى يَعْلَمُ مَا تَنْقُصُ الأرض من أجزاء بَدَنِهِ ذَرَّةً بعد ذَرَّةً، ولو أَكَلَتْهُ الأرض، وقوله: ﴿مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ قد يُفِيدُ أَنَّهَا لَا تَأْكُلُ كُلَّ الجِسم، وفي ذلك تفصيل، أمَّا الأنبياء فإنَّ الأرض لَا تَأْكُلُهُمْ مَهْمَا دَامُوا فِي قُبُورِهِمْ، لقول النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»<sup>(١)</sup>.

وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَقَدْ يَبْقَى الْجِسم مُدَّةً طَوِيلَةً لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، وَقَدْ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ، لَكِنْ إِذَا أَكَلَتْهُ الْأَرْضُ فَإِنَّهُ يَبْقَى عَجَبُ الذَّنْبِ، وَعَجَبُ الذَّنْبِ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْجُزْءِ الْيَسِيرِ مِنَ الْعَظْمِ بِأَسْفَلِ الظَّهْرِ، هَذَا يَبْقَى -بِإِذْنِ اللَّهِ- لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ كَأَنَّهُ يَكُونُ نَوَاطِلُ الْجِسم عِنْدَ بَعْثِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهُ يُخْلَقُ الْآدَمِيُّ فِي قَبْرِهِ، فَإِذَا تَمَّ النَّفْخُ فِي الصُّورِ قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَالِمًا بِمَا نَقَصَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَرُدَّ هَذَا الَّذِي نَقَصَتْهُ الْأَرْضُ عِنْدَ الْبَعْثِ.

(١) أخرجه أحمد (٨/٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥)، من حديث أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَعِنْدَنَا﴾ أي عند الله تعالى ﴿كِتَابٌ حَفِیْظٌ﴾، أي: حافظ لكل شيء، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ ❶ ﴿وَلَنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ❷ ﴿كَرَامًا كَثِيرِينَ﴾ ❸ ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار: ٩-١٢].



## الآية (٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥].

• • • • •

قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي، وليست للإضراب الإبطالي؛ لأنَّ الأوَّل ثابت والثَّاني زائد عليه، وهذا هو الفرق بين (بل) الَّتِي للإضراب الإبطالي، وبين (بل) الَّتِي للإضراب الانتقالي، فصارت (بل) للإضرابِ دائماً، لكن إن كانت تُبطل الأوَّل سَمَّوها إضرابَ إبطال، وإن كانت لا تُبطله فهو إضرابٌ انتقاليٌّ، كأنه انتقل من موضوع إلى آخر ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ ولكنَّ قلوبهم مُوقِنَةٌ، إِلَّا أَنَّ أَلْسِنَتَهُمْ تُكَذِّبُ، كما قال الله سُبحَانَهُ وتعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وظُلُومًا﴾ [النمل: ١٤].

﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ لَمَّا هنا بمعنى حِينَ، فهي ظرف وليست حرفاً.

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ الفاء هنا للتعقيب والسَّبَبِيَّةُ، والمعنى فهُم لما كَذَّبُوا بالحقِّ في أمرٍ مَرِيجٍ، أي: مُخْتَلِطٌ اختَلَطَ عليهم الأمرُ -والعياذُ بالله- وهو كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] يعني لأنَّهم لم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ وظلُّوا في طُغْيَانِهِمْ يَعْصَهُونَ، هؤلاء لما كَذَّبُوا صاروا في أمرٍ مَرِيجٍ، التبس عليهم الأمرُ، وتردَّدوا في أمرهم.

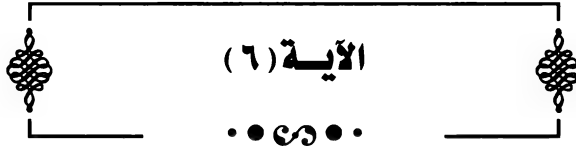
وهكذا كل إنسان يَرُدُّ الحقَّ أوَّلَ مرَّةٍ، فليعلم أَنَّهُ سيُتلى بالشُّكِّ والرَّيبِ في

قَبُولَ الْحَقِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا مِنْ حِينَ أَنْ نَسْمَعَ أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ حَقٌّ أَنْ نَقُولَ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، خِلَافًا لِبَعْضِ النَّاسِ الْآنَ، نَقُولُ: أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بِهَذَا؟ فَيَقُولُ: الْأَمْرُ لِلْجَوَابِ أَمْ لِلِاسْتِحْبَابِ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ، أَفَعَلَ مَا أَمَرَكَ بِهِ سِوَاءَ عَلَى الْجَوَابِ أَوْ عَلَى الْإِسْتِحْبَابِ؟ لِأَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: هَلْ هُوَ لِلْجَوَابِ أَوْ لِلِاسْتِحْبَابِ؟ مَعْنَاهُ إِذَا كَانَ لِلِاسْتِحْبَابِ فَأَنَا فِي حِلٍّ مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ لِلْجَوَابِ فَعَلْتُهُ، وَهَذَا خَطَأٌ، وَلَكِنْ قُلْ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، ثُمَّ إِذَا وَقَعَتِ الْمُخَالَفَةُ فَحِينَئِذٍ رَبِّمَا يَكُونُ السُّؤَالُ عَنْهُ: هَلْ هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ؟ رَبِّمَا يَكُونُ وَجِيهًا، أَمَّا قَبْلَ فَلَاحِ.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا أَسْأَلُ هَلْ هُوَ وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَبٌّ؟ لِأَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ، وَالْوَاجِبُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ، فَأَنَا أَفْعَلُهُ مِنْ أَجْلِ إِذَا اعْتَقَدْتُ أَنَّهُ وَاجِبٌ أَثَابَ عَلَيْهِ ثَوَابَ وَاجِبٍ، وَإِذَا اعْتَقَدْتُ أَنَّهُ سُنَّةٌ أَثَابَ عَلَيْهِ ثَوَابَ سُنَّةٍ.

قُلْنَا: نَعَمْ، هَذَا طَيِّبٌ، لَكِنْ ثَوَابُ انْقِيَادِكَ لِلْحَقِّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَبِكُلِّ سُهولةٍ وَمِنْ دُونِ سُؤَالِ أَفْضَلُ مِنْ كَوْنِكَ تَعْتَقِدُهُ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ أَوْجَبَهُ عَلَيْكَ أَثَابَكَ ثَوَابَ الْوَاجِبِ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي، فَالْإِنْقِيَادُ وَتَمَامُ الْإِنْقِيَادِ أَفْضَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ كَوْنِي أَعْتَقِدُ هَذَا وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبًّا.





❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق:٦].



ثمَّ قال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾ استدلَّ بالآيات الكونية على صحَّة الآيات الشرعية.

والاستفهام هنا للتوبيخ، يُوبِّخهم عَزَّوَجَلَّ لماذا لم يَنْظُرُوا إلى هذا؟ لماذا لم يَنْظُرُوا إلى السَّماء وما فيها مِنْ عَجَائِبِ الْقُدْرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى الَّذِي أَنْكَرَهُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾ يَشْمَلُ نَظَرَ الْبَصَرِ، وَنَظَرَ الْبَصِيرَةِ، نَظَرَ الْبَصَرِ يَكُونُ بِالْعَيْنِ، وَنَظَرَ الْبَصِيرَةِ يَكُونُ بِالْقَلْبِ، أَي: التَّفَكُّرُ، وقوله: ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾.

قد يقول قائل: إِنَّ كَلِمَةَ: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لا فائدة منها؛ لِأَنَّ السَّمَاءَ مَعْرُوفَةٌ أَنَّهَا فَوْقَ.

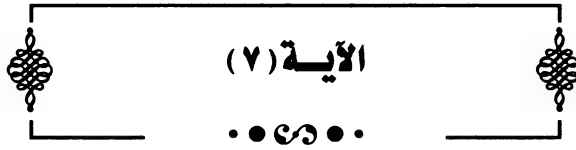
ولكن نقول: إِنَّ النَّصَّ عَلَى كَوْنِهَا فَوْقَهُمْ إِشَارَةٌ إِلَى عَظَمَةِ هَذِهِ السَّمَاءِ، وَأَنَّهَا مَعَ عُلُوِّهَا وَارْتِفَاعِهَا وَسَعَتِهَا وَعَظَمَتِهَا تَدُلُّ عَلَى كِبَالِ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ بَنَاهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِقُوَّةٍ وَجَعَلَهَا قُوَّةً، فَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا:١٢] أَي قُوَّةً.

وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] أي بقوة، وهذا البناء لا نعلم كيف بناها الله عز وجل، لكننا نعلم أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، خلق الأرض في أربعة، والسماء في يومين، كما قال الله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله: ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي حسناً منظرها، بما خلق الله تعالى فيها من النجوم العظيمة المنيعة المنتظمة في سيرها، وهذه النجوم قال قتادة رحمه الله وهو من أئمة التابعين: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، وعلامات يُهتدى بها، ورُجوماً للشياطين، فمن ابتغى فيها شيئاً سوى ذلك فقد أضاع نصيبه، وتكلفت ما لا علم له به»<sup>(١)</sup> يُشير إلى ما يتحمله المنجمون من الاستدلال بحركات هذه النجوم على الحوادث الأرضية، حتى إنهم يبنون سعادة الشخص وشقاءه على هذه النجوم. مثلاً يقولون: إذا وُلِدَ في النجم الفلاني فهو سعيد، وإذا وُلِدَ في النجم الفلاني فهو شقي، وهذا لا أثر له، أعني تحركات النجوم في السماء، ليس لها أثر فيما يحدث في الأرض، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ يعني ليس للسماء من فُروج، أي من فُطور ونَشَقُّق، بل مَبْنِيَّةٌ مُحْكَمَةٌ قَوِيَّةٌ.



(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩٣/١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٩١٣/٩)، وعبد بن حميد كما في فتح الباري (٢٩٥/٦)، وعلقه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب في النجوم.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧].



﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ هذه ثلاثة أمور:

أولاً: الأرض مدها الله عَزَّجَلْ، مع أنها بالنسبة للسماء صغيرة جداً، لكنها ممدودة للخلق، مُسَطَّحَةٌ لهم كما قال تعالى: ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠].  
ثانياً: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ﴾ أي جبال ثابتة لا تُزعزعها الرياح فهي قاسية، وكذلك أيضاً تُرسي الأرض.

ثالثاً: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي من كُلِّ زَوْجٍ سارٍ لناظره، والمراد بالزوج هنا الصنف، يعني أن ما ينبت في الأرض أصنافٌ متعددة مُتنوعة حتى إنك ترى البقعة من الأرض وهي صغيرة تشتمل على أنواع من هذه الأصناف، تختلف في ألوانها، وتختلف في أحجامها، وتختلف في ملمسها ما بين شديدة وليئة إلى غير ذلك من الاختلافات العظيمة، بل إنها تختلف في مذاقها إذا كانت من دَوَاتِ الثَّمَرِ، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِضْ لَهَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ [الرعد: ٤] فمن القادر على أن يخلق هذه الأشياء؟ هو الله سُبحانه وتعالى.

وهذه التي ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهَيْجٍ﴾ مع أنها في مكان واحد وتُسقى بماء واحد، والأرض أيضًا واحدة، مَنْ يَقْدِرُ على هذا؟ الجواب: هو الله عَزَّوَجَلَّ إِنَّكَ تَأْتِي الْأَرْضَ الْمُعْشَبَةَ الَّتِي أَنْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مِنْ أَصْنَافِ النَّبَاتِ، فَتَتَعَجَّبُ تَرَى هَذِهِ مِثْلًا زَهْرَتَهَا صَفْرَاءَ، وَهَذِهِ بَيْضَاءَ، وَهَذِهِ بِنَفْسِجِيَّةٍ، وَهَذِهِ مُنْفَتِحَةٌ، وَهَذِهِ مُنْضَمَّةٌ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، فَهَذَا أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى الَّذِي أَنْكَرَهُ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: ﴿أَءَاذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

فَالْقَادِرُ عَلَى خَلْقِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، ثُمَّ يُقَالُ: مَنْ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ؟ هُوَ اللَّهُ، وَإِعَادَةَ الْخَلْقِ أَهْوَنُ مِنْ ابْتِدَائِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، فَإِذَا كُنْتُمْ أَهْلِهَا الْمُشْرِكُونَ تُقَرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَأَوْجَدَكُمْ، فَلِمَ إِذَا تُنْكِرُونَ أَنْ يُعِيدَكُمْ مَعَ أَنَّ أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.



## الآية (٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق: ٨].

• • • • •

﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَتَّى عَلَى أَنْ نَنْظُرَ إِلَى السَّمَاءِ وَإِلَى الْأَرْضِ، وَمَا يَحْدُثُ فِيهِمَا تَبَصَّرَةٌ، أَيْ لِأَجْلِ التَّبَصُّرَةِ وَالذِّكْرِ، قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّبَصُّرَةِ وَالذِّكْرِ أَنَّ التَّبَصُّرَةَ مُسْتَمِرَّةٌ، وَالذِّكْرَ عِنْدَ النَّسْيَانِ، فَهَذِهِ الْآيَاتُ تُذَكِّرُكَ إِذَا نَسِيتَ، وَتُبَصِّرُكَ إِذَا جَهِلْتَ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ التَّبَصُّرَةَ فِي مُقَابِلِ الْجَهْلِ، وَالذِّكْرَ فِي مُقَابِلِ النَّسْيَانِ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ.

الْمُهِّمُ: أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى السَّمَاءِ وَإِلَى الْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا مِمَّا أَوْدَعَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنَ النَّبَاتِ فَإِنَّكَ سَوْفَ تُبَصِّرُ بَقَلْبِكَ، وَتَذَكَّرُ أَيْضًا إِذَا نَسِيتَ، وَلَكِنْ لِنَ هَذِهِ التَّبَصُّرَةِ وَالذِّكْرِ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾، لَيْسَتْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، مَا أَكْثَرَ مَا يَنْظُرُ الْكُفَّارُ فِي الْآيَاتِ، وَلَكِنْ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّمَا الَّذِي يَنْتَفِعُ بِهَا هُمْ كُلُّ عَبْدٍ مُنِيبٍ، أَيْ: رَجَّاعٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

• • • • •

الآية (٩)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق:٩].

• • ❦ • •

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾؛ لَأَنَّ المطر يَنْزِلُ شَيْئًا فشيئًا، وَرَبًّا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِأَنْزَلٍ لَأَنَّهُ نَجِيءٌ بِهِ الْأَوْدِيَةُ وَالشَّعَابُ، وَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَي مِنَ الْعُلُوِّ؛ لَأَنَّ هَذَا الْمَطَرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّحَابِ وَلَيْسَ مِنَ السَّمَاءِ الَّتِي هِيَ السَّقْفُ الْمَحْفُوظُ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إِذَنْ: هُوَ يَنْزِلُ مِنَ الْعُلُوِّ، وَالْحِكْمَةُ فِي إِنْزَالِهِ مِنَ الْعُلُوِّ لِيَشْمَلَ قِمَمَ الْجِبَالِ وَمَرَاتِعَ الْإِبِلِ، وَالشُّهُولِ وَالْأَوْدِيَةِ؛ لَأَنَّهُ لَوْ جَاءَ يَمْشِي سَيْحًا مِنَ الْأَرْضِ مَا وَصَلَ إِلَى قِمَمِ الْجِبَالِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَهُ مِنْ فَوْقَ، وَقَوْلُهُ: ﴿مَاءً مُبْرَكًا﴾ مِنْ بَرَكَتِهِ أَنَّهُ يُنْبِتُ بِهِ ﴿جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾، الْجَنَّاتُ هِيَ الْبَسَاتِينُ الْكَثِيرَةُ الْأَشْجَارِ، وَسُمِّيَتْ الْبَسَاتِينُ الْكَثِيرَةُ الْأَشْجَارِ جَنَّاتٍ؛ لِأَنَّهَا تُجَنُّ أَي تَسْتُرُ مَا تَحْتَهَا، وَكُلُّ بُسْتَانٍ ذُو شَجَرٍ مُلْتَفٍّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ يُسَمَّى جَنَّةً، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ يَعْنِي بِهِ الزَّرْعُ الَّتِي تُحْصَدُ، فَذَكَرَ اللَّهُ هُنَا الْأَشْجَارَ وَالزَّرْعَ، فَمِنْ الْأَشْجَارِ نَجِدُ الثَّمَارَ، وَمِنْ الزَّرْعِ نَحْصُدُ الْحُبُوبَ.

## الآية (١٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَنٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

• • • • •

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَنٍ لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾ خَصَّ اللَّهُ النَّخْلَ؛ لِأَنَّهَا أَشْرَفُ الْأَشْجَارِ؛  
ولهذا شُبِّهَ بِهَا الْمُؤْمِنُ؛ حَيْثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرًا مِثْلُهَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ»  
قال ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَذَهَبَ النَّاسُ يَخْضَوْنَ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، كُلُّ يَقُول: هِيَ  
الشَّجَرَةُ الْفُلَانِيَّةُ، يَقُولُ ابْنُ عُمَرَ: فَوْقَ فِي قَلْبِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، لَكِنِّي كُنْتُ أَصْغَرُ الْقَوْمِ  
-يَعْنِي فَاسْتَحْيَا أَنْ يَتَكَلَّمَ وَهُوَ أَصْغَرُهُمْ- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»<sup>(١)</sup> وَهِيَ  
الشَّجَرَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ  
أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فَلِهَذَا خَصَّهَا هُنَا بِالذِّكْرِ فَقَالَ:  
﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَنٍ﴾ أَيِ عَالِيَاتٍ ﴿لِّمَا طَلَعَ نَضِيدٌ﴾ أَيِ مَنْضُودٍ، فَالطَّلَعُ فِي شَمَارِيخِهِ  
تَجْدُهُ مَنْضُودًا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ النَّضْدُ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجْدُ هَذِهِ الثَّمَرَاتُ تُسْقَى  
بِالشَّمَرَاخِ الدَّقِيقِ اللَّيِّنِ مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِيهِ أحيانًا أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ حَبَّةً.

• • • • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا، رقم (٦١)،  
ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة، رقم (٢٨١١).

### (الآية ١١)

••❦••

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

••❦••

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي فعلنا ذلك، أنزلنا من السماء ماءً فأنبطنا به جناتٍ وحَبَّ الحَصِيدِ، والنَّخْلَ باسقات. فَعَلْنَا ذَلِكَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ أي عطاءً وَفَضْلاً لِلْعِبَادِ، وَالْعِبَادُ هُنَا يَشْمَلُ الْعِبَادَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْعِبَادَ الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ عَبْدٌ لِلَّهِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وَالْمُرَادُ هُنَا الْعُبُودِيَّةُ الْكُونِيَّةُ الْقَدَرِيَّةُ، أَمَّا الْعُبُودِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ فَلَا يَكُونُ عَبْدًا لِلَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ مُتَمَثِّلًا لِأَمْرِهِ، مُجْتَنِبًا لِنَهْيِهِ، مُصَدِّقًا بِخَبْرِهِ.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ أَحْيَيْنَا بِالْمَاءِ الَّذِي نُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ بَلَدَةً مَيِّتَةً، ﴿بَلَدَةً﴾ لَمَّا كَانَتْ مُؤَنَّثَةً اللَّفْظُ، مُذَكَّرَةً الْمَعْنَى، صَحَّ أَنْ تُوصَفَ بِوَصْفِ مُذَكَّرٍ، ﴿بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ أَي بَلَدٌ مَيِّتٌ، أَحْيَاهُ هَذَا الْمَاءُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، تَجِدُ الْأَرْضَ هَامِدَةً خَاشِعَةً لَيْسَ فِيهَا نَبَاتٌ، فَإِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَطَرَ عَجَّتْ بِالنَّبَاتِ وَاحْضَرَّتْ وَازْدَهَرَتْ، فَهَذِهِ حَيَاةٌ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أَي مِثْلُ ذَلِكَ الْإِحْيَاءِ ﴿الْخُرُوجُ﴾، خُرُوجُ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَأَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْخُرُوجَ؛ لِأَنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْعِقُوا﴾ [التغابن: ٧] وَحُجَّتُهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ

بعد أن أرمت وصارت تراباً؟ هذا مُستنكر عندهم بعيد، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ  
أَنَّهُ ليس ببعيد، وأنَّهم كما يُشاهدون الأرض الميّتة ينزل عليها المطر فتحيا.

إذن: فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر قادر على إحياء  
الأموات بعد موتهم، وهذا قياس جليّ واضح، كذلك الخروج.



## الآيات (١٢-١٤)

•••••

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَنُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ  
وَأَخُونُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُجُّ كُلُّ كَذَّابٍ أُرْسِلَ هَقَّ وَعِيدٍ﴾ [ق: ١٢-١٤].

•••••

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَنُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَأَخُونُ لُوطٍ ﴿١٣﴾  
وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُجُّ﴾ ذَكَرَ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لِفَائِدَتَيْنِ:

الفائدة الأولى: تسليية الرُّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ لَيْسَ أَوَّلَ رَسُولٍ كُذِّبَ، بَلْ قَدْ كُذِّبَتِ  
الرُّسُلُ مِنْ قَبْلُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾  
[فصلت: ٤٣]، قِيلَ: إِنَّهُ شَاعِرٌ، قِيلَ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، قِيلَ: إِنَّهُ كَاهِنٌ.

وقد قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ  
مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، هذه فائدة لذكر قصص الأمم السابقة، وهي تسليية النبيِّ  
ﷺ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى غَيْرَهُ قَدْ أُصِيبَ بِمِثْلِ مُصِيبَتِهِ يَتَسَلَّى بِمَا شَكَّ، وَتَهَوَّنَ  
عَلَيْهِ الْمُصِيبَةُ.

الفائدة الثانية: التَّحْذِيرُ لِمُكَذِّبِي الرُّسُولِ ﷺ؛ وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ مَا ذَكَرَ ﴿كُلُّ  
كَذَّابٍ أُرْسِلَ هَقَّ وَعِيدٍ﴾ فَحَقَّ عَلَيْهِمْ وَعِيدُ اللَّهِ بِالْعَذَابِ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَلَّا  
أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠] يَعْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ جُوزِي بِمِثْلِ ذَنْبِهِ  
فَعُوقِبَ بِمِثْلِ ذَنْبِهِ.



﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وقد لَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، يَعْنِي تِسْعَ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، كُلَّمَا دَعَاهُمْ لِيُغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿جَعَلُوا أَصْنَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْشَوْا نِيَابَهُمْ﴾ تَغَطُّوا ﴿وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، وَبَقِيَ فِيهِمْ هَذِهِ الْمُدَّةُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي النَّهَايَةِ: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿وَأَصْحَابُ الرِّيسِ﴾ قَوْمٌ جَاءَهُمْ نَبِيُّهُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَتَلُوهُ بِالرَّسِّ، وَهُوَ الْبِثْرُ، أَيْ حَفَرُوا بَثْرًا وَدَفَنُوهُ، هَذَا قَوْلٌ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَصْحَابُ الرِّسِّ، أَيْ أَنَّهُمْ قَوْمٌ حَوْلَ مَاءٍ وَلَيْسُوا بِالكَثَرَةِ الْكَافِيَةِ، وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوا رَسُولَهُمْ ﴿وَتَمُودُ﴾ وَهُمْ قَوْمٌ صَالِحٌ فِي بِلَادِ الْحِجْرِ الْمَعْرُوفَةِ، كَذَّبُوا صَالِحًا وَقَالُوا: ﴿أَتَيْنَا بِمَا تَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وَهَذَا تَحَدُّثٌ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ ﴿وَعَادٌ﴾ كَذَلِكَ أَيْضًا عَادٌ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ هُودًا فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِالرَّيْحِ الْعَقِيمِ ﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] وَكَانُوا يَفْتَخِرُونَ بِقُوَّتِهِمْ وَيَقُولُونَ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فَأَرَاهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ قُوَّتَهُ وَأَهْلَكَهُمْ بِالرَّيْحِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي لَا يُرَى لَهَا جِسْمٌ، وَمَعَ ذَلِكَ دَمَّرْتَهُمْ تَدْمِيرًا.

﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ الَّذِي أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ نَبِيَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِرْعَوْنُ كَانَ مَعْرُوفًا بِالْجَبَرُوتِ وَالْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ، حَتَّى إِنَّهُ اسْتَخَفَّ قَوْمَهُ وَقَالَ لَهُمْ إِنَّهُ رَبٌّ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] فَأَطَاعُوهُ، فَجَاءَهُمْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، لَكِنَّهُمْ كَذَّبُوا، وَأَرَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى آيَةً كَانُوا يَفْتَخِرُونَ بِمَا يُضَادُّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَهُوَ السَّحَرُ، فَجَمَعُوا لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كُلَّ السَّحَرَةِ فِي مِصْرَ، وَاجْتَمَعُوا وَأَلْقَوْا الْحِبَالَ وَالْعِصْيَى، وَأَلْقَوْا عَلَيْهَا السَّحَرَ فَصَارَ النَّاسُ يُشَاهِدُونَ هَذِهِ الْحِبَالَ وَالْعِصْيَى

وكانَّها حَيَّاتٌ وَتَعَابِينُ، وَرُهِبَ النَّاسُ كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، حَتَّى إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً؛ لِأَنَّهُ شَاهِدٌ أَنَّ كُلَّ الْجَوِّ حَوْلَهُ ثَعَابِينَ تَرِيدُ أَنْ تَلْتَهُمْ مَا تُقَابِلُهُ.

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ، فَأَلْقَى الْعَصَا فَالْتَهَمَتْ جَمِيعَ هَذِهِ الْحَيَّاتِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، إِذْ إِنَّ الْحَيَّةَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ لَيْسَتْ بِذَاتِ الْكِبَرِ لَكِي تَأْكُلَ هَذَا، وَكَانَ هَذَا يَذْهَبُ بُخَارًا، إِذَا أَكَلَتْ هَذِهِ الْحَبَالَ وَالْعِصْيَ، فَالْسَّحَرَةُ رَأَوْا أَمْرًا أَدهَشَهُمْ وَلَمْ يَمْلِكُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا مَعَ ذَلِكَ إِيْمَانًا تَامًا ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٢٠].

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ سَجَدُوا، كَأَنَّ شَيْئًا اضْطَرَّ لَهُمْ إِلَى السُّجُودِ، كَأَنَّهُمْ سَجَدُوا بِغَيْرِ اخْتِيَارٍ لِقُوَّةِ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَعَ هَذِهِ الْآيَةِ الْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ عَلَى صِدْقِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُؤْمِنْ فِرْعَوْنُ بَلْ قَالَ: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٥]، فَهَمَّ بِأَنْ يَهْجُمَ عَلَى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَمَرَ اللَّهُ مُوسَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ نَحْوَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، فَامْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ، وَخَرَجَ مِنْ مِصْرَ إِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ، فَتَبِعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ عَلَى حَقِّقٍ، يَرِيدُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْبَحْرِ قَالَ قَوْمُ مُوسَى لَهُ: ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾، ﴿قَالَ كَلَّا﴾ يَعْنِي لَنْ نُذْرَكَ ﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ، الْبَحْرَ الَّذِي عَرَضَهُ مَسَافَاتٌ طَوِيلَةٌ فَضْرَبَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ الْبَحْرُ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا، وَصَارَتْ قِطْعُ الْمَاءِ كَأَنَّهَا جِبَالٌ، وَصَارَتْ هَذِهِ الطَّرِيقُ الَّتِي كَانَتْ رِيبًا مِنَ الْمَاءِ، وَطِينًا زَلَقًا، صَارَتْ طَرِيقًا يَبَسًا بِإِذْنِ

الله في لحظة، فدخل موسى وقومه عابرين من أفريقيا إلى آسيا من طريق البحر، فلما تكاملوا داخلين وخارجين للناحية الشرقية دخل فرعون وقومه، فلما تكاملوا للدخول أمر الله البحر فانطبق عليهم، فلما أدرك فرعون الغرق أعلن فقال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وتأمل أنه لم يقل: آمنت بالله، بل قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، لماذا؟ إذ لا لنفسه؛ حيث كان يُنكر على بني إسرائيل ويهاجمهم، فأصبح عند الموت يُقرُّ بأنه تبع لهم، وأنه يمشي خلفهم، ولكن ماذا قيل له: ﴿ءَاكُنْ﴾ ﴿تؤمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنت من المسلمين﴾ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، فلم تقبل توبته؛ لأنه لم يتب إلا حين حضره الموت.

والتوبة بعد حضور الموت لا تنفع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ آكُنْ﴾ [النساء: ١٨] لا تنفع التوبة إذا حضر الموت، نسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بتوبة قبل الموت، ولكن الله قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، نُنَجِّيكَ ببدنك لا بروحك، الروح فارقت البدن، لكن البدن بقي طافياً على الماء.

وبين الله الحكمة ﴿لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾؛ لأن بني إسرائيل قد أزعبهم فرعون فلو لم يتبين لهم أنه غرق بنفسه لكانت أوهامهم تذهب كل مذهب، لعله لم يغرق، لعله يخرج إلينا من ناحية أخرى، فأقر الله أعين بني إسرائيل بأن شاهدوا جسمه غارقاً في الماء ﴿لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾.

﴿وَإِخْوَنُ لُوطٍ﴾ إخوان لوط يعني قوم لوط، أرسل إليهم لوط عليه السلام؛ لأنهم كانوا -والعياذ بالله- يأتون الذكران، ويدعون النساء، أي أن الواحد يُجامع الذكر ويدعُ

النِّسَاء، كما قال لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

دعاهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنْذَرَهُمْ وَخَوَّفَهُمْ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ الرَّذِيلِ، وَلَكِنَّهُمْ أَصْرُوا عَلَيْهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوِّمَةً، يَعْنِي مُعَلَّمَةً، كُلُّ حَجَارَةٍ عَلَيْهَا عَلَمٌ، يَعْنِي علامة على مَنْ تَنْزِلُ عَلَيْهِ وَتَصْعَقُهُ.

وهذه الخِصْلَةُ الرَّذِيلَةُ مِنْ أَقْبَحِ الْخِصَالِ؛ وَلِهَذَا كَانَ حَدُّهَا فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْقَتْلُ بِكُلِّ حَالٍ، يَعْنِي أَنَّهَا أَعْظَمُ مِنَ الزَّنا، فَإِذَا كَانَ الزَّانِي لَمْ يَتَزَوَّجْ مِنْ قَبْلِ فَإِنَّهُ يُجْلَدُ مِائَةَ جَلْدَةٍ، وَيُغْرَبُ عَنِ الْبَلَدِ سَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ كَانَ مُحْصَنًا وَهُوَ الَّذِي قَدْ تَزَوَّجَ وَجَامَعَ زَوْجَتَهُ فَإِنَّهُ يُرْجَمُ حَتَّى يَمُوتَ، أَمَّا اللَّوَاطُ فَإِنَّ حَدَّ الْقَتْلِ بِكُلِّ حَالٍ، يَعْنِي لَوْ تَلَوَّطَ شَخْصٌ بِالْغُ بِآخَرٍ بَالِغٍ بِاخْتِيَارٍ مِنْهُمَا فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُقْتَلَ الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(٢)</sup>: إِنَّ الصَّحَابَةَ أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ، لَكِنْ اخْتَلَفُوا كَيْفَ يُقْتَلُ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ يُحْرَقُ بِالنَّارِ لِعِظَمِ جُرْمِهِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ يُرْجَمُ بِالْحَجَارَةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ يُلْقَى مِنْ أَعْلَى مَكَانٍ فِي الْبَلَدِ وَيُتْبَعُ بِالْحَجَارَةِ، وَالشَّاهِدُ أَنَّ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ نَقَلَ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ عَلَى قَتْلِهِ، وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ حُجَّةٌ فَيَكُونُ مُؤَيِّدًا لِلْحَدِيثِ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا»

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه:

كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، رقم (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٤٣).

لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»<sup>(١)</sup>، ولأنَّ هذه الفاحشة الكبرى -والعياذُ بالله- فاحشة مُفسِدة للمجتمع؛ لأنَّه يُصبح المجتمعُ الرَّجاليُّ مُجتمعًا نسائيًا، وهو أيضًا لا يُمكن التحرُّزُ منه، فالزَّنا يُمكن التحرُّزُ منه إذا رُؤيت امرأة مع رجل في محل رِبية فإنَّه يُمكن مُناقشتُها، لكن إذا رُوي ذَكَر مع ذَكَر كيف يُمكن أن تُناقشَها، والأصل أنَّ الرَّجل مع الرَّجل يُجتمع ولا يَتَفَرَّقُ، لهذا كان القول بوجوب قتلها هو الحقُّ، أمَّا قوم لوط فإنَّ الله تعالى أرسل عليهم حجارة من سِجِّين، مُسَوِّمة فدمرهم تدميرًا، حتَّى جعل عالي قريتهم سافلها.

﴿وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ﴾، يعني الشَّجرة، أرسل الله تعالى إليهم سُعيًّا فدعاهم إلى الله وذكرهم به، وحذَّره من بَخْسِ المِكيال والمِيزان، ولكنَّهم -والعياذُ بالله- بقوا على كُفْرهم وعنادهم ﴿فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا العذاب يُقال: إنَّ الله تعالى أرسل إليهم حَرًّا شديدًا ولم يَجِدُوا مَفَرًّا منه إلا أنَّه أرسلت غمامة واسعة باردة فصاروا يَتَدافَعُونَ إلى ظُلِّها، يَتَظَلَّلُونَ بها، فأنزل الله عليهم نَارًا فأحرقتهم، وفي هذا يقول تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿وَقَوْمُ بَيْعٍ﴾ أيضًا مَن كَذَّبُوا الرُّسُلَ وهم أصحابُ بُيْعٍ، وهو مَلِك من ملوك اليَمَن أرسل الله إليهم رسولًا فكذَّبوه ولم يَنقَادُوا له، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ كَذَّبٍ أَرْسَلَ حَقٌّ وَعِيدٌ﴾ أي أن هؤلاء الأُمَم الذين أشار الله تعالى إلى قَصَصِهِم كلهم كَذَّبُوا الرُّسُلَ، فَحَقَّ عليهم وَعْدُ الله -والعياذُ بالله- بعذابه وانتقامه.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، رقم (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

### (الآية ١٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ف: ١٥].

• • • • •

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الاستفهام هنا للنفي، وعَيْنَا هنا بمعنى تَعِينَا، والخلق الأول هو ابتداء الخلاق يعنِي هل نحن عَجَزْنَا عن ابتداء الخلاق حتَّى نَعِجَزَ عن إعادة الخلاق؟! من المعلوم أنَّ الجواب: لا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ أَشْرَكَ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، أي لم يَتَّعِبْ بذلك، فإذا كان الله جَلَّوَعَلَا لم يَتَّعِبْ بالخلق الأول فإن إعادة الخلق أهون من ابتدائه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧].

وهذا استدلال عقلي يُراد به إقناع هؤلاء الجاحدين بإعادة الخلق، فإن الذين كفروا زعموا أن لن يُبْعَثُوا وأنه لا بَعْثَ، وأنكروا هذا واستدلوا لذلك بدليل واهٍ جداً، فقالوا فيما حكاه الله عنهم: ﴿مَنْ يُنْخِ الْأَعْظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فقال الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، ثم ساق الأدلة العقلية الدالة على أن الله تعالى قادر على أن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، أي: هم مُقَرَّرُونَ بأننا لم نَعِيَ بالخلق الأول وآتَا أوجدناه، لكن هُمْ في لَبْسٍ من خلق جديد؛ ولهذا حَصَلَ الإضرابُ هنا؛ حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ﴾ يعنِي أن هذا عجبٌ من حالهم كيف يُقَرَّرُونَ بأول الخلق ثم يُنْكَرُونَ

الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، بَلْ هُمْ ﴿فِي لَيْسٍ﴾ أَيِّ فِي شَكٍّ وَتَرَدُّدٍ ﴿مَنْ خَلَقَ جَدِيدٍ﴾ وَهُوَ إِعَادَةُ الْخَلْقِ، وَالْقَادِرُ عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى إِعَادَتِهِ مِنْ بَابٍ أَوْلَى.

وهذا دليل عقلي لا يُمكن لأيِّ إنسان أن يفهم منه.



الآية (١٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ سُُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُسْتَدَلًّا عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾  
يعني ابتدأنا خلقه وأوجدناه وجعلنا له عقلاً وسمعاً وبصراً وتفكيراً وحديثاً للنفس.

﴿وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ يعني: ونحن نعلم ما تَوَسَّوَسُ به نفسه، أي ما تُحَدِّثُ به نفسه، دُونَ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ، فالله تعالى عالم به، بل إِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَا سِيحَدَّثُ بِهِ نَفْسُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْإِنْسَانُ نَفْسُهُ لَا يَعْلَمُ مَا يُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُكَ غَدًا وَبَعْدَ غَدٍ، وَإِلَى أَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ النَّفْسُ فَهَذَا الْعِلْمُ يُوْجِبُ لَنَا مُرَاقَبَةَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَأَلَّا نُحَدِّثُ أَنْفُسَنَا بِمَا يُغْضِبُهُ وَبِمَا يَكْرَهُ، فَعَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ حَدِيثُ نَفْسِنَا كُلِّهِ بِمَا يُرْضِيهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، أَفَلَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَسْتَحْيِي مِنْ رَبَّنَا عَزَّجَلَّ أَنْ تَوَسَّوَسَ نَفْسُنَا بِمَا لَا يَرْضَاهُ؟!

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: ﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هُوَ الْأَوْدَاجُ، وَهُمَا الْعِرْقَانِ الْعَظِيمَانِ الْمُحِيطَانِ بِالْحُلُقُومِ، يُسَمَّى الْوَرِيدُ، وَيُسَمَّى الْوَدَجُ، وَجَمْعُهُ أَوْدَاجُ، وَيُضْرَبُ الْمَثَلُ بِهِمَا فِي الْقُرْبِ، أَقْرَبُ شَيْءٍ إِلَى قَلْبِكَ هُوَ حَبْلُ الْوَرِيدِ، هَذَا أَقْرَبُ إِلَى الْمَخِّ، وَأَقْرَبُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ الْحَيَاةُ هُمَا: الْوَرِيدَانِ.



واختلف المفسرون في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ هل المراد قُرب ذاته جَلَّ وَعَلَا، أو المراد قُرب ملائكته؟

والصحيح أنَّ المراد قُرب ملائكته، ووجه ذلك أن قُرب الله تعالى صفة عالية لا يليق أن تكون شاملة لكلِّ إنسان؛ لأننا لو قلنا: إنَّ المراد قُرب ذات الله لكان قريباً من الكافر وقريباً من المؤمن؛ لأنه قال: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، أي إنسان المؤمن والكافر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى هذا الإنسان الذي خلقناه من حَبْلِ الْوَرِيدِ، فإذا قلنا الآية شاملة، وقلنا إنَّ القُرب هنا القُربُ الذَّاتِي صار الله قريباً بذاته من الكافر، وهذا غير لائق، بل الكافر عدُوُّ الله عَزَّجَلَّ، لكن الرَّاجح ما اختاره شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنَّ المراد بالقُرب هنا قرب الملائكة<sup>(١)</sup>، أي أقرب إليه بملائكتنا.



(١) مجموع الفتاوى (٥/١٢٩).

### الآية (١٧)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧].

• • ❦ • •

ثُمَّ اسْتَدَلَّ لِقَوْلِهِ بِقَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ فَإِذْ بِمَعْنَى حِينَ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْقُرْبِ، أَيِ اقْرَبُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْحَالِ حِينَ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يُضِيفُ اللَّهُ الْقُرْبَ الْمُسْتَدَلَّ إِلَيْهِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ أَهَذَا نَظِيرٌ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، لَهُ نَظِيرٌ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصِتْ فَتَنصِتْ لَهُ ﴿١٨﴾ [الْقِيَامَةُ: ١٦-١٨] قَرَأَنَاهُ الْمُرَادُ بِذَلِكَ جِبْرِيلُ، وَنَسَبَ اللَّهُ فِعْلَ جِبْرِيلَ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ رَسُولُهُ، كَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ نَسَبَ اللَّهُ قُرْبَهُمْ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ رُسُلُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزَّخْرَفُ: ٨٠]، وَمَا اخْتَارَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ الصَّوَابُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلِ اللَّهُ تَعَالَى قَرِيبٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ عَلَى كُلِّ حَالٍ؟

قُلْنَا: بَلَىٰ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»<sup>(١)</sup>، فَهَذَا قُرْبٌ فِي حَالِ الدُّعَاءِ، مِصْدَاقُ ذَلِكَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ خَفْضِ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ، رَقْمُ (٤٦/٢٧٠٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، كذلك هو قريب من المؤمن في حال السجود، لقول النبي ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا فيكون المؤمن قريباً من الله تعالى حال عبادته لربه، وحال دعائه لربه، أمّا القرب العامّ فإنّ المراد به القرب بالملائكة على القول الرَّاجح.

وقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ هما ملكان بيّن الله مكانهما من العبد، فقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، ولم يقل على اليمين وعلى الشمال؛ لأنّهما ليسا على كَتِفَيْهِ، بل هما في مكان قريب، أقرب من حبل الوريد.

ولكن قد يقول قائل مُلْحِد: أنا ألتمس حولي لا ألمس أحداً، أين القَعِيدُ؟ فنقول: هذا من علم الغيب الذي لا تُدرّكه عقولنا، وعلينا أن نُصدّق به ونؤمن به، كما لو لمسناه بأيدينا، أو شاهدناه بأعيننا، أو غير ذلك من أدوات الحسّ، علينا أن نؤمن بذلك؛ لأنّه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، قَاعِد مُسْتَقَرٌّ، أحدهما يَكْتُبُ الحسنات، والثاني يكتب السيئات، هذا المكتوب عُرضة للمحو والإثبات؛ لأنّ المكتوب الذي بأيدي الملائكة عُرضة للمحو والإثبات؛ لقول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، يعني أصل أم الكتاب هو لوح محفوظ مكتوب فيه ما يَسْتَقَرُّ عليه العبد.

فما يَسْتَقَرُّ عليه العبد مكتوب، لكن ما كان قابلاً للمحو والإثبات في أيدي

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الملائكة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾، حسنة تُذهبُ السيئةَ وتمحوها بعد أن كُتِبَتْ، وهذا باعتبار ما في أيدي الملائكة، أمَّا أُمُّ الْكِتَابِ الْأَصْلُ مَكْتُوبٌ فِيهَا مَا يَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ الْعَبْدُ. نسأل الله أن يجعلنا ممن يَسْتَقِرُّ عَلَى الْإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.



## الآية (١٨)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾﴾ [ق: ١٨].

• • • • •

﴿مَا يَلْفِظُ﴾: ﴿مَا﴾ هنا نافية، و﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ مجرورة بيمين الزائدة إعراباً المفيدة معنى، لكن تأتي حروف الجرّ أحياناً زائدة في الإعراب، لكنها تُفيد معنى التوكيد؛ ولهذا إذا اقترن المنفي بيمين الزائدة، أو بالباء الزائدة مثل ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فإنه أؤكد من النفي المجرد من حرف الجرّ الزائد.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ إذا جعلنا مِنْ زائدة إعراباً مفيدة معنى ففائدة معناها التوكيد على العموم أي: أي قول يلفظه الإنسان لديه رَقِيبٌ عَتِيدٌ، ﴿رَقِيبٌ﴾ مُرَاقِبٌ ليلاً ونهاراً، لا يَنفَكُ عن الإنسان، ﴿عَتِيدٌ﴾ حَاضِرٌ لا يُمكن أن يَغيب ويُوَكِّلَ غيره، فهو قاعد مُراقِبٌ حَاضِرٌ، لا يفوته شيء ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي قولٍ نقوله، كُلُّ قولٍ؛ لأنَّ ﴿مِنْ﴾ هذه زائدة و﴿قَوْلٍ﴾ نكرة في سياق النفي فهي للعموم، أي قول.

وظاهر الآية الكريمة أنَّ القول مهما كان يُكتَب، سواء كان خيراً أم شراً، أم لغوا يُكتَب، لكن يُحاسب على ما كان خيراً أو شراً، ولا يلزم من الكتابة أن يُحاسب الإنسان عليها، وهذا ظاهر اللفظ، وهو أحد القولين لأهل العلم.

ومن العلماء من يقول: إنَّه لا يُكتَب إلا الحسناتُ والسيئاتُ فقط، أمَّا اللغو فلا يُكتَب.

والقول الأول أولى، وهو العموم.

أما النتيجة فواحدة؛ لأنه حتى على القول بأن الكاتب يكتب كل شيء يقولون: إنه لا يحاسب إلا على الحسنات والسيئات، لكن كوننا نقول بالعموم هو المطابق لظاهر الآية، ثم هو الذي فيه الدليل على أن الملكين لا يتركان شيئاً، مما يدل على كمال عنايتهم بما ينطق به الإنسان.

وبناءً على ذلك يجب علينا أن نحترز غاية الاحتراز من أقوال اللسان، فكم زلة لسانية أوجبت الهلاك - والعياذ بالله - ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ»<sup>(١)</sup> قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ، نَسَأَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.

اخْذَرْ لِسَانَكَ أَنْ تَقُولَ قُبْتُكَ إِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ<sup>(٢)</sup>

احذر آفات اللسان؛ إن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَعَلَ حِفْظَ اللِّسَانِ مَلَكَ الْأَمْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَخِذْ بِلِسَانِ نَفْسِهِ وَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، لَا تُطْلِقْهُ، لَا تَتَكَلَّمْ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لُمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ لَهُ: «تَكَلَّمَ أَمْكُ يَا مُعَاذُ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، رقم (٤٩٠١). وليس فيه قوله: «من ذا الذي يتألى علي...» وإنما أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم (٢٦٢١)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره الجاحظ في المحاسن والأضداد (٤٢/١)، وأبو هلال العسكري في جهرة الأمثال (٢٠٧/١) ولم ينسبها.

وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»<sup>(١)</sup> فالْمُؤْمِنُ يجب أن يَحْذَرُ لِسَانَهُ فَإِنَّهُ آفَةٌ عَظِيمَةٌ.

ولهذا قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»<sup>(٢)</sup>، وحيثُ نَعْرِفُ أَنَّ الصَّمْتَ مُفْضَلٌ عَلَى الْكَلَامِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ قَدْ لَا يَدْرِي الْإِنْسَانُ أَحْيَرًا هُوَ أَمْ شَرًّا.

ثُمَّ إِنِّي أَقُولُ: الْكَلِمَةُ إِذَا أَطْلَقْتَهَا وَخَرَجَتْ مِنْ فَمِكَ فَهِيَ كَالرُّصَاصَةِ تُطْلَقُهَا، لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَمْنَعَهَا إِذَا خَرَجَتْ مِنْ فُوهَةِ الْبُنْدُقِيَّةِ، إِذَا انْطَلَقَتْ تُفْسِدُ أَوْ تُصْلِحُ، كَذَلِكَ الْكَلِمَةُ.

فَالْعَاقِلُ يَمْنَعُ لِسَانَهُ وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَالْخَيْرُ إِمَّا فِي ذَاتِ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ، وَإِمَّا فِي غَيْرِهِ، يَعْنِي قَدْ يَكُونُ الْكَلَامُ لَيْسَ خَيْرًا لَا بِنَفْسِهِ، لَكِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ جِهَةِ آثَارِهِ، قَدْ يَتَكَلَّمُ الْإِنْسَانُ بِكَلَامٍ لَغْوٍ لَيْسَ أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَلَا نَهْيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَيْسَ إِثْمًا وَوِزْرًا، لَكِنْ يَتَكَلَّمُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ لِلْحَاضِرِينَ؛ لِأَنَّهُ أحيانًا تَسْتَوِي عَلَى الْمَجْلِسِ الْهَيْبَةُ وَلَا أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ، فَيَبْقَى النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي غَمٍّ، فَيَتَكَلَّمُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ لِلنَّاسِ، وَتَنْشِرَ صُدُورَهُمْ، وَيَحْصُلَ تَبَادُلُ الْكَلَامِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ نَافِعًا.

نَقُولُ: هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي تَكَلَّمُ وَفَتَحَ بِهِ بَابَ الْكَلَامِ وَأَزَالَ عَنِ النَّاسِ الْغَمَّ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٥/ ٢٣١)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حُرْمَةِ الصَّلَاةِ، رَقْمُ (٢٦١٦)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْفَتَنِ، بَابُ كَفِّ اللِّسَانِ فِي الْفِتْنَةِ، رَقْمُ (٣٩٧٣)، مِنْ حَدِيثِ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، رَقْمُ (٦٠١٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى إِكْرَامِ الْجَارِ وَالضَّيْفِ، رَقْمُ (٤٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

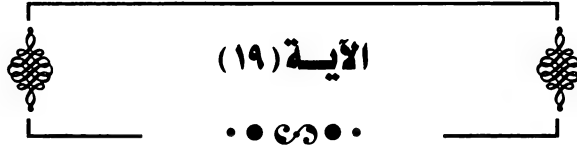
يُعتبر خيراً لغيره، وهذا داخل إن شاء الله في قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»<sup>(١)</sup>.




---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

• • •

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، السَّكْرَةُ هنا: هي تغطية العقل كالإغماء ونحوه، وقد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ»<sup>(١)</sup>، وقوله: ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾ مفرد مضاف، فيشمل الواحدة أو أكثر، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: أي أَنَّ الموت حَقٌّ كما جاء في الحديث: «الْمَوْتُ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»<sup>(٢)</sup>، فهي تأتي بالحق، وتأتي أيضًا بحق اليقين؛ فَإِنَّ الإنسان عند الموت يُشاهد ما تُوعَد به، وما وُعِدَ به؛ لَأَنَّهُ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا بُشِّرَ بِالْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا بُشِّرَ بِالنَّارِ -أعاذنا الله منها-.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ اختلف المفسرون في (ما) هل هي نافية؟ فيكون المعنى: ذلك الَّذِي لَا تَحِيدُ مِنْهُ، وَلَا تَنْفِكُ مِنْهُ، أَوْ أَنَّهَا موصولة؟ فيكون المعنى ذلك الَّذِي كُنْتَ تَحِيدُ مِنْهُ، وَلَكِنْ لَا مَفَرَّ مِنْهُ، فعلى الأوَّل يكون معنى الآية، ذلك الَّذِي لَا تَحِيدُ مِنْهُ، بل لَا بُدَّ مِنْهُ، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْمَوْتُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب التهجد بالليل، رقم (١١٢٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

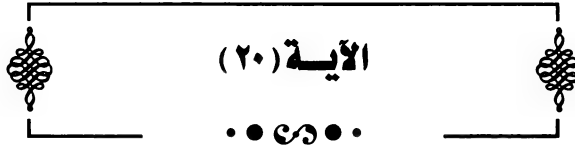
الَّذِي تَفَرُّوتَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ﴿[الجمعة: ٨].﴾

وتأمل يا أخي: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفَرُّوتَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ ولم يقل فإنه يُدرككم، وما ظنك بشيء تفرُّ منه وهو يُلاقيك، إن فرارك منه يعني دُثُوكَ منه في الواقع، فلو كنتَ فارًّا من شيء وهو يُقابلك فكلما أسرعت في الجري أسرعت في مُلاقاته؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿أَتِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾؛ لأنه ذَكَرَ في هذه الآية أنَّ الإنسان مهما كان في تحصُّنه فإنَّ الموت سوف يُدركه على كلِّ حال، وهنا يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وعلى المعنى الثاني، أي: ذلك الذي كُنْتَ تَحِيدُ مِنْهُ وَتَفَرُّ مِنْهُ فِي حَيَاتِكَ، قَدْ وَصَلَكِ وَأَدْرَكَكَ.

وعلى كلِّ حال: ففي الآية التحذير من التَّهَافُوتِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالتَّكَاسُلِ عَنِ التَّوْبَةِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ أَنْ يُبَادِرَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يَأْتِيهِ الْمَوْتُ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

• • •

ثم قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ النَّافِخُ فِي الصُّورِ هُوَ مَلَكٌ وَكَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يُسَمَّى إِسْرَافِيلُ، وَالنَّفْخُ فِي الصُّورِ نَفْخَتَانِ:  
الأولى: نَفْخَةُ الصَّعْقِ فَيَسْبِقُهَا فَرْعٌ، ثُمَّ صَعْقٌ.  
والثانية: نَفْخَةُ الْبَعْثِ.

وبينهما أربعون، وقد سُئِلَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَاوِي الْحَدِيثِ: مَا الْمُرَادُ بِالْأَرْبَعِينَ؟  
فَقَالَ: أُبَيِّتُ<sup>(١)</sup>، أَي أَنِّي لَا أَدْرِي مَا الْمُرَادُ بِالْأَرْبَعِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ.  
المُهِمُّ: أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ بِهَذِهِ النَّفْخَةِ صَارَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْوَعِيدِ.  
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمُ الْوَعِيدِ لِلْكَفَّارِ، وَيَوْمُ الْوَعْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلِمَاذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا الْوَعِيدَ دُونَ الْوَعْدِ؟

فالجواب: لِأَنَّ السُّورَةَ كُلَّهَا مَبْدُوءَةٌ بِتَكْذِيبِ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥).

فَنَاسَبَ أَنْ يُغَلَّبَ فِيهَا جَانِبَ الْوَعِيدِ ﴿قَفَّ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عِجْبُوا أَنْ جَاءَهُمْ  
 مُنْذِرٌ﴾ إلخ... فكان من الحكمة أن يذكر الوعيد دون الوعد، ومع ذلك فقد ذكر الله  
 تعالى أصحاب الجنة فيما بعد؛ لأنَّ القرآنَ مثنائي.



## الآية (٢١)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

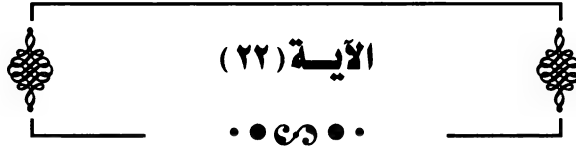
• • •

﴿وَحَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ جاءت يعني يوم القيامة كُلُّ نَفْسٍ، أي كُلُّ إنسان كُلُّ بشر، ويَحْتَمِلُ أن يكون معنى كُلِّ نَفْسٍ من بني الإنسان ومن الجنِّ أيضًا، مَن يُلْزَمُونَ بالشرائع؛ لأننا إن نظرنا إلى السَّيَاق وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ إلخ... قلنا: المراد بالنفس هنا نفس الإنسان، وإذا نظرنا إلى أنَّ الشَّرَائِعَ تلزم الجنَّ كما تلزم الإنس، وأنَّ الجنَّ يُحْشَرُونَ يوم القيامة، ويدخل مؤمنهم الجنة، وكافرهم النار، قلنا: إن هذا عام، فالله أعلم بما أراد.

﴿مَعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بما عملت؛ لأنَّ هؤلاء الملائكة -عليهم الصَّلَاة والسَّلَام- قد وُكِّلُوا بكتابة أعمال بني آدم من خير وشرٍّ، وكما سَبَقَ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ كُلَّ شَيْءٍ: الخير والشرَّ واللغو، لكن لا يُحَاسِبُ الإنسانُ إِلَّا على الخير أو الشرِّ، ثُمَّ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾: ﴿كُنْتَ﴾ الخطاب للإنسان، وفيها التَّفَات، والالتفات معناه أن يَتَقَلَّ الإنسانُ في أسلوبه من خطاب إلى غيبة، أو من غيبة إلى خطاب، أو من تكلُّم إلى غيبة، وفائدة ذلك الالتفات أَنَّهُ يَشُدُّ ذَهْنَ السَّامِعِ، فبينما الكلام على نَسَقٍ واحد، إذا به يَخْتَلِفُ، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]

ولم يُقَلِّ وَبَعَثْ، وانظُرْ إلى الفاتحة نقرؤها كُلَّ يومٍ في كُلِّ ركعة من صلواتنا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يُقَلِّ (نعبده) فالالتفات أسلوب من أساليب اللغة العربيَّة، وفائدته شدُّ ذهن السَّامع لما يُلقَى إليه من الكلام.





﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾﴾ [ق: ٢٢].



﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾: ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ هذه الجملة، يقول العلماء: إِنَّهَا مَوْكَدَةٌ بثلاثة مَوَكَّدَاتٍ، الْأَوَّلُ: الْقَسَمُ، وَالثَّانِي: اللَّامُ، وَالثَّالِثُ: قَدْ، وَالتَّقْدِيرُ (وَاللَّهُ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا).

فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ خَبَرُ اللَّهِ تَعَالَى حَقًّا وَصِدْقًا، سَوَاءٌ أَكَّدَ أَمْ لَمْ يُؤكِّدْ؟

قُلْنَا: بَلَى، وَلَا شَكَّ، وَلَكِنْ مَا دَامَ الْقُرْآنُ نَزَلَ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ التَّأَكُّيدُ فِي مَوْضِعِهِ، وَعَدَمُ التَّأَكُّيدِ فِي مَوْضِعِهِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْقُرْآنُ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْبَلَاغَةِ ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أَي: أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أَي كُنْتَ غَافِلًا عَنْ هَذَا الْيَوْمِ سَاهِيًا فِي الدُّنْيَا، كَأَنَّكَ خُلِقْتَ لَهَا ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ يَعْنِي هَذَا الْيَوْمَ كُشِفَ الْغِطَاءُ، وَبَانَ الْحَقِيقِيُّ، وَاتَّضَحَّ كُلُّ شَيْءٍ ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أَي قَوِيٌّ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى أَعْمَى، غَافِلًا، لَكِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].



## الآيات (٢٣-٢٥)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٢٣﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنَيْكَ ﴿٢٤﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مِّنَاجٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيْبٍ ﴾ [ق: ٢٣-٢٥].

• • •

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنَيْكَ ﴾ قَرِينُ الْإِنْسَانِ هُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ لِيَحْفَظَ أَعْمَالَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ وَكَّلَ بِبَنِي آدَمَ مَلَائِكَةً عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَاعِيدَ، وَهَذَا مِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ بِكَ أَهْلِ الْإِنْسَانِ، أَنْ وَكَّلَ بِكَ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُ، وَيَكْتُبُونَ، لَا يَزِيدُونَ فِيهِ وَلَا يَنْقُصُونَ فِيهِ، فَيَقُولُ الْقَرِينُ: ﴿ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنَيْكَ ﴾ أَيُّ: حَاضِرٍ، وَيَحْضُرُ لِلْإِنْسَانِ فَيَقَالُ: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ قَوْلُهُ: ﴿ أَلْقِيَا ﴾ قَدْ يَشْكَلُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنَيْكَ ﴾ وَقَرِينٌ مُفْرَدٌ، وَهَذَا ﴿ أَلْقِيَا ﴾ فِيهَا أَلْفُ التَّشْنِيعِ، فَكَيْفَ صَحَّ أَنْ يُخَاطَبَ الْوَاحِدُ بِخُطَابِ الْاِثْنَيْنِ؟

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْجَوَابِ عَنْ هَذَا، فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَلْقِيَا اتَّصَلَ بِهَا ضَمِيرُ التَّشْنِيعِ بِنَاءً عَلَى تَكَرُّارِ الْفِعْلِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: أَلْقَى أَلْقَى، فَالتَّكَرُّارُ لِلْفِعْلِ لَا لِلْفَاعِلِ. الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنَيْكَ ﴾ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُفْرَدًا مُضَافًا، وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْمَفْرَدَ الْمُضَافَ يَكُونُ لِلْعُمُومِ، فَيَشْمَلُ كُلَّ مَا ثَبَتَ مِنْ قَرِينٍ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ أَيُّ الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بِهِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَرُونِي دَلِيلًا أَوْ شَاهِدًا عَلَى أَنَّ الْمَفْرَدَ يَكُونُ لِأَكْثَرٍ مِنْ وَاحِدٍ.



قُلْنَا: يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وهل نعمة الله واحدة؟ لا؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، لكن نعمة الله مفرد مضاف، فتكون شاملة لكل نعمة.

وَيُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ هو واحد من الملكين، ولا شكَّ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَاحِدٌ مِنَ الْاِثْنَيْنِ بِاسْمِ الْاِثْنَيْنِ.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنٍ﴾ (٢٤) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾  
سِتَّةُ أَوصَافٍ:

﴿كَفَّارٍ﴾ إمَّا أَنْ يُقَالَ إِنَّهَا صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الْكَافِرَ قَدْ فَعَلَ أَنْوَاعًا مِنَ الْكُفْرِ، فَإِذَا جُمِعَتِ الْأَنْوَاعُ صَارَتْ كَثِيرَةً، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الصَّيْغَةَ لَيْسَتْ صِيغَةَ مُبَالَغَةٍ، وَإِنَّمَا هِيَ صِيغَةُ نِسْبَةٍ، كَمَا يُقَالُ: نَجَّارٌ، وَحَدَّادٌ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّنْ يُنْسَبُ إِلَى هَذِهِ الْحِرْفَةِ، فَكَفَّارٌ، أَي: كَافِرٌ، لَكِنَّهُ قَدْ تَمَكَّنَ الْكُفْرُ فِي قَلْبِهِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

﴿عَيْنٍ﴾ أَي: مُعَانِدٌ لِلْحَقِّ، لَا يَقْبَلُ مَهْمَا عُرِضَ لَهُ الْحَقُّ بِصُورَةٍ شَيْقَةٍ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ لَا يَقْبَلُ.

﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ فَيَمْنَعُ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ، وَيَمْنَعُ بِذَلِكَ أَمْوَالَهُ فِيمَا يُرْضِي اللَّهَ، وَيَمْنَعُ كُلَّ خَيْرٍ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لِلْخَيْرِ﴾ لَفْظٌ يَشْمَلُ كُلَّ خَيْرٍ، وَقَوْلُهُ: مَنَاعٌ كَأَنَّهُ يَلْتَمِسُ كُلَّ خَيْرٍ فَيَمْنَعُهُ، فَتَكُونُ هَذِهِ الصَّيْغَةُ صِيغَةَ مُبَالَغَةٍ.

﴿مُعْتَدٍ﴾ أَي: يَعْتَدِي عَلَى غَيْرِهِ، فَلَمْ يَمْنَعْ غَيْرَهُ مِنَ الْخَيْرِ فَقَطْ، بَلْ يَعْتَدِي عَلَيْهِ، وَانْظُرُوا إِلَى كُفَّارٍ قَرِيشٍ مَاذَا صَنَعُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ؟ مَنَعُوهُ وَاعْتَدَوْا عَلَيْهِ.

﴿مُرِيبٍ﴾ أَي: وَاقِعٌ فِي الرَّيْبَةِ وَالشَّكِّ وَالْقَلْقِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا يُشَكِّكُ غَيْرَهُ

فِيُدْخِلُ فِي قَلْبِهِ الرَّيْبَةَ، فَكَلِمَةُ ﴿مُرِيبٍ﴾ تَقْتَضِي وَصْفَ الْإِنْسَانِ بِهَا، وَحَمَلَ هَذَا  
الْوَصْفَ إِلَى غَيْرِهِ.



## الآية (٢٦)

• • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ فَأَلْفَيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦].

• • •

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، ما أوسع هذه الكلمة، وإذا كانت هذه الكلمة وصفًا للكفار العنيد، فالمعنى أَنَّهُ يَعْبُدُ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، وَكُلُّنَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، فَيَعْبُدُونَ اللَّاتَ، وَيَعْبُدُونَ الْعُزَّى، وَيَعْبُدُونَ مَنَاةَ، وَيَعْبُدُونَ هُبَلَ، وَكُلُّ قَوْمٍ لَهُمْ طَاغِيَةٌ يَعْبُدُونَهَا كَمَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، يَرْكَعُونَ لَهَا، وَيَسْجُدُونَ لَهَا، وَيُحِبُّونَهَا كَمَا يُحِبُّونَ اللَّهَ، وَيَخَافُونَ مِنْهَا كَمَا يَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ - نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ - هَذَا إِذَا جَعَلْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وَصَفًا لِهَذَا الْكَفَّارِ الْعَنِيدِ.

أَمَّا إِذَا جَعَلْنَاهُ أَشْمَلَ مِنْ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تَعُمُّ كُلَّ إِنْسَانٍ تَعَبَّدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَتَذَلُّ لِغَيْرِ اللَّهِ، حَتَّى التَّاجِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا تِجَارَتُهُ وَتَنْمِيتُهَا فَإِنَّهُ عَابِدٌ لَهَا، حَتَّى صَاحِبُ الْإِبِلِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا إِبِلُهُ هُوَ عَابِدٌ لَهَا، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ مَنْ انْشَغَلَ بِشَيْءٍ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَهُوَ عَابِدٌ لَهُ، قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ»<sup>(١)</sup>.

عبد الدِّينَار هذا تاجر الذهب، وعبد الدَّرْهِم تاجر الفضة، وعبد الخَمِيصَةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم ٢٨٨٦ -

(٢٨٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

تاجر الثياب، لأنَّ الحَمِيصَةَ هي الثَّوبُ الجميل المَنقُوشُ، وعبد القَطِيفَةِ تاجر الفرش، أو ليس بتاجر، يَعْنِي لَا يَتَّجِرُ بِهِذِهِ الْأَشْيَاءَ لَكِنَّهُ مَشْغُولٌ بِهَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، إِنْ أُعْطِيَ رَاضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، فَسَمَّى النَّبِيُّ ﷺ مَنْ اشْتَغَلَ بِهِذِهِ الْأَشْيَاءَ الْأَرْبَعَةَ عَبْدًا لَهَا، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِبَادَةَ أَوْسَعُ مِنْ هَذَا، قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

فدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ قَدَّمَ هَوَاهُ عَلَى نَفْسِهِ عَلَى هَدْيِ رَبِّهِ فَهُوَ قَدْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَهُ؛ وَلِهَذَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ جَمِيعَ الْمَعَاصِي دَاخِلَةٌ فِي الشَّرْكِ فِي هَذَا الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ قَدَّمَهَا عَلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، فَجَعَلَ هَذَا شَرِيكًا لِلَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فِي تَعْبُدِهِ لَهُ، وَاتِّبَاعِهِ إِيَّاهُ، فَالشَّرْكَ أَمْرُهُ عَظِيمٌ، وَخَطَرُهُ جَسِيمٌ، حَتَّى الرَّجُلُ إِذَا تَصَدَّقَ بِدَرَاهِمٍ وَهُوَ يُبَاحِظُ لَعَلَّ النَّاسَ يَرُونَهُ لِيَمْدَحُوهُ وَيَقُولُوا: إِنَّهُ رَجُلٌ كَرِيمٌ، يُعْتَبَرُ مَشْرُكًا مُرَائِيًا، وَالرِّيَاءُ شِرْكٌ، وَأَخَوْفُ مَا خَافَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أُمَّتِهِ الشَّرْكَ الْحَقِيقِي، وَهُوَ الرِّيَاءُ<sup>(١)</sup>.

فَعَلَى هَذَا نَقُولُ: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، إِنْ كَانَتْ وَصْفًا خَاصًّا بِالْكَفَّارِ الْعَنِيدِ، فَإِنَّهَا تَخْتَصُّ بِمَنْ يَعْبُدُ الصَّنَمَ وَالْوَتْنَ، وَإِنْ كَانَتْ لِلْعُمُومِ فَهِيَ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ اشْتَغَلَ بِغَيْرِ اللَّهِ عَنْ طَاعَتِهِ، وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْأَمْثَلَةِ وَالْأَدَلَّةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَالْيَافَاءُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعِينَنَا مِنْهَا بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ.



(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، رقم (٤٢٠٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآيات (٢٧-٢٩)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٧-٢٩].

• • •

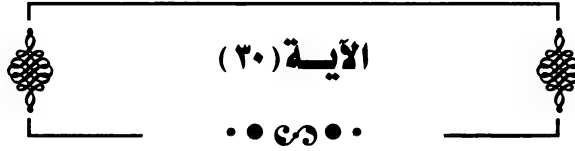
﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ هو يدَّعي أن قَرِينه هو الذي أطغاه وهو صده عن سبيل الله، فيقول قَرِينه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾، ما أمَرته أن يكذب، ولا أن يكون عنيداً، ولا أن يكون مُعتدياً، ولا أن يكون مُريباً، ولا أن يكون مُشركاً مع الله أحداً، ما فعلتُ هذا ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: كان هذا الكافر في ضلال بعيد عن الحق، حيثُ لدينا خصمان: الكفار العنيد، والقرين، فالكفار العنيد يدَّعي أن القرين هو الذي أغواه وأطغاه، والقرين يُنكر ذلك، فيقول الله سُبحانه وتعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾، الخُصومة مُنقطعة؛ لأنَّ الحُجَّة قائمة ولا عُذر لأحد.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾، أي أوعدتكم على المُخالفة فلا حُجَّة لكم، ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾، يعني لا أحد يستطيع أن يُبدِّل قولي؛ لأنَّ الحُكم لله سُبحانه وتعالى وحده، فإذا كان الله تعالى قد وعد فهو صادق الوعد سُبحانه وتعالى، وأمَّا الإيعاد فقد يغفر ما شاء من الذنوب إلا الشرك ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يعني لست أظلم أحداً، وكلمة (ظلام) لا تظُنَّ أنَّها صيغة مُبالغة، وأنَّ المعنى أني لست

كثيرَ الظُّلم، بل هي من باب النسبة، أي: لست بذِي ظُلم، والدَّلِيل على أنَّ هذا هو المعنى، وأَنَّهُ يتعيَّن أن يكون هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، ويقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

والآيات في هذا كثيرة، أنَّ الله لا يَظْلِم، بل إنَّنا إذا تأملنا وجدنا أنَّ فضلَ الله وإِحسانَه أكثرُ من عدله، جزاء سيِّئة سيِّئةً مثلها، وجزاء حسنةٍ عشرةً أمثالها، ولو أردنا أن نأخذ بالعدل لكان السيِّئةُ بالسيِّئةِ، والحسنةُ بالحسنة، لكنَّ فضلَ الله زائدٌ على عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجزي بالفضل والإحسان لمن كان مُحْسِنًا، وبالعدل دُونَ زيادة لمن كان مُسِيئًا ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.





﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾﴾ [ق: ٣٠].

• • •

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظرف زمان، والظُرُوف الزَّمَانِيَّة والمَكَائِيَّة، وكذلك حُرُوف الجَرِّ لا بُدَّ لها من مُتَعَلِّق، أي لا بُدَّ لها من فعل، أو ما كان بمعنى الفعل تتعلَّق به، فما هو مُتَعَلِّق قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ نقول: هو محذوف، والتَّقدير: (اذكر يوم نقول لجَهَنَّمَ) وليُعلم أَنَّهُ يوجد في اللُّغة العربيَّة كلمات تُحذف بل ربَّما يُجمل تُحذف، وذلك فيما إذا دَلَّ عليها السِّياق، فهنا الكلمة الَّتِي تتعلَّق بها كلمة يَوْم محذوفة، والتَّقدير: اذكر ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾.

يسألها الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ وهو يَعْلَم عَزَّوَجَلَّ أَنَّهَا امْتَلَأَتْ، أو لم تمتلئ؛ لأنَّه لا يَخْفَى عليه شيء، لكنَّه يسألها هل امْتَلَأَتْ؟ ليَقَرَّر لها ما وَعَدَهَا سُبْحَانُهُ وَتَعَالَى، فَإِنَّ الله يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَسَّمتَ كَلِمَةً رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، فيسألها: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ يعني هل حَصَلَ ما وَعَدَ الله به؛ لأنَّ الله تكفَّل بأن يَمْلَأَ الجَنَّةَ وَيَمْلَأَ النَّارَ، فتقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾: ﴿هَلْ﴾ أداة استفهام، وهي حرف، وهل هي استفهام طَلَب، بمعنى: أَنَّهَا تَطْلُبُ الزِّيَادَةَ، أو استفهام نَفْي، بمعنى: أَنَّهَا تقول: لا مزيد على ما فيها؟ في هذا للْعُلَمَاء قولان:

القول الأول: إنَّ المعنى: لا مزيد على ما في، و(هل) تأتي لاستفهام النَّفْيِ كما في قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣] أي ما من خالق؟ وعلى هذا فتكون النَّارُ امتلأت إذا قالت: لا مزيد على ذلك، فالمعنى أنَّها امتلأت.

القول الثاني: أنَّها استفهام طَلَبٍ، يعني تَطَلُّبُ الزَّيَادَةِ.

وإذا اختلف العلماء في التفسير أو غير التفسير فلنرجع إلى ما قاله الله تعالى ورسوله ﷺ، فلننظر أي القولين أولى بالصواب، ثبت عنه سبحانه وتعالى أنه قال: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تُنَلَّقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ عَلَيْهَا قَدَمَهُ» أو قال: عليها رجله «فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ قَطُّ قَطُّ»<sup>(١)</sup> فأولى القولين بالصواب، أنَّها استفهام طلبٍ يعني تَطَلُّبُ الزَّيَادَةِ، ولكن رحمة الله سبقت غضبه، يَضَعُ عليها عَزَّجَلَّ رجله على الوجه الذي أراد، ثُمَّ يَنْزَوِي بعضها ينضمُّ إلى بعض وتتصايق وتقول: لا مزيد على ذلك، فَحَقَّتْ كلمة الله أَنَّهُ مَلَأَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وفي الحديث الَّذِي سَقَتْهُ إِبْثَاتُ الْقَدَمِ، أو الرَّجُلُ للهِ عَزَّجَلَّ، والمراد رجل حقيقة لله عَزَّجَلَّ، إلا أنَّها لا تُشَبَّهُ أَرْجُلُ المخلوقين بأيِّ وجه من الوجوه، نَعْلَمَ عِلْمَ اليقين أنَّها ليست مثل أَرْجُلِ المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والمقصود من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ هو تحذير للناس؛ لأنَّ كُلَّ واحد منا لا يدري أَيُّكُمْ مِنْ حَطَبِ جَهَنَّمَ، أو يكون مِمَّنْ نَجَّا منها؟ نسأل الله أن يُنَجِّينَا وَإِيَّاكُمْ منها.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، رقم (٦٦٦١)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



## الآيتان (٣١، ٣٢)

• • ❦ • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ

حَفِيطٍ ﴿ق: ٣١-٣٢﴾.﴾

• • ❦ • •

﴿وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قُرُبْتُ لِلْمُتَّقِينَ مَكَانًا غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿هَذَا﴾ أي مَا تُشَاهِدُونَ مِنْ قُرْبِ الْجَنَّةِ ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هَذَا الَّذِي تُوعَدُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ الْعَامِلِينَ الصَّالِحَاتِ بِالْجَنَّةِ، وَصَدَّقَ وَعْدَهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنْ لِمَنْ؟ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيطٍ﴾ الأَوَّابُ: صَيغَةُ مَبَالِغَةٍ مِنْ آبٍ يُوُوبُ بِمَعْنَى رَجَعَ، أَيْ لِكُلِّ أَوَّابٍ إِلَى اللَّهِ، أَيْ رَجَّاعٍ إِلَيْهِ.

﴿حَفِيطٍ﴾ أي: حَفِيطٌ لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، وَهَذَا كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظُكَ»<sup>(١)</sup> والمعنى أَنَّهُ حَفِيطٌ لِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يُضَيِّعُهَا وَلَا يُقَابِلُهَا بِكَسَلٍ وَتَوَانٍ بَلْ هُوَ نَشِيطٌ فِيهَا، وَإِذَا عَصَى بِتَرْكِ وَاجِبٍ، أَوْ فَعَلَ مُحَرَّمًا تَجَدَّهَ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، فَهُوَ أَوَّابٌ رَجَّاعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَعَاصِي إِلَى الطَّاعَاتِ، وَكَذَلِكَ حَفِيطٌ حَافِظٌ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، مُحَافِظٌ عَلَيْهِ، قَائِمٌ بِهِ.

• • ❦ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١٦).

الآية (٣٣)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣].

• • •

﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ مِنْ بَدَلٍ مَّا سَبَقَهَا ﴿ خَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ أي: خافه عن عِلْمٍ وبصيرة؛ لأنَّ الخشية لا تكون إلا بعلم، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] فهي خشية أي خوف ورهبة وتعظيم لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها صادرة عن عِلْمٍ، وقوله: ﴿ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ لها معنيان:

المعنى الأول: أَنَّهُ خَشِيَ الرَّحْمَنَ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ، لَكِنْ رَأَى آيَاتِهِ الدَّالَّةَ عَلَيْهِ.

المعنى الثاني: خَشِيَهُ بِالْغَيْبِ، أَي: بِغَيْبِهِ عَنِ النَّاسِ، فَهُوَ يَخْشَى اللَّهَ وَهُوَ غَائِبٌ عَنِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يَخْشَى اللَّهَ إِذَا كَانَ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِذَا انْفَرَدَ فَإِنَّهُ لَا يَخْشَى اللَّهَ، مِثْلَ الْمُرَائِي الْمُنَافِقِ، إِذَا كَانَ مَعَ النَّاسِ تَجِدُهُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خَشِيَةً، وَإِذَا انْفَرَدَ لَا يَخْشَى اللَّهَ، كَذَلِكَ أَيْضًا مِنَ النَّاسِ مَن يَكُونُ عِنْدَهُ خَشِيَةٌ ظَاهِرِيَّةٌ، لَكِنَّ الْقَلْبَ لَيْسَ خَاشِعًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَيَكُونُ بِالْغَيْبِ أَي مَا غَابَ عَنِ النَّاسِ، سِوَاءَ كَانَ عَمَلُهُ فِي مَكَانٍ خَاصٍّ، أَوْ مَا غَابَ عَنِ النَّاسِ بِقَلْبِهِ، فَإِنَّ خَشِيَةَ الْقَلْبِ هِيَ الْأَصْلُ.

﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ أَي جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ أَي رَجَّاعٍ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يَعْنِي أَنَّهُ مَاتَ وَهُوَ مُنِيبٌ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] والمعنى أَنَّهُ بَقِيَ عَلَى الْإِنَابَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى أَنْ مَاتَ، وَإِلَى أَنْ لَقِيَ اللَّهَ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِالْخَوَاتِيمِ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْتِمَ لَنَا بِالْخَيْرِ.

## الآيتان (٣٤، ٣٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ ﴿٣٤﴾ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا

مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٤-٣٥].

• • • • •

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾: ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أمر، وهل هو أمر إلزام، أو أمر إكرام؟ لا شك أنه أمر إكرام؛ لأن الآخرة ليس فيها تكليف وإلزام، بل إمّا إكرام وإمّا إهانة، فقوله تعالى للمجرمين: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَءَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦] هذا أمر إهانة، وقوله للمؤمنين هنا ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ هذا أمر إكرام، وقوله ﴿بِسَلَامٍ﴾، الباء هنا للمصاحبة، والمعنى: دُخُولًا مَصْحُوبًا بِسَلام، سلام من كل آفة، فأصحاب الجنة سَالِمُونَ من الأمراض، وسَالِمُونَ من الهرم، وسَالِمُونَ من الموت، وسَالِمُونَ من الغلّ، وسَالِمُونَ من الحسد، وسَالِمُونَ من كل شيء، فأهل الجنة سَالِمُونَ ﴿لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي هؤلاء المتقين ما يشاءون ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني مزيدًا على ما يتمنون ويشاءون؛ لأن الإنسان -بحكمه مخلوقًا- يعجز عن أن يستقصي كل شيء وتنقطع نيته بحيث لا يدري ما يتمنى، لكن هؤلاء أهل الجنة، كل ما يشتهون فيها فإنه موجود طيب، لو اشتهى الإنسان ثمرة معينة كَرْمَانٍ أو عِنَبٍ أو ما أشبه ذلك يجدها في أي وقت، كل شيء يشتهيه الإنسان ويطلبه فإنه موجود لا ينتهي، بل قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني نعطهم فوق ما يشتهون ويتمنون، ومن الزيادة النظر إلى وجه الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا استدلّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ

وغيره من أهل العلم بهذه الآية على إثبات رؤية الله عزَّجَلَّ، وقال: إنَّ هذه الآية: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْفَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يرزقنا النظر إلى وجهه الكريم في جنَّات النعيم.



## الآية (٣٦)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْيِصٍ﴾﴾ [ق: ٣٦].

• • • • •

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحْيِصٍ﴾ لما كانت قريش تكذب النبي عليه الصلاة والسلام، وتُنكر البعث، وتقول: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢] حذرهم الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَقَعَ بِهِمْ مَا وَقَعَ بِمَنْ سَبَقَ مِنَ الْأُمَمِ، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: كثيرًا مِنَ الْقُرُونِ أَهْلَكْنَاهُمْ.

والقرن هنا بمعنى القرون، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

فَأُمَمٌ كَثِيرَةٌ أَهْلَكَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَمَّا كَذَّبَتِ الرُّسُلَ ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: بحثوا في البلاد يُريدون المفرَّ والمَّلْجَأَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا مَفَرًّا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هَلْ مِنْ مَحْيِصٍ﴾ أي لا مَحْيِصَ لَهُمْ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَلُاعْتَدُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: ٥١-٥٢] فَمَا أَصَابَ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَوَّلًا يُصِيبُ مَنْ كَذَّبَ ثَانِيًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [حمد: ١٠].

الآية (٣٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

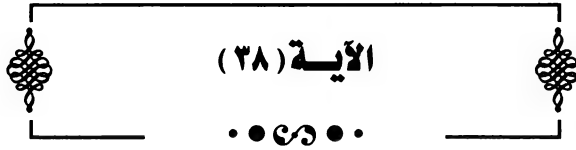
• • • • •

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي ما سبق من الآيات العظيمة، ومنها ما قصَّ الله تعالى في هذه الآيات الكريمة من إهلاك الأمم السابقة، فيه ذِكْرٌ لِنَوْعَيْنِ مِنَ النَّاسِ: الأول ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: مَنْ كَانَ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ يَهْتَدِي بِهِ بِالتَّدَبُّرِ، والثَّانِي: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع إلى غيره مِمَّنْ يعظه وهو حاضر القلب، فبين الله تعالى أنَّ الذِّكْرَى تكونُ لِصِنْفَيْنِ مِنَ النَّاسِ:

الأول: مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَوَعْيٌ يَتَدَبَّرُ وَيَتَأَمَّلُ بِنَفْسِهِ وَيَعْرِفُ.

والثَّانِي: مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَكِنْ بِشَرَطٍ أَنْ يَكُونَ شَهِيدًا أَي حَاضِرَ الْقَلْبِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ لَا يَسْتَمِعُ لِلْمَوْعِظَةِ، أَوْ يَسْتَمِعُ بِغَيْرِ قَلْبٍ حَاضِرٍ، أَوْ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ يَتَدَبَّرُ بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهَذِهِ الذِّكْرَى؛ لِأَنَّهُ غَافِلٌ مِيتَ الْقَلْبِ.

• • • • •



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

• • •

هذه ثلاثة مخلوقات عظيمة بيّن الله عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وأكد هذا الخبر بثلاثة مؤكّدات: القسم، واللام، وقد؛ لأنّ تقدير الآية: (والله لقد خلقنا السّموات والأرض)، فالسّموات معلومة لنا جميعاً وهي سبع سّموات طباقاً، والأرض هي الأرض التي نحنُ عليها، وهي سبع أرضين، كما جاءت به السّنة صريحاً<sup>(١)</sup>، وكما هو ظاهر القرآن في قوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ١٢]، الثالث: ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي: بين السّماء والأرض، والذي بين السّماء والأرض مخلوقات عظيمة، يدلُّ على عِظَمِهَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَهَا عِدِيلَةَ لَخَلْقِ السّموات وَخَلَقِ الْأَرْضِ، فهي مخلوقات عظيمة، والآن كلّما تقدّم العلم بالفلك ظهر من آياتِ الله سُبحَانَهُ وتعالى فيما بين السّماء والأرض ما لم يكن معلوماً لكثير من النّاس من قبل.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٥)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٢)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أَوَّلَهَا الْأَحَدَ وَآخِرُهَا الْجُمُعَةَ، وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلْقُهَا فِي لَحْظَةٍ؛ لِأَنَّ أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، لَكِنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَخْلُقُ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابٍ وَمُقَدِّمَاتٍ تَتَكَامَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى تَتِمَّ، كَمَا لَوْ شَاءَ خَلَقَ الْجِنَّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي لَحْظَةٍ، لَكِنَّهُ يَخْلُقُهُ أَطْوَارًا حَتَّى يَتَكَامَلَ، كَذَلِكَ السَّمَوَاتُ لَوْ شَاءَ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي لَحْظَةٍ، وَلَكِنَّهُ عَزَّجَلَّ يَخْلُقُ الْأَشْيَاءَ تَتَكَامَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: فِيهِ فَائِدَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ أَنْ يُعَلِّمَ عِبَادَهُ التَّائِيَّ فِي الْأُمُورِ، وَأَنْ لَا يَأْخُذُوا الْأُمُورَ بِسُرْعَةٍ؛ لِأَنَّ الْمُهَمَّ هُوَ الْإِتْقَانُ وَلَيْسَ الْإِعْجَالُ وَالْإِسْرَاعُ.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أَي: مَا مَسَّنَا مِنْ تَعَبٍ وَإِعْيَاءٍ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ هَذِهِ السَّمَوَاتِ الْعَظِيمَةَ وَالْأَرْضِينَ وَمَا بَيْنَهُمَا دُونَ تَعَبٍ وَلَا إِعْيَاءٍ، وَإِنَّمَا انْتَفَى عَنْهُ التَّعَبُ جَلَّ وَعَلَا لِكِبَالِ قُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].





## الآية (٣٩)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

• • •

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمر الله نبيه ﷺ أن يصبر على ما يقولون، وقد قال عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْرِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ [الأحاف:٣٥] اصبر، فإنَّ العاقبة للمتقين، ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ فهم يقولون: إنَّ مُحَمَّدًا كَذَّابٌ، وساحِرٌ، وشاعرٌ، وكاهنٌ، ومجنونٌ، وأنَّه لا بعث، وإن كانوا يُقرِّون بالرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ وأنَّه خالقُ السَّموات والأرض، لكن لا يُقرِّون بأمور الغيب المُستقبلة، فأمره الله أن يصبر على ما يقولون.

والصبر على ما يقولون يتضمَّن شيئين:

الأوَّل: عدم التَّضجُّر ممَّا يَقُول هؤلاء، وأن يتحمَّل ما يقوله أعداؤه فيه وفيما جاء به.

والثَّاني: أن يمضي في الدَّعوة إلى الله، وأن لا يتفَاعَس ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ سَبِّح تَسْبِيحًا مَقْرُونًا بِالْحَمْدِ في هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ: قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وقَبْلَ الْغُرُوبِ، قال أغلبُ المُفسِّرين: المراد بذلك صَلَاةُ الْفَجْرِ وَصَلَاةُ الْعَصْرِ، وهُمَا أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ صَلَّى

الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(١)</sup> والْبَرْدَانِ هُمَا الْفَجْرُ وَفِيهِ بُرُودَةُ اللَّيْلِ، وَالْعَصْرُ وَفِيهِ بُرُودَةُ النَّهَارِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤُوسِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا»<sup>(٢)</sup>.

فَالصَّلَاةُ الَّتِي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ هِيَ الْفَجْرُ، وَالصَّلَاةُ الَّتِي قَبْلَ غُرُوبِهَا هِيَ الْعَصْرُ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُحَافَظَةَ عَلَى هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَأَفْضَلُهَا الْعَصْرُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَصَّهَا بِالذِّكْرِ حِينَ أَمَرَ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] وَهِيَ الْعَصْرُ، كَمَا فَسَّرَهَا بِذَلِكَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بكِتَابِ اللَّهِ وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ<sup>(٣)</sup>.



(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، رَقْمُ (٥٧٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتِي الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا، رَقْمُ (٦٣٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْعَصْرِ، رَقْمُ (٥٥٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتِي الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا، رَقْمُ (٦٣٣)، مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ الدَّعَاءِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، رَقْمُ (٦٣٩٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ الدَّلِيلِ لِمَنْ قَالَ: الصَّلَاةُ الْوُسْطَى، هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ، رَقْمُ (٦٢٧)، مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآيات (٤٠-٤٢)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَعَتُهُ ۖ وَأَذْبَنَرَ الشُّجُودَ ۖ ﴿٤٠﴾ وَأَسْمَعَ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۚ ﴿٤٢﴾﴾ [ق: ٤٠-٤٢].

• • ❁ • •

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَعَتُهُ﴾ أيضًا سَبَّحَ اللَّهُ مِنَ اللَّيْلِ و(مِنْ) هُنَا لِلتَّبَعِيضِ، يَعْنِي سَبَّحَهُ أَيْضًا جُزْءًا مِنَ اللَّيْلِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَٰلِكَ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَصَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَٰلِكَ أَيْضًا التَّهَجُّدُ ﴿وَأَذْبَنَرَ الشُّجُودَ﴾ أَيِ وَسَبَّحَ اللَّهُ أَدْبَارَ الشُّجُودِ، أَيِ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ، وَهَلِ الْمُرَادُ بِالتَّسْبِيحِ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ النَّوَافِلِ الَّتِي تُصَلَّى بَعْدَ الصَّلَوَاتِ كَرَاتِبَةِ الظُّهْرِ بَعْدَهَا، وَرَاتِبَةِ الْمَغْرِبِ بَعْدَهَا، وَرَاتِبَةِ الْعِشَاءِ بَعْدَهَا، أَوِ الْمُرَادُ التَّسْبِيحُ الْخَاصُّ، وَهُوَ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ، وَلَوْ قِيلَ بِهَذَا أَوْ هَذَا لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ ﴿وَأَسْمَعَ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَيِ انْتَظِرْ لِهَذَا النِّدَاءِ الَّذِي يَكُونُ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَحُشْرِ النَّاسِ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۚ مِنْ الْقُبُورِ﴾.

• • ❁ • •

الآيتان (٤٣، ٤٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ ﴾ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ  
الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٣-٤٤].

• • • • •

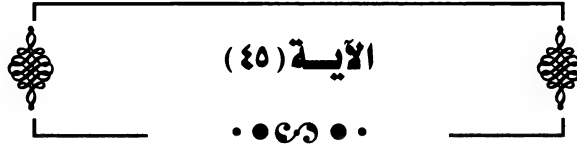
﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾: ﴿ إِنَّا ﴾ يقول الله عن نفسه ﴿ إِنَّا ﴾ تعظيماً له ﴿ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ أي: نُحْيِي بعدَ المَوْتِ، وَنُمِيت بعدَ الحَيَاةِ، فهو قَادِرٌ على الإحياء بعدَ المَوْتِ، وعلى المَوْتِ بعدَ الإحياء ﴿ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ أي المَرْجِع.

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ أي مَصِيرهم إلينا في ذلك الوقت، تَشَقَّقُ الأرض، أي: تَتَفَتَّح عَنْهُمْ أي عن هؤلاء في قُبُورهم، تَشَقَّقُ كما تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عند طُلُوع النَّبَاتِ، ﴿ سِرَاعًا ﴾ أي يَأْتُونَ إِلَى الْمَحْشَرِ.

﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي سَهْلٌ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الصافات: ١٩]، ويقول تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥٣]، وهذا يدلُّ على يُسر ذلك على الله عَزَّوَجَلَّ.

• • • • •



﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾﴾ [ق: ٤٥].

••❧••

﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهذا وعيد لهؤلاء الذين يقولون في رسول الله ﷺ ما يقولون، أخبر الله هنا أنه لا يخفى عليه حالهم، وأنه يعلم ما يقولون، ثم قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي لست عليهم بذي جبروت فتجبرهم على أن يسلموا ويؤمنوا بك.

ولهذا قال في آية أخرى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي عِظَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَنْ يَخَافُ الْوَعِيدَ، أي من يخاف وعيدي بالعذاب؛ لأن هؤلاء هم الذين ينتفعون بالتذكُّر بالقُرْآنِ، فالقُرْآنُ يذكرُّ به جميع النَّاسِ، ولكن لا ينتفع به إلا مَنْ يخاف الله عَزَّوَجَلَّ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُتَنَفِّعِينَ بِكِتَابِهِ، الْمُتَعِظِينَ بِآيَاتِهِ.

••❧••



سورة الذاريات  
الآيتان (٢، ١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿وَالَّذَرِيَّتِ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ﴾ [الذاريات: ١-٢].

• • • • •

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تقدم الكلام على البسملة.

﴿وَالَّذَرِيَّتِ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَرِيَّتِ بُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقْسِمَتِ أَمْرًا﴾  
أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات؛ لأنها دالة على عظمته تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولما فيها من  
المصالح والمنافع.

أما قوله: ﴿وَالَّذَرِيَّتِ ذَرَوْا﴾ فالذاريات هي الرياح تذرُّو الترابَ وغير التراب،  
قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، أي: تُفَرِّقه في أمكنة  
متعددة، وأقسم الله بالذاريات لما فيها من المصالح الكثيرة، ففي تصرفها حكمة  
بالغة، فمنها الرياح الدافئة، ومنها الرياح الباردة، على حسب ما تقتضيه حكمة الله  
عَزَّجَلْ؛ ولأنَّ الرياح تُثير سحابًا فيُسقي به الله الأرض؛ ولأنَّها تُسير السفن، ففيما  
سبق كانت السفن تجري على الرياح، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ  
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾  
[يونس: ٢٢].

﴿فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا﴾ المراد بها السحاب، تحمل المياه موقرة، أي: مثقلة محملة،

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] فهي ثَقِيلَةٌ مُحْمَلَةٌ بِمِيَاهٍ عَظِيمَةٍ -بحار- ولذلك تُمَطَّرُ فتجري الأرض أنهارًا بإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فالذَّارِيَّاتُ: الرِّيحُ، والحَامِلَاتُ: السُّحُبُ، والارتباط بينهما ظاهر؛ لأنَّ الرِّيحَ هي التي تُثِيرُ السَّحَابَ، وهي التي تُلْقِحُ السَّحَابَ بالماء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢].





## الآيات (٣-٥)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَالْجَارِيَتِ بُسْرًا ﴿ ٣ ٓ ﴾ فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا ﴿ ٤ ٓ ﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾

[الذاريات: ٣-٥].

• • •

﴿ فَالْجَارِيَتِ ﴾ هُنَّ الشُّفَن ﴿ بُسْرًا ﴾ أي: بِسُهولة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَعَا أَلَمَاءُ حَمَلَتْكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١] أي: فِي السَّفِينَةِ، هَذِهِ السَّفِينَةُ مُيَسَّرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِمَا يَسِّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الرِّيَّاحِ الطَّيِّبَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الرِّيَّاحُ مُنَاسِبَةً كَانَ سَيْرُهَا أَيْسَرَ، وَالْآنَ جَاءَتِ الشُّفَنُ النَّارِيَّةُ الَّتِي لَا تَحْتَاجُ إِلَى الرِّيَّاحِ فَصَارَتْ أَيْسَرَ وَأَيْسَرَ، تَجِدُهَا قَرَى كَامِلَةً تَمُخَّرُ عِبَابَ الْمَاءِ وَتَسِيرُ بِسُهولة، وَالْإِرْتِبَاطُ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَنَّ الرِّيَّاحَ تَحْمِلُ السُّحْبَ، وَأَنَّ السُّحْبَ تَحْمِلُ الْأَمْطَارَ، فَتَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ، فَيَكُونُ الرِّزْقُ لِلْمَوَاشِي وَالْآدَمِيِّينَ، وَالْجَارِيَّاتِ: أَيِ الشُّفَنِ، هِيَ أَيْضًا تَحْمِلُ الْأَرْزَاقَ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَصِلَ الْأَرْزَاقُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا بَحْرٌ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الشُّفَنِ.

﴿ فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا ﴾ وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَجَمْعُهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ جَمْعُ الْمُؤَنَّثِ بِاعْتِبَارِ الْجَمَاعَاتِ، أَيِ: فَالْجَمَاعَاتِ الْمُقَسَّمَاتِ ﴿ أَمْرًا ﴾ الَّتِي تُقَسِّمُ الْأَمْرَ، أَيِ: شُئُونِ الْخَلْقِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿ أَمْرًا ﴾ أَيِ: بِأَمْرِ اللَّهِ، وَالْمَعْنَى صَحِيحٌ عَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْسِمُونَ مَا يَرِيدُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ أَرْزَاقِ الْخَلْقِ وَغَيْرِهَا

بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، هذه أربع جُمل: الذَّارِيَّات، الحَامِلَات، الجَّارِيَّات، المُقَسَّمَات، كُلُّ هذه مُقَسَّم بها، والمُقَسَّم عليه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ يَعْنِي مَا وَعَدَكُمُ اللهُ تَعَالَى فَهُوَ وَعْدٌ صَادِقٌ، وَالصَّادِقُ هُوَ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخَبَرَ نَوْعَانِ: نَوْعٌ يُخَالِفُ الْوَاقِعَ، وَهَذَا يُسَمَّى كَذِبًا، وَنَوْعٌ يَطَابِقُ الْوَاقِعَ، وَهَذَا يُسَمَّى صَدَقًا، سَوَاءٌ كَانَ الْمُخْبَرُ عَنْهُ مَاضِيًّا أَوْ مُسْتَقْبَلًا، فَأَقْسَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى إِنَّمَا تُوعَدُ صَادِقٌ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ إِذَا وَقَعَ مَا تُوعَدُ، وَهُوَ الْبَعْثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتْلُوهُ الْجَزَاءُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ﴾.



## الآيات (٦-٩)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُوْفِكَ﴾ [الذاريات: ٦-٩].

• • •

الدِّينَ يَعْنِي الْجَزَاءَ، والدِّينَ يُطْلَقُ أحيانًا بمعنى الجزاء، وأحيانًا بمعنى العمل، ففي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾ [الكافرون: ٦] المراد به العمل، وفي قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَتَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ المراد به الجزاء، وهنا ﴿وَلِإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ أي الجزاء لا بُدَّ أَنْ يَقَعَ؛ لأنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ السَّمَاءُ معروفة، ذات: بمعنى صاحبة ﴿الْحُبُكِ﴾ يعني الطرق، أي: أنَّها من حُسْنِهَا كَأَنَّهَا ذَاتُ طُرُقٍ مُجْبُوكَةٍ مُتَقَنَّةٍ، كما يكون ذلك في جبال الرَّمْلِ، يَضْرِبُهَا الْهَوَاءُ فَتَكُونُ مُضْلَعَةً، إذن السَّمَاءُ كَذَلِكَ ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾: ﴿إِنَّكُمْ﴾ الْخِطَابُ لِلْكَافِرِينَ ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ يَعْنِي يَخْتَلِفُ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ، فبَعْضُ الْكُفَّارِ قَالُوا عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَبَعْضُهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ سَاحِرٌ، وَبَعْضُهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ كَاهِنٌ، وَبَعْضُهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ شَاعِرٌ، وَبَعْضُهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ كَذَّابٌ، فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَاخْتِلَافُ الْأَقْوَالِ يَدُلُّ عَلَى كَذِبِهَا وَفَسَادِهَا، وَكُلَّمَا رَأَيْتَ قَوْلًا مُخْتَلِفًا مُتَنَاقِضًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَنَاقِضَ، فَهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اخْتَلَفُوا هَذَا الْاِخْتِلَافَ.

﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُنْفِكَ﴾ بمعنى يُصَرِّفُ ﴿عَنْهُ﴾ قيل: إِنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَي يُصَرِّفُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مَن صُرِفَ مِنَ النَّاسِ، وَقِيلَ: إِنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ عَلَى الْقَوْمِ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ: تَكُونُ (عَنْ) بِمَعْنَى الْبَاءِ، أَي يُؤَفِّكُ بِهَذَا الْقَوْلِ مَنَ أُنْفِكَ، يُصَرِّفُ بِهَذَا الْقَوْلِ عَنِ الْحَقِّ مَنَ صُرِفَ، وَهُمَا أَيِ الْمَعْنَيَانِ مُتَلَازِمَانِ، وَالْأَقْرَبُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ ﴿عَنْهُ﴾ يَعُودُ عَلَى الْقَوْمِ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ﴾، أَي: عَنْ هَذَا الْقَوْلِ أَي: بِسَبَبِهِ.

﴿مَنَ أُنْفِكَ﴾ أَي مَن صُرِفَ عَنِ الْحَقِّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا، فَإِذَا جَاءَكَ رَجُلٌ بَلِيغٌ فَصِيحٌ، وَصَارَ يُورِدُ عَلَيْكَ الشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكَ أَلَسْتَ تَخْذَعُ بِقَوْلِهِ؟ بَلَى، فَهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَهُمْ فَصَاحَةٌ وَبِلَاغَةٌ وَتَمْوِيهٌ وَدَجَلٌ، فَيَصْرِفُونَ النَّاسَ.

وقوله: ﴿مَنَ أُنْفِكَ﴾ هل المراد مَنْ قَدَّرَ اللهُ عَلَيْهِ أَنْ يُصَرِّفَ، أَوِ الْمُرَادُ مَنَ أُنْفِكَ؟ أَي مَنَ صَرَفَهُ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفُونَ؟

هُمَا مُتَلَازِمَانِ أَيْضًا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ النَّاسَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُضِلُّوهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧]، فَهُمْ الَّذِينَ يَأْفِكُونَ النَّاسَ أَي: يَصْرِفُونَهُمْ فَهُمْ السَّبَبُ، لَكِنَّ الْمُقَدَّرَ لِلصَّرْفِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَكِنْ أَعْلَمَ أَخِي الْمُسْلِمُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُصَرِّفَ عَنِ الْحَقِّ إِلَّا مَنْ عَلِمَ اللهُ مِنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِلْحَقِّ - نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وكذلك الله أعلمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ فِي الَّذِينَ يَمَثِّلُونَهَا وَيُؤْمِنُونَ بِهَا، وَيُدُلُّ عَلَى هَذَا الَّذِي

قُلْنَا قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ولكن احذر إذا رأيت ضالًّا أن تقول: هذا ليس أهلًا للهداية؛ لأنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ الْقَوْلِ بِالْعُمُومِ، وَالْقَوْلِ بِالتَّعْيِينِ.

فالقول بالتعيين حرام؛ لأنَّكَ قد ترى شخصًا ضالًّا وتقول: هذا لا يهتدي، وإذا به يهديه الله عزَّ وجلَّ، والعكس بالعكس، ربَّما ترى شخصًا مُستقيمًا تقول: هذا لا يمكن أن يضلَّ، فإذا به يضلُّه الله، فإيَّاكَ أن تشهد على مُعَيَّن، لكنَّ حقيقة أنَّكَ إذا رأيت ضالًّا مُتمرَّدًا مُستكبرًا عن الحقِّ فإنَّكَ بقلبك تستبعد أنَّ الله يهديه، لكن لا تقل: إنَّ الله لا يهديه؛ ففي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِشَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ. فَقَالَ: خِلْنِي وَرَبِّي، أَبْعَثْ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُمَا الْمُجْتَهِدُ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدَيَّ قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ».

قال أبو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَأَخْرَاهُ<sup>(١)</sup>.

وفي رواية مُسْلِمٍ: فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَّالَى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ»<sup>(٢)</sup>. نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، رقم (٤٩٠١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم (٢٦٢١)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لهذا لا تُعَجَّبِ بِنَفْسِكَ، ولا تَيَاسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فِيما يَتَعَلَّقُ بِكَ، ولا فِيما يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَكِنْ نَعْلَمُ عَلَى سَبِيلِ الْعُموم أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لم يَكُنْ أَهْلًا لِلْهِدَايَةِ فَإِنَّهُ لَنْ يَهْتَدِيَ.

فَإِذَا رَأَيْنَا هَذَا الشَّخْصَ مُنْحَرِفًا مُسْتَكْبِرًا مُعَانِدًا فَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَغْلُبُ عَلَى ظَنِّنا أَنَّهُ لَيْسَ أَهْلًا لِلْهِدَايَةِ، لَكِنْ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَنْطِقَ بِذَلِكَ، وَيَحْرُمُ أَنْ نَنْطِقَ بِذَلِكَ، وَيُخْشَى أَنْ يُقَالَ لَنَا كَمَا قِيلَ لِهَذَا الرَّجُلِ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ، وَهُنَا مَسْأَلَةٌ مُهِمَّةٌ وَهِيَ الْفَرْقُ بَيْنَ التَّعِينِ وَالْإِطْلَاقِ، فَنَحْنُ مَثَلًا نَشْهَدُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِأَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، لَكِنْ إِذَا رَأَيْنَا شَخْصًا مُسْتَقِيمًا، وَيُصَلِّي وَيُزَكِّي، وَيَصُومُ، وَيُحُجُّ، وَيَتَصَدَّقُ، وَيُحْسِنُ، وَيَبْرِّ وَالِدَيْهِ، وَيَصِلُ رَحِمَهُ، فَلَا نَشْهَدُ بِأَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ التَّعِينَ شَيْءٌ وَالْإِجْمَالُ شَيْءٌ آخَرُ.

وَإِذَا رَأَيْنَا رَجُلًا كَافِرًا مُلْحِدًا مُسَلِّطًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، يُمَزَّقُ كِتَابَ اللَّهِ وَيَدُوسُهُ بِرِجْلَيْهِ وَيَسْتَهْزِئُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَلَا نَقُولُ: هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، بَلْ نَقُولُ: مَنْ فَعَلَ هَذَا فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، بَلَا تَعِينَ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْجَائِزِ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيَهْدِيَهُ، فَأَنْتَ لَا تَدْرِي، لِذَلِكَ يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ التَّعِينِ وَالْإِطْلَاقِ، أَوِ التَّعِينَ وَالْإِجْمَالِ، فَإِذَا مَاتَ رَجُلٌ وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّهُ مَاتَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ حَسَبَ مَا يَبْدُو لَنَا مِنْ حَالِهِ، فَلَا نَشْهَدُ لَهُ بِالنَّارِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَسَيَدْخُلُ وَلَوْ لَمْ نَشْهَدْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَشَهَادَتُنَا شَهَادَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

فَمِثْلُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ لَا دَاعِيَ لَهَا، فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الرُّوسِ، مِنْ الْمُلْحِدِينَ، مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْأَمْرِيكَانِ، مِنَ الْمُلْحِدِينَ مِنْهُمْ، مَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ مِنَ الْمُلْحِدِينَ، الْعَنَهُ وَاشْهَدْ لَهُ بِالنَّارِ، نَقُولُ: لَا يُمَكِّنُ، نَحْنُ نَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا لَعَنَاهُ، أَمَّا الشَّخْصُ الْمُعَيَّنُ فَلَا؛ وَلِهَذَا كَانَ

مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ قَالُوا: لَا نَشْهَدُ لِأَحَدٍ بِالْجَنَّةِ أَوْ بِالنَّارِ إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ لَهُ  
النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَكِنَّا نَرْجُو لِلْمُحْسِنِ وَنَخَافُ عَلَى الْمُسِيءِ، هَذِهِ عَقِيدَةُ أَهْلِ  
السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.



## الآيات (١٠-١٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الذاريات: ١٠-١٢].

• • • • •

﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾: ﴿قِيلَ﴾ كثيرٌ مِنَ المفسِّرين يُفسرها بـ(لُعِنَ)، واللَّعْن هو الطَّرد والإبعاد عن رحمة الله، ولكنَّ الصَّحيح أنَّها بمعنى أَهْلِكَ؛ لَأَنَّهُ لا داعي أن نصْرِفها عن ظاهرها، وظاهرها صحيح مُستقيم، فمعنى ﴿قِيلَ﴾: أَهْلِكَ، و﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ جمع خَرَّاص، وهو الَّذي يتكلم بالظَّنِّ والتَّخمين والارتباب والشك؛ لَأَنَّهُ مُنْغِمِرٌ في الجهل والسَّهو والغفلة؛ ولهذا وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرٍ سَاهُونَ﴾ أي في غَمرة مِنَ الجهل، قد أحاط بهم الجهل من كُلِّ جانب.

﴿سَاهُونَ﴾: غافِلون، لا يُحاولون أن يُقْبِلوا على ما أنزل الله على رُسُلِهِ عليهم الصَّلَاة والسَّلَام وَمِنْ جَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾، سُؤال استبعاد وإنكار، لو كانوا يسألون سُؤال استعلام واستخبار لعُدروا، كما قال جبريلُ للنبيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»، استفهامًا واستخبارًا، قال النبيُّ ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»<sup>(١)</sup> لكن أولئك الخَرَّاصون يسألون: ﴿أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يعني متى هو؟ استبعادًا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



ولهذا قال الله عَزَّجَلَّ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ (ق): ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿١٠﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٢-٣]، يَعْنِي أَنْ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ كُنَّا تُرَابًا، هَذَا رَجْعٌ بَعِيدٌ، فَهُمْ يَسْأَلُونَ عَنِ الْقِيَامَةِ لَا سُؤَالَ اسْتِفْهَامٍ وَاسْتِخْبَارٍ لِيَسْتَيَقِنُوا، وَلَكِنْ سُؤَالَ اسْتِيعَادٍ وَإِنْكَارٍ.



### الآيتان (١٣، ١٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَتَعِجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣-١٤].

• • • • •

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ هَذَا الْجَوَابُ، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

وَعَلَى هَذَا فَيَوْمَ هُنَا ظَرْفُ خَبَرٍ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ، وَمَعْنَى: ﴿عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أَي: يُعَرَّضُونَ عَلَيْهَا فَيَحْتَرِقُونَ بِهَا؛ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ بِمَعْنَى الْإِحْتِرَاقِ، وَلَكِنَّهَا عُدِّتْ بِـ(عَلَى)؛ لِأَنَّهَا ضُمِّنَتْ مَعْنَى الْعَرَضِ، أَي: يُعَرَّضُونَ عَلَى النَّارِ فَيَحْتَرِقُونَ بِهَا، هَذَا هُوَ يَوْمُ الدِّينِ.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَتَعِجِلُونَ﴾: ﴿ذُوقُوا﴾ هَذِهِ جُمْلَةٌ مَقُولٌ لِقَوْلٍ مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: يُقَالُ لَهُمْ: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ، وَهَذَا أَمْرٌ إِهَانَةٌ وَإِذْلَالٌ، أَي ذُوقُوا احْتِرَاقَكُمْ فِي النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ تُنْكِرُونَهَا ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَتَعِجِلُونَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ، فَيَسْتَعْجِلُونَ بِالْقِيَامَةِ اسْتِعْجَادًا لَهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

فَيُقَالُ لَهُوْلَاءِ: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَتَعِجِلُونَ﴾، وَيُقَالُ لَهُمْ:

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿الطور: ١٥-١٦﴾ يُفْتَنُونَ عَلَى النَّارِ فَيَحْتَرِقُونَ بِهَا، وَيُقَالُ: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ هذا توبيخ وإهانة وإذلال يكون به: العذاب القلبي.

فيُجمع لهم بين العذاب البدني وبين العذاب القلبي، فتجده يكون في أشد ما يكون من الحسرة، يتحسرون يقولون: ﴿يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].



## الآية (١٥)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ﴾ [الذاريات: ١٥].

• • ❦ • •

ولما كان القرآن الكريم مثاني، تُشَنَّى فيه المعاني الشرعية والخبرية، إذا ذكر الشيء ذكر ضده، لما ذكر عذاب هؤلاء المكذبين الخراصين قال: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ﴾ المتقون هم الذين اتَّقوا الله، والتَّقوى ترد في القرآن الكريم على وجوه متعددة: بالوصف تارة، وبالفعل تارة، وبالأمر تارة، وتارة تكون مُضافة إلى الله، وتارة تكون مُضافة إلى العقوبة وغير ذلك؛ مما يدلُّ على أنَّ التَّقوى شأنها عظيم في الإسلام.

وليست التَّقوى قولاً يُقال باللسان، بل هي قول يتبعه فعل وتطبيق، فإن سألتم ما هي التَّقوى؟ قلنا: التَّقوى كلمتان: فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى الله عنه، علم وبرهان واحتساب وخوف، تفعل ما أمر الله به؛ لأنك تعلم أن الله أمر به، تفعل ما أمر الله به؛ لأنك تحسب ثوابه، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، تترك ما نهى الله عنه؛ لأنك تعلم أن الله نهى عنه، تترك ما نهى الله عنه خوفاً من عقاب الله؛ لأنك موقن بالعذاب، هذه هي التَّقوى.

يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن المتقين: ﴿فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ﴾ أي: مُستقرون في جنات وعُيون، والجنات جمع جنة.

ويُمرُّ في القرآن (جنة) مُفردًا و(جنّات) جمعًا، فهل هي جنّات مُتعدّدة أو هي جنة واحدة؟

هي جنّات مُتعدّدة، لكن ذُكرت بلفظ المُفرد من باب ذكر الجنس، وإلا فهي جنّات، وفي آخر سورة الرحمن، ذكر الله أربع جنّات، قال: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وقال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أُنِيتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ أُنِيتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»<sup>(١)</sup>.

إذن: فالجنّات مُتعدّدة وُجِعت باعتبار أنواعها وأصنافها، وقد جاءت في القرآن مُفردة، مثل قوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وجاءت أيضًا بمجموعة فهي مُفردة باعتبار الجنس، ومجموعة باعتبار النوع، و(عُيُون): جمع عَيْن، وهي الأنهار الجارية، وقد ذكر الله تعالى أنها أربعة أنواع: ﴿أَنْهَرٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [حمد: ١٥].



(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رقم (١٨٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (١٦)

••❦••

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَانْتَهُمْ رَبُّهُمْ إِيْتَهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

[الذاريات: ١٦].

••❦••

﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَانْتَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾: حال من الضمير المستتر بالخبر، أي: حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم، أي: ما أعطاهم من النعيم، وهذه الآية كالأية التي في سورة الطور ﴿فَنَكِهِينَ بِمَا ءَانْتَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٨]، ثم بين السبب الذي وصلوا به إلى هذا، فقال: ﴿إِيْتَهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ يعني في الدنيا محسنين، أي: قائمين بطاعة الله على الوجه الذي يرضاه الله عزَّوَجَلَّ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»<sup>(١)</sup> هذا الإحسان في العبادة.

أمَّا الإحسان في مُعاملة الخلق، فإنَّ أجمع ما يُقال فيه ما قاله النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَخَّرَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلَتَأْتِهِ مَيِّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم:

كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤)،

من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا هو الإحسان إلى النَّاسِ، أن تُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أن يُعَامِلوكَ بِهِ، من حُسْنِ الخُلُقِ، وطلاقة الوجه، وكفِّ الأذى، وبذُلِ النَّدَى إلى غيرِ ذلك ممَّا هو معروف، فهؤلاء مُحْسِنُونَ في عِبَادَةِ اللَّهِ، ومُحْسِنُونَ إلى عِبَادِ اللَّهِ، ثُمَّ ذَكَرَ نَوْعًا مِنْ هَذَا الْإِحْسَانِ فَقَالَ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.



## الآيتان (١٧، ١٨)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِيلٍ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

[الذاريات: ١٧-١٨].

• • •

﴿ مَا ﴾ هُنَا قِيلَ: إِنَّهَا زَائِدَةٌ فِي اللَّفْظِ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ زَائِدَةٌ فِي الْمَعْنَى، وَأَنَّ التَّقْدِيرَ: كَانُوا قَلِيلًا يَهْجَعُونَ، أَيْ لَا يَنَامُونَ إِلَّا قَلِيلًا: وَمَاذَا يَصْنَعُونَ فِي هَذِهِ الْيَقَظَةِ؟ يَصْنَعُونَ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَزْمَلِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثِي آلِيلٍ وَيَصْفَهُ وَتُكَلِّمُكَ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمّل: ٢٠]، فَهُمْ لَيْسُوا يَسْهَرُونَ عَلَى اللَّهْوِ وَاللَّغْوِ، أَوْ يَسْتَقِيقُظُونَ عَلَى مِثْلِهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَقِلُّ نَوْمُهُمْ لِلتَّفَرُّغِ لَطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّجَلْ: ﴿وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الْأَسْحَارُ: جَمْعُ سَحَرٍ، وَهُوَ آخِرُ اللَّيْلِ.

﴿ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، يَعْنِي يَسْأَلُونَ اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ، وَهَذَا مِنْ حُسْنِ عَمَلِهِمْ وَعَدَمِ إِعْجَابِهِمْ بَأَنْفُسِهِمْ، وَكَوْنِهِمْ يَشْعُرُونَ بِأَنْتَهُمْ وَإِنْ اجْتَهِدُوا فَهُمْ مُقْصِرُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ بَعْدَ فِعْلِ الطَّاعَةِ جَبْرًا لِمَا حَصَلَ فِيهَا مِنْ خَلَلٍ، وَيُشْرَعُ فِي نَهَايَةِ الْعِبَادَاتِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ مِمَّا قَدْ يَكُونُ فِيهَا مِنْ خَلَلٍ، فَبَعْدَ الصَّلَاةِ يَسْتَغْفِرُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ ثَلَاثًا، وَبَعْدَ الْحَجِّ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

فَهُمْ يَسْأَلُونَ الْمَغْفِرَةَ بَعْدَ تَهَجُّدِهِمْ وَقِيَامِهِمْ وَسَهَرِهِمْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، خَوْفًا مِنْ



أن يكون هناك تقصيرٌ، وهذا ممَّا يَدُلُّ على معرفتهم بأنفسهم، وأنهم يَرونَ أنفسهم مُقَصِّرِينَ، خلافاً لما يفعله بعضُ النَّاسِ الآنَ إذا عَبَدَ الله تعالى بأدنى عِبادة شَمَخَ بِنَفْسِهِ وأدَلَّ على الله تعالى بها، وظنَّ أَنَّهُ من عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ، صحيح أنَّ الإنسانَ يَنبغي أن يرجو رَبَّهُ إذا أنعم اللهُ عليه بطاعة أن يَقْبَلَهَا، لكن كونه يرى أَنَّهُ قد أتمَّ كُلَّ شَيْءٍ، فهذا يُخْشِي أن يَحْبِطَ عمله وهو لا يَشْعُرُ.



## الآيتان (١٩، ٢٠)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ١٩ ﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ١٩-٢٠].

• • •

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ في أموالهم كلّها سواء الأموال الزّكوية، أو غير الزّكوية فيها حقٌّ للسّائل والمحروم، إذا أتاهم سائل أعطوه، وإذا رأوا محروماً أي ممنوعاً من الرّزق، وهو الفقير أعطوه، فمالهم قد أعدّوه لما يرضي الله عَزَّجَلَّ مِنَ السّائِلِينَ والمحرومين وغير ذلك من الإنفاق المشروع، فهم يقومون بطاعة الله تَهَجُّدًا في اللَّيْلِ واستغفارًا وبذلًا للمال، لكن من غير إسراف ولا مخيلة.

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لم يبيّن الله هذه الآيات بل جاءت مُنْكَرَةً، ليشمل كلّ آية في الأرض، سواء كانت الآيات فيما يحدث فيها من الحوادث، أو كانت في نفس طبيعة الأرض وتركيب الأرض، فإنّ فيها آيات عظيمة من حيث التّركيب، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَةٌ ﴾ [الرعد: ٤].

فتجد الحجر الواحد يشتمل على عدّة معادن وهو حجر واحد، وترى أحياناً في ﴿الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]، وتجد فيها الأرض اللينة الرّخوة، والأرض الصّلبة إلى غير ذلك ممّا يعرفه علماء الجيولوجيا من الآيات العظيمة، وفيها آيات من جهة الحوادث التي تحدث فيها من الزلازل

والبراكين وغيرها، وفيها آيات أيضًا من جهة طبيعة الجو من حرٍّ وبرد، ورياح عاصفة، ورياح باردة، ورياح دافئة، وغير ذلك مما إذا تأمله الإنسان عَرَفَ به قدرة الله عَزَّجَلَّ من جهة، وعَرَفَ حكمته ورحمته أيضًا من جهة أخرى؛ لأنَّ آيات الله عَزَّجَلَّ يتبصَّر بها الإنسان من حيث القدرة والعظمة، ومن حيث الحكمة والرحمة؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ تَجِدُه مُناسِبًا لمكانه وزمانه، وكُلَّ شيءٍ تَجِدُه من آثار رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فكَلِمَة (آيات) نَكِرَة عامَّة لكلِّ ما يَحْدُثُ في الأرض من آيات، ولكُلِّ ما فيها من طبيعتها وتركيبها وغير ذلك.

﴿أَيُّنْتُ لِلْمُؤَقِّنِينَ﴾ أي لِمَن أَتَقَنَ بوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعظَمَتَهُ وجلاله، أمَّا مَنْ شَكَّ -والعياذُ بالله- فَإِنَّهُ لَنْ يَنْتَفِعَ بهذه الآياتِ، بل قد تكون هذه الآيات ضررًا عليه، فإنَّ الآيات الكونيَّة أو الشرعيَّة قد تكون خيرًا للإنسان، وقد تكونُ شرًّا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ يعني من القرآن ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥] كذلك الآيات الكونيَّة من النَّاس مَنْ يَنْتَفِعُ بها وَيَسْتَدِلُّ بها على ما فيها من آياتِ الله عَزَّجَلَّ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ بالعكس يُؤَدِّي به ما يَجِدُه في الآيات إلى الإلحاد -والعياذُ بالله- ولهذا قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُؤَقِّنِينَ﴾ يعني لا لكلِّ إنسان بل للمؤقِن، أمَّا الشَّاكُّ والمُتَرَدِّدُ والكافر فَإِنَّهُ لَنْ يَنْتَفِعَ بهذه الآيات.



الآية (٢١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

• • • • •

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أيضًا في أنفسكم آيات ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وآيات هنا محذوفة؛ ولهذا نقول في الإعراب: في أنفسكم، جارٌّ ومجرور، خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: وفي أنفسكم آيات.

والحكمة - والله أعلم - ونحن في علمنا القاصر نظنُّ أن الله حذف هذه الآيات؛ لأنها أمسّ بالإنسان من الأرض وأدخل بالإنسان من الأرض؛ لأنها هي في نفسه، في أنفسكم آيات: ليس في تركيب الجسم فحسب، وليس فيما أودعه الله تعالى من القوة فحسب، بل حتّى في تقلُّبات الأحوال، فالإنسان تجده يتقلَّب من سرور إلى حزن، ومن غمٍّ إلى فرح، تقلُّبات عجيبة عظيمة، حتّى إنَّ الإنسان في لحظة يجد نفسه متغيِّراً، وأحياناً يجد نفسه متغيِّراً بدون سبب، يكون مُنْشِرِح الصدر واسع البال مسروراً، وإذا به يَغْتَمُّ بدون سبب، وأحياناً بالعكس، هذا بالنسبة للأحوال النَّفْسِيَّة، كذلك أيضًا بالنسبة للأحوال الإيمانيَّة، وهي أعظم وأخطر، تجد الإنسان في بعض الأحيان يكون عنده من اليقين ما كأنه يُشاهد أمور الغيب مُشاهدة حسيَّة، كأنها يرى كُلَّ ما أخبر به الله من علوم الغيب، وفي بعض الأحيان يَقِلُّ هذا اليقين؛ لأسباب قد تكون معلومة، وقد تكون غير معلومة، لكن من

الأسباب المعلومة قلة الطاعة، فإن قلة الطاعة من أسباب ضعف اليقين، فإذا قلت طاعة الإنسان ضعف يقينه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ﴾ ومنها: اللهو، والغفلة؛ ولهذا قال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لرسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إِنَّا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ وَذَكَرْتَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَكُنَّا نَرَاهَا رَأْيَ الْعَيْنِ، فإذا ذهبنا إلى أهلنا عافسنا الأزواج والأولاد والصِّغَات نسينا<sup>(١)</sup>.

وهكذا الإنسان كلما هوى قل يقينه وقل إيمانه، ومن ثم نهي الشرع عن اللعب واللهو الباطل، الذي يزداد به الإنسان بُعداً من الله وبُعداً عن طاعة الله وعن التفكير في آيات الله.

أيضاً في النفس آيات في نفوس الناس: فمن الناس من تجده هيناً ليناً طليق الوجه مسروراً، كل من رآه سرَّ بوجهه، وكل من جلس إليه زال عنه الغم والهَمُّ، ومن الناس من هو بالعكس قطوب، عبوس، بمجرّد ما تراه لو كنت مسروراً لأتاك الحزن والشَّوْء، فهذا أيضاً من آيات النفس وهي كثيرة جدّاً، ومن أراد المزيد من هذا والاطّلاع على قدرة الله تعالى فيما في أنفسنا من الآيات فعليه بمطالعة كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب (مفتاح دار السَّعادة) يجد العَجَب العُجَاب، وكذلك أيضاً كتابه الصَّغِير وهو كَبِير في المعنى وهو (التَّبيان في أقسام القرآن).

ذكر من ذلك العَجَب العُجَاب ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، كأنها يقول الله عَزَّ وَجَلَّ أَبْصِرُوا في أنفسكم تَبْصُرُوا وتأملوا وتفكروا، فإذا لم تعرفوا هذه الآيات فأنتم لا تبصرون، فيكون الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار

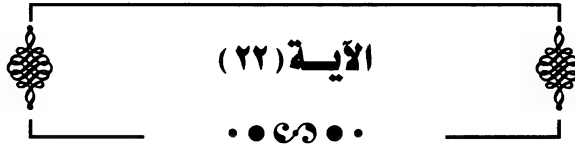
(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة، رقم (٢٧٥٠)، من حديث حنظلة الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ألا نتبصّر، وهي دعوة من الله عَزَّجَلَّ لعباده أن يتبصّروا في الآيات، فإذا لم تبصّر في الآيات فاعلم أنّك محروم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

إذن: إذا لم تنتفع بالآيات فاعلم أنّك محروم، وأنّ إيمانك ناقص ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فعليك يا أخي، أن تتفكّر في آيات الله الكونيّة، وما في هذا الكون العظيم من آيات الله الدالّة على عظّمته وسلطانه ورحمته وحكمته، وكذلك في آيات الله الشرعيّة، ومن فتح الله عليه في الآيات الشرعيّة ينتفع بها أكثر ممّا ينتفع بالآيات الكونيّة، إذا تأمّل ما أخبر الله به عن نفسه من الأسماء والصفات، والأفعال والأحكام، ازداد إيماناً بالله عَزَّجَلَّ وعرف بذلك الحكمة والرحمة، وإذا تأمّل فيما أخبر الله به عن اليوم الآخر، وما يكون فيه من ثواب وعقاب، وجزاء وحساب ازداد إيماناً بالله، وكلّمًا تأمّل الإنسان في آيات الله الشرعيّة ازداد إيماناً، فبعض الناس الموفّقين يكون ازدياد إيمانه بالآيات الشرعيّة أكثر من ازدياد إيمانه بالآيات الكونيّة، أمّا الإنسان الذي يفتح الله عليه في هذا وهذا فإيا حبذا.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

•••••

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ذهب كثير من العلماء أن المراد بالرزق هنا المطر؛ لأن الله تعالى قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وسُمِّي المطر رزقاً؛ لأنه سبب للرزق، فإذا أنزل الله المطر أخرجت الأرض الماء والمرعى، متاعاً لنا ولأنعامنا، وهذا رزق، كم من ناس يكون رزقهم على ما ينزل من المطر من الزروع والحشيش والمياه وغيرها؟

بل إن الله تعالى قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩] هل أحد يستطيع أن ينزل من المزن ماء؟ لا يمكن، وهل أحد يستطيع أن يخلق في المزن ماء؟ لا يمكن، وإنما الله عزَّوَجَلَّ هو الذي يتولى ذلك، هذا هو مادة الرزق، لولا الماء هلكت، وتأمل قوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩-٧٠]، لم يقل: لو نشاء لم ننزله، مع أنه لو شاء لم ينزله، لكن قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ يعني لو نشاء أنزلناه لكن جعلناه أجاجاً مالحاً، لا يمكن أن يشرب، وحسرة الإنسان على ماء بين يديه ولكن لا يستطيعه ولا يستسيغه أشد من حسرته على ماء

مفقود؛ لأنَّ ماءً موجودًا لا تَتَفَعُّ به ولا تَسْتَطِيعُ شُرْبَهُ أَشَدُّ حَسْرَةً من ماء مفقود؛ ولهذا ذَكَرْنَا الله هذه الحال، أَرَأَيْتَكَ الآنَ لو أَنَّ هذا المطر العذب الزُّلال اللَّذِيذ صار أَجَاجًا مالحًا، ماذا تكون الحال؟ تكون صعبةً جدًّا؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠].

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ إذن الرِّزْق هو المطر كما في الآية الكريمة ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] ويمكن أن نقول: إِنَّ الرِّزْقَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ، فقد يُقال: إِنَّ فِي السَّمَاءِ رِزْقًا مِنَ المطر، وما كتبه الله لنا في اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ الْجَسَدِيَّةِ مِنْ أَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فيكون هذا القول أشْمَلَ وَأَعْمَ.

واعلم أَنَّهُ ينبغي أن يُراعى الْمُسْتَدِلُّ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ قَاعِدَةٌ مُفِيدَةٌ، وهي إذا فَسَّرْنَا النَّصَّ الْقُرْآنِيَّ أَوْ النَّبَوِيَّ بِمَعْنَى أَخْصَصَ وَفَسَّرْنَاهُ بِمَعْنَى أَعْمَ، فنأخذ بالأَعْمَ؛ لأنَّ الأَعْمَ يَدْخُلُ فِيهِ الْأَخْصَصُ وَلَا عَكْسَ، إِلَّا إِذَا دَلَّ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ خَاصٌّ، فهذا يُتَّبَعُ فِيهِ الدَّلِيلُ، لكن عندما لَا يَدُلُّ الدَّلِيلُ، فَنُحْذِرُ بِالْأَعْمَ؛ لأنَّ الأَعْمَ يَدْخُلُ فِيهِ الْأَخْصَصُ وَلَا عَكْسَ، فهنا إِذَا قُلْنَا: الْمُرَادُ بِالرِّزْقِ مَا هُوَ أَعْمٌ مِنَ المطر، فالجواب صحيح، فيَدْخُلُ فِيهِ المطرُ وَغَيْرُهُ.

وقوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يَعْنِي فِيهِ الَّذِي تُوعَدُونَ، وَالَّذِي تُوعَدُ الْجَنَّةُ، فَالْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ وَلَيْسَتْ فِي الْأَرْضِ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ آدَمَ: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨]، وَالْهَبُوطُ يَكُونُ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ، فَالْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْجَنَّةَ دَرَجَاتٌ، وَأَنَّ أَعْلَاهَا الْفِرْدَوْسُ، وَأَنَّهُ أَعْلَاهَا وَأَوْسَطُهَا أَيْضًا، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْجَنَّاتِ مِثْلُ الْقُبَّةِ أَعْلَاهَا هُوَ وَسَطُهَا، قَالَ: «مِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ،



وَفَوْقُهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ<sup>(١)</sup>.

إذن: هي أعلى شيء، -نسأل الله أن يجعلنا من ساكنيها إنه على كل شيء قدير- فالذي نُوعَد هو الجنة، فالرزق في السماء، والجنة التي نُوعَدها في الآخرة في السماء.

إذن: نحن أهل الأرض مُحتاجون إلى السماء في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ففي السماء رزقنا في الدنيا، وفيها ما نُوعَد في الآخرة وهو الجنة، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٢٣)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾

[الذاريات: ٢٣].

• • ❁ • •

﴿فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ الفاء عاطفة، والواو للقسَم، وربّ السَّماء والأرض هو الله عَزَّوَجَلَّ أقسم بنفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ لِلسَّماء والأرض، أَنَّ مَا يُوعَدُونَ حَقٌّ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾، ﴿فَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ﴾ أي: ما تُوعَدُونَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا لِلْقُرْآنِ، وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، والمعاني الثلاثة كُلُّهَا مُتْلَازِمَةٌ، وقوله: ﴿لَحَقُّ﴾ أي: ثَابِتٌ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ مُتَقَابِلَانِ، فَالْبَاطِلُ هُوَ الزَّائِلُ الضَّائِعُ سُدًى، وَالْحَقُّ هُوَ الثَّابِتُ الَّذِي فِيهِ الْفَائِدَةُ، وَفِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ، وقوله: ﴿مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ يَعْنِي كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَيَقَّنُ نُطْقَهُ، فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا لَا يُنْكِرُ نُطْقَهُ، وَإِذَا نَطَقَ تَيَقَّنَ أَنَّهُ نَطَقَ.

إذن: هذا القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ حَقٌّ مثلهما أَنَّ نُطَقْنَا حَقٌّ.

• • ❁ • •

## الآية (٢٤)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٤].

• • •

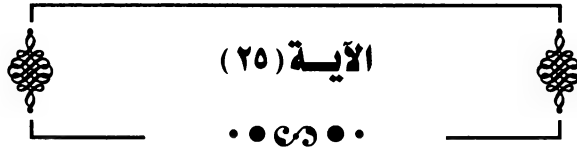
﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴾ الخطاب ليس للنبي ﷺ فحسب، بل له، ولكل من يتأتى خطابه ويصح توجيه الخطاب إليه، كأنه قال: هل أتاك أيها المخاطب ﴿ حَدِيثٌ ضَيفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴾ والاستفهام هنا للتشويق، كأنه يشوقك إلى أن تسمع هذا الحديث، ونظيره في التشويق قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى تَحْرِقٍ نُجُجِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الصف: ١٠]، ليس المراد بهذا الاستفهام أنه يستفهم، لكنه أراد أن يشوق المخاطبين إلى ذلك، ويكون الاستفهام للتهديد والإنذار والتخويف في مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَدِيَّةِ ﴾ ① وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴾ [الغاشية: ١-٢]. فإذا قال قائل: أي شيء يدلنا على أن الاستفهام للتشويق، أو للتهديد، أو للاستخبار أو ما أشبه ذلك؟

نقول: الذي يدلنا على هذا السياق وقرائن الأحوال، والعامل يفهم هذا وهذا.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ﴾ أي: خبر ﴿ ضَيفَ إِبْرَاهِيمَ ﴾، ضيف هنا مفرد، لكنه يستوي فيه الجماعة والواحد، وهم جماعة ملائكة كرام عليهم الصلاة والسلام. ﴿ ضَيفَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يعني الذين نزلوا ضيوفاً عنده، وإبراهيم هو الخليل عليه السلام،

وهو أبو العَرَب، وأبو بني إِسْرَائِيلَ كما قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ  
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، وهو الَّذِي أَمَرْنَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ نَتَّبِعَ مِلَّتَهُ، قال الله  
 تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾  
 [النحل: ١٢٣]، ولهذا ادَّعَتِ الْيَهُودُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِي، وَالنَّصَارَى ادَّعَوْا أَنَّهُ نَصْرَانِيٌّ،  
 وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَذَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ  
 حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾

[الذاريات: ٢٥].



يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ ﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ مُتَعَلِّقٌ بقوله: ﴿الْمُنْكَرِينَ﴾ يعنى الَّذِينَ أَكْرَمَهُمْ حِينَ دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا مَفْعُولٌ لِفِعْلِ مَحذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: اذْكُرْ إِذْ دَخَلُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾: (قالوا سلامًا)، أَي: نُسَلِّمُ سَلَامًا، وَعَلَيْهِ فـ(سَلَامًا) مَصْدَرٌ عَامِلُهُ مَحذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: نُسَلِّمُ، ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ مَبْتَدَأٌ خَبَرَهُ مَحذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: عَلَيْكُمْ سَلَامٌ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ التَّسْلِيمُ هُنَا ابْتِدَاءً بِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَجَوَابُهُ بِالْجُمْلَةِ الْاسْمِيَّةِ، وَالْجُمْلَةُ الْاسْمِيَّةُ تُفِيدُ الثَّبُوتَ وَالِاسْتِمْرَارَ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إِنَّ رَدَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَكْمَلُ مِنْ تَسْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّ تَسْلِيمَ الْمَلَائِكَةِ جَاءَ بِالصِّيغَةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَرَدَّ إِبْرَاهِيمَ جَاءَ بِالصِّيغَةِ الْاسْمِيَّةِ.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾، قَوْمٌ خَبَرٌ لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: أَنْتُمْ قَوْمٌ، وَإِنَّمَا قَالَ إِنَّهُمْ قَوْمٌ؛ لِأَنَّهُمْ بِصُورَةِ الْبَشَرِ.

وقوله: ﴿مُنْكَرُونَ﴾ أَي: غَيْرُ مَعْرُوفِينَ، كَمَا قَالَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [مود: ٧٠]، فِي هَذِهِ الْآيَةِ شَاهِدٌ لِحَذْفِ

المبتدأ، وحذف الخبر، والشَّاهد لحذف الخبر (سَلام)؛ لأنَّ التَّقدير: عليكم سلامٌ،  
والشَّاهد لحذف المبتدأ (قوم)؛ لأنَّ التَّقدير: أنتم قوم.



## الآيتان (٢٦، ٢٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَاغَ إِلَيَّ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦-٢٧].

• • • • •

﴿فَرَاغَ إِلَيَّ أَهْلِيهِ﴾ رَاغَ: انسلَّ بخُفية وسُرعة، وذلك من حُسن ضيافته، لم يقل: انتظروا آتي لكم بالطعام، ولم يَقم مُتباطئًا كأنَّها يُدفع دفْعًا، وإنما قام بسُرعة مُنسلًّا، لئلاَّ يقوموا إذا رأوه ذهب إلى أهله، فكأنَّه أخفى الأمر عنهم ﴿أَهْلِيهِ﴾ يَعْنِي أَهْلَ بَيْتِهِ ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ وفي آية أخرى: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩] أي مَشْوِيٍّ، واللَّحْم إذا شُويَ يكون أَطعمَ وألذُّ؛ لأنَّ طعمه يَبقى فيه لا يمتزج بالماء، بخلاف ما إذا طُبِخَ يمتزج بعضُه بالماء، فتقلَّ لذَّته، لكن إذا كان مشويًّا صار أَطيبَ وأحسنَ.

﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يَعْنِي أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَتَخَيَّرُ لِلضُّيُوفِ الْبَهَائِمَ الْعَجْفَاءَ الْهَرَبِلَةَ، وَإِنَّمَا يَتَخَيَّرُ هُمُ الْبَهَائِمِ السَّمِينَةِ؛ لِأَنَّهَا أَلَذُّ وَأَطْيَبُ وَأَنْفَعُ، واختيار العِجْلِ إمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ عَادَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُكْرِمْ النَّاسَ بِهَذَا، أَوْ أَنَّهُ يُكْرِمُ الضُّيُوفَ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ، فَإِذَا كَانُوا كَثِيرِينَ أَتَى بِالْعِجْلِ، وَإِذَا كَانُوا أَقَلَّ أَتَى بِالْغَنَمِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ حَسَبِ عَادَةِ الْكُرْمَاءِ.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لم يجعله بعيدًا، ويقول: قُومُوا إِلَى طَعَامِكُمْ،

بل خدَمهم حتَّى جعله بين أيديهم، وقَرَّبه إليهم، قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: كُلُوا، إِنَّمَا عَرَضَهُ عَلَيْهِمْ عَرَضًا؛ لَأَنَّ هَذَا أَبْلَغُ فِي الْإِكْرَامِ، وَالْعَرَضُ أَخْفُ وَاللِّطْفُ مِنَ الْأَمْرِ، إِذْ إِنَّهُ لَوْ قَالَ: كُلُوا، كَانَ يَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَسْتَعْلِي عَلَيْهِمْ وَيُوجِّهَ الْأَمْرَ إِلَيْهِمْ، لَكِنْ قَالَ: أَلَا تَأْكُلُونَ؟ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِبَارَتَيْنِ فِي الرَّقَّةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أَرْقُ وَأَرْفَعُ.

مسألة: هل نقول: إِنَّ السُّنَّةَ وَالْأَفْضَلَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَعَا ضَيْوْفًا، أَوْ أَنَاهُ ضَيْوْفٌ أَنْ يَقْرُبَ إِلَيْهِمُ الطَّعَامَ فِي مَجْلَسِ الْجُلُوسِ أَوْ نَقُولُ: هَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ؟

الثَّانِي هُوَ الْأَظْهَرُ؛ لِأَنَّ عُمُومَ قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»<sup>(١)</sup> يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ تُكْرِمُهُمْ بِمَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِإِكْرَامِهِمْ بِهِ، وَعِنْدَنَا الْآنَ إِذَا دَعَوْتَ أَصْحَابَكَ وَأَصْدِقَاءَكَ وَهُمْ قَلَّةٌ فَلَا يَعُدُّونَ تَقْدِيمَ الطَّعَامِ فِي مَكَانِ جُلُوسِهِمْ إِهَانَةً؛ لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكَ وَأَصْدِقَاؤُكَ، لَكِنْ لَوْ نَزَلَ بِكَ ضَيْفٌ أَوْ دَعَوْتَ ضَيْفًا لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ صِلَةٌ تَامَّةٌ فَإِنَّهُ فِي عُرْفِ النَّاسِ الْآنَ لَيْسَ مِنْ إِكْرَامِهِ أَنْ تُقَدِّمَ الطَّعَامَ فِي مَحَلِّ الْجُلُوسِ، اللَّهُمَّ إِلَّا لِمُضْرُورَةٍ، إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ مَكَانٌ، وَالْآنَ الْإِكْرَامُ أَنْ تَجْعَلَ الطَّعَامَ فِي مَكَانِهِ، ثُمَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْكُلُوا يَقُولُ: تَفَضَّلُوا، أَلَا تَتَفَضَّلُونَ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُتَدَاوِلَةِ.

فَالْمُهْمُ: أَنَّ قَوْلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ هَذَا حَسَبَ عَادَةِ النَّاسِ، إِذَا كَانَ مِنَ الْإِكْرَامِ أَنْ تَأْتِيَ بِالطَّعَامِ إِلَى مَحَلِّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، رَقْمُ (٦٠١٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى إِكْرَامِ الْجَارِ وَالضَّيْفِ، رَقْمُ (٤٧)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



جُلوسهم فَأَتِ بِهِ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْإِكْرَامِ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي مَحَلٍّ آخَرَ فافْعَلْ، دليل ذلك قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»<sup>(١)</sup>.




---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (٢٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾

[الذاريات: ٢٨].

• • • • •

﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أحسَّ في نفسه بخيفة منهم، وسبب تلك الخيفة أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام لما قَدَّمَ إليهم الطَّعام لم يأكلوا منه ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ لأنَّ العادة أَنَّ الضَّيفَ يأكل ممَّا قَدَّمَ له المضيفُ، لكنَّ هؤلاء الملائكة، لم يأكلوا؛ لأنَّ الملائكة صُمد أي ليس لهم أجواف، كما جاء ذلك مأثورًا عن السَّلف؛ ولهذا لا يحتاجون إلى أكل ولا إلى شرب، فأوحس منهم خيفة ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ طمأنوه، قالوا: لا تَخَفْ لما رأوا على وجهه من علامة الإنكار والخوف، وكل إنسان يعرف حال قلب المزمع المواجه له، هل هو في سُرور؟ هل هو في انشراح؟ هل هو خائف؟ هل هو مُطمئن؟ لأنَّ هذا أمر معلوم بالفطرة، ولا يحتاج إلى كبير فِرَاسة ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ البشارة هي الإخبار بما يسرُّ، أي أخبروه بما يسره وهو الغلام العليم، وكان إبراهيم عليه السَّلام قد بلغ من الكِبَر عِتيًا قبل أن يُولد له، فبشروه بهذا الغلام، وبشروه بأنَّه عليم أي سيكون عالمًا؛ لأنَّ الله تعالى جعله من الأنبياء، والأنبياء هم أعلم الخلق بالله عزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله، وهذا الغلام العليم غير الغلام الحليم؛ لأنَّ في القرآن أنَّ إبراهيم بُشِّرَ بغلام عليم في آيتين من كتاب الله، وبُشِّرَ بغلام حليم في آية واحدة، وهما غلامان.

أَمَّا الْغُلَامُ الْحَلِيمُ فَإِنَّهُ إِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَرَبِ، وَأَمَّا الْغُلَامُ الْعَلِيمُ فَإِنَّهُ إِسْحَاقُ أَبُو بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ قِصَّتَهُمَا مُخْتَلِفَةً، وَلَقَدْ أَبْعَدَ عَنِ الصَّوَابِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْغُلَامَ الْحَلِيمَ هُوَ الْغُلَامُ الْعَلِيمُ، بَلِ وَالنَّصُّ صَرِيحٌ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ أَنَّهَا غُلَامَانِ مُخْتَلِفَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ الذَّبِيحِ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَيَسِّرْنَاهُ يَأْخُذَ بِنَبِيٍّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢] فَكَيْفَ يُبَشِّرُ بَمَنْ أُمِرَ بِذَبْحِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ وَبَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ، كُلُّ هَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْغُلَامَ الْحَلِيمَ غَيْرُ الْغُلَامِ الْعَلِيمِ، بِشْرُوهُ بِغُلَامِ عَلِيمٍ، وَهَذِهِ بِشَارَةٌ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَوَّلًا: بِأَنَّهُ سَيَأْتِيهِ مَوْلُودٌ يَصِلُ إِلَى أَنْ يَكُونَ غُلَامًا.

ثَانِيًا: أَنَّ هَذَا الْمَوْلُودَ ذَكَرَ لَا أُنْثَى لِقَوْلِهِ (غُلَامٌ).

ثَالِثًا: أَنَّهُ عَلِيمٌ أَيْ ذُو عِلْمٍ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْبِشَارَاتِ عَظِيمَةٌ، كُلُّ وَاحِدَةٍ تَكْفِي أَنْ تَكُونَ بِشَارَةً.



## الآيتان (٢٩، ٣٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ٢٩ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩-٣٠].

• • • • •

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ﴾ امرأته هذه: سارة أم إسحاق، أقبلت لما سمعت البشري ﴿فِي صَرْفٍ﴾ في صيحة سرور؛ لأنها جاءت بها هذه البشري بعد أن تقدمت بها السن، تصبح وكأنتها والله أعلم تقول: غلام غلام، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربته بيدها كالمتعجبة، كما يصنع الناس إلى اليوم إذا أتاهم خبر نادى: الله أكبر، وضرب على وجهه، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: ﴿عَجُوزٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: أنا عجوز عقيم، فكأنتها تعجبت أن تحصل لها البشري بهذا الغلام العليم، بعد أن تقدمت بها السن وعقمت من الولد، ولكنهم بينوا لها السبب الوحيد الذي به وجد هذا الولد، فقالوا: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ﴾ أي مثلما قلنا وبشرنا به قال الله عز وجل.

وانظر إلى قوله: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ حيث أضاف الرُبُوبِيَّةَ هنا إلى هذه المرأة العجوز العقيم الكبيرة، إشارة إلى أن هذا من عناية الله بها؛ لأن إضافة الرُبُوبِيَّةَ إلى الشخص المعين تكون رُبُوبِيَّةَ خَاصَّةٍ، والرُبُوبِيَّةَ العامَّةَ لكل أحد، والله رب كل شيء، والخاصة ليست لأحد إلا لمن كان خاصاً بالله، قال الله عز وجل: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢١-١٢٢] الرُبُوبِيَّةَ العامَّةَ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والرُبُوبِيَّةَ

الخاصَّة ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾، هُنا قالوا لها: ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ من بابِ الرُّبُوبِيَّةِ الخاصَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي عِناية خاصَّة ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ ﴾، إِنَّ شِئْتَ فَقُلْ: (الحكيم) خَبَرٌ إِنَّ (هُوَ) ضمير فضل لا محلَّ له مِنَ الإعراب، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: (هُوَ) مبتدأ و(الحكيم) خبرٌ هُوَ، والجُمْلَةُ خبرٌ إِنَّ، وَهُنا قَدَّمَ الحَكِيمَ على العليم؛ لِأَنَّ المَقَامَ يَقْتَضِي هُنا تَقْدِيمَ الحِكْمَةِ على العِلْمِ، والحِكْمَةُ هُنا في شَيْئَيْنِ:

أَوَّلًا: تأخير الولادة بالنسبة لهذه المرأة، إِنَّ الله لم يُوَخِّرْ وَلادَتَهَا إلى أَنْ تَبْلُغَ العِجْزَ إِلاَّ لِحِكْمَةٍ.

ثانيًا: كونها وَلَدَتْ بعد أَنْ أَيْسَتْ واعتقدت أَنَّها عَقِيمٌ، فَهَنا حِكْمَتَانِ: حِكْمَةٌ سابِقة، وحِكْمَةٌ لاحِقة، وَمِنْ ثَمَّ قَدَّمَ اسمَ الحَكِيمِ على اسمِ العَلِيمِ، والقُرْآنُ إِذا جَمَعَ الله فِيهِ بَيْنَ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ الكَرِيمَيْنِ: العَلِيمِ والحَكِيمِ يَقْدِّمُ غالِبًا العَلِيمِ، لَكِن هُنا قَدَّمَ الحَكِيمِ؛ لِأَنَّ المَقَامَ يَقْتَضِي ذلِكَ ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ ﴾. وأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّ مَعْنَى (الحكيم) أَنَّهُ المَتَّصِفُ بِالْحِكْمَةِ، والحِكْمَةُ هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوَاضِعِهِ، وَلَكِنَّ الواقِعَ أَنَّ الحَكِيمَ لَهُ مَعْنَيَانِ: حَكِيمٌ مِنَ الحِكْمَةِ، وحَكِيمٌ مِنَ الحُكْمِ، فَاللهُ عَزَّجَلَّ حَكِيمٌ مِنَ الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى هُوَ الحُكْمُ بَيْنَ العِبَادِ، والحَاكِمُ فِي العِبَادِ هُوَ حَاكِمٌ فِيهِمْ، وَهُوَ الحُكْمُ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ قالَ اللهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]. ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ لِحُكْمِهِ ﴾ [التين: ٨]، وَهَذا اسْتِفْهَامٌ لِلتَّقْرِيرِ، يَعْنِي أَنَّ الله تَعَالَى أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ، وَكِلَاهُمَا فِي مَحَلِّهِ المُنَاسِبِ.

فَفي سُورَةِ المائدة ذَكَرَ اللهُ عَزَّجَلَّ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾، ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾، وَتتابعت الآياتُ حَتَّى قالَ: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، فَكَأَنَّ المَقَامَ

مُقام مُفاضلة بين الأحكام، فبيّن أن حُكم الله أحسن الأحكام، لكن في سورة التّين المُقام مُقام سُلطة وقوّة، والله أحكم الحاكمين يعني أن حُكمه نافذ وسُلطته تامّة، ولا أحد يعارض حُكمه أبدًا مهما قوّيت شوكتُه، وانظر إلى قول الله تعالى عن عادٍ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، يعني لا أحد أشدُّ منا قوّة، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وعذبهم بِالطّفِ الأشياء، عذبهم بالريّح، الهواء اللّطيف الَّذي لا تُحسّ بملمّسه، وإن كان قويًّا بأن يدفع كلّ شيء، وهو أقوى من الماء كما هو معروف، وهذا الهواء اللّطيف أهلك به هؤلاء القوم الَّذين يقولون: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، أهلكهم به.

فالْحَاصِلُ: أَنَّ الله أَحْكَمَ الحاكمين حُكمه نافذ صادر عن قوّة وسُلطان، ثُمَّ إِنَّ أَحْكَمَ الحاكمين تَضَمَّنَ أيضًا حُسْنَ الحُكم، فصار حُكم الله عَزَّجَلَّ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ الحاكم في العباد، وَأَنَّهُ الحاكم بين العباد، وَأَنَّ حُكمه أَحْسَنُ الأحكام، وَأَنَّهُ تعالى أَحْكَمَ الحاكمين، والحكمة البالغة لله ولا شيء من الأفعال القائمة بالوجود أَحْكَمَ من حكمة الله، وإذا آمَنَ بهذا أيُّها المؤمن سهّل عليك أمور كثيرة تُشكّل على كثير من النَّاس، منها بعض الأحكام الشرعيّة لا يدرك النَّاس، أو أكثرهم، أو بعضهم حِكمتها، فهل نقول: إذا لم يدرك الحكمة إنَّه لا حكمة لها، أو نقول: إنَّ لها حكمة، لكنَّ عقولنا قاصرة، نقول: لها حكمة ولكنَّ عقولنا قاصرة، وإذا آمَنَّا هذا الإيمان اطمأنَّا إلى كثير من الأمور الشرعيّة الّتي تخفى علينا حِكمتها، فنحن لا ندرك الحكمة في كون الصَّلوات الخمس خمسًا، أو أنَّها سبع عشرة ركعة، وأشياء كثيرة من الأمور الشرعيّة لا يدرك الإنسان حِكمتها، لكن إذا آمَنَ أَنَّ الله حكيم آمَنَ بأنَّه لا بُدَّ لهذا الشَّيء من حكمة تقتضيه.

كذلك في الأمور القدرية قد يرسل الله سبحانه وتعالى عذاباً يشمل الصالح والطالح، وقد يرسل الله عذاباً على قوم لا تتوقع أن يصيبهم العذاب، فهل تقول: ما الحكمة؟ أو تقول: إن الله عز وجل لا بُدَّ أن يكون تقديره لهذا عن حكمة؟ ولذلك أقول: إن الواجب علينا فيما أمر الله به من الشرائع، وفيما قضاه من الأقدار أن نستسلم غاية التسليم، وأن لا نعترض.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أقسم الله عز وجل أنه لا يمكن لأحد أن يؤمن إلا بهذه الشروط الثلاثة، هي: أن يحكموك فيما شجر بينهم، والثاني: ألا يجدوا في أنفسهم حرجاً، يعني لا تضيق صدورهم بحكم الله، الثالث: أن يسلموا تسليماً، وأكد هذا المصدر تسليماً يعني تسليماً تاماً، فلا يتهاون الإنسان ويتباطأ في تنفيذ حكم الله.

فإذا وجدت من نفسك عيباً يتعلق بهذه الأمور الثلاثة فصحح إيمانك، فإذا رأيت أنك تود أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله فصحح الإيمان، وإذا رأيت من قبلك أنك لا تريد إلا حكم الله ورسوله لكن يضيق صدرك بحكم الله ورسوله تحدث نفسك أنك لا يمكن أن تتحاكم إلى غير الله ورسوله لكن يضيق صدرك فأنت ناقص الإيمان، وإذا كنت لا يضيق صدرك ولا تريد التحاكم لغير الله ورسوله وأنت منشرح الصدر لحكم الله ورسوله، لكن تتباطأ وتهاون فأنت ناقص الإيمان.

اقرأ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، لما لم يؤمنوا به أول مرة ولم يقبلوه من أول مرة صارت -والعياذ بالله- قلوبهم متقلبة، وتركهم الله في طغيانهم يعمهون؛

ولهذا يجب عليك أيها المؤمن أن تبادر بانقياد تام لحكم الله تعالى القدري.

وأتكلم على آداب السلام؛ حيث إن الملائكة قالوا: (سلامًا)، فقال إبراهيم: (سلام)، ذكرنا فيما سبق أن ردَّ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحْسَنُ من ابتداء الملائكة؛ لأنَّ ردَّ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَامُ جملة اسمية تُفيد الثبوت والاستمرار، بخلاف سلام الملائكة عَلَيْهِمُ الصَّلَامُ.

واعلم أن ردَّ التَّحِيَّةِ واجب، لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]. فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ﴾ ولم يذكر من يُحيينا، فيشمل أيَّ إنسان يُحيينا، فإننا نُحييه ونردُّ عليه أحسنَ من تحيته، أو مثلها كما قال: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، فبدأ بالأحسن؛ لأنَّه هو الأفضل، أو رُدُّوها، أي: رُدُّوا مثلها، ويشمل هذا ما إذا سلَّم علينا أحدٌ من اليهود، أو النَّصارى، أو البوذيين، أو غيرهم، فنردُّ عليهم، لكننا لا نبدأ اليهود والنَّصارى بالسلام، لنهي النَّبي ﷺ عن ذلك<sup>(١)</sup>.

ثم إنَّ السلام المشروع هو: السلام عليكم، وأمَّا أهلاً وسهلاً، ومرحباً، وكيف حالك وما أشبهها، فهذا ليس بمشروع، المشروع أن تبدأ أولاً بالسلام.

ولهذا في حديث المعراج حين كان النَّبي ﷺ يمرُّ بالأنبياء فيسلم عليهم، قال: فردَّ عليه السلام، وقال: مرحباً بالنَّبيِّ الصَّالح<sup>(٢)</sup>، فابتدأ أولاً بقولك السلام عليكم،

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم، رقم (٢١٦٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسرائاء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسرائاء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٣)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



والجواب يكون مثل ذلك أو أحسن، يكون: عليكم السَّلام، أو وعليكم السَّلام، أو عليكم السَّلام ورحمة الله، أو عليكم السَّلام ورحمة الله وبركاته، كلُّ هذا من المشروع.

ونرى كثيرًا من النَّاس إذا سلَّم عليه يقول: أهلاً وسهلاً، أو يقول: مرحباً بأبي فلان، وهذا لا يُجْزئ، فلو قال: أهلاً وسهلاً، مَدَى الدَّهْرِ فَإِنَّهُ لَا يُجْزئ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، ومعلوم أنَّ الَّذِي يَقُول: السَّلام عليك، يَدْعُو لَكَ بِالسَّلام من كلِّ نقص ومن كلِّ آفة، ومن كلِّ مَرَض في القلب والبدن، ولا يَكْفِي أن تقول مَرَحَباً وأهلاً، بل لا بُدَّ أن تقول: عليك السَّلام، أو وعليكم السَّلام، وإن زِدْتَ ورحمة الله وبركاته كان أحسن.

ثانيًا: من السُّنَّة أن يُسلَّم الصَّغِيرُ على الكبير؛ لأنَّ حَقَّ الكبير على الصَّغِير أعظم من حَقَّ الصَّغِير على الكبير، فيبدأ الصَّغِيرُ بالسَّلام على الكبير، ولكن إذا قُدِّرَ أن الصَّغِيرَ لم يُسلَّم فهل يَدَعِ الكَبِيرُ السَّلامَ؛ لأنَّ الحَقَّ له، أو يُسلَّم لثلاث تَفَوَّت السُّنَّة؟

والجواب: يُسلَّم لثلاث تَفَوَّت السُّنَّة، فكون الإنسان يقول: أنا صاحب الحقِّ، لماذا لم يُسلَّم عليَّ، هذا خطأ، صحيح أنَّك صاحب الحقِّ وأنَّ المشروع أن يُسلَّم هو عليك، لكن إذا لم يفعل فسَلِّمْ أنت.

ثالثًا: يُسلَّم الماشي على القاعد<sup>(١)</sup>، ولو كان القاعد أصغر، فإذا مرَّ شخص

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب يسلم الراكب على الماشي، رقم (٦٢٣٢)، ومسلم:

كتاب السلام، باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير، رقم (٢١٦٠)، من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بإنسان قاعد فليُسَلِّم عليه، ولو كان أصغرَ منه سنًا، أو قدَرًا، وقد كان من هدي النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يُسَلِّم على الصِّبيان إذا مرَّ بهم<sup>(١)</sup>، وفي ذلك فوائد عظيمة منها: التَّواضع، أَنَّ الإنسان يَضَع نفسه إذا سلَّم على مَنْ هو دُونه، ومنها الرَّحمة؛ لأنَّ سلامك على الصِّغار نوع من الرَّحمة، وقد أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام أَنَّ الرَّاحِمِينَ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ<sup>(٢)</sup> سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومنها تعويد هؤلاء الصِّبيان على السَّلام، يَعْنِي أَنَّ الصَّبِيَّ يَعْرِفُ شِعَارَ الْمُسْلِمِينَ أَن يُسَلِّم بعضهم على بعض، فيأْخُذ من هذا أدبًا وَخُلُقًا يَنْتَفِع به في شَبَابِهِ وبعد هَرَمِهِ.

رابعًا: يُسَلِّم القليلُ على الكثير كالصَّغير مع الكبير، فإذا تقابل جماعة خمسة وستة فيُسَلِّم الخمسة على السَّنة؛ لأنَّ السَّنة فيهم زيادة، فهذه الزَّيادة لها حَقُّ الزَّائد، فيُسَلِّم القليلُ على الكثير، وإذا لم يَفْعَلُوا فليُسَلِّم الكثيرُ على القليلِ، لئلاَّ تفوت السُّنة بينهم.

خامسًا: يُسَلِّم الرَّاكِبُ على الماشي، فإذا تقابل رجلان أحدهما يمشي، والثَّاني راكِب في سيارته أو على بَعيره فيُسَلِّم الرَّاكِبُ على الماشي؛ لأنَّ الرَّاكِبَ له عُلُوٌّ فيُسَلِّم على الماشي؛ لأنَّ السُّنة جاءت بهذا<sup>(٣)</sup>، كذلك الصَّاعِدُ على النَّازل، فلو أنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان، رقم (٦٢٤٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان، رقم (٢١٦٨)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.  
(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٦٠/٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم (١٩٢٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب يسلم الراكب على الماشي، رقم (٦٢٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير، رقم (٢١٦٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اِثْنَيْنِ التَّقِيَا فِي دَرَجَةٍ سُلِّمَ فَإِنَّ الصَّاعِدَ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُ عَلَى النَّازِلِ، وَإِذَا لَمْ تَأْتِ السُّنَّةُ مَنَّنَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِهَا فَلْيَبْدَأْ بِهَا الثَّانِي، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»<sup>(١)</sup> قال: خَيْرُهُمَا، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْ بَدَأَ غَيْرَهُ بِالسَّلَامِ فَهُوَ خَيْرٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ لِأَنَّكَ إِذَا سَلَّمْتَ حَصَلَتْ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، ثُمَّ إِذَا رَدَّ صَاحِبُكَ حَصَلَ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَالسَّبَبُ الَّذِي جَعَلَهُ يُحْصَلُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ هُوَ الْبَادِي، لَوْلَا أَنَّهُ سَلَّمَ مَا رَدَّ، فَتَكُونُ أَنْتَ مُتَسَبِّبًا لِهَذَا الَّذِي عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَلَكَ أَجْرُهُ.

ولهذا قال العلماء: ابتداء السَّلَامِ سُنَّةٌ، وَرَدُّهُ وَاجِبٌ، ثُمَّ أوردوا على هذا إشكالًا فقالوا: ابتداء السَّلَامِ أَفْضَلُ مِنْ رَدِّهِ، فَكَيْفَ تَكُونُ السُّنَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْوَاجِبِ؟ وَالْقَاعِدَةُ الشَّرْعِيَّةُ أَنَّ الْوَاجِبَ أَفْضَلُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

أجابوا عَنْ ذَلِكَ؛ قَالُوا: هَذَا الْإِشْكَالُ جَوَابُهُ: أَنَّ هَذَا الْوَاجِبَ كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى السُّنَّةِ، فَصَارَتِ السُّنَّةُ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا الْوَاجِبُ لَمْ أَتَى بِهَا ثَوَابٌ أَجْرُهُ الْخَاصُّ وَثَوَابُ أَجْرِ الرَّادِّ.

سادسًا: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، فَبَعْضُ النَّاسِ يُلَاقِيكَ وَيُسَلِّمُ لَكِنْ تَشْكُ: هَلْ سَلَّمَ أَوْ لَا؟ لِأَنَّهُ لَمْ يَرْفَعْ صَوْتَهُ، وَهَذَا غَلْطٌ، أَرْفَعِ الصَّوْتَ عَلَى وَجْهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ فَرِحَ بِهَذَا الْأَخِ الَّذِي قَابَلَكَ أَوِ الَّذِي سَلَّمَ عَلَيْهِ لَا بِصَوْتٍ مُزَعَجٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الهجرة، رقم (٦٠٧٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي، رقم (٢٥٦٠)، من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا بِخَافِتٍ لَا يُسْمَعُ، وعلى العكس من ذلك، بعض النَّاسِ يُسَلِّمُ بصوت مُزِعِجٍ، والدِّينَ وسط بين الغالي والجافي، فنقول: سلِّمَ سلامًا مسموعًا يسمعه أخوك ويكون بأدب واحترام.

سابعًا: من آداب السَّلام أيضًا: أن يكون المسلم مُنْبَسِطَ الوجه مُنْشِرَحَ الصَّدْرِ، فَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِقٍ<sup>(١)</sup>، فَإِنَّ طَلَاقَ الْوَجْهِ وَانْشِرَاحَ الصَّدْرِ وَالِابْتِسَامَةَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَا شَكَّ أَنَّهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَطْلُوبَةِ لِمَا فِيهَا مِنْ إِدْخَالِ الشُّرُورِ عَلَى إِخْوَانِكَ، وَإِدْخَالِ الشُّرُورِ عَلَى إِخْوَانِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَحَبَّةِ الَّتِي تُؤَجَّرُ عَلَيْهَا، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»<sup>(٢)</sup>.

ثامنًا: ردُّ السَّلامِ المحمول إن كان الحاملُ له شخصًا وقال: فُلَانٌ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ. فقل: عَلَيْكَ وَعَلَيْهِ السَّلامُ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: عَلَيْهِ السَّلامُ، أَيْ عَلَى الَّذِي حَمَلَهُ، أَمَّا إِذَا كَانَ مَحْمُولًا بِكَتَابَةِ يَعْنِي إِنْسَانًا كَتَبَ لَكَ كِتَابًا، وَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تُجِيبَهُ بِكِتَابٍ فَرُدَّ عَلَيْهِ بِجَوَابِكَ، مَثَلًا: كَتَبَ إِلَيْكَ إِنْسَانٌ كِتَابًا وَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَكْتُبُ إِلَيْهِ: وَعَلَيْكُمْ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، قَرَأْتَ كِتَابَكَ وَفَهِمْتُ مَا فِيهِ، وَالْجَوَابُ كَذَا وَكَذَا.

وأكثر النَّاسِ الْآنَ لَا يَهْتُمُّونَ بِهَذَا، تَجِدُهُ يَكْتُبُ الْجَوَابَ وَيَقُولُ فِي ابْتِدَائِهِ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. هَذَا طَيِّبٌ، لَكِنَّ الَّذِي سَلَّمَ عَلَيْكَ يُرِيدُ جَوَابًا فَقُلْ: جَوَابًا يَعْنِي: وَعَلَيْكُمْ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَصَلْنِي كِتَابُكَ أَوْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ، وَفَهِمْتُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم (٢٦٢٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِقٍ».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب كل معروف صدقة، رقم (٦٠٢١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما فيه، وهذا الجواب، وتُجيبه بما سألك، وإذا كان لا يحتاج إلى جوابٍ مثل أن يكون الشخص كَتَبَ إليك كتابًا يُخبرك بخبر لا يحتاج إلى جواب، فهنا إذا قرأت الكتاب، فقل: عليك السَّلام ورحمة الله وبركاته، لا أقول وجوبًا؛ لأنَّ صاحبك لن يسمع، لكن على سبيل الاستحباب، رجل دعا لك بظهر الغيب فادعُ له أنت بظهر الغيب.



## الآيات (٣١-٣٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤].

• • • • •

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ القائل: ما خطبكم هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أي ما شأنكم أيها المرسلون وهم الملائكة.

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ يعني أرسلنا الله عزَّجَلْ؛ لأنه من المعلوم أنه لا يُرسل أحدًا من الملائكة إلا خالقهم عزَّجَلْ، ﴿إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: ذوي جُرم عظيم ألا وهو اللُّواط -والعياذ بالله- فإنهم كانوا يأتون الرِّجالَ شهوةً من دُونِ النساء، فيأتون ما لم يُخلَقْ لهم، ويدعون ما خُلِقَ لهم، كما قال لهم نبيهم لوط عليه السلام: ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وهذه الفاحشة فاحشة نكراء، لا يُقرُّها عقل، ولا فِطرة، ولا دين؛ ولهذا كانت عُقوبتها القتل للفاعل والمفعول به، إذا كانا بالغين عاقلين، سواء كانا مُحْصَنِينَ أم غير مُحْصَنِينَ، بخلاف الزَّنا، فالزَّنا أهون عُقوبة؛ لأنَّ الزَّاني مَنْ لم يكن مُحْصَنًا فعقوبته أن يُجلد مئة جَلْدَةٍ ويُغْرَبَ عن البلد سنة كاملة، وإن كان مُحْصَنًا وهو الَّذي قد تزَوَّجَ وجامَعَ: فعقوبته أن يُرْجَمَ بالحجارة حتَّى يموت، أمَّا هذا فعقوبته القتل بكلِّ حال، كما جاء في الحديث: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمٍ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ

وَالْمَفْعُولُ بِهِ»<sup>(١)</sup> ووقعت هذه الفاحشة في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَمَرَ أَنْ يُحْرَقَ كُلُّ  
مِنِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ<sup>(٢)</sup>؛ لَأَنَّ الْإِحْرَاقَ أَكْثَمُ عَقُوبَةٍ يُعَاقَبُ بِهَا بَنُو آدَمَ، وَكَذَلِكَ  
جَاءَ عَنْ بَعْضِ الْخُلَفَاءِ أَنَّهُمْ أَمَرُوا بِإِحْرَاقِ اللَّوْطِيِّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(٣)</sup>: أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى قَتْلِ  
اللَّوْطِيِّ فَاعِلًا كَانَ أَوْ مَفْعُولًا بِهِ، لَكِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا: كَيْفَ يُقْتَلُ؟ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُحْرَقُ،  
وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُرْمَى بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ كَالزَّانِي الْمُحْصَنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:  
يُلْقَى مِنْ أَعْلَى شَاهِقٍ فِي الْبَلَدِ، يَعْنِي فِي مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ، أَعْلَى مَا يَكُونُ فِي الْبَلَدِ، ثُمَّ يُتَبَعَ  
بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ.

فَالْمُهْمُ: أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ قَتْلَهُ هُوَ الْحِكْمَةُ؛ لَأَنَّ هَذِهِ الْفَاحِشَةَ  
مَتَى دَبَّتْ فِي الرِّجَالِ صَارَ الرِّجَالُ كَالنِّسَاءِ، وَبَدَأَ الذُّلُّ وَالْعَارُ وَالْخِزْيُ عَلَى وَجْهِ  
الْمَفْعُولِ بِهِ، لَا يَنْسَاهُ حَتَّى يَمُوتَ، ثُمَّ اسْتَغْنَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَبَقِيَتِ النِّسَاءُ؛ لَأَنَّ  
هَذِهِ الْفَاحِشَةَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- إِذَا ابْتُلِيَ بِهَا الْإِنْسَانُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى غَيْرِهَا؛ لِأَنَّهَا مَرَضٌ،  
فَتَأْكُ سَارًا، فَإِذَا أُعْذِمَ هَؤُلَاءِ وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ جُرْثُومَةٌ فَاسِدَةٌ مُفْسِدَةٌ لِلْإِنْسَانِ، كَانَ  
ذَلِكَ عَيْنَ الْمَصْلَحَةِ.

ثُمَّ اللَّوْطُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- لَا يُمَكِّنُ التَّحَرُّزَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ بَيْنَ ذَكَرَيْنِ لَا يُمَكِّنُ لِأَيِّ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٠٠/١)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه:

كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، رقم (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاحية رقم (١٤٠)، والخراطي في مساوئ الأخلاق رقم (٤٢٨)،  
والآجري في ذم اللواط رقم (٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٣٢/٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٥٤٣/١١).

إنسان يجد ذكَّرين يمشيان في السوق أن يُنكر عليهما اجتماعهما، ولكنَّ الزَّنا إذا رأيت رجلاً مع امرأة تستنكره أو تتهمه وتتكلَّم معه، لذلك كانت عقوبة الإعدام في حقِّ اللُّوطيِّ أوفق ما يكون للحكمة وللرحمة، فهي رحمة بالفاعلين، يعني باللائط والمُلَوِّط به، حتَّى لا يبقيا في حياتهما يكتسبان الإثم وتزداد العقوبة عليهما، ورحمة بالمُجتمع فتكون عقوبتهما نكالا حتَّى لا يفسد المُجتمع، لهذا قالت الملائكة لإبراهيم: ﴿وَأَنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ مُجْرِمِينَ﴾ وجُرمُهم -والعياذُ بالله- ما سُبِقوا عليه، كما قال لهم نبيُّهم: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ (٣٣) مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿حجارة من طين، لكنَّه ليس الطِّين الذي يَتَفَتَّت بل الصَّلب العظيم الَّذي إذا أصابت هذه الحجارة أحداً مِنَ النَّاسِ وضربته على رأسه خرَّجت من دُبُرِهِ، لا يردُّها عَظْم ولا لَحْم، لقوَّتْها وشدَّتْها وصلابتُها والعياذُ بالله.﴾

﴿مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: مُعلَّمة عند الله، يعني عليها علامة؛ لأنَّ كُلَّ شيء عند الله بمِقدار، لا تَظُنُّ أَنَّ الأمور التي يُقدِّرها الله عَرَجَلٌ تأتي هكذا صُدفة، بل هي بمِقدار، حتَّى تباعد ما بين النجوم، وتفاوت ما بينها من الكِبَر والإضاءة بمِقدار، لم يَجِئ هكذا فلتة أو جاء صُدفة، كُلُّ شيء عند الله بمِقدار ولا بدَّ، فهذه الحجارة مُعلَّمة عند الله، وهل هي مُعلَّمة بمعنى أن هذه مكتوب عليها مثلاً حجارة عقوبة؟ أو مُسَوِّمة بالنسبة لمن تقع عليه؟

الجواب: الثَّاني؛ لأنَّ هذا أدقُّ، هذه الحجارة لفلان، هذه الحجارة لفلان، مُسَوِّمة عند ربِّكَ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للمُتجاوزين حُدودَهم.

ولا شكَّ أَنَّ اللُّواط مُجَاوِزة للحدِّ والإسراف -والعياذُ بالله-.



## الآيتان (٣٥، ٣٦)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

• • ❦ • •

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أخرجناهم أي: أمرناهم أمراً قد رتباً فخرجوا، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لِلْهُوطِ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمُزْكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ [هود: ٨١]، فأخرج الله مَن كان فيها من المؤمنين، وهم لُوطٌ وأهلُه إلا امرأته؛ ولهذا ﴿فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ بَيْتٌ واحد، قرية كاملة يَدْعُوهم نبيُّهم إلى توحيد الله وإلى ترك هذه الفاحشة ما اتَّبعه أحد حتى أهل بيته لم يُخلِّصوا، فيهم مَن لم يؤمن بلُوطِ.

فانتبه يا أخي الداعية، لا تجزع إذا دعوت فلم يُستجب لك من المئة إلا عشرة، فالرسل عليهم الصَّلَاة والسَّلَام يَبْقُونَ في أُمَمهم دُهوراً كثيرة ولا يَتَّبِعهم إلا القليل، ولُوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام لم يَتَّبِعْهُ مِنَ الْقَرْيَةِ أَحَدٌ، وتخلَّف عن دعوته مَن تخلَّف؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهنا يتساءل الإنسان في نفسه: كيف قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، هل المسلمون هُنَا بِمَعْنَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا؟

ذهب بعض العلماء إلى ذلك، وقالوا: إِنَّ فِي هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ

شيء واحد، وذهب الآخرون إلى الفرق، وقالوا: أمّا المؤمنون فقد نجّوا، وأمّا البيت فهو بيت إسلام؛ لأنّ المظهر في هذا البيت - بيت لوط - أنّه بيت إسلامي، حتّى امرأته لم تتظاهر بالكفر، تظاهرت بأنّها مسلمة؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، ليس المعنى خانتاهما بالفاحشة، بل خانتاهما بالكفر، لكنّه كفر مستور، وهو خيانة من جنس النفاق؛ ولهذا يُقال للمجتمع الذي فيه المنافقون: إنّهُ مجتمَع مُسلم، وإن كان فيه المنافقون؛ لأنّ المظهر مظهر إسلام. إذن: نقول: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ إنّها قال: ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنّ امرأته ليست مؤمنة، ولكنها مسلمة.



## الآية (٣٧)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٧].

• • •

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾: (تركنا فيها آية) أي علامة، فما العلامة؟ أهى علامة حسية، أم علامة معنوية، أم علامتان معنوية وحسية؟ والقاعدة المفيدة في التفسير: «إذا احتملت الآية أكثر من معنى لا مرجح لأحدهما على الآخر ولا منافاة بينهما، وجب حملها على المعنيين جميعاً» فهذه الآية حسية ومعنوية.

أما الحسية: فما نُشاهد مكان قرينتهم التي تُسمى بحيرة لوط، فإنَّ هذا كان موضع القرية، كلُّ يَمُرُّ به ويَراه ويُشاهده، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذْ كُنَّا لَمَشْرِقَهُمْ مُّصِيفِينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَأْتِلُّ أَفْلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

وآية معنوية: كُلُّ مَنْ قَرَأَ قَصَّتْهُمْ فِي جَمِيعِ مَا وَرَدَتْ فِيهِ مِنَ السُّورِ الْكَرِيمَةِ اعْتَبَرَ وَاتَّقَعَ وَخَافَ، لَكِنْ مَنْ الَّذِي يَتَّبِعُ هَذِهِ الْآيَاتِ؟ وَمَنْ يَتَّعِظُ؟ ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أَمَّا الْمُتَكَبِّرُونَ الَّذِينَ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَنْتَفِعُوا بِالْآيَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَفْنَى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُتَفَعِّلِينَ بِالْآيَاتِ.

• • •

## الآية (٣٨)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٨].

• • ❦ • •

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يَعْنِي فِي مُوسَى آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، حِينَ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَفِرْعَوْنَ عَلَّمَ جِنْسَ عَلَى كُلِّ مَنْ حَكَّمَ مِصْرَ وَهُوَ كَافِرٌ، وَمُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُوَ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الْفَضْلِ بِالنِّسْبَةِ لِأَوَّلِي الْعِزْمِ الْخَمْسَةِ، فَإِنَّ أَفْضَلَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ نُوحٌ، وَعِيسَى عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أَي: بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ فِي نَفْسِهَا مُبَيِّنَةٌ لغيرها، فَالآيَاتُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ بَيِّنَاتٌ وَاضِحَاتٌ لِكُلِّ ذِي عَدْلٍ وَإِنْصَافٍ، وَهِيَ أَيْضًا مُبَيِّنَةٌ لِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ؛ وَلِهَذَا أَعْلَمَ أَنَّهُ كُلَّمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ كَلِمَةُ: (مُبِينٌ) فَهِيَ بِمَعْنَى بَيِّنٌ فِي ذَاتِهِ، مُبَيِّنٌ لغيره، إِلَّا مَا دَلَّ السِّيَاقُ أَنَّ الْمُرَادَ الْبَيِّنَ فِي ذَاتِهِ، فَمِنْ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُوسَى، عَصَا مُوسَى الَّتِي كَانَ يَسْتَعْمِلُهَا وَيَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَيَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِهِ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ عِنْدَ رَعِيهَا، وَلَهُ فِيهَا حَاجَاتُ أُخْرَى، كَمَا قَالَ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٧-١٨].

فَهِيَ آيَةٌ فِي كَوْنِهِ إِذَا وَضَعَهَا عَلَى الْأَرْضِ صَارَتْ تُعْبَأُ مُبَيِّنًا، أَي: حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ

تُخِيفَ مَنْ رَأَاهَا؛ ولهذا رُهِبَ مِنْهَا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ أَلْقَاهَا وَوَلَّى هَارِبًا،  
 فَنَادَاهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ (لَا تَخَفْ) وَمِنْهَا أَنَّهُ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي جَبِيهِ فَتَخْرُجُ بِيضَاءَ فِي الْحَالِ،  
 بِيضَاءَ لَكِنْ بَدُونَ سُوءٍ، أَيْ بَدُونَ عَيْبٍ، يَعْنِي لَيْسَ بِيَاضُ بَرَصٍ، وَلَكِنَّهَا بِيضَاءُ  
 مُخَالَفَةٍ لِلْوَنِّ جِلْدُهُ فِي الْحَالِ، حَقِيقَةٌ لَا تَخْيَلًا، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ:  
 ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

المُهِمُّ: أَنَّهُ أَتَى إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ وَحُجَّةٍ دَامِغَةٍ بِالْغَةِ، لَكِنَّهُ -وَالْعِيَاذُ  
 بِاللَّهِ- ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾.



الآية (٣٩)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩].

• • ❁ • •

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ﴾ أي: بقوّته وسلطانه وجُنده، أعرَض عن موسى استكباراً وجُحوداً وظُلماً وعدواناً، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَفْتِنَا أَنْفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ يعني أَنَّهُ اتَّهَم عَلَيْهِمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ؛ لَأَنَّهُ أَتَى بِآيَاتٍ تُشَبِّه مَا يَصْنَعُهُ السَّحَرَةُ، عصا مِنْ خَشَبٍ تُوَضَّعُ فِي الْأَرْضِ وَتَكُونُ ثُعْبَانًا مُبِينًا، وَيَدْ تَدْخُلُ فِي الْجَيْبِ وَتَخْرُجُ بِيضَاءٍ فِي الْحَالِ، هَذَا يُشَبِّهُ السَّحَرَ، أَوْ ﴿مَجْنُونٌ﴾، وَذَلِكَ بِكَوْنِهِ يَدَّعِي أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ خَالِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الرَّبُّ وَهُوَ الْإِلَه؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ الْإِلَهَ إِلَّا فِرْعَوْنَ، فَإِذَا جَاءَ شَخْصٌ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ إِلَهًا وَلَا رَبًّا، فَإِنَّهُمْ يَرْمُونَهُ بِالْجُنُونِ، هَذَا مَجْنُونٌ خَرَجَ عَمَّا نَعَهَدُ.

• • ❁ • •

## الآية (٤٠)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ، فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

• • •

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي طرَحَناهم فيه، واليَمُّ هو البحر، والبحر الَّذي هَلَكَ فيه فرعون هو البحر الأحمر، الَّذي بين آسيا وأفريقيا، وذلك أَنَّ فرعون جَمَعَ جُنُودَهُ وحَشَدَهُم وأراد أَن يَقْضِيَ على موسى وقومِهِ، فخرَجَ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقومُهُ من مِصْرَ مُتَّجِهِينَ إِلَى الشَّرْقِ، ولكن حَالَ بَيْنَهُم وبين مُرَادِهِم البحرُ، فَلَمَّا وصلوا إِلَى البحر كان البحر بين أيديهِم، وفرعون وقومه خَلْفَهُم، فقال قومُ موسى: ﴿إِنَّا لَمُذْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦٠] يَعْنِي هَلَكْنَا؛ لِأَنَّ فرعون خَلَفْنَا والبحر أَمَامَنَا فكيف النِّجَاةُ؟! فقال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١]، وهذه مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ، تَقْتَضِي النِّصْرَ والتَّأْيِيدَ، قال: وَلَمْ يَقُلْ: سوف يَهْدِينِ، بل قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إشارة إِلَى قُرْبِ هذا الحِصْرِ وَأَنَّهُ سَيَزُولُ قَرِيبًا، وهذا هو الَّذي حَصَلَ، فأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ أَن يَضْرِبَ البحرَ بعِصَاهُ، فَضْرَبَهُ فَانْفَلَقَ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا فِي الحَالِ وَيَسَّرَ فِي الحَالِ، وصَارَ صَالِحًا لِلْمَشْيِ عَلَيْهِ فِي الحَالِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَضْرِبْ لَهمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَوْنَ﴾ [طه: ٧٧]، فَعَبَّرَ موسى وقومه من هذه الطَّرِيقِ العَظِيمَةِ الَّتِي كان المَاءُ بَيْنَهَا كَالْجِبَالِ ولما انْتَهَوْا خَارِجِينَ كان فرعون وقومُهُ فِي أَثَرِهِم وانْتَهَوْا دَاخِلِينَ، فَأَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ البحرَ أَن يَعودَ إِلَى ما كان عَلَيْهِ، فَانطَبَقَ على فرعون وقومه فَهَلَكُوا عن آخِرِهِم

والحمد لله؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: فرعون فاعل ما يُلام عليه ولا شك أن ردّه للرّسالة الإلهيّة، وادعاءه أنّه الرّبّ وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وما أشبه ذلك من الكلمات لا شك أنّها كلمات يُلام عليها؛ لأنّه قد تبين له الحقُّ، ولكنه عاند وأبى أن ينقاد للحقّ، كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يعني يا فرعون ﴿مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَإِيرٍ وَلِإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].





## الآيتان (٤١، ٤٢)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

• • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ يَعْنِي وَفِي عَادٍ آيَاتٍ ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ عَادٌ فِي جَنُوبِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانُوا قَوْمًا أَشَدَّاءَ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ قَالُوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥].

فَأَصَابَهُمُ الْقَحْطُ وَالْجُدْبُ، فَجَعَلُوا يَتَرَقَّبُونَ الْمَطَرَ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَظِيمَةَ الشَّدِيدَةَ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الاحقاف: ٢٤]، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ هَذِهِ الرِّيحَ الْعَقِيمَ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا ثَمَرَةٌ وَلَمْ تَحْمِلْ مَاءً: كَالْمَرْأَةِ الْعَقِيمِ الَّتِي لَا تَلِدُ، هَذِهِ أَيْضًا رِيحٌ عَظِيمَةٌ لَا تَحْمِلُ سَحَابًا وَلَا مَطَرًا، هَذِهِ الرِّيحُ الْعَقِيمُ هِيَ الرِّيحُ الْغَرِيبَةُ، كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ»<sup>(١)</sup> أَي: بِالرِّيحِ الْغَرِيبَةِ، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ هَذِهِ الرِّيحَ الْعَقِيمَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، رقم (٤١٠٥)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، رقم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿ مَا نَذِرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ كُلُّ شَيْءٍ تَأْتِي عَلَيْهِ تَجْعَلُهُ كَالرَّمِيمِ هَامِدًا، حَتَّىٰ إِنَّمَا تَأْخُذِ الرَّجُلَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ إِلَىٰ فَوْقَ ثُمَّ تَرُدُّهُ إِلَى الْأَرْضِ ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، هَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ، تَأْمَلُ الْآيَةَ، قَوْمَ عَادٍ قَوْمَ أَقْوِيَاءَ أَشِدَّاءَ هَلَكُوا بِهَذِهِ الرِّيحِ اللَّطِيفَةِ، الَّتِي لَا تَرَىٰ لَهَا جِسْمًا، وَإِنَّمَا تُحَسُّ بِهَا بِدُونِ أَنْ تَرَىٰ شَيْئًا، وَمَعَ ذَلِكَ قَضَتْ عَلَيْهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا نَذِرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ فَهَذَا فِيهِ آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الرِّيحَ، فَأَهْلَكَتْهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ.



## الآيات (٤٣-٤٥)

• • ❦ • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿٤٣﴾ وَفِي ثُمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ فَمَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٥﴾ مَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ﴿٤٦﴾﴾﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٥].

• • ❦ • •

﴿وَفِي ثُمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ثُمُودُ هُمُ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نَبِيَّهُ صَاحِحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَوَعَّظَهُمْ وَذَكَرَهُمْ، وَجَعَلَ لَهُمْ آيَةً وَهِيَ النَّاقَةُ الَّتِي شَرَّفَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِإِضَافَتِهَا إِلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ؛ حَيْثُ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣] أَيِ احذَرُوا نَاقَةَ اللَّهِ أَنْ تَعْبَثُوا فِيهَا، أَوْ أَنْ تُنْكِرُوهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ (لَهَا شَرْبٌ) تَشْرَبُ مِنَ الْبَيْتِ الَّتِي تُسَمَّى بِبَيْتِ النَّاقَةِ، وَلَهُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ يَشْرَبُونَهُ، فَالنَّاقَةُ تَشْرَبُ يَوْمًا وَهُمْ يَشْرَبُونَ يَوْمًا، وَهَذِهِ النَّاقَةُ ذَكَرُوا أَنَّهَا: مَا جَاءَ أَحَدٌ يَسْتَقِي مِنَ هَذِهِ الْبَيْتِ فِي يَوْمِهَا الَّتِي تَشْرَبُ مِنْهُ إِلَّا أَخَذَ بَدَلَ شَرْبِهَا شَيْئًا مِنْ لَبْنِهَا بِقَدَرِ مَا شَرِبَتْ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ: هَلْ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ أَوْ يَخْتَلِفُ؟

لكن على كل حال: هذه النَّاقَةُ لَا شَكَّ أَنَّهَا نَاقَةُ لَيْسَتْ كَسَائِرِ النُّوقِ، إِذْ إِنَّهَا آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، لَكِنَّهُمْ كَذَّبُوا وَأَبَوْا وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَتَمَتَّعُوا فِي دَارِهِمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَلَكِنَّهُمْ مَا زَالُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَفِي ثُمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

وديارهم معروفة الآن، موجودة في مكان يسمّى الحجر، ويسمّى الآن ديار ثمود، وقد مرّ بها النبي ﷺ في ذهابه إلى تبوك، لكنّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أسرع حين مرّ بهذه الدّيار وقنّع رأسه، ونهى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أمّته أن يدخلوا إلى هذه الأماكن، أماكن المُعذّبين إلا أن يكونوا باكين، قال: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»<sup>(١)</sup> وقوله: «أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ»، لا يلزم منه أن يُراد به ما أصابهم من العذاب الحسيّ قد يكون المُراد ما أصابهم من العذاب المعنويّ، وما أصابهم من الإعراض والكفر.

فلو قال قائل: إنّه يوجد أناس يذهبون إلى هذه الأماكن وهم غير باكين ولم يُصابوا بشيء.

فنقول: الجواب عن هذا من وجهين:

أولاً: أنّ الرّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يؤكّد أن يصابوا بهذا، ولكن قال: «حَذَارِ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»<sup>(٢)</sup>.

الوجه الثّاني: أن نقول: لا يتعيّن أن يكون المُراد بذلك أن يُؤخذوا بما أُخذ به هؤلاء من العقوبة الحسيّة الظّاهرة، وهي الرّجفة والصّيحة التي أمانتهم عن آخرهم، فقد يكون المُراد مرض القلب، الّذي هو الاستكبار والإعراض وردّ الحقّ.

﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾، هذا الحين هو ثلاثة أيّام ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، رقم (٤٣٣)، ومسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٣٩ / ٢٩٨٠)، بلفظ: «حذراً أن يصيبكم».

أي: فأبوا ولم يرجعوا عن غيِّهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ التي صعقتهم، وهي رَجفة وصيحة.

﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ينظر بعضهم إلى بعض يتهاوون ويتساقطون أموالاً ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي: ما استطاعوا أن يقوموا ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾، أي: لم يتمكن بعضهم أن ينصُر بعضاً، بل كلُّهم هلكوا عن آخرهم، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب أولياءه، وهكذا يفعل الله تعالى بمن كذب رُسُلَه عليهم الصَّلَاة والسَّلَام، إِلَّا أَنَّ الْعَذَابَ الْمُسْتَأْصِلَ رُفِعَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَلَّا يَأْخُذَهُمْ بِسَنَةِ بَعَاثَةٍ، أي بعقوبة عامّة، لكن ابتلوا بشيء آخر وهو أن يقتل بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً<sup>(١)</sup>.

والأمر كذلك وقع، فإنَّ هذه الأمّة لم تُصَبَّ بعذاب عام كما أُصِيبَتْ به الأمم التي قبلها، لكن أُصِيبَتْ بأن جعل الله بأسهم بينهم مُنْذُ زَمَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَمَّا اخْتَلَفُوا عَلَى عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَحَصَلَتْ الْفِتْنُ تَتَوَالِي إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، ثُمَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي جُعِلَ بِأَسْهَافِهَا بَيْنَهَا لَيْسَتْ هِيَ أُمَّةُ الْإِجَابَةِ فَقَطْ، بَلْ أُمَّةُ الْإِجَابَةِ وَأُمَّةُ الدَّعْوَةِ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: مَا حَصَلَ مِنَ الْفِتَنِ وَالْبَلَاءِ فِي الْأَرْضِ مَشَارِقُهَا وَمَغَارِبُهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَغَيْرِ الْكُفَّارِ فَإِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ لِلْمَعَاصِي، وَهِيَ عَقُوبَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنَّ اللَّهَ يُذِيقُهُمْ بِأَسَافِهِمْ بَعْضُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم (٢٨٨٩)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الذاريات: ٤٦].

• • • • •

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ يعني اذكر قوم نوح من قبل، وهم أول أمة أرسل إليهم الرسول، ولكنهم كذبوا.

ونوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقي فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ويذكرهم ويعظهم، ولكنهم والعياذ بالله لم يؤمنوا، ما آمن معه إلا قليل حتى أتته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: ﴿ كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصِيعَةً فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ [نوح: ٧]، جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا ما يقول، واستغشوا ثيابهم أي تغطوا بها لئلا يبصروا، نسأل الله العافية.

وهذا غاية ما يكون من البغضاء لما يقول ولما يفعل، ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ على باطلهم ﴿ وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾؛ فكان آخر ما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ رَبِّ لَا نَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦]، ودعا ربه أني مغلوب فانتصر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ ۝۱۱ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ١١-١٢].

ولهذا والله أعلم سيكون عليهم نصيب من عذاب المكذبين؛ لأنهم هم أول أمة كذبت الرسل، ومن سن سنة سيئة فعلية وزررها ووزر من عمل بها إلى يوم

القيامة<sup>(١)</sup>، كما أنَّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا فَإِنَّ عَلَى ابْنِ آدَمَ الَّذِي قَتَلَ أَخَاهُ كِفَالًا وَنَصِيبًا مِنْ عَذَابِ الْقَاتِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(٢)</sup>.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، رقم (٣٣٣٥)، ومسلم: كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل، رقم (١٦٧٧)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

### (الآية ٤٧)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

• • ❁ • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ السَّمَاءُ مفعول لفعل محذوف والتقدير: وبَنَيْنَا السَّمَاءَ، وقوله: ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة، كما قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبا: ١٢] فالأَيْدُ هنا أي القوة، وليست جَمْعُ يَدٍ كما يتوهم بعض النَّاسِ، وَيُظَنُّونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَنَى السَّمَاءَ بِيَدَيْهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الْأَيْدَ هُنَا مَصْدَرٌ آدَ يَتَدُّ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ، كَمَا يُقَالُ بَاعَ يَبِيعُ بَيْعًا؛ وَلِهَذَا لَمْ يُضِفِ اللهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ كَمَا أَضَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١] فَمَنْ فَسَّرَ الْأَيْدَ بِالْقُوَّةِ هُنَا فَإِنَّهُ لَا يُقَالُ: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، بَلْ هُوَ مِنَ التَّأْوِيلِ الصَّحِيحِ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا تَأَمَّلَ وَتَفَكَّرَ فِي السَّمَوَاتِ عَرَفَ أَنَّهَا قُوَّةٌ شَدِيدَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَنَّ قُوَّتَهَا تَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ بَانِيهَا سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لَمُوسِعُونَ لَأَرْجَائِهَا؛ لِأَنَّهَا وَاسِعَةٌ عَظِيمَةٌ؛ وَلِهَذَا كَانَتِ السَّمَوَاتُ أَكْبَرَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَهِيَ مُحِيطَةٌ بِالْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ أَوْسَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَيْسَتْ الْأَرْضُ بِالنِّسْبَةِ لِلسَّمَاءِ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا.

• • ❁ • •



الآية (٤٨)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

• • ❁ • •

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: فَرَشْنَا لأهلها، جعلناها لهم كالفرش يأوون إليها ويتمتعون بها، لم يجعلها الله تعالى صعبة ولا سهلة، بل هي متوسطة لو كانت ليّنة رخوة ما تمكّن أحد من البقاء عليها، ولو كانت صعبة ما تمكّن أحد من الانتفاع بها، ولكنها كانت كما وصفها الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

﴿فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ أثنى على نفسه تَبَارَكَ وَتَعَالَى بذلك؛ لأنه أهل للثناء، وقد جعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأرض على مستوى نافع للعباد، ليست بالقاسية التي يعجز الناس عن الانتفاع بها، وليست بالليّنة التي لا يستقرون عليها، بل هي مناسبة تماماً لهم، على أن فيها اختلافاً في الليونة وفي الصلابة، لكن هذا لا يمنع الانتفاع بها.

• • ❁ • •

(الآية ٤٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

• • • • •

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من كل شيء زوجين مُتَقَابِلَيْنِ، حَتَّى تَتِمَّ الحال وتصلح باجتماع بعضهما إلى بعض، فالحيوان كله من إنسان وغيره يكون من زوجين بين ذكر وأنثى، كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] إِلَّا أَنَّ آدَمَ ﷺ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ مِنْ غَيْرِ أُمٍّ وَلَا أَبٍ، وَحَوَاءُ خُلِقَتْ مِنْ أَبٍ بِلَا أُمٍّ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُلِقَ مِنْ أُمٍ بِلَا أَبٍ.

ولهذا يَنْقَسِمُ النَّاسُ إلى أربعة أقسام: الأول: مَنْ خُلِقَ بِلَا أُمٍّ وَلَا أَبٍ وهو: آدَمُ، والثاني: مَنْ خُلِقَ مِنْ أَبٍ بِلَا أُمٍّ وهي: حَوَاءُ، والثالث: مَنْ خُلِقَ مِنْ أُمٍ بِلَا أَبٍ وهو: عِيسَى، والرابع: بَقِيَّةُ الْبَشَرِ خُلِقُوا مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، فَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَ اللَّهُ زَوْجَيْنِ، الْيَابِسَ وَالرَّطْبَ، وَالْحَرَارَةَ وَالْبُرُودَةَ، وَاللَّيْنَ وَالْقَسْوَةَ، وَغَيْرِهِ مِمَّا إِذَا تَأَمَّلَهُ الْإِنْسَانُ عَرَفَ بِذَلِكَ حِكْمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أَي: بَيْنَا ذَلِكَ لَكُمْ؛ لِأَجْلِ أَنْ تَذَكَّرُوا وَتَتَعَطَّوْا بِآيَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا كَانَ أَعْلَمَ بِآيَاتِ اللَّهِ الْكُونِيَّةِ أَوْ الشَّرْعِيَّةِ كَانَ أَكْثَرَ اتِّعَاطًا وَاعْتِبَارًا.

ولهذا حَثَّ اللَّهُ عَلَى النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى:  
﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿٨﴾  
ومدح الله تعالى الَّذِينَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ  
اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ  
هَٰذَا بَطِلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٠-١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، لهذا ينبغي للإنسان أن  
يَتَعَزَّزَ وَيَتَذَكَّرَ وَيَتَدَبَّرَ آيَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْكَوْنِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ.



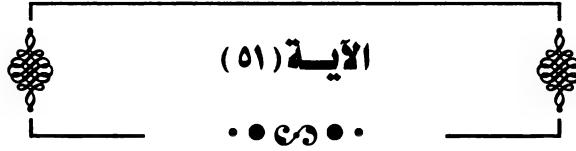
## الآية (٥٠)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

• • ❦ • •

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هذا كَأَنَّهُ على لسانِ النَّبِيِّ ﷺ أي قُلْ لَهُمْ ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مِنَ اللَّهِ، والفِرارُ إلى اللَّهِ يكون بالقيام بطاعته واجتناب نَوَاهِيهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُنْقِذُكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِلَّا أَنْ تَقُومَ بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَامَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ كَأَنَّهُ فَرَّ مِنْ عَدُوٍّ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ وَادِيًا عَرِمَا يَهْدِرُ، أَقْبَلَ عَلَيْكَ فَإِنَّكَ لَنْ تَقِفَ أَمَامَهُ، بَلْ تَهْرَبُ مِنْهُ وَتَقْرُ مِنْهُ، كَذَلِكَ لَوْ أَنَّ حَرِيقًا مُّلتَهَبًا أَقْبَلَ إِلَيْكَ فَإِنَّكَ لَنْ تَقِفَ بَلْ تَفِرُّ، كَذَلِكَ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ وَأَوَّلَى بِالْفِرَارِ مِنْهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مُنْذِرٌ ﴿مُبِينٌ﴾ أي: مُظْهِرٌ لِّمَا أَنْذَرَ بِهِ وَمُبَيِّنٌ لَهُ، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَذِيرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، يُنْذِرُ مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ بِالْعَذَابِ، وَمَعَ هَذَا هُوَ ﷺ بَشِيرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ بِالْجَنَّةِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، لَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَذْكُرُ الْإِنْذَارَ فَقَطْ فِي مَقَامِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، وَهَذِهِ السُّورَةُ كُلُّهَا ذِكْرٌ لِلْأُمَمِ السَّابِقِينَ وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِمُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.



﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾﴾

[الذاريات: ٥١].

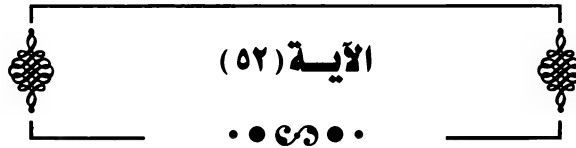


﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، أي: لا تجعلوا معه معبودًا تعبدونه، والمعبود أنواع وأصناف، فمن الناس من يعبد الشمس، ومنهم من يعبد القمر، ومنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد الحيوان، ومنهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد المال، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقُطَيْفَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضْيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»<sup>(١)</sup> فَبَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ هُمْ إِلَّا الْمَالُ فَإِنَّهُ عَابِدٌ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَإِنْ كَانَ لَا يَرْكَعُ لَهُ وَلَا يَسْجُدُ، لَكِنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ وَاهْتِمَامُهُ بِهِ، وَكَوْنُهُ يَرْضَى لِحَصُولِهِ، وَيَسْخَطُ لِمَنْعِهِ، لَا شَكَّ أَنَّهُ قَدْ اسْتَوَلَى عَلَى قَلْبِهِ اسْتِيلَاءً تَامًا، لَكِنَّ الْمَعْبُودَ تَخْتَلِفُ عِبَادَتُهُ فِي الْحُكْمِ، فَإِنْ كَانَ يُصَرِّفُ لَهُ شَيْءًا مِنَ الْعِبَادَةِ، فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ، وَإِنْ كَانَ لَا يُصَرِّفُ لَهُ شَيْءًا مِنَ الْعِبَادَةِ، وَلَكِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ الْقَلْبُ تَعَلُّقًا كَامِلًا حَتَّى إِنَّهُ لَيَدْعُ الْوَاجِبَاتِ وَيَقَعُ فِي الْمُحَرَّمَاتِ مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ عِبَادَةٌ لَا تُخْرِجُ مِنَ الدِّينِ لَكِنَّهَا حَقًّا عِبَادَةٌ ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ كَرَّرَ ذَلِكَ لِأَهْمِيَةِ الْمَوْضُوعِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم ٢٨٨٦-٢٨٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا الاتِّعَاضَ والانتفاع بآيات الله تعالى، إِنَّه على كُلِّ شيء قديرٌ.





﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

••❦••

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ يعني أن الأمر الذي حصل لك يا مُحَمَّدٌ، حصل لمن قبلك، فقلوه (كذلك) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: الأمر كذلك، يعني أن أمر الأمم السابقة كأمر هؤلاء الذين كذبوك يا مُحَمَّدٌ، وفسر ﴿كَذَلِكَ﴾ بقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ يعني ما أتاهم رسول إلا قالوا كذا، و(من) في قوله (من رسول) زائدة من حيث الإعراب، كقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩]، والمعنى ما جاءنا بشيرٌ ونذيرٌ، لكن تُزاد الحروف في بعض الجمل للتأكيد، فما أتى الذين من قبلهم من رسول يعني ما أتاهم رسول إلا وصفوه بهذين الوصفين إلا قالوا: ساحرٌ أو مجنون، ساحر باعتبار تأثيره وبيانه وبلاغته؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»<sup>(١)</sup> أو مجنون يعني أو قالوا مجنون باعتبار تصرفاته؛ لأن هذا التصرف في نظر هؤلاء المكذبين جنون، نسأل الله العافية.

وفي هذا تسلية للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن الإنسان إذا عَلِمَ أن غيره أصابه

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ما أصابه تسلى بذلك، وهان عليه الأمر؛ ولهذا قالت الخنساء تماضر وهي ترثي أخاها صخرًا<sup>(١)</sup>:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي      عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي  
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ      أَسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

وقد دلّ لذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]؛ لأنّ الإنسان إذا شاركه غيره في العذاب هان عليه، لكن يوم القيامة لا ينفع الإنسان أن يشاركه غيره في عقوبته. والمهم: أنّ في هذه الجملة بالنسبة للرّسول ﷺ تسلية حتّى لا يحزن، فإنّ ما أصابه قد أصاب غيره.

وفيها أيضًا دليل على أنّ المكذّبين للرّسل طريقهم واحدة، ولو تباعدت أزمانهم، ولو تباعدت أقطارهم؛ لأنّ المجرم أخو المجرم، فالطريقة واحدة.



(١) ديوان الخنساء، ط. دار المعرفة (ص ٧٢)، الكامل لابن المبرد (١/ ١٦).



## الآية (٥٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِءَ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

• • • • •

قال الله تعالى: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِءَ﴾ أي بهذا القول ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يعني هل هؤلاء المكذَّبون للرُّسل الَّذِينَ اتَّفَقُوا عَلَى وصف الرُّسل بأنَّهم سَحَرَةٌ وَمَجَانِين، هل هم تَوَاصَوْا بِذَلِكَ؟ يعني هل كُلُّ واحد من هؤلاء الأُمَمِ كَتَبَ وَصِيَّةً إِلَى الأُمَمِ اللاحقة: أَنْ قُولُوا لِأَنْبِيَائِكُمْ: إِنَّكُمْ سَحَرَةٌ وَمَجَانِين؟

الجواب: لا؛ ولهذا قال عَزَّجَلَّ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ وهذا إضرابٌ يُبْطِلُ يَعْنِي لم يحصل تَوَاصٍ، ولكن تَوَارَدَتِ الحَوَاطِرُ؛ لِأَنَّ الهدف واحد وهو تكذيبُ الرُّسل، فَاتَّفَقَتِ الكلمة.

وفي قوله: ﴿طَاغُونَ﴾ وصف بأنَّ هؤلاء طَغَاةٌ مُتَعَدِّون، وهذا من أعظم الطُّغْيَانِ والعياذُ بالله أَنْ يُوصَفَ دُعَاةُ الْحَقِّ بِأَنْهُمْ سَحَرَةٌ وَمَجَانِين، قال الله تعالى: ﴿فَنَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أَعْرِضَ عَنْ هَؤُلَاءِ وَلَا تَهْتَمَّ بِهِمْ ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ يعني لا أَحَدٌ يَلُومُكَ لِأَنَّكَ بَلَغْتَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّيْتَ الأَمَانَةَ، وَصَبَرْتَ وَصَابَرْتَ، فَلَقَدْ صَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ وَصَابَرَ عَلَى أَذَى قُرَيْشٍ وَامْتِهَانِهِمْ إِيَّاهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَتْ لَهُ الْعَاقِبَةُ وَاللَّهُ الْحَمْدُ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿فَنَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

• • • • •

## الآيتان (٥٤، ٥٥)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۖ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٤-٥٥].

• • ❦ • •

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ﴾ بمعنى أنك لا تُتَعَبُ نفسك بهم، ولا تُهْلِكُ نفسك فيهم، فأنت في هذه الحال لا تُلَامُ على ذلك؛ لأنه ﷺ قام بما يجبُ عليه، وفي قوله: ﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ أمران:

الأمر الأول: عُذْرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإقامة العُذْر له.

والثاني: تهديد هؤلاء المكذِّبين: فالله تعالى يُهَدِّدُهُمْ بتوليِّ الرِّسُولِ عنهم؛ لأنَّهم لا خيرَ فيهم.

ثمَّ قال: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ذكَّرَ النَّاسَ بآياتِ الله وبآيَّامه، وشرائعه وما أوجب الله على العباد.

وبآيَّامه: عقابه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لِلْمُكَذِّبِينَ وإثابته للطَّائِعِينَ، لكن أطلق الله الذِّكْرَىٰ وقال: ﴿وَذَكَرْ﴾ ولم يقل: وذكَّرَ المؤمنين، لكن بيَّن أنَّ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالذِّكْرِ هم المؤمنون فقال: ﴿فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا ذُكِّرَ فهو كما وصفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] بل يَقْبَلُونَهَا بِكُلِّ رَحَابَةٍ صدر وبكُلِّ طَمَإِينَةٍ، وفي الآية الدَّلِيلُ على

وَجُوب التَّذْكِير عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَفِيهَا أَنَّ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالذِّكْرِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَأَنَّ مَنْ لَا يَنْتَفِعُ بِالذِّكْرِ فَهُوَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ: إِمَّا فَاقِدَ الْإِيمَانِ، وَإِمَّا نَاقِصَ الْإِيمَانِ.

وهنا فَتْشٌ عَنْ نَفْسِكَ: هَلْ أَنْتَ إِذَا ذُكِّرْتَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَخُوفَتِ مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ هَلْ أَنْتَ تَتَذَكَّرُ أَمْ يَبْقَى قَلْبُكَ كَمَا هُوَ قَاسِيًا، إِنْ كَانَتْ الْأُولَى فَاحْمَدُ اللَّهِ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ كَانَتْ الثَّانِيَةُ فَحَاسِبْ نَفْسَكَ، وَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ حَتَّى تَنْتَفِعَ بِالذِّكْرِ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْإِيمَانُ أَقْوَى كَانَ الْإِنْتِفَاعُ بِالذِّكْرِ أَعْظَمَ وَأَشَدَّ، وَذَلِكَ مِنْ قَاعِدَةِ مَعْرُوفَةٍ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، وَهِيَ: أَنَّ الْحُكْمَ إِذَا عُلِّقَ بِوَصْفٍ ازْدَادَ بَزِيَادَتِهِ وَنَقَصَ بِنَقْصَانِهِ.



## الآية (٥٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

• • • • •

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما أوجدتهم بعد العدم إلا لهذه الحكمة العظيمة، وهي عبادة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وحده لا شريك له، واللام في قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ للتعليل، لكن هذا التعليل تعليل شرعي، أي لأجل أن يعبدون؛ حيث أمرهم فيمَثِّلون أمري، وليست اللام هنا تعليلًا قدريًا؛ لأنه لو كان تعليلًا قدريًا للزم أن يعبده جميع الجن والإنس، لكن اللام هنا لبيان الحكمة الشرعية في خلق الجن والإنس، والجنُّ عالمٌ غيبيٌّ خُلِقُوا من نار؛ لأنَّ أباهم هو إبليس كما قال الله تعالى: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

فَسُمُّوا جِنًّا لِأَنَّهُمْ مُسْتَتِرُونَ عن الأعين؛ حيث إنَّهم يَرُونَنَا ولا نراهم، هذا هو الأصل أنَّهم عالمٌ غيبيٌّ، لكن قد يظهرون أحيانًا، والأصل فيهم أنَّهم كالإنس منهم المسلمون، ومنهم غير المسلمين، ومنهم الصالحون ومنهم دُونَ ذلك، لكنَّ الإنس يَفْضَلُونَهُمْ بأنَّهم أَحْسَنُ منهم من حيث الابتداء؛ حيث إنَّهم خُلِقُوا من الطِّين، من التُّراب، من صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وأمَّا أولئك الجنُّ فخلِقُوا من النَّار، كذلك يمتاز الإنس عنهم بأنَّ منهم الرُّسل والأنبياء، وأمَّا الجنُّ فليس منهم رُّسل، ولكن منهم نُذُر، يُبَلِّغُونَهُم الرِّسَالَاتِ مِنَ الْإِنْسِ، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنْ

الْحِينَ يَسْمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمْ يَحْضُرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿[الأحقاف: ٢٩].

فانظروا إلى أدبهم في قولهم: أنصتوا، ثم بقائهم حتى انتهى المجلس، ثم ذهبوا دُعاة لما سمعوا، قالوا: ﴿أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْفَعُونَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴿[الأحقاف: ٢٩-٣٠] إلى آخر الآية، وأما الإنس فهم بنو آدَمَ البشر، هؤلاء خُلِقُوا لشيء واحد، لعبادة الله، لا لأجل أن ينفعوا الله بطاعتهم، ولا أن يضروه بمعاصيهم، ولا أن يُطعموه؛ ولهذا قال: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾.



الآية (٥٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ [الذاريات: ٥٧].

• • • • •

يَعْنِي مَا أَطْلَبُ مِنْهُمْ رِزْقًا أَيْ عَطَاءً أَنْتَفِعَ بِهِ، وَلَا أَنْ يُطْعَمُوا فَانْتَفِعَ بِإِطْعَامِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْفَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤]، فَهُوَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ الْجُودُ وَالْغِنَى وَالْكَرَمُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، فَالْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الْعِبَادَةَ، فَلَمْ يُخْلَقُوا لِأَجْلِ أَنْ يَعْمُرُوا الْأَرْضَ، وَلَا لِأَجْلِ أَنْ يَأْكُلُوا، وَلَا لِأَجْلِ أَنْ يَشْرَبُوا، وَلَا أَنْ يَتَمَتَّعُوا كَمَا تَتَمَتَّعُ الْأَنْعَامُ، وَإِنَّمَا خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَخُلِقَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ، فَنَحْنُ مَخْلُوقُونَ لِلْعِبَادَةِ، وَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ مَخْلُوقٌ لَنَا، ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩].

وَالْعَجَبُ أَنْ قَوْمَنَا الْآنَ اسْتَغْلُوا فِيَمَا خُلِقَ لَهُمْ عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، وَهَذَا مِنَ السَّفَهَةِ أَنْ يَسْتَغْلُوا بِشَيْءٍ خُلِقَ لَهُمْ، عَنْ شَيْءٍ خُلِقُوا مِنْ أَجْلِهِ.

وَالْعِبَادَةُ تُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيْنِ:

المعنى الأول: التعبد، يَعْنِي فَعَلَ الْعِبْدَ، فَيُقَالُ: تَعَبَّدَ لِلَّهِ عِبَادَةً.

والثاني: المتعبد به، وَهَذَا الْمَعْنَى قَالَ عَنْهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهُ «اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ»<sup>(١)</sup>،

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩).

فهي اسم جامع لكل شيء، فالصلاة عبادة، والصدقة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، والأمر بالمعروف عبادة، والنهي عن المنكر عبادة، وكل ما يُقرب إلى الله من قول أو فعل فإنه عبادة.



الآية (٥٨)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

• • ❦ • •

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ هو الرَّزَّاقُ يَعْنِي هو صاحب العطاء الَّذِي يُعْطِي، فالرَّزَقُ بمعنى العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء: ٨] أي: أعطوهم، وكلمة (الرَّزَّاق) أبلغ من كلمة (الرَّازِق)؛ لأنَّ (الرَّزَّاق) صيغة مُبالغة تدلُّ على كثرة الرِّزْق، وعلى كثرة المرزوق، فرزق الله تعالى كثير باعتبار كثرة المرزوقين، فكلُّ دابةٍ في الأرض على الله رِزْقُهَا، من إنسان وحيوان، ومن طائر وزاحف، ومن صغير وكبير، ولا يُمكن أن نُحصي أنواع المخلوقات على الأرض.

ولو قلتُ لك أحصِ العوالم الَّتِي فِي الأرض ما استطعتَ، فضلًا عن أفرادها، فكلُّ فرد منها فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتَكَفِّلٌ برزقه ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فإذا كان الأمر كذلك صار رزق الله كثيرًا باعتبار المرزوق، مَنْ يُحصي المرزوقين؟ لا أحد يُحصيهم أبدًا، ورزقه كثير باعتبار الواحد، فكم الله عليك من رزق كثير لا يُحصَى، رزق الله لك دارٌ عليك ليلاً ونهارًا، رَزَقَكَ عَقْلًا، وَصَحَّةً، وَمَالًا، وَوَلَدًا، وَأَمْنًا وَأَشْيَاءَ لَا تُحْصَى، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]؛ ولهذا جاء اسم الرَّزَّاق بالتَّشديد الدَّالُّ على الكثرة، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذُو الْقُوَّةِ﴾ أي:



صاحب القوة التي لا قوة تضادها، كما قال الشاعر الجاهلي<sup>(١)</sup>:

أَيْنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ      وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

فقوة الله عزَّجَل لا يُضَاهِيهَا قُوَّة، قُوَّتُهُ عَزَّجَل لا يَعْتَرِيهَا ضَعْف، بخلاف قُوَّة المخلوق، فقُوَّتُهُ تَنْتَهِي إِلَى ضَعْف، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، أَمَّا الرَّبُّ عَزَّجَل فَقُوَّتُهُ لَا يَلْحَقُهَا ضَعْفٌ بِأَيِّ وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ، وَلَمَّا قَالَتْ عَادٌ: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟ قَالَ اللَّهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وَصَدَقَ اللَّهُ عَزَّجَل.

وقوله: ﴿الْمَتِينُ﴾ يَعْنِي الشَّدِيد، شَدِيدٌ فِي قُوَّتِهِ، شَدِيدٌ فِي عِقَابِهِ، شَدِيدٌ فِي كُلِّ مَا تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ الشَّدَّةَ فِيهِ، انْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَسَ شَهِدًا عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، هَذِهِ شِدَّةٌ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَنْهَانَا أَنْ نَأْخُذَ الرَّأْفَةَ فِي الزَّانِيَةِ وَالزَّانِي ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْقُوَّةِ، وَمِنْ قُوَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ، وَمِنْ قُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَبْعَثُ النَّاسَ كُنُفُسًا وَاحِدَةً ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿[النازعات: ١٣-١٤]، وَالْأَمْثَلَةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ، فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا لَهُ الْقُوَّةُ الْبَالِغَةُ الَّتِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُضَاهِيَهَا أَيُّ قُوَّةٍ.



(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/٥٣) لنفيل بن حبيب.

## الآية (٥٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾

[الذاريات: ٥٩].

• • • • •

ثم قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي: الَّذِينَ ظَلَمُوا بِالْكَفْرِ لَهُمْ ﴿ ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ والذُّنُوبُ في الأصل هو الدَّلْو، أو ما يُسْتَقَى به، وشاهد ذلك قوله ﷺ: «أَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ»<sup>(١)</sup> والمعنى: هؤلاء الظالمون لهم نصيب مثل نصيب مَنْ سَبَقَهُمْ ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أي نصيبًا من العذاب مثل نصيب أصحابهم، وانظر كيف سَمَّى الله تعالى السَّابِقِينَ بأزمان بعيدة أصحابًا هؤلاء، وذلك لاتِّفَاقِهِمْ فِي التَّكْذِيبِ، ورمي الرُّسُلِ بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَ، فهم أصحاب في الواقع وإن تباعدت الأزمان والأماكن.

﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ النُّونُ هنا مكسورة على أَنَّهَا نون الوقاية وحُذِفَ الضَّمِيرُ: الياء، وأصله فلا يَسْتَعْجِلُونِي، فحُذِفَت الياء تخفيفًا؛ ولهذا لا يشكل على الإنسان فيقول: كيف كانت النُّونُ مع أَنَّ (لا) ناهية؟ والجواب أن نقول: هذه النُّونُ ليست نون الإعراب، ولكنها نون الوقاية، فالفعل إذن مجزوم، والنُّونُ للوقاية، والياء

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الَّتِي هِيَ الْمَفْعُولُ مَحذُوفَةٌ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ تَهْدِيدٌ وَاضِحٌ أَنَّ هَؤُلَاءِ سَيَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَا مُحَالَةً، وَلَكِنْ لَا يَسْتَعْجِلُونَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمِلِّي لِلظَّالِمِ وَيُمْهَلُهُ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمِلِّي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»<sup>(١)</sup> وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].



(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾، رقم (٤٦٨٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٦٠)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾

[الذاريات: ٦٠].

• • ❁ • •

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وَيُلْ: بمعنى الوعيد والعذاب،  
يعني أَنَّهُ يَتَوَعَّدُهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ هَذَا الْيَوْمِ الَّذِي يُوعَدُونَ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛  
لأنَّهُمْ سَيَجِدُونَ مَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ حَقًّا، وَسَيَجِدُونَ الذُّلَّ وَالْعَارَ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ  
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، فيكونون من بين هذا العالم نسأل الله  
العافية على هذا الوجه؛ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾  
وسيكون هذا اليوم يومًا عسيرًا عليهم؛ لأنَّهم كفَّروا والعياذُ بالله.

نَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ.

• • ❁ • •

سورة الطور  
الآيات (١-٦)

•••••

قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ ٤ وَالْمَعْمُورِ ٥ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿[الطور: ١-٦].

•••••

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الْبَسْمَلَةُ تَقْدَمُ الْكَلَامُ عَلَيْهَا.

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ ٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿هذه أشياء أقسم الله بها، الأول: الطُّور وهو الجبل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى بن عمران عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّمَهُ أَوَّلَ مَا كَلَّمَهُ عَلَى جَبَلِ الطُّور، فَكَانَ لِهَذَا الْجَبَلِ مِنَ الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ مَا سَبَقَ بِهِ غَيْرَهُ مِنَ الْجِبَالِ؛ وَلِهَذَا أَطْلَقَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ جَبَلِ الطُّورِ أَفْضَلُ الْجِبَالِ وَأَشْرَفُهَا، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ أَشْرَفَ وَأَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ حِرَاءَ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيهِ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هَذَا ظَاهِرٌ إِطْلَاقِ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَلَكِنْ فِي هَذَا الظَّاهِرِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ جَبَلِ حِرَاءَ كَلَّمَ مِنْهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَكِنْ كَلَّمَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُرْسَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَمِنْهُ ابْتَدَأَتْ أَفْضَلُ الرِّسَالَاتِ عَلَى أَفْضَلِ الرُّسُلِ، وَأَيْضًا حِرَاءَ دَاخِلُ الْحَرَمِ الْمَكِيِّ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْحَرَمِ الَّذِي لَا يُحِلُّ صَيْدُهُ وَلَا يُقَطَّعُ شَجَرُهُ، وَبُقْعَةُ الْحَرَمِ أَفْضَلُ الْبِقَاعِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُحْمَلَ إِطْلَاقُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى هَذَا، فَيُقَالُ: إِلَّا جَبَلِ حِرَاءَ.

﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٌ ۝٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿الكتاب المسطور في الرِّقِّ، اختلف فيه العلماء.

وهذا الخلاف ينبني على كلمة (رِقِّ) هل الرِّقُّ كُلُّ ما يَكْتَبُ فيه من جلد وورق وعظم وحجر وغير ذلك؟ أو هو خاص بما يُكْتَبُ فيه من جُلُود ونحوها؟ إن قلنا بالأوّل صار المراد بالكتاب عدّة أشياء، منها اللّوح المحفوظ، ومنها الكتُب التي بأيدي الملائكة، ومنها القرآن الكريم، ومنها التّوراة، فيشمل عدّة كُتُب، وإذا قلنا إنّ الرِّقَّ هو الورق وشبهه ممّا يُكْتَبُ فيه عادة، فاللّوح المحفوظ لا يدخل في هذا، وإنّما المراد به إمّا التّوراة، وإمّا القرآن، فالذين قالوا: إنّهُ التّوراة رجّحوا قولهم بأنّه قُرْن بالطّور.

والطّور هو الذي كُلِّم عليه موسى عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام، فكان الكتاب المسطور هو التّوراة التي جاء بها موسى، ومن قال: إنّ المراد به القرآن الكريم رجّح ذلك بأنّ الله ذكّر الطّور الذي أُوحي منه إلى موسى، وذكر الكتاب الذي هو القرآن الذي أُوحي إلى مُحَمَّد ﷺ، فيكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ أشرف الرّسالات في بني إسرائيل إيماءً بِذِكْرِ الطّور، وذكر أشرف الرّسالات التي بُعث بها من بني إسرائيل مُحَمَّد ﷺ، وعلى هذا فيتعيّن أن يكون المراد بالكتاب المسطور القرآن الكريم.

﴿مَّنْشُورٌ﴾ صفة لكتاب، ويَحْتَمِلُ أن تكون صفة لِرِقِّ، والمعنى واحد، والمراد بالمنشور يعني المُفَرَّق الذي يكون بأيدي كل قارئ، وهذا يَصْدُقُ تمامًا على القرآن الكريم، فإنّه والله الحمد بين يدي كُلِّ قارئ حتّى الصّغار من المُسلمين يقرؤونه.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ هذا هو الثّالث ممّا أقسم الله به في هذه الآيات، وهو بيت في السّماء السّابعة يُقال له: الضّراح، هذا البيت يدخله كُلُّ يوم سبعون ألفَ ملك

يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ<sup>(١)</sup>، فَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا كَمْ عَدَدَ الْمَلَائِكَةِ؟ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ، مَنْ يُحْصِي الْأَيَّامَ؟ ثُمَّ مَنْ يُحْصِي سَبْعِينَ أَلْفًا كُلَّ يَوْمٍ يَدْخُلُونَ هَذَا الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ وَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ بَيْتَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْكَعْبَةُ؛ لِأَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ، وَالْقَائِمِينَ، وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ، فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تُحْمَلَ الْآيَةُ عَلَى الْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا؟ الْقَاعِدَةُ فِي التَّفْسِيرِ: أَنَّ الْآيَةَ إِذَا احْتَمَلَتْ مَعْنَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا مُنَافَاةٌ وَجَبَ أَنْ تُحْمَلَ عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا؛ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهَا وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَالِمٌ بِمَا تَحْتَمِلُهُ مِنَ الْمَعْنَى، وَإِذَا لَمْ يُبَيَّنْ أَنَّ الْمُرَادَ أَحَدَ الْمَعْنَى فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَحْمَلَ عَلَى كُلِّ مَا تَحْتَمِلُهُ مِنَ الْمَعْنَى الصَّحِيحَةِ لَا الْمَعْنَى الْبَاطِلَةَ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مُنَافَاةٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْمُقْسَمُ بِهِ الْكَعْبَةُ، أَوِ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ فِي السَّمَاءِ؛ لِأَنَّ كِلَا الْبَيْتَيْنِ مُعْظَمٌ، ذَاكَ مُعْظَمٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، وَهَذَا مُعْظَمٌ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ، وَلَا مَانِعَ، فَالْصَّوَابُ أَنَّ الْآيَةَ شَامِلَةٌ لِهَذَا وَهَذَا، إِلَّا إِذَا وَجِدَتْ قَرِينَةً تُرْجِّحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ فِي السَّمَاءِ.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَهُوَ السَّمَاءُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، فَالسَّمَاءُ سَقْفٌ، وَالسَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ.

إِذَنْ: فَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ هُوَ السَّمَاءُ، وَسَمَّاهُ اللَّهُ سَقْفًا؛ لِأَنَّهُ قَدْ غَمَرَ جَمِيعَ الْأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، كَمَا يَغْمُرُ السَّقْفُ الْحِجْرَةَ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، وَإِنَّمَا أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدْءِ الْخَلْقِ، بَابُ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ، رَقْمُ (٣٢٠٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ، رَقْمُ (١٦٢)، مِنْ حَدِيثِ مَالِكِ ابْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالسَّماء لما فيها من الآيات العظيمة من نُجوم وشمس وقمر، وإحكام وإتقان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَآتِجِ الْأَبْصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ﴾ (٢) ثُمَّ آتِجِ الْأَبْصَرَ كَرْنَيْنِ ﴿يَعْنِي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ﴾ ﴿يَنْفَلِتُ إِلَيْكَ الْأَبْصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [المك: ٣-٤]، وأخبر أنَّه ليست للسماء فُرُوج، وليس فيها تشقُّق وليس فيها عَيْب، وليس فيها تَصَدُّع، ولا تَبَلَّى على طول المُدَّة، فهي جديرة بأن يُقسَم الله بها.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ كلمة البحر قيل: إنَّ المراد به البحر الَّذي عليه عرش الرحمن عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [مود: ٧]، وقيل: المراد به البحر الَّذي في الأرض؛ لأنَّه المُشَاهَد المعلوم الَّذي فيه من آيات الله ما يُبهر العقول، والصَّحيح أنَّ المراد به بحر الأرض؛ لأنَّ (ال) في البحر للعهد الذَّهني، يَعْنِي البحر المعهود الَّذي تعرَّفونَه، فأقسَم الله به لما فيه من آيات الله العظيمة من أسماك وأمواج وغير هذا ممَّا نعلَّمُه وما لا نعلَّمُه، ومن أعظم ما فيه من آيات الله ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾ يَعْنِي المَمْنُوع، ومنه سَجَرَتِ الْكَلْب يَعْنِي ربطته حتَّى لا يهرب، فالبحر ممنوع بِقُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، إِنَّا نَعْلَمُ جَمِيعًا أَنَّ الْأَرْضَ كَرَوِيَّةٌ، وهذا البحر لو نظرنا إليه بمقتضى الطَّبيعة لكان يفيض على الأرض؛ لأنَّه لا جُدران تمنع، والأرض كروية مثل الكُرَّة فلو نظرنا إلى هذا البحر بمقتضى الطَّبيعة، لقلنا: لا بُدَّ أَنْ يفيض على الأرض فيُغرِقها، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْسَكُهُ بِقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو مسجور، أي: ممنوع من أَنْ يفيض على الأرض فيُغرِق أهلها، وهذه آية من آيات الله، فلو صبَّ فوق الكُرَّة ماء، لذهب يَغْمُرُها يَمِينًا وشمالًا، لكنَّ هذا البحر لا يُمكن أَنْ يفيض على الأرض بِقُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وانظر إلى الحكمة تأتي أيام المدّ والجزر، نفس البحر يمتدّ امتدادًا عظيمًا لعدّة أمتار ورُبّما أميال، ثمّ ينحسر، من الذي مدّه؟ ولو شاء لبقّي مُمتدًا حتّى يُغرق الأرض، ومن الذي ردّه؟ هو الله؛ ولهذا كان هذا البحرُ جديرًا بأن يُقسّم الله به، وفي البحر آيات عظيمة، يُقال: إنّه ما من شيء على البرّ من حيوان وأشجار إلا وله نظير في البحر بل أزيد؛ لأنّ البحر بالنسبة لليابس يُمثّل أكثر من سبعين في المئة، وفيه أشياء لا ترى لها نظيرًا في البرّ، وهذا من آيات الله عزّ وجلّ، وأعظم آية في البحر هو أنّه مسجور، أي ممنوع من أن يفيض على الأرض فيغرق أهلها.

وقيل: المراد بالمسجور الذي سيُسجَر، أي: يُوقَد كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، أي: أُوقِدَتْ، وهذا يكون يوم القيامة، هذا الماء الذي نشاهده الآن والذي لو سَقَطَتْ فيه جَمْرَةٌ، أو مرّ على جَمْرَةٍ لأطفأها، يوم القيامة يكون نارًا يُسجَر، وهذا من آيات الله عزّ وجلّ والمراد به المعنيان جميعًا؛ لأنّه لا مُنافاة بين هذا وهذا، فكلاهما من آيات الله عزّ وجلّ أي سواء قلنا المسجور الممنوع من أن يفيض على الأرض، أو المسجور الذي سيُسجَر أي يُوقَد، فكلّ ذلك من آيات الله.



## الآيتان (٧، ٨)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿[الطور: ٧-٨].

• • ❦ • •

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا هو جوابُ القسم، وهذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكّدات: القسم بخمسة أشياء، وإذا كان قسماً بخمسة أشياء صار كأنه أقسم عليها خمس مرّات، والثاني: بأنّ، والثالث: باللام، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني لا بُدَّ أن يقع عذاب الله الَّذي وعد به، هذه جملة عظيمة مؤثّرة، لكنها لا تُؤثّر إلا على قلب لئن كَلِمَ الزَّبَد أو أشدّ، أمّا القلب القاسي فلا يهتّم بها، تمرّ عليه وكأنّه حجارة، وكان عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قرأ هذه الآية يَمْرُضُ حتّى يُعَاد، يَمْرُضُ من شدّة ما يقع على قلبه من التّأثّر حتّى يُعَاد، فإذا كان واقعاً وليس له دافع أليس الجدير بنا أن نخاف؟ بلى والله، هذا هو الجدير.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني لا بُدَّ أن يقع، ولكن هل هذا التأكيد بالنسبة لعذاب المؤمنين أو لعذاب الكافرين؟ لِنَنْظُرْ قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿[المعارج: ١-٣].

فُضِمَ هذه الآية إلى الآية التي في الطّور تجد أن قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿، على الكافرين، فعذاب الله على الكافرين ليس له دافع، لا أحد يدفعه، لا قبل وقوعه ولا بعد وقوعه؛ ولهذا لا تنفعهم الشّفاعَة فيرفع عنهم العذاب،

أَمَّا عَذَابُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِ الْمَذْنِبِ فَإِنَّ الْأَصْلَ أَنَّهُ وَاقِعٌ، كُلُّ ذَنْبٍ تَوَعَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْعَذَابِ فَالْأَصْلُ أَنَّهُ وَاقِعٌ، لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ قَدْ يُرْفَعُ بِفَضْلِ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَقَدْ يُرْفَعُ بِالشَّفَاعَةِ، وَقَدْ يُرْفَعُ بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تَغْمُرُ الْأَعْمَالَ السَّيِّئَةَ، أَمَّا تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»<sup>(١)</sup> فَيَرْتَفِعُ عَنْهُ الْعَذَابُ، وَعَلَى هَذَا نَقُولُ: عَذَابُ اللَّهِ وَاقِعٌ عَلَى الْكَافِرِينَ لَا مُحَالَةَ، وَلَا دَافِعَ لَهُ، أَمَّا عَلَى عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْأَصْلَ الْوُقُوعُ، وَقَدْ أَنْذَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ وَخَوَّفَهُمْ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ يَرْتَفِعُ بِأَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾: ﴿مَا﴾ نَافِيَةٌ، وَ﴿دَافِعٍ﴾ مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ، دَخَلَتْ عَلَيْهَا (مِنْ) الزَّائِدَةُ لِلتَّوَكِيدِ، يَعْنِي مَا مِنْ أَحَدٍ وَلَوْ عَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ وَقَوَّتْهُ يَدْفَعُ أَوْ يَرْفَعُ عَذَابَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ (دَافِعٍ) هُنَا تَشْمَلُ الْمَنْعَ قَبْلَ الْوُقُوعِ، وَالرَّفْعَ بَعْدَ الْوُقُوعِ، لَا أَحَدٌ يَدْفَعُ عَذَابَ اللَّهِ وَلَا يَمْنَعُهُ عَنْ أَنْ يَنْزَلَ وَلَا يَرْفَعُهُ إِذَا نَزَلَ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ. نَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعَامِلَنَا بِعَفْوِهِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَمَا حَضَرَ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفَعوا فيه، رقم (٩٤٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

## الآيات (٩-١٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ [الطور: ٩-١٢].

• • • • •

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾  
 هذه الآية: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ متعلقة بقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رِيكَ لَوَاقِعٌ ﴾ يعني أن العذاب يقع في ذلك اليوم، قوله: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ قد يظن الظأن أن المصدر هنا (مَوْرًا) لمجرد التوكيد، ولكنه ليس كذلك، بل هو لبيان تعظيم هذا المور، والمور بمعنى الاضطراب، يعني أن السماء تضطرب وتشقق، وتفتتح وتختلف عما هي عليه اليوم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسُ مَا قَدَمْتَ وَأَخَّرْتَ ﴾ [الانفطار: ١-٥]، ولا إنسان يتصور أو يعلم حقيقة ذلك اليوم، ولكننا نعلم المعنى بما أخبر الله به عنه، أمّا الحقيقة فهي شيء فوق ما نتصوره الآن.

﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي: تسير سيرا عظيما، وذلك أن الجبال تكون هباء منثورا، وتتطاير كما تتطاير الغيوم، وتسير سيرا عظيما هائلا، لشدة هول ذلك اليوم، وهذه الآية تدل على أن قول الله تبارك وتعالى في سورة النمل: ﴿ وَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَنْ نَرَى لَهُ حُيُوتًا إِنَّهُ خَيْرٌ لِّمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨]،

فإنَّ هذه الآية هي نفس هذه الآية التي في الطُّور من حيث المعنى، فيكون قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ يعني يوم القيامة ولا شك، ومن فسرها بأنَّ ذلك في الدنيا وأنه دليل على أنَّ الأرض تدور فقد حرَّف الكلم عن مواضعه، وقال على الله ما لا يعلم، وتفسير القرآن ليس بالأمر الهين؛ لأنَّ تفسير القرآن يعني أنَّك تشهد على أنَّ الله أراد به كذا وكذا، فلا بُدَّ أن يكون هناك دليل: إما من القرآن نفسه، وإما من السُّنة، وإما من تفسير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أما أن يُحوِّل الإنسان القرآن على المعنى الذي يراه بعقله أو برأيه، فقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بَرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

والمهمُّ: أن تفسير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] يُراد به ما في الدنيا، تفسير باطل لا يجوز الاعتماد عليه، ولا التَّعويل عليه، أمَّا كون الأرض تُدور أو لا تدور، فهذا يُعَلِّم من دليل آخر، إما بحسب الواقع، وإما بالقرآن، وإما بالسُّنة، ولا يجوز أبداً أن نُحمِّل القرآن معاني لا يدلُّ عليها من أجل أن نُؤيِّد نظرية أو أمراً واقعاً، لكنَّه لا يدلُّ عليه اللَّفْظ؛ لأنَّ هذا أمر خطير جداً.

قال الله سُبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وَيْلٌ كلمة وعيد وتهديد، وإن كان قد رُوِيَ أنَّها وادٍ في جهنَّم<sup>(٢)</sup>، لكنَّ الصَّواب أنَّها كلمة تهديد ووعد، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: المُكذِّبين لله ورسوله، الجاحدين لما قامت الأدلة على بُوته

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٣/١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم (٢٩٥١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٧٥/٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام، رقم (٣١٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإنَّهم سَيَجِدُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ لَهُمْ عَلَى بَالٍ ﴿۱﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿۲﴾ أَيُّ فِي الدُّنْيَا ﴿۳﴾ فِي خَوْضٍ ﴿۴﴾ أَيُّ: فِي كَلَامٍ بَاطِلٍ ﴿۵﴾ يَلْعَبُونَ ﴿۶﴾ أَيُّ: لَا يَقُولُونَ الْجِدَّ وَلَا يَعْمَلُونَ بِالْجِدِّ، وَإِنَّمَا أَعْمَاهُمْ كُلُّهَا لِعِبِّ وَهَوٍّ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَعْمَارَهُمْ لَيْسَ فِيهَا بَرَكَةٌ، تَمُرُّ بِهِمُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ لَا يَسْتَفِيدُونَ شَيْئًا.



## الآيتان (١٣، ١٤)

••❦••

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۖ ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣-١٤].

••❦••

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ هذه مُتعلِّقة بها سَبَقَ أَيْضًا، وَيُدْعَوْنَ بِمَعْنَى يُدْفَعُونَ بِعَنْفٍ وَشِدَّةٍ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا؛ لِأَنَّهُم وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تُمَثِّلُ لَهُمُ النَّارُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، أَيْ كَأَنَّهَا حَوْضُ نَهْرٍ، وَهَمَّ عَلَىٰ أَشَدِّ مَا يَكُونُونَ مِنَ الْعَطَشِ، فَيَذْهَبُونَ إِلَيْهَا سِرَاعًا، يُرِيدُونَ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْهَا حَتَّىٰ يَزُولَ عَنْهُمْ الْعَطَشُ، فَإِذَا بَلَغُوهَا وَإِذَا هِيَ النَّارُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَكَأَنَّهُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ يَتَوَقَّفُونَ لَهَا لِئَلَّا يَتَسَاقَطُوا فِيهَا، فَيُدْعَوْنَ إِلَيْهَا دَعَا، أَيْ يُدْفَعُونَ بِعَنْفٍ وَشِدَّةٍ فَيَتَسَاقَطُونَ فِيهَا أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَقُولُونَ: لَا بَعَثَ وَلَا جَزَاءَ، وَلَا عُقُوبَةَ وَلَا نَارَ، وَإِنَّا هِيَ أَرْحَامُ تَدْفَعُ وَأَرْضُ تَبْلَعُ وَلَا بَعَثَ، فَيُقَالُ لَهُمْ تَوَيْخًا عَلَىٰ هَذَا الْإِنْكَارِ: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فَمَا أَشَدَّ حَسْرَتَهُمْ إِذَا وَبَّخُوا عَلَىٰ أَمْرٍ كَانَ فِي إِمْكَانِهِمْ أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْهُ، وَلَكِنَّهُمْ الْآنَ لَا يَسْتَطِيعُونَ لِذَلِكَ سَبِيلًا، يَقُولُونَ إِذَا وَقَفُوا عَلَى النَّارِ: ﴿يَلَيْلَيْنَا نُرْدُ وَلَا تُكَذِّبُ بِحَايَتِ رَبِّنَا وَكُنُومِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، أَيْ: حَتَّىٰ لَوْ رُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا عَادُوا وَكَذَّبُوا، فَلَنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لَكِنْ يَقُولُونَ هَذَا تَمَنِّيًّا.

الآية (١٥)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

• • ❁ • •

﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني أفهَذَا الَّذِي تَرَوْنَ اليومِ سِحْرٌ كما كنتم تقولون ذلك في الدنيا؟ حيث يقولون: إِنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الرَّسُلُ سِحْرٌ، وَيَصِفُونَ الرَّسُولَ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ، فيُقَالُ: أَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ، يعني لَا تُبْصِرُونَ بعَيْنِ البصيرة، بل أَنْتُمْ عَمِيَ عَنِ الْحَقِّ وَالْعِيَاذِ بِاللَّهِ ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: احترقوا بها، والأمر هنا للإِهَانَةِ، كقوله سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ٤٩ ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٩-٥٠]، فانظرُ إلى هؤلاء كيف تتهكَّم بهم الملائكة وتُذَلِّمهم وتُخْزِيهم والعياذ بالله وتُهينهم.

• • ❁ • •



الآية (١٦)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

• • ❁ • •

﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أَنَّ الصَّبْرَ وعدمه سواء عليكم، ومعنى هذا أَنَّهُ لَنْ يُفَرِّجَ عَنْكُمْ، سواء صَبَرْتُمْ أَمْ لَمْ تَصْبِرُوا، مع أَنَّهُ فِي الدُّنْيَا إِذَا أُصِيبَ الْإِنْسَانُ بِشَيْءٍ وَصَبَرَ فَإِنَّهُ يُفَرِّجُ عَنْهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّمَا تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني مَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا عَمِلْتُمْ فَلَمْ تُظْلَمُوا شَيْئًا.

• • ❁ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٠٧/١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

## الآيات (١٧-٢٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٨﴾ فَكَيْهِنَ يَمَآءَ أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور: ١٧-٢٠].

• • • • •

ثم ذكر الله تعالى جزاء المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ﴾ هذه الجملة خبرية مؤكدة بأن، والتوكيد أسلوب من أساليب اللغة العربية، مُستعمل عند العرب، وهذا القرآن نزل بلغة العرب، وإلا ففي الواقع أن خبر الله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى توكيد؛ لأنه أصدق القول، فالربُّ عزَّجَلَّ إذا أخبرَ بخبر فإنه لا يحتاج إلى أن يؤكد؛ لأنَّ خبر الله صِدْق، لكن لما كان القرآن العظيم نزل بلسان عربي صار جاريًا على ما كان يعرفه العرب في لغتهم، فهنا أكد الله سبحانه وتعالى هذه الجملة: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ﴾ والمتقون هم الذين قاموا بطاعة الله امتثالاً لأمره واجتناباً لنهيهِ، هذه هي التقوى.

فالتقوى طاعة الله في امتثال أمره واجتناب نهيه، فالذي يصلي امتثالاً لأمر الله نقول: هو مُتَّقٍ، والذي يدع الزنا نقول: هو مُتَّقٍ بترك الزنا، وإنما سُمِّيَ ذلك تقوى؛ لأنه وقاية من عذاب الله، فإنَّ الإنسان إذا قام بطاعة الله فقد اتخذ وقاية من عذاب الله سبحانه وتعالى، هؤلاء المتقون يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ﴾، وجنات جمع

جَنَّةٌ، وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُتَّقِينَ فِي الْآخِرَةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ فِي الدُّنْيَا؟ نَقُولُ: أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ الْجَنَّةُ فَهَذَا لَا يُمَكِّنُ فِي الدُّنْيَا، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لَكَوْنِ الْإِنْسَانِ يَأْتِيهِ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ مَا يَأْتِيهِ، فَهَذَا يُمَكِّنُ، وَذَلِكَ فِي الْقَبْرِ إِذَا سُئِلَ الْإِنْسَانُ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ، فَأَجَابَ الصَّوَابَ، فَإِنَّهُ يُفَرِّشُ لَهُ فِرَاشٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيُفَسِّحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ الْبَصَرِ<sup>(١)</sup>.

وَجُمِعَتِ الْجَنَّاتُ فِي الْآيَةِ؛ لِأَنَّهَا أَنْوَاعٌ، ذَكَرَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، هَذِهِ الْجَنَّتَانِ الْأَرْبَعُ تَخْتَلِفُ بِمَا جَاءَ فِي وَصْفِهَا فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أَيِ نَعِيمِ الْبَدَنِ، وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، فَهَمُ فِي سُرُورٍ دَائِمٍ، وَهُمْ فِي صَحَّةٍ دَائِمَةٍ، وَهُمْ فِي حَيَاةٍ دَائِمَةٍ، فَجَمِيعُ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ كَامِلَةٌ لَهُمْ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ ﴿فَنَكِيهِنَّ يَمَاءً أَنَّهُنَّ رُبُّمُ﴾، الْفَاكِهُ هُوَ الْمُسْرُورُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَفْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَفْقَلَبُوا فَكِيهِنَّ﴾ [المطففين: ٣١]، أَيِ: مَسْرُورِينَ ﴿يَمَاءً أَنَّهُنَّ رُبُّمُ﴾ أَيِ: بِمَا أَعْطَاهُمْ رَبُّهُمْ مِنَ النَّعِيمِ، ﴿وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فَحَصَلُوا عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ الشُّرُورِ بِوَقَايَةِ الْجَحِيمِ، وَعَلَى تَمَامِ السُّرُورِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٨٧)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ السَّنَةِ، بَابُ فِي الْمَسْأَلَةِ فِي الْقَبْرِ وَعَذَابُ الْقَبْرِ، رَقْمُ (٤٧٥٣)، مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فِعْلٌ أَمْرٌ، وهذا الأمر ليس تكليفاً وإنما الأمر هنا للتكريم، أي يُقَالُ لهم: كُلُوا مِنْ كُلِّ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ النَّعِيمِ ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، وفيها مِنْ كُلِّ النَّعِيمِ، ﴿وَاشْرَبُوا﴾ مِمَّا فِيهَا مِنَ الْأَنْهَارِ، وَأَنْهَارُ الْجَنَّةِ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَرْبَعَةَ فِي سُورَةِ الْقِتَالِ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

هذه أربعة أنهار: من ماء غير آسن، أي: غير مُتَغَيَّرٍ، والمياه في الدنيا إذا لم يأتها ما يمددها وبقيت رابدة لا بُدَّ أَنْ تَتَغَيَّرَ فَتَكُونُ آسِنَةً، وماء الجنة لا يتغير، غير آسن، وأنهار من لَبَنٍ لم يتغير طعمه، واللَّبَنُ في الدنيا إذا بقي يتغير ويفسد، لكن في الآخرة لا يتغير، وأنهار من خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وخمر الدنيا فيه رائحة كريهة ثمَّ إِنَّهُ يَقْلِبُ الْعَاقِلُ إِلَى مَجْنُونٍ، وفيه أيضاً الصُّدَاعُ، وفيه فساد المَعْدَةِ، لكنَّه في الجنة أنهار من خمر لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وقد قال الله تعالى في سُورَةِ الصَّافَّاتِ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، والرَّابِعُ ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾.

﴿هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الهنيء هو الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ سَيِّئَةٍ، وَلَا تَبِيعَةٌ مِنْ تَجَاوُزٍ، أو إسراف ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، (فالباء) هنا لِلتَّبِيعَةِ، وليست الباء لِلْعَوَضِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب نهى تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فجعل الله تعالى ذلك بسبب العمل، والرَّسُول ﷺ يقول: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» مع أَنَّ الله يقول: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟

والجواب على هذا الإشكال أن يُقَالَ: الباء تأتي للسببية، وتأتي للبدلية، فإذا قيل: دَخَلَ الرَّجُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، فالمعنى السَّببية، وإذا قال: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ، فالمعنى البدلية، وَأَضْرِبْ مَثَلًا يُبَيِّنُ هَذَا: بِعَتِكَ الثَّوبَ بِدَرَاهِمَ، فالباء للبدلية؛ لِأَنَّ الدَّرَاهِمَ صَارَ عَوَضًا عَنِ الثَّوبِ، وإذا قلت: أَدَبْتُ الْوَلَدَ بِعَبْثِهِ، هذه للسببية.

إذن: كُلُّنَا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَوْ حَاسَبْنَا عَلَى عَمَلِنَا مَا قَابَلَ عَمَلِنَا نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ، نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ. فَالنَّفْسُ الْآنَ الَّذِي هُوَ مِنْ ضَرُورَةِ الْحَيَاةِ يُخْرِجُ مِنْكَ وَيَدْخُلُ بِدُونِ تَعَبٍ، وَبِدُونِ مَشَقَّةٍ، وَكَمْ يَتَنَفَّسُ الْإِنْسَانُ فِي الدَّقِيقَةِ؟! فلو أَنَا حُوسِبْنَا عَلَى أَعْمَالِنَا بِالْمَعَاوِضَةِ وَالْمُبَادَلَةِ لَكَانَتْ نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ تَسْتَوْعِبُ جَمِيعَ الْعَمَلِ، وَنَحْنُ الْآنَ لَا نُحِسُّ بِنِعْمَةِ النَّفْسِ لَكِنْ لَوْ أَصِيبَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالنَّفْسِ لَوْجَدَ أَنَّ النَّفْسَ مِنْ أَكْبَرِ نِعَمِ اللَّهِ، لِذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لِلْسَّبَبِيَّةِ وَلَيْسَتْ لِلْبَدَلِيَّةِ.

وَفِي قَوْلِهِ عَزَّجَلَّ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ شُمُولٌ لِكُلِّ الْعَمَلِ: الْجَوَارِحِ، وَالْقُلُوبِ، وَاللِّسَانِ. فَالْجَوَارِحُ: كَالْأَفْعَالِ، كَالرُّكُوعِ، وَالسُّجُودِ. وَالْأَقْوَالُ: كَالْأَذْكَارِ. وَالْقُلُوبُ: كَالْخَوْفِ، وَالرَّجَاءِ، وَالتَّوَكُّلِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَكُلُّ هَذِهِ تُسَمَّى أَعْمَالِنَا.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ﴾: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ حَالٌ، أَيْ: حَالُ كَوْنِهِمْ مُتَّكِئِينَ، وَالتَّكْيُّ تَدُلُّ هَيْئَتُهُ عَلَى أَنَّهُ فِي سُرُورٍ وَانْشِرَاحٍ وَطُمَأْنِينَةٍ؛ لِأَنَّ الْإِتِّكَاءَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، وَالسُّرُرُ جَمْعُ سَرِيرٍ، وَهِيَ الْكَرَاسِيُّ الْفَخْمَةُ الْمُهَيَّئَةُ أَحْسَنَ تَهْيئةٍ لِلْجَالِسِ عَلَيْهَا.

﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ أي مَصْفُوفٌ بعضها إلى بعض، يصفُّها الخدم والولدان.

﴿وَزَوَّجْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾، أي: قرَّناهم بِحُورٍ عِينٍ، والحُور جمع حوراء، والعِين جمع عِيناء، والأصل الحُور هو البياض، وأمَّا العِيناء فهي التي كانت جميلة العين في سوادها وبياضها، فهنَّ حَسَنُ الوجوه، حَسَنُ الأعين.



## الآيات (٢١-٢٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ءَلَقْنَا بَيْنَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهْمُ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْنَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْشَرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢١-٢٤].

• • • • •

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ءَلَقْنَا بَيْنَ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: الذين آمنوا واتبعتهم الذرية بالإيمان، والذرية التي يكون إيمانها تبعاً هي الذرية الصغار، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ءَلَقْنَا بَيْنَ ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: جعلنا ذريتهم تلحقهم في درجاتهم، وأمّا الكبار الذين تزوجوا فهم مستقلون بأنفسهم في درجاتهم في الجنة، لا يلحقون بأبائهم؛ لأنّ لهم ذرية فهم في مقرهم، أمّا الذرية الصغار التابعون لأبائهم فإنهم يرقون إلى آبائهم، وهذه الترقية لا تستلزم النقص من ثواب ودرجات الآباء؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: نقصناهم، يعني أنّ ذريتهم تلحق بهم، ولا يقال: أخصم من درجات الآباء بقدر ما رفعت من درجات الذرية.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ هذه قاعدة عامّة في جميع العاملين أن كلّ واحد رهين بعمله لا ينقص منه شيء، أمّا الزيادة فهي فضل من الله سبحانه وتعالى على من شاء من عباده.

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أمدهم الله تعالى، أي: أعطاهم عطاء مستمرًا إلى الأمد وإلى الأبد بفاكهة وهي ما يتفككه به من المأكولات.

﴿وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: مما يشتهونه ويستلذونه، وقد بين الله سبحانه وتعالى نوع هذا اللحم بأنه لحم طير، وهو أشهى ما يكون من اللحم وأبراه وأمرأه.

﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: أن أهل الجنة يُنازع بعضهم بعضًا على سبيل المداعبة، وعلى سبيل الأتس والانشراح ﴿كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ والمراد بها كأس الخمر، ومعنى ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ أنه لا يحصل بها ما يحصل من خمر الدنيا، فإن خمر الدنيا يحصل بها السكر والهذيان، ولكن خمر الآخرة ليس فيها لغو ولا تأتيم، أي: لا يلغو بعضهم على بعض، ولا يتكلمون بالهذيان، ولا يعتدي بعضهم على بعض.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يتردد على أهل الجنة وهم على سرورهم متكئين ﴿غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي: غلمان مهيئون لهم في الخدمة التامة المريحة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أي: الغلمان ﴿لَوْلُؤُكُمْ﴾ أي: محفوظ عن الرياح وعن الغبار وعن غير ذلك مما يفسده.





## الآيات (٢٥-٢٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْبَأَ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

• • • • •

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي صار بعضهم يُسائل بعضًا، لكنه على وجه الأدب يتكلّم معه وهو مُقابل له لوجهه فلا يُصعّر خدّه له ولا يستدبره، بل يتكلّم معه بأدب ومُقابلة تامّة ﴿قَالُوا﴾ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُتَشَفِّعِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله ﴿فَمَنْبَأَ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي: أنعم علينا بنعمة عظيمة، ﴿وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ﴾ أي: عذاب النار.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل أن نصل إلى هذا المقرّ، وذلك في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبّده ونسأله؛ لأنّ الدُّعاء يطلق على معنيين: على العبادة، وعلى السؤال، فمن إطلاقه على العبادة قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وأمّا الدُّعاء بمعنى السؤال ففي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

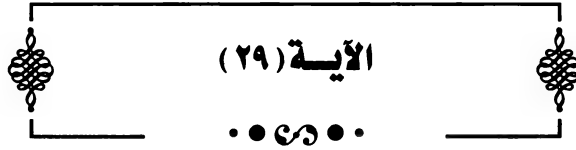
[البقرة: ١٨٦].

فَقُولْهُمْ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يشمل دعاء العبادة كالصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، وبرّ الوالدين وصلة الأرحام، كُلُّ هذا دعاء، وإن كان هو عبادة، فلو سألت الدّاعي لماذا تعبّد الله، ولو سألت العابد لماذا تعبّد الله؟ لقال: أرجو رحمته وأخاف عذابه، فتكون هذه العبادة بمعنى الدّعاء، كذلك ندعوه دعاء مسألة، لا يسألون غير الله ولا يلجؤون إلّا إلى الله؛ لأنّهم يعلمون أنّهم مُفتقرون إليه، وأنّه هو القادر على كلّ شيء.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾: ﴿الْبَرُّ﴾ بمعنى الواسع الإحسان والرّحمة، ومن ذلك البرّيّة للمكان الخالي من الأبنية، فالمعنى أنّه جَلَّوَعْلَا واسع الإحسان والعطاء والجود، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي ذو الرّحمة البالغة، يرحم بها من يشاء من عباده تَبَارَكَوَتَعَالَى، وفي هذه الآيات بيان نعيم أهل الجنّة، وفيها أيضًا أنّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لما ذكّر عذاب أهل النّار ذكر نعيم أهل الجنّة؛ لأنّ هذا القرآن الكريم مثاني تُشَنِّي فيه المعاني، إذا ذكّر فيه الخير ذكّر فيه الشّرّ، وإذا ذكّر فيه نعيم المتّقين ذكّر فيه جحيم الكافرين، وهكذا حتّى يكون قارئ القرآن بين الخوف والرّجاء، إن قرأ آيات النّعيم رجاء، وإن قرأ آيات العذاب خاف، فيعبّد الله تَبَارَكَوَتَعَالَى بهذا وهذا.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الجنّات النّاجين من الدّرَكَات، إنّهُ على كلّ شيء قديرٌ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾

[الطور: ٢٩].

•••••

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والمذكر محذوف، والتقدير: ذكر الناس، أو إن شئت فقل: ذكر من أرسلت إليهم من الجن والإنس، ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ هذا نفي لما ادَّعاه المكذبون للرَّسول ﷺ بأنه كاهن أو مجنون، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي بإنعام ربك عليك بما أنزل عليك، من الوحي لست ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، والكاهن هو الذي يُخبر عن الغيبات في المستقبل، وكانت الكهانة في الجاهلية مشهورة، يكون للإنسان رأي من الجن يصحبه ويخدمه، ثم يصعد الجنِّي إلى السماء يستمع ما يُقال في السماء، وينزل به على هذا الكاهن، فيكون هذا علم غيب عن أهل الأرض، لكن الكاهن يزيد عليه أشياء كثيرة يتخرَّصها، فإذا وقع ما سمعه من السماء صار عظيمًا في قومه؛ لأنه أخبر عن شيء مُستقبل فوقع، فالنبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما جاء بالوحي ردَّه المشركون وكذبوه، وقالوا: إنما جاء به مُحَمَّدٌ من الكهانة؛ لأنَّ الكُهَّان يُخبرون عن الشيء فيقع، ولأنَّ الكُهَّان أيضًا يأتون بكلام مَسْجُوع يُشبه القرآن، والقرآن آيات مُفصلة، أتى بها النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ولهذا قال النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في كلام حمل بن النَّبَغة الذي قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كيف

أُغْرِمَ مِنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَ، فَمَثَلَ ذَلِكَ يُطْلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا هُوَ مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ»<sup>(١)</sup> مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ الَّذِي سَجَعَ، فَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَاهِنٌ، فَنفى الله ذلك، ثُمَّ قالوا: إِنَّهُ مجنونٌ يأتي بما لا يعرف، فكَذَّبَهُمُ اللَّهُ فَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ هذه الجملة منفية مؤكدة بالباء، الباء الزائدة إعراباً، المفيدة معنى، وأصلها (فما أنت بنعمة ربك كاهناً ولا مجنوناً) لكن زيدت الباء تأكيداً للنفي.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب الكهانة، رقم (٥٧٥٨)، ومسلم: كتاب القسامة، باب دية الجنين ووجوب الدية في قتل الخطأ، رقم (١٦٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآيتان (٣٠، ٣١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرَّيْصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ ٣٠ ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠-٣١].

•••••

ثم قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يعني بل أيقولون، و(أم) هذه تُسمَّى عند المعربين مُنْقَطِعَةً، يعني لا عاطفة؛ لأنَّ (أم) تأتي عاطفة وتأتي مُنْقَطِعَةً، فهنا مُنْقَطِعَةٌ، والتقدير (بل أيقولون شاعر؟) والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار عليهم، والشاعر هو الذي يأتي بكلام مُقَفَّى ويتضمَّن شعره أحياناً حُكْماً؛ ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»<sup>(١)</sup> «وإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٌ»<sup>(٢)</sup> فيقولون: مُحَمَّدٌ شاعر ﴿نَّبَرَّيْصُ بِهِ﴾ أي ننتظر به ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي: حوادث الدهر وقوارعه، فيهلك كما هلك الشعراء من قبله، ولا يكون له أثر، فانظر والعياذُ بالله كيف يترقبون موت الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولون: هذا شاعر من جنس الشعراء يهلك وينتهي أمره. وقوله: ﴿رَيْبَ الْمَنُونِ﴾، قيل: إِنَّ المنون هو الدهر، وقيل: إِنَّ المنون هو الموت، وهما مُتلازمان، والمراد بذلك حوادث الدهر المُهلِكة المُبيدة.

﴿قُلْ﴾ في جوابهم ﴿تَرَبَّصُوا﴾ والأمر هنا للتهديد والتَّحْدِي أيضاً، ترَبَّصُوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، رقم

(٦١٤٥)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بهذا الشاعر ريب المنون، وانظروا هل يموت وتموت دَعُوهُ، أو أنكم أنتم تموتون وتموت مُعَارَضَتِكُمْ.

﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ يعني فأنا مُتَنَظِّرٌ أيضًا، انتظروا أنتم، وأنا أنتظر لمن تكون العاقبة، وصارت العاقبة والحمد لله للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



## الآيات (٣٢-٣٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٢﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ بِهِذًا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٢-٣٤].

• • • • •

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ ﴾ أم هنا نقول: إنها مُنْقَطِعَةٌ، وأم المُنْقَطِعَةُ تُقَدَّرُ بِبَلْ، والتقدير: بل تأمرهم؟ وهذا انتقال من الأول إلى الثاني ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ بِهِذًا ﴾ فيقولون: إنه مجنون إنه كاهن، إنه شاعر، هل عقولهم تأمرهم بهذا؟ الجواب: ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴾ أي بل لا تأمرهم عقولهم بهذا، وكثير منهم يعلم أن محمداً رسول الله ﷺ حق، لكن غلبتهم الكبرياء والعياذ بالله فأنكروا وكذبوا ولهذا قال: ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴾ أي: بل هم قوم طاعون معتدون ظالمون، وأصل الطغيان مجاوزة الحد، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أي: ازداد وارتفع عن عادته ﴿ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ ﴾: ﴿ أَمْ ﴾ هنا مُنْقَطِعَةٌ بمعنى بَلْ والهمزة، والمعنى بل أيقولون نقوله أي: اختلقه وكذب به، وهذا قسم منهم، قالوا: محمد عليه الصلاة والسلام يقول هذا القرآن واختلقه من عنده، وبعضهم يقولون: إنما يعلمه بشر ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني بل هم لا يؤمنون، ولو آمنوا لعلموا أن القرآن لا يمكن أن يتقوله بشر؛ لأن كلام الله سبحانه وتعالى لا يشبهه أي كلام، ثم تحداهم فقال: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ يعني إذا كنت أنت تقولته فأنت مثلهم بشر تتكلم كما يتكلمون،

وتخطب كما يخطبون، وتقول كما يقولون، فإذا كنت مُتَقَوِّلاً له وهو من عندك فليأتوا بحديث مثله؛ لأنَّ البشر يُمكن أن يأتي بكلام يُشبه كلام البشر الآخر، فإذا كان مُحَمَّدٌ ﷺ يَقُولُهُ فَهَاتُوا مثله ﴿فَلْيَأْتُوا﴾، اللَّامُ هُنَا لِلأَمْرِ، والمقصود به التَّحْدِي والتَّعْجِيز.

﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وهذا غاية التَّحْدِي، فعجزوا وما استطاعوا أن يأتوا بحديث مثله، مع أنَّهم أُمراءُ البلاغة، وسلاطين الفصاحة، لكن عجزوا، فدلَّ عجزهم على أنَّ القرآن ليس من كلام البشر، بل هو من كلام الله عَزَّجَلَّ ولهذا قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ومع قوَّة المعارضة وقوَّة البلاغة والفصاحة عجزوا أن يأتوا بحديث مثله فما استطاعوا، فدلَّ ذلك على أنَّ مُحَمَّدًا رسول الله ﷺ لم يَقُولْهُ، ولن يَسْتَطِيعَ أن يأتي بمثله، وفي قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ كلمة (حديث) نكرة، والنكرة تدلُّ على الإطلاق، لكن جاء في آية أخرى أنَّ الله قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وجاء في آية أخرى الإخبار بأنَّه لن يَسْتَطِيعَ أحد أن يُعارض القرآن، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فتبيِّن بطلان قولهم: إِنَّهُ يَقُولُهُ؛ لأنَّ الله تَحَدَّاهُمْ أن يأتوا بمثله، إن كانوا صادقين في دعواهم أَنَّكَ يَقُولُهُ فليأتوا بحديث مثله ولكنهم عجزوا.





## الآية (٣٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].

• • • • •

ثم قال الله تعالى مُسْتَدِلًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ عَلَى أُلُوهِيَّتِهِ قَالَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴾: ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بَلْ، والهمزة (بَلْ أَخْلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) أي: من غير خالق، أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ، والجواب: لَا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا هُمْ الْخَالِقُونَ، أَمَّا كونهم لم يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ؛ فَلأنَّ القاعدة العقلية الحسية التي أجمع عليها العقلاء أَنَّ كُلَّ مُحَدِّثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ، فإذا كان كُلُّ مُحَدِّثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ، فإذا نظرنا في أنفسنا فنحن حادثون قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ [الإنسان: ١]، فالواحد منا الَّذِي لَهُ عِشْرُونَ سَنَةً، هُوَ قَبْلَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً لَيْسَ شَيْئًا مَذْكُورًا، وَلَا يُعْرِفُ وَلَا يُدْرَى عَنْهُ، إِذَنْ نَحْنُ حَادِثُونَ، وَكُلُّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحَدِّثٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ خُلِقْتُمْ بِغَيْرِ مُحَدِّثٍ؟

الجواب: لَا، وهذا جواب عقلي لَا يُنْكِرُ، أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ لأنفسهم؟ الجواب: لَا؛ لِأَنَّهُمْ قَبْلَ أَنْ يَوْجَدُوا عَدَمَ، وَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِلْعَدَمِ أَنْ يَخْلُقَ؟ لَا يُمَكِّنُ هَذَا، فإذا تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا أَنْفُسَهُمْ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ خَالِقٌ قَادِرٌ عَلَى إِيجَادِهِمْ وَهُوَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الَّذِي خَلَقَنِي أَبِي أَوْ أُمِّي، فإذا لم يَكُنْ كَذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ خَالِقٌ وَهُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،

وإذا كان لهم خالق وهم مخلوقون مربوبون مُدَبَّرُونَ، فالواجب أن يخضعوا لهذا الخالق، وأن يعبدوه وحده، كما أنه هو الخالق وحده.

وهذه الآية سمعها جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ وكان قد قَدِمَ إلى المدينة وهو مُشْرِكٌ، على النَّبِيِّ ﷺ في طَلَبِ الْفِدَاءِ لِأَسْرَى بَدْرٍ، وغزوة بَدْرٍ انتصر فيها النَّبِيُّ ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والحمدُ لله وقتلوا من قُرَيْشٍ سبعين رجلاً، وأسروا سبعين رجلاً، وجاءوا بهم إلى المدينة، وانقسموا إلى أقسام، منهم مَنْ أطلقه النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَنْ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَدَاهُ بِمَالٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَدَاهُ بِأَسِيرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَدَاهُ بِتَعْلِيمِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْكِتَابَةِ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ أَتَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَطْلُبُ فِدَاءَ أَسْرَى بَدْرٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ صَمِيمِ قُرَيْشٍ، وَالْأَسْرَى أَيْضًا مِنْ قُرَيْشٍ، وَيُظْهَرُ لِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ جُبَيْرًا سَمِعَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»<sup>(١)</sup>.

وذلك أَنَّ مُطْعِمَ بْنَ عَدِيٍّ لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الطَّائِفِ أَجَارَهُ، وَصَارَ يَمْشِي مَعَهُ مِنْ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَأَمَرَ أَبْنَاءَهُ وَهُمْ مُتَقَلِّدُو السُّيُوفِ أَنْ يَقِفَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْكَعْبَةِ حَتَّى لَا يَعْتَدِيَ عَلَى الرَّسُولِ أَحَدٌ، وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: طُفْ. وَاحْتَبَا بِحِمَائِلِ سَيُوفِهِمْ فِي الْمَطَافِ فَأَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى مُطْعِمٍ، فَقَالَ: أَتُجِيرُ أَمْ تَابِعُ؟ قَالَ: لَا بَلْ تُجِيرُ. قَالَ: إِذْنٌ لَا تُخْفَرُ. فَجَلَسَ مَعَهُ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ طَوَافَهُ، فَلَمَّا انْصَرَفَ انْصَرَفُوا مَعَهُ. فَهُوَ أَحْسَنَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ أَوْفَى النَّاسِ ﷺ

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب ما من النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس، رقم (٣١٣٩)، من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَكَرَمَهُ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَنِ» أي: الأسرى، ووصفهم بأنهم نَتْنٌ، لأنَّ المُشْرِكِينَ نَجَسَ، والنَّتْنُ هو الرَّائِحَةُ الكَرِيهَةُ «فِي هَؤُلَاءِ النَّتَنِ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» وَجَبَّيرُ ابْنِهِ فَلَعَلَّهُ وَاللَّهِ أَعْلَمُ سَمِعَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ فَجَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَطْلُبُ فِدَاءَ الْأَسْرَى، وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِسُورَةِ الطُّورِ وَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ قَالَ جُبَيْرٌ: «كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ»<sup>(١)</sup> لِأَنَّ هَذِهِ حُجَّةً مُلْزِمَةً لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا أَحَدٌ، قَالَ: «وَوَقَرَ الْإِيْمَانُ فِي قَلْبِي» يَعْنِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ دَخَلَ الْإِيْمَانُ فِي قَلْبِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ.

فَانْظُرْ تَأْثِيرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَا دَعَاهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، لَكِنْ سَمِعَ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَجَبِيَّةَ الْعَظِيمَةَ، فَكَادَ قَلْبُهُ يَطِيرُ.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾

وَالْجَوَابُ بِكُلِّ سُهولة: لَا، فِي الْأَمْرَيْنِ، لَا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، وَلَا هُمْ الْخَالِقُونَ، بَلْ لَهُمْ خَالِقٌ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا أَحَدٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُنْكِرَ هَاتَيْنِ الْمَقْدَمَتَيْنِ كُلِّهَا حُجَّةً قَطْعِيَّةً تَدْمِغُ كُلَّ كَافِرٍ، يَعْنِي إِذَا قَالَ: نَعَمْ لِي خَالِقٌ خَلَقَنِي، قُلْنَا: إِذَنْ لِمَاذَا لَا تَعْبُدُهُ؟ لِأَنَّكَ عَبْدٌ لَهُ مَمْلُوكٌ لَهُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة الطور، رقم (٤٨٥٤).

الآية (٣٦)

••❁••

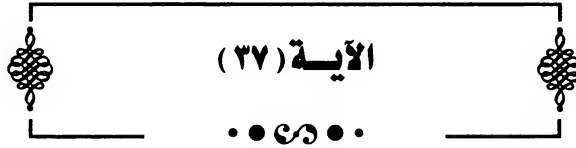
❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦].

••❁••

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ انتقل من الأدنى إلى الأعلى، خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، فانتقل من الأدنى إلى الأعلى ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والجواب: لا؛ لأنَّ أم هنا مثل سابقاتها، بل أخلقوا السموات والأرض، والجواب: لا، وهم يُقرُّون بهذا ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ولكن مع ذلك لا يعترفون بالرسالة؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾، يعني ليس عندهم إيقان في خلق السموات والأرض أنَّ الذي خلقهم هو الله؛ لأنَّه لو كان عندهم يقين لحملهم هذا اليقين على تصديق النبي ﷺ والإقرار برسالته.

وهذه الإلزامات العظيمة التي ألزم الله تعالى بها قريشا كل هذا من أجل إقامة الحجَّة عليهم، ولو شاء عَزَّوَجَلَّ لعاقبهم بدون أن تكون هذه المُجادلة وهذه المناقشة.

••❁••



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُهَيِّطُونَ ﴾ [الطور: ٣٧].

• • ❁ • •

﴿ أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُهَيِّطُونَ ﴾: ﴿ أَمْ ﴾ هُنا بمعنى بل والهمزة، يعني بل أَعندهم خَزَائِنُ الله، يعني خَزَائِنُ رِزْقِ الله عَزَّوَجَلَّ حَتَّى يَمْنَعُوا مَنْ شَاؤُوا، وَيُعْطُوا مَنْ شَاؤُوا، والجواب: ليس عندهم ذلك، ولا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنْ هَذَا، بل الَّذِي يَمْلِكُ الرِّزْقَ عَطَاءً وَمَنْعًا هُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولما نفى أن يكون عندهم خَزَائِنُ الله، قال: ﴿ أَمْ هُمْ الْمُهَيِّطُونَ ﴾ يعني بل أَهْمُ الَّذِينَ لَهُمُ السَّيْطَرَةُ وَالْغَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْكَلِمَةُ؟

والجواب: لا، فإذا لم يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا صَارُوا مَرْبُوبِينَ، وصاروا أَذْلَاءَ أَمَامَ قُوَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

• • ❁ • •

## الآية (٣٨)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَمْ سَلِّمْ سَلَّمَ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾

[الطور: ٣٨].

• • ❁ • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ سَلِّمْ سَلَّمَ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يَعْنِي بَلْ أَهْمُ سَلَّمَ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ، وَالسَّلَامُ هُوَ الْمَصْعَدُ وَالْمَرْقَى، وَالْمَعْنَى: هَلْ هُمْ سَلَّمَ يَصْعَدُونَ فِيهِ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمِعُونَ مَا يُقَالُ فِي السَّمَاءِ؟

وَالْجَوَابُ: لَا، فَإِنْ ادَّعَوْا ذَلِكَ ﴿فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أَي: بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ ظَاهِرَةٍ عَلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ مَا يُقَالُ فِي السَّمَاءِ، وَالْجَوَابُ: لَنْ يَجِدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، اللَّهُمَّ إِلَّا الْكَهَنَةَ الَّذِينَ هُمْ رِئِي مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُ إِلَى مَا يُقَالُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يَكْذِبُ مِثْلَ كَذْبَةِ عَلَى مَا سَمِعَ، فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَهَا مِنَ السَّمَاءِ.

• • ❁ • •

## الآية (٣٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٩].

• • • • •

ثمَّ قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴾ وهذا أيضًا بمعنى بل، والاستفهام للتوبيخ والإنكار، يعني أَيْكُونُ لله البنات وهم البنون؛ لأنَّهم ادَّعوا أنَّ جُنْدَ الله تعالى بنات، وأنَّ لهم البنين، ومعلوم أنَّ من له البنون غالب على من له البنات؛ لأنَّ جُنْدَه رجال ذكور، أقوى وأحزم وأقدم من النساء، وقد جعلوا الملائكة الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا، كما قال الله تعالى عنهم ذلك قال: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّ شُهَدَاتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩]، يعني لم يشهدوا خلقهم حتَّى يقولوا: إنَّهم بنات.

﴿ سَتَكُنَّ شُهَدَاتُهُمْ ﴾ أي شَهِادَتُهُمْ هذه الَّتِي هِيَ زُورٌ وَكَذِبٌ، ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾، فهؤلاء المُكَذِّبُونَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ قُرَيْشٍ قالوا: لهم الْبَنُونَ والله البنات، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾، وَالَّذِينَ يَشْتَهُونَ هُمُ الذُّكُورُ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا بُشِّرَ بِالْأُنْثَى ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: مَمْلُوء غَيْظًا وَغَمًّا ﴿ يَنْزَوِي مِنَ الْقَوْمِ ﴾ يَخْتَبِئُ مِنَ الْقَوْمِ ﴿ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ ثُمَّ يَتَرَدَّدُ ﴿ أَيْمِسْكُهُ عَلَى هُونٍ ﴾ أي: على ذُلٍّ وَهَوَانٍ ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ يَرْمِيهِ فِيهِ وَهَذِهِ الْمَوْدَةُ ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٧-٥٩].

(الآية ٤٠)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

• • ❁ • •

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ يعني بل أَسْأَلُهُمْ، والاستفهام هنا للنفي، وكل (أم) هُنا الاستفهام فيها للنفي والتوبيخ، يعني هل أنت يا مُحَمَّد حين دَعَوْتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ هل أنت تقول أعطوني أَجْرًا مُثْقَلًا كبيرًا لا يَسْتَطِيعونه حتَّى يَرُدُّوك، والجواب: لا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، فالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَقُلْ لأَيِّ واحد: أعطني أَجْرًا على دَعَوِي إِيَّاكَ، بل هو ﷺ يَبْذُلُ الْمَالَ لِيُؤَلِّفَ الْقُلُوبَ، كما أعطى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ شَيْئًا عَظِيمًا، وليس يَطْلُبُ مِنْ أَحَدٍ أَيَّ عَوَظٍ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الرِّسَالَةِ، وَاسْتَدَلَّ بِعَظْمِ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْخُذَ أَجْرًا عَلَى تَعْلِيمِ الْعِلْمِ بِمَعْنَى مُوَاجِرَةِ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ: لَا أَعْلَمُكَ إِلَّا بِكَذَا وَكَذَا، لَكِنْ هَذَا فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب الشرط في الرقية بفاتحة الكتاب، رقم (٥٧٣٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



الآية (٤١)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور: ٤١].

• • ❁ • •

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: ما غاب عن الناس فهم يحفظونه.

والجواب: لا، ليس عندهم علم الغيب، بل إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَفْسَهُ لا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنَ الْغَيْبِ، يَكُونُ الشَّيْءُ فِي دَارِهِ لَا يَعْلَمُهُ، حَتَّى إِنَّهُ دَخَلَ ذَاتَ يَوْمٍ وَالْبَرَمَةَ عَلَى النَّارِ تَغْلِي بِاللَّحْمِ، وَلَمْ يَعْلَمْ مَا هُوَ، وَحَتَّى إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ مَعَهُ فَاَنْخَسَ مِنْهُ وَلَمْ يَعْلَمْ لِأَيِّ شَيْءٍ ذَهَبَ.

فالحاصل: أَنَّ الرَّسُولَ نَفْسَهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَمَنْ دُونَهُ مِنْ بَابٍ أَوَّلِيٍّ، وَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعْلِنَ بِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وَهَذَا يَقُولُ تَعَالَى لَهُؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، وَالْجَوَابُ: لا.

• • ❁ • •

### الآية (٤٢)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

• • ❦ • •

ثم قال: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ يعني يريد هؤلاء أن يكيدوا لك يا محمد بإبطال دعوتك، وإهلاكك وإماتتك، الجواب: نعم، ولكن كيدهم ليس بشيء بالنسبة إلى كيد الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقد كادوا له أعظم كيد، فإنهم اجتمعوا ماذا يصنعون بمحمد لما رأوا دعوته تنتشر، وأنه لا قبل لهم بردها، اجتمعوا يتشاورون، وذكروا ثلاثة آراء: الحبس، والقتل والإخراج، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾، قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ واستقر رأيهم على القتل، لكن من يستطيع أن يقتله؛ لأن بني هاشم سوف يطالبون بدمه؟ قالوا: يجتمع عشرة شبَّان من قبائل متفرقة من العرب، ويُعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، ويضربون محمداً ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل فتعجز بنو هاشم عن المطالبة بدمه، فعلوا ذلك، ولكنهم مَكروا ومكر الله ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فأنجاه الله منهم ثم أذن له أن يهاجر، فهاجر إلى المدينة.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾ الجملة هنا جملة اسمية مُعرِّف طرفاها مَفْصُولة بِضَمِيرِ الْفَصْلِ، ممَّا يَدُلُّ عَلَى التَّوْكِيدِ وَالْحَضَرِ يَعْنِي فَالْكَيْدُ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا، وَهُنَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ لم يقل: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَهُمْ الْمَكِيدُونَ، وهذا الأسلوب عند علماء البلاغة يُسَمَّى الإظهار في موضع الإضمار، ومعناه بَدَلْ أَنْ يُقَالَ: (فَهُمُ الْمَكِيدُونَ) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولهذا فائدة بل أكثر، إِذَا قَالَ (فَالَّذِينَ كَفَرُوا) معناه أَنَّ هَؤُلَاءِ كَفَّارٌ، ومعناه أَنَّ مَنْ كَانَ كَافِرًا فَهُوَ الْمَكِيدُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ، هَاتَانِ فَائِدَتَانِ مَعْنَوِيَّتَانِ، الْفَائِدَةُ الثَّلَاثَةُ: تَنْبِيهِ الْمُخَاطَبِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ رُبَّمَا يَغْفَلُ الْإِنْسَانُ، لَكِنْ إِذَا جَاءَ شَيْءٌ يُخْرِجُ الْكَلَامَ عَنِ النَّسَقِ انْتَبَهَ.



الآية (٤٣)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَمْ يَلَمْزْ إِلَّا اللَّهَ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

• • ❁ • •

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ يَلَمْزْ إِلَّا اللَّهَ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يَعْنِي بَلْ أَهْمُ إِلَهَ غَيْرُ اللَّهِ؟

والجواب حقيقة: لا. وادّعاء: نعم هُم آلهة غير الله يعبدونها: اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام المعروفة عند العرب؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فَنَزَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْسَهُ عَمَّا يُشْرِكُ بِهِ هَؤُلَاءِ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ بَاطِلَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ شَرِيكَ.

• • ❁ • •

## الآيات (٤٤-٤٦)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٤﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٥﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٦﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الطور: ٤٤-٤٦].

• • •

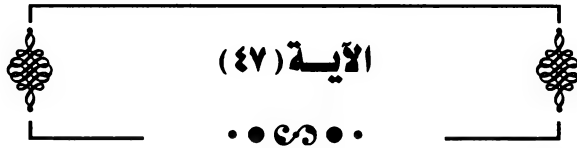
﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ الكِسْفُ معناه قِطْعُ العذاب، ﴿ يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ وهذا يدلُّ على أَنَّهُمْ يَرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَحِقِّينَ لِلْعَذَابِ، وَأَنَّ هَذَا الْكِسْفَ النَّازِلَ قِطْعُ الْعَذَابِ مَا هِيَ إِلَّا سُحُبٌ مُّتْرَاكِمَةٌ، وَهَذَا كَقَوْلِ عَادٍ حِينَ رَأَوْا الرِّيحَ مُقْبِلَةً عَلَيْهِمْ قَالُوا: ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الاحقاف: ٣٤]؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ وَالْعِيَاذَ بِاللَّهِ مُعَانِدُونَ يَرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَحِقِّينَ لِلْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَوْا الْعَذَابَ قَالُوا: هَذَا شَيْءٌ عَادِيٌّ، وَلَنْ نَّهَابَهُ وَلَنْ نَخَافَهُ.

قال الله تعالى: ﴿ فَذَرَهُمْ ﴾ اتركهم يتخوضوا بأقوالهم ويلعبوا بأفعالهم، ويلهوا في الدنيا ويروا أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ.

﴿ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ وهو يَوْمُ مَوْتِهِمْ، يَعْنِي اتْرُكْ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ مَا لَهُمْ إِلَى الْمَوْتِ وَإِنْ فَرُّوا، وَهُمْ إِذَا لَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ عَرَفُوا أَنَّهُمْ عَلَى بَاطِلٍ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْحَقِّ.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فإذا جاءهم الموت ما أغنى عنهم كَيْدُهُمْ شَيْئًا؛ لأنَّهم في قبضة الله، وقد انتهى استِعتابُهم، وليس أمامهم إلا العذاب.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[الطور: ٤٧].

• • ﴿ • •

﴿وَيَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ والمراد بهم الكفار، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾، يعني دُونَ عذاب الموت، وهو ما أُصِيبُوا بِهِ مِنَ الْجَذْبِ وَالْقَحْطِ وَالْخَوْفِ وَالْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، بل أَكْثَرُهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْ هَذَا، وَلَا يَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْعَذَابِ فِي شَيْءٍ.

• • ﴿ • •

## الآية (٤٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿

[الطور: ٤٨].

• • • • •

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴿ اصْبِرْ يَا مُحَمَّد، وَالصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴿ يَشْمَلُ الْحُكْمَ الْكَوْنِيَّ، وَالْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ، يَعْنِي اصْبِرْ لِمَا حَكَمَ بِهِ رَبُّكَ مِنْ وُجُوبِ إِبْلَاجِ الرِّسَالَةِ وَإِنْ أَصَابَكَ مَا يُصِيبُكَ، وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ الْقَدَرِيِّ الْكَوْنِيَّ، وَهُوَ مَا يُقَدِّرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّفْهَاءِ مِنَ السُّخْرِيَةِ وَالْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ.

ولقد أُوذِيَ النَّبِيُّ ﷺ كما أُوذِيَ إِخْوَانُهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، أُوذِيَ إِذْءَاءَ عَظِيمًا، وَضَعِ الْكُفَّارَ سَلَا الْجَزُورِ عَلَى ظَهْرِهِ وَهُوَ سَاجِدٌ تَحْتَ الْكَعْبَةِ، فِي أَمْنٍ مَكَانٍ<sup>(١)</sup>، وَضُرِبَ، وَرُمِيَ بِالْحِجَارَةِ حِينَ خَرَجَ إِلَى أَهْلِ الطَّائِفِ حَتَّى أَذْمَوْا عَقْبَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَفِقْ إِلَّا وَهُوَ فِي قَرْنِ الثَّعَالِبِ<sup>(٢)</sup>، وَيُلْقُونَ الْقَاذُورَاتِ وَالْأَتْنَانَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



على عتبة بابه ﷺ، ويقول: «أَيُّ جُؤَارٍ هَذَا»<sup>(١)</sup> وهذا من امتثال أمر الله؛ حيث قال الله له: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: فَإِنَّا نَرَاكَ بِأَعْيُنِنَا ونُراقِبُكَ ونُلاحِظُكَ، ونَعْتَنِي بِكَ، وهذا كما يقول القائل لمن أشفق عليه وأحبه: أنت في عيني، ومن المعلوم أن مثل هذا الأسلوب لا يعني أن مخاطبه حال في عينه، بل المعنى أنت مني على مرأى، وعلى رقابة، وعلى حماية.

وفي هذه الآية إثبات العين لله سبحانه وتعالى وهي حقيقة ولكنها لا تماثل أعين الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَسَيَعْبُدُكَ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي شيء، حين تقوم من مجلسك، أو حين تقوم من منامك، فهي عامة؛ ولهذا كان كفارة المجلس أن يقول الإنسان: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»<sup>(٢)</sup>، فينبغي للإنسان كلما قام من مجلس أن يختم مجلسه بهذا: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ».



(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وانظر سيرة ابن هشام (١/ ٤١٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٦٩)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه، رقم (٣٤٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (٤٩)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

• • ❦ • •

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني وسبِّح ربَّك من اللَّيْلِ لا كُلَّ اللَّيْلِ، و(من) هنا للتبعية.

ولهذا لما سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ بأقوام من أصحابه قال أحدهم: (أنا أقوم ولا أنام) قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُتَيْي فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>(١)</sup> ولذلك يُكره للإنسان أن يقوم اللَّيْلَ كُلَّهُ حتَّى لو كان فيه قوَّة ونشاط، فلا يقوم اللَّيْلَ كُلَّهُ إلَّا في العشر الأواخر من رَمَضَانَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يُحيي ليلها كُلَّهُ<sup>(٢)</sup>.

﴿وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ يعني وقت إدبارها، وهل المراد إدبار ضوئها بانتشار نور الشمس، أو إدبار ذواتها عند الغروب؟ فالجواب هذا وهذا، والمراد بذلك صلاة الفجر؛ لأنَّ صلاة الفجر بها تدبُّ النُّجوم، وصلاة الفجر وصلاة العصر هما أفضل الصَّلوات الخمس، قال النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح، رقم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضل ليلة القدر، باب العمل في العشر الأواخر من رمضان، رقم (٢٠٢٤)، ومسلم: كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان، رقم (١١٧٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لَيْلَةَ الْبَذْرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»<sup>(١)</sup> والمراد بالصلاة قبل طُلُوعِ الشَّمْسِ أي صلاة الفجر، وقبل غُرُوبِهَا صلاة العصر، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(٢)</sup> والبردان هما صلاة الفجر، وصلاة العصر، فصلاة الفجر بَرْدُ اللَّيْلِ، وصلاة العصر بَرْدُ النَّهَارِ.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾.

وبهذا انتهى الكلام بما يَسَّرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى سُورَةِ الطُّورِ.

نسأل الله تعالى أَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا، وَأَنْ يَهْدِيَنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَلَا يُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبْ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر، رقم (٥٧٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



## سورة النجم

### (الآيات ١-١٠)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿١﴾ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿٢﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٣﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٥﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٦﴾ ذُو مِرْقٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٧﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٨﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٩﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿١٠﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١-١٠].

• • •

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ تقدم الكلام عليها.

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ النجم اسم جنس يُرادُ به جميعُ النجوم، وقوله: ﴿ إِذَا هَوَىٰ ﴾ لها معنيان:

المعنى الأول: إذا غاب.

والمعنى الثاني: إذا سقطَ منه شهاب على الشياطين التي تسرق السَّمع وهو مُقسَم به.

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ هذا جواب القسم، أي المُقسَم عليه ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ أي: ما جهل، ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾ أي: ما عاند؛ لأنَّ مُحَالَفةَ الحقِّ إمَّا أن تكون عن جهل، وإمَّا أن تكون عن غيٍّ، قال الله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فإذا انتفى عن النبي ﷺ الجهل، وانتفى عنه الغي تبين

أَنَّ مِنْهَجَهُ ﷺ عِلْمٌ وَرُشْدٌ، عِلْمٌ ضِدُّ الْجَهْلِ وَهُوَ الضَّلَالُ، ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾  
وَرُشْدٌ ضِدُّ الْغَيِّ ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

إذن: النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كلامه حقٌّ وشريعته حقٌّ؛ لأنها عن عِلْمٍ وَرُشْدٍ،  
وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يُخَاطَبُ قُرَيْشًا، جاء بهذا الوصف لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ، وَيَعْرِفُونَ نَسَبَهُ، وَيَعْرِفُونَ صِدْقَهُ، وَيَعْرِفُونَ  
أَمَانَتَهُ، فَهُوَ لَيْسَ شَخْصًا غَرِيبًا عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا لَا نُؤْمِنُ بِهِ؛ لَأَنَّا لَا نَعْرِفُهُ، بَلْ هُوَ  
صَاحِبُهُمُ الَّذِي نَشَأُ فِيهِمْ، فَكَيْفَ بِالْأَمْسِ يَصِفُونَهُ بِالْأَمِينِ، وَالْآنَ يَصِفُونَهُ بِالْكَاذِبِ  
الْخَائِنِ.

الثانية: أَنَّهُ إِذَا كَانَ صَاحِبُهُمْ فَإِنَّ مُقْتَضَى الصُّحْبَةِ أَنْ يُصَدِّقُوهُ وَيَنْصُرُوهُ لَا أَنْ  
يَكُونُوا أَعْدَاءَ لَهُ، فَهُوَ لَمْ يَقُلْ (مَا ضَلَّ رَسُولُ اللَّهِ) أَوْ (مَا ضَلَّ مُحَمَّدٌ)، بَلْ قَالَ: ﴿مَا  
ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، فَالْفائدة مِنْ هَذَا هُوَ أَنَّ مُقْتَضَى الصُّحْبَةِ أَنْ يَكُونُوا عَارِفِينَ بِهِ،  
وَمُقْتَضَى الصُّحْبَةِ أَنْ يَكُونُوا مُنَاصِرِينَ لَهُ، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أَي: لَا يَتَكَلَّمُ  
بشَيْءٍ صَادِرٍ عَنِ الْهَوَىٰ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، فَمَا حَكَمَ بِشَيْءٍ مِنْ أَجْلِ الْهَوَىٰ،  
وَلَكِنَّهُ يَنْطِقُ بِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنَ السُّنَّةِ، وَمَا اجْتَهِدَ بِهِ ﷺ  
اجْتِهَادًا يُرِيدُ بِهِ الْمَصْلَحَةَ، فَنُطْقُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

الأول: أَنْ يَنْطِقَ بِالْقُرْآنِ.

الثاني: أَنْ يَنْطِقَ بِالسُّنَّةِ الْمُوحَاةِ إِلَيْهِ الَّتِي أَقَرَّهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِهِ.

الثالث: أَنْ يَنْطِقَ بِاجْتِهَادٍ لَا يُرِيدُ بِهِ إِلَّا الْمَصْلَحَةَ، أَمَّا نَحْنُ فَنَنْطِقُ عَمَّا نُرِيدُ بِهِ  
الْمَصْلَحَةَ، وَنَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، وَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ مَنَّا سَالِمًا مِنَ الْهَوَىٰ، يَمِيلُ مَعَ صَاحِبِهِ،

وَيَمِيلُ مَعَ قَرِيبِهِ، وَيَمِيلُ مَعَ الْغَنِيِّ، وَيَمِيلُ مَعَ الْفَقِيرِ، لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْ هَوَى، وَإِذَا كَانَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْطِقَ عَنْ هَوَى صَارَ لَا يَنْطِقُ إِلَّا بِحَقٍّ.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ يَعْنِي مَا الْقُرْآن ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾، أَي: وَحْيٌ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالْوَاسِطَةُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الرَّسُولِ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ يَعْنِي عِلْمَ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا الْوَحْيِ شَدِيدُ الْقُوَى، أَي: ذُو الْقُوَّةِ الشَّدِيدَةِ، فَهُوَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى مَوْصُوفِهَا، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠]، فَجِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُوِيٌّ شَدِيدُ أَمِينٌ كَرِيمٌ، لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يُفَرِّطَ بِهَذَا الْوَحْيِ الَّذِي نَقَلَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ الْمِرَّةُ: الْهَيْئَةُ الْحَسَنَةُ، فَهُوَ ذُو قُوَّةٍ، وَذُو جَمَالٍ وَحُسْنٍ، وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، لَهُ سِتُّ مِائَةٍ جَنَاحٍ <sup>(١)</sup> قَدْ سَدَّ الْأَفُقَ <sup>(٢)</sup>، فَهُوَ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنَ، حَتَّى أَلْقَاهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ أَي فَعَلًا، أَوْ فَكَمُلَ، لِأَنَّ الْإِسْتِوَاءَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَارَةٌ يُذَكَّرُ مَطْلَقًا دُونَ أَنْ يُقَيَّدَ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ الْكَمَالُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيذان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، رقم (١٧٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإيذان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَأَسْتَوَىٰ ۖ أَيْنَتْهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿[الفصل: ١٤]، أي: كَمُلَ، وتارة يُقَيَّدُ بِعَلَىٰ فيكون معناه العُلُو، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لِّتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿[الزخرف: ١٢-١٣] فقال: ﴿لِّتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾، وقال: ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: عَلَوْتُمْ عليه، ومنه قوله تعالى فيما وَصَفَ به نفسه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿[طه: ٥]، أي: عَلَا عليه عَزَّجَلَّ الْعُلُو الْخَاصَّ بِالْعَرْشِ، وهذا غيرُ الْعُلُو الْمُطْلَقِ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وتارة يَتَعَدَّى بِإِلَى، ويُقَالُ: استوى إلى كذا، فيُقَسَّرُ بِأَنَّهُ الْقَصْدُ وَالْإِنْتِهَاءُ، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴿[فصلت: ١١]، وتارة يُقَيَّدُ بِالْوَاوِ فيكون معناه التَّسَاوِي مِثْلَ قَوْلِهِمْ: استوى الماء والخشبة، أي سَاوَاهُ.

فقوله هنا: ﴿فَأَسْتَوَىٰ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَعْنَى اسْتَوَى عَلَى؛ لِأَنَّ جِبْرِيلَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَيُلْقِي الْوَحْيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ، وَيَحْتَمِلُ مَعْنَاهُ كَمُلَ، ويكون كَامِلُ الْقُوَّةِ وَالْهَيْئَةِ، وَكَامِلًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ مَّا يَلِيقُ بِالْمَخْلُوقَاتِ.

﴿وَهُوَ﴾، أي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ أي: الْأَرْفَعِ، وَهُوَ أَفْقُ السَّمَاءِ.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، ﴿فَنَدَّى﴾ أي: قُرْبَ مِنْ فَوْقَ.

﴿مَكَانَ﴾ أي: جِبْرِيلُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، وَهَذَا مِثْلُ يُضْرَبُ لِلْقُرْبِ، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ يَعْنِي قَرِيبًا جِدًّا، بَلْ أَدْنَى، فَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾ بِمَعْنَى بَلْ، أَيْ بَلْ هُوَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ.

﴿فَأَوْحَى﴾ أي: جِبْرِيلُ ﴿لَكَ عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ أي: إِلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَالضَّمِيرُ فِي (أَوْحَى) يَعُودُ عَلَى جِبْرِيلَ، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ يَعُودُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،



أي: أوحى جبريلُ إلى عبدِ الله ما أوحى، ولم يُبين ما أوحى به تعظيمًا له؛ لأنَّ الإبهام يأتي مُرادًا به التَّفخيم والتَّعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، أي: غَشِيَهُمْ شَيْءٌ عَظِيمٌ، وهُنَا أوحى إلى عبدِهِ ما أوحى أي من الشَّيء العظيم، ولا كلام أعظم من القرآن الكريم؛ لأنَّه كلام الله عزَّ وجلَّ.



### الآية (١١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قِصَّةِ الْمِعْرَاجِ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ اعْلَمْ أَيُّهَا الْأَخِ الْمُسْلِمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِسْرَاءَ وَمِعْرَاجًا، فَإِلْإِسْرَاءَ ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَالْمِعْرَاجَ ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ النَّجْمِ وَكِلَاهُمَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بِنَحْوِ ثَلَاثِ سِنِينَ، أَوْ سَنَةٍ وَنِصْفٍ، اخْتَلَفَ الْمُؤَرِّخُونَ فِي هَذَا، ثُمَّ إِنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَ يَبْدَنَ الرَّسُولَ ﷺ وَرُوحَهُ، وَلَيْسَ بِرُوحِهِ فَقَطْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّئْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فَالْمُرَادُ بِهَا رُؤْيَا الْعَيْنِ، لَا رُؤْيَا الْمَنَامِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ فِي الْمِعْرَاجِ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ الْفُؤَادُ الْقَلْبُ، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعَيْنُهُ فَإِنَّهُ رَأَاهُ بِقَلْبِهِ وَتَبَيَّنَّ وَعَلِمَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَيْنَ قَدْ تَرَى شَيْئًا فَيُكَذِّبُهَا الْقَلْبُ، وَقَدْ يَرَى الْقَلْبُ شَيْئًا فَتُكَذِّبُهُ الْعَيْنُ، فَمَثَلًا قَدْ يَرَى الْإِنْسَانُ شَبَحًا بَعَيْنُهُ فَيُظَنُّهُ فُلَانًا ابْنَ فُلَانٍ، وَلَكِنَّ الْقَلْبَ يَأْبَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ فُلَانًا ابْنَ فُلَانٍ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْمَكَانِ، فَهُنَا الْعَيْنُ رَأَتْ، وَالْقَلْبُ كَذَّبَ، أَوْ بِالْعَكْسِ، قَدْ يَتَخَيَّلُ الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ بِقَلْبِهِ وَلَكِنَّ الْعَيْنَ تُكَذِّبُهُ، أَمَّا مَا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ فَإِنَّهُ رَأَاهُ حَقًّا بِبَصَرِهِ وَبَصِيرَتِهِ؛ وَهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ بَلْ تَطَابَقَ الْقَلْبُ مَعَ رُؤْيَا الْعَيْنِ، فَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ كَاذِبًا فِيمَا

رآه من الآيات العظيمة في تلك اللَّيْلَةِ بل هو صادق، ولكنَّ المُشْرِكِينَ كَذَّبُوهُ، وقالوا:  
 كيف يُمَكِّنُ أن يَصِلَ إلى بيت المقدس ويعرُجَ إلى السَّماء في ليلة واحدة؟ ولهذا قال:  
 ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.



## الآيات (١٢-١٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٢﴾ أَفَتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٤﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٥﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٦﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ [النجم: ١٢-١٦].

• • • • •

الاستفهام هنا للإنكار والتعجب، ومعنى تمارونه أي: تُجادِلونه بقصد الغلبة، لهذا عداها بـ (على) دون (في)، فلم يقل: (أفتمازونه في ما يرى) بل قال: ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾، إشارة إلى أن الفعل ضَمَّن معنى المغالبة، أي أفتجادِلونه تريدون أن تغلبوه على ما يرى، أي: على شيء رآه، ولكنه عبَّر عن الماضي بالمضارع إشارة إلى استحضار هذا الشيء، وأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام حين أخبر به كأنها يراه الآن؛ لأنَّ الإنسان إذا حَدَّث عن ماضٍ قريباً يقول قائل: لعله نسي فأخطأ، ولكن إذا عبَّر بالمضارع صار كأنه يتحدَّث عن شيء هو يشاهده، فالمعنى على ما رأى من قبل، ولكن عبَّر عما رأى من قبل بالمضارع لحكمة بالغة، والحكمة البالغة؛ حيث تكون تعبيرات القرآن الكريم إذا عبَّر بخلاف ما يُتوقع فلا بُدَّ أن يكون هناك حكمة تظهر للمُتأمل.

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ رآه الفاعل محمد رسول الله ﷺ، والمفعول به جبريل، أي رأى محمد جبريل ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾، أي: مرَّة أخرى حين نزل، والمرَّة الأولى رأى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام جبريل وهو في غار حراء، رآه على خلقته التي كان عليها، رآه وله ستُّ مئة جناح قد سدَّ الأفق، كل الأفق الذي حول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام

في جِراءِ انسَدَّ من أَجْنِحَةِ هذا المَلَكِ الكَرِيمِ، وهذا يَدُلُّ على عَظَمَتِهِ؛ ولهذا وَصَفَهُ اللهُ بِأَنَّهُ ذو قُوَّةٍ عند ذِي العَرشِ مَكِينٍ، وبأنَّهُ ذو مِرَّةٍ أي هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ كما سَبَقَ في هذه السُّورَةِ، والمِرَّةُ الثَّانِيَةُ: في السَّمَاءِ فوق السَّمَاءِ، فتارة رآه من تَحْتِ السَّمَاءِ من فوقِ الأرضِ، وتارة من فوقِ السَّمَاءِ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ أي مِرَّةً أُخْرَى.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ أي: رآه عند السِّدْرَةِ، والسِّدْرَةُ شَجَرَةٌ مَعْرُوفَةٌ في الأرضِ، لكن السِّدْرَةَ الَّتِي في السَّمَاءِ السَّابِعَةِ لَيْسَتْ كَصِفَةِ السِّدْرَةِ الَّتِي في الدُّنْيَا، بل تُبْقِهَا كالْقِلَالِ، وأوراقها كَأَذَانِ الْفِيلَةِ<sup>(١)</sup>، فَهِيَ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَسُمِّيَتْ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى؛ لِأَنَّهُ يَنْتَهِي إِلَيْهَا كُلُّ صَاعِدٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَيَنْتَهِي إِلَيْهَا كُلُّ نَازِلٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّجَلَّ<sup>(٢)</sup>، فَهِيَ مُنْتَهَى مِنَ الطَّرْفَيْنِ: الطَّرْفِ الْأَوَّلِ: مَا يَصْعَدُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ، يَنْتَهِي عِنْدَ هَذِهِ السِّدْرَةِ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ الرَّبِّ عَزَّجَلَّ يَنْتَهِي عِنْدَ هَذِهِ السِّدْرَةِ.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾، أي: عِنْدَ هَذِهِ السِّدْرَةِ جَنَّةُ الْمَأْوَى.

إِذْنِ: الْجَنَّةِ فوق السَّمَاءِ السَّابِعَةِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَتِ السِّدْرَةُ فوق السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَكَانَتِ الْجَنَّةُ عِنْدَهَا لَزِمَ أَنْ تَكُونَ الْجَنَّةُ فوق السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَأَعْلَاهَا وَأَوْسَطُهَا الْفِرْدَوْسُ جَعَلَنَا اللهُ مِنْ أَهْلِهَا فَوْقَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، وَعِلِّيَّيْنِ مُبَالِغَةٌ مِنَ الْعُلُوِّ، يَعْنِي فِي أَعْلَى الشَّيْءِ، ﴿الْمَأْوَى﴾ يَعْنِي الْمَصِيرَ، مَاوَى مَنْ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، يَأْوُونَ إِلَيْهَا وَيُخَلِّدُونَ فِيهَا، وَأَمَّا النَّارُ فَهِيَ مَاوَى الْكَافِرِينَ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّ غَايَةَ الْخَلَائِقِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَلَا ثَالِثَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسرائاء برسول الله ﷺ (١٦٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرَةِ الْمُنْتَهَى، رقم (١٧٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لهما، فالجنُّ والإنس إِمَّا في النَّارِ وإِمَّا في الْجَنَّةِ، قال السَّفَارِينِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي عَقِيدَتِهِ:

وَكُلُّ إِنْسَانٍ وَكُلُّ جِنَّةٍ فِي دَارِ نَارٍ أَوْ نَعِيمٍ جَنَّةٍ

وَيُسْتَفَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الْمَأْوَى﴾ أَنَّ الْقُبُورَ لَيْسَتْ هِيَ الْمَأْوَى وَالْمَثْوَى؛ لِأَنَّ الْقُبُورَ مَمَرٌ وَمَعْبَرٌ، إِذْ إِنْ وَرَاءَ الْقُبُورِ بَعْثًا، وَيُذَكَّرُ أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ فِي الْبَادِيَةِ سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْهَنُكُمُ الْتَكَثُرُ﴾ ❶ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿التكاثر: ١-٢﴾، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ بِفِطْرَتِهِ وَعَرَبِيَّتِهِ: «وَاللَّهِ مَا الزَّائِرُ بِمُقِيمٍ، وَإِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ شَيْئًا؛ لِأَنَّ الزَّائِرَ يَزُورُ وَيَمْشِي، وَالْقُبُورَ يَمْكُثُ النَّاسُ فِيهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثُوا، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] فَالنَّاسُ لَا بُدَّ أَنْ يُبْعَثُوا، وَالْعِبَارَةُ الَّتِي نَسَمِعُهَا أَوْ نَقْرُوهَا أحيانًا أَنَّ الرَّجُلَ حَمَلُوهُ إِلَى مَثْوَاهِ الْآخِرِ، يَعْنِي إِلَى الْمَقْبَرَةِ عِبَارَةً غَيْرَ صَحِيحَةٍ؛ لِأَنَّ الْقُبُورَ لَيْسَتْ الْمَثْوَى الْآخِرَ، وَلَوْ كَانَ قَائِلُهَا يَعْتَقِدُ مَعْنَاهَا لَكَانَ لَا زِمَ ذَلِكَ أَنَّهُ يُنْكَرُ الْبَعْثُ.

﴿إِذْ يَفْشَى السِّدْرَةُ مَا يَفْشَى﴾ السِّدْرَةُ هِيَ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾، ﴿إِذْ يَفْشَى السِّدْرَةُ﴾ وَ(ال) فِي مِثْلِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ تُسَمَّى عِنْدَ النُّحَوِيِّينَ (ال) لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۖ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

﴿مَا يَفْشَى﴾ أَيْ هَمَّ اللَّهُ ذَلِكَ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، يَعْنِي غَشِيَهَا شَيْءٌ عَظِيمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِلَحْظَةٍ، كُنْ فَيَكُونُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّهُ غَشِيَهَا مِنَ الْحُسْنِ وَالْبَهَاءِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَهَا<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٤٠-٤٣).

## الآية (١٧)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧].

• • ❁ • •

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ البَصَرُ بَصَرَ النَّبِيِّ ﷺ، يقول العلماء: ﴿زَاغَ﴾ أي انْحَرَفَ يَمِينًا وَشِمَالًا.

﴿وَمَا طَغَى﴾ أي: تَجَاوَزَ أَمَامَهُ، فالرَّسُولُ ﷺ كان على كَمَالِ الأدب في هذا المَقَامِ العَظِيمِ، لم يَلْتَفِتْ يَمِينًا وَشِمَالًا، ولم يَتَقَدَّمْ بَصَرَهُ أَكْثَرَ مِمَّا أُذِنَ لَهُ فِيهِ، وهذا من كَمَالِ أدبِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَزَتْ الْعَادَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا غَرِيبًا تَجِدُهُ يَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا فِي هَذَا الْمَنْزِلِ، وَخُصُوصًا إِذَا تَغَيَّرَ تَغْيِيرًا عَظِيمًا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، لَا بُدَّ أَنْ يَنْظُرَ مَا الَّذِي حَدَثَ، لَكِنْ لِكَمَالِ أدبِ النَّبِيِّ ﷺ وَرِبَاطَةِ جَأَشِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَتَحَمُّلِهِ مَا لَا يَتَحَمَّلُهُ بَشَرٌ سِوَاهُ صَارَ فِي هَذَا الْأَدَبِ الْعَظِيمِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

• • ❁ • •

### الآية (١٨)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨].

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ وَأَنْتَ أَخِي الْمُسْلِمُ الْقَارِئُ لِلْقُرْآنِ يَمُرُّ بِكَ مِثْلَ هَذَا التَّعْبِيرِ دَائِمًا ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وَالْأَمْثَلَةُ كَثِيرَةٌ، هَذِهِ الْجُمْلَةُ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهَا مُؤَكَّدَةٌ بِأَنْوَاعٍ ثَلَاثَةٍ مِنَ الْمُؤَكَّدَاتِ: الْأَوَّلُ: قَسَمٌ مُقَدَّرٌ. وَالثَّانِي: اللَّامُ. وَالثَّالِثُ: قَدْ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: (وَاللَّهُ لَقَدْ) فَتَكُونُ جُمْلَةً مُؤَكَّدَةً بِالْقَسَمِ وَاللَّامِ، وَقَدْ، وَالْقَسَمُ مُقَدَّرٌ لَكِنْ دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَرَأَى يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ.

﴿مِنْ ءَايَتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ الْآيَةُ هِيَ الْعَلَامَةُ الْمُخَصَّصَةُ لِمَدْلُوهَا الَّتِي لَا يُشْرِكُ فِيهَا أَحَدٌ، وَإِلَّا لَمْ تَكُنْ آيَةً، فَالْآيَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ خَاصَّةً بِمَدْلُوهَا، فَلَيْسَ كُلُّ عِلَامَةٍ آيَةً، بَلْ هِيَ الَّتِي تَخْتَصُّ بِمَدْلُوهَا، فَهَذَا الَّذِي رَآهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ كَبِيرٌ عَظِيمٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿الْكُبْرَى﴾ قِيلَ: إِنَّهَا مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ (رَأَى)، أَيْ: لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، وَقِيلَ: إِنَّ الْكُبْرَى صِفَةُ لآيَاتٍ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ رَأَى مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُبْرَى، وَالثَّانِي أَصَحُّ وَأَقْرَبُ، يَعْنِي أَنَّهُ رَأَى مِنْ الْآيَاتِ الْكُبْرَى مَا رَأَى، وَلَيْسَ مَا رَآهُ أَكْبَرَ شَيْءٍ، بَلْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ شَيْءٌ أَكْبَرُ لَا نَعْلَمُهُ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَأَى فِي هَذَا الْمِعْرَاجِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُبْرَى مَا لَمْ يَكُنْ



يَرَاهُ مِنْ قَبْلُ، وَمَا لَا يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ، وَنَحْنُ لَوْ رَأَيْنَا سُرَادِقًا عَظِيمًا لَمَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ لَانْبَهَرْنَا وَتَعَجَّبْنَا، وَجَعَلْنَا نَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمَالًا، لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَتَغَيَّرْ عَقْلُهُ وَلَا أَتْزَانُهُ، بَلْ كَانَ عَلَى أَكْمَلِ مَا يَكُونُ الْإِتْزَانُ، وَإِلَّا فَقَدْ أُسْرِى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنَ الْحِجْرِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ - وَالْحِجْرِ مِنَ الْكَعْبَةِ - أُسْرِى بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ فِي لَحْظَةٍ؛ لِأَنَّهُ رَكِبَ الْبُرَاقَ، وَالْبُرَاقُ دَابَّةٌ عَظِيمَةٌ قَوِيَّةٌ سَرِيعَةٌ، خُطْوَتُهُ مَدَّةُ بَصَرِهِ، وَسَرِيعٌ جِدًّا وَصَلَ إِلَى هُنَاكَ وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَالسَّمَاءُ بَعِيدَةٌ جِدًّا، ثُمَّ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ وَتَتَلَقَّاهُ الْمَلَائِكَةُ تَسْأَلُ جِبْرِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ فيقول: مُحَمَّدٌ، فَيَسْأَلُونَهُ هَلْ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّاسِ؟ فيقول: نَعَمْ، ثُمَّ يُسَلِّمُ عَلَى بَعْضِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ مِنْ أَنْبِيَاءِ، ثُمَّ تُفَرِّضُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَيَتَرَدَّدُ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَمُوسَى كُلِّ هَذَا وَهُوَ ثَابِتُ الْجَأَشِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وهذا شيء حقيقي هو بنفسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَعْدَ؛ ولهذا لما جاء وحدث النَّاسُ مِنَ الْغَدِ أَنْكَرْتَهُ قَرِيشَ؛ لِأَنَّهَا تُنْكَرُ مَا لَا يُمَكِّنُ فِي عَقْلِهَا، وَإِنْكَارُ مَا لَا يُمَكِّنُ فِي الْعَقْلِ لَيْسَ خَاصًّا بِكُفَّارِ قَرِيشَ حَتَّى فَيَمَنَ يَتَسَبَّبُ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْكَرُوا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى زَعْمِهِمْ لَا يُمَكِّنُ فِي الْعَقْلِ، فَقَرِيشَ أَنْكَرَتْ هَذَا الْمِعْرَاجَ: وَلَوْ كَانَ مَنَامًا لَمْ تُنْكَرْهُ قَرِيشَ؛ لِأَنَّ الْمَنَامَاتَ يَكُونُ فِيهَا مِثْلُ هَذَا، لَكِنَّهُ أَمْرٌ حِسِّيٌّ حَقِيقِيٌّ أُسْرِىَ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِجَسَدِهِ وَعُرِجَ بِهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَحَصَلَتْ كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْأَرْضِ وَصَلَّى الْفَجْرَ فِي مَكَّةَ ﷺ.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مِنْهَا الْكَبِيرُ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَلَا نَقُولُ: مِنْهَا الصَّغِيرُ؛ لِأَنَّ الْكُبْرَى اسْمُ تَفْضِيلٍ، وَغُلَطَ مَنْ قَالَ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ: إِنَّ الْكُبْرَى اسْمُ فَاعِلٍ، بَلْ هِيَ اسْمُ تَفْضِيلٍ؛ لِأَنَّ

آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِمَّا كَبِيرَةً، وَإِمَّا كُبْرَىٰ عُظْمَىٰ، فَالْمِعْرَاجُ الَّذِي حَصَلَ لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ الْآيَاتِ الْكُبْرَى الْعَظِيمَةِ.



## الآيات (١٩-٢٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿١٩﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّى ﴿٢٠﴾ وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿٢١﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢٢﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿٢٣﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

• • • • •

ولمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا رَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْعَظِيمَةِ فِي الْآفَاقِ، قَالَ: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّى ﴾ وهذا الاستفهام للتَّحْقِيرِ وَانْحِطَاطِ رُتْبَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْنِي أَخْبِرُونِي بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْكُبْرَى مَا سَمِعْتُمْ، أَخْبِرُونِي عَنْ شَأْنِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَمَا قِيمَتُهَا، وَمَا مَرْتَبَتُهَا، وَمَا عَزَّتْهَا؟

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنُوءَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ هذه ثلاثة أصنام مشهورة عند العرب يعبدونها من دُونِ اللَّهِ، وَيَخْضَعُونَ لَهَا كَمَا يَخْضَعُونَ لِلَّهِ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهَا كَمَا يَتَقَرَّبُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَعَ ذَلِكَ هُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُهُمْ عِنْدَ الشَّدَةِ، فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَا اللَّهَ مُحْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا مُنْجِيَّ مِنْ هَذِهِ الشَّدَةِ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَكِنَّ الشَّيْطَانَ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ فِي عِبَادَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَدَّعُونَ أَنَّهَا تَقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٢٣]، وَلَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ لَا تَقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ بَلْ تُبْعِدُهُمْ مِنْهُ.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ﴿٢٠﴾ الثَّالِثَةُ بِالنِّسْبَةِ لاثنتين قبلها ﴿الْآخَرَىٰ﴾ يعني المتأخرة وكأنتها والله أعلم دُون اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ في المرتبة عند العرب، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ.

﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ يعني أَنَجْعَلُونَ لَكُمْ الذُّكُورَ، وَلِلْإِنَاثِ، وَذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا خَلْقَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا أَمَلَكِيكَةً الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، وَالْجَوَابُ: لَا، لَمْ يَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ سَتَكْتَبُ هَذِهِ الشَّهَادَةَ عَلَيْهِمْ وَيُسْأَلُونَ، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، وَهُمْ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]، وَمَعَ ذَلِكَ يَجْعَلُونَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ الْبَنَاتِ، وَيَجْعَلُونَ لَأَنْفُسِهِم الْبَنِينَ، وَهَذِهِ الْقِسْمَةُ قِسْمَةٌ جَوْرٌ.

﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾، يَعْنِي تِلْكَ الْقِسْمَةُ، وَهِيَ أَنْ يُجْعَلَ لِلَّهِ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أَيُ: جَائِزَةٌ مَائِلَةٌ عَنِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّا لَوْ قُلْنَا بَأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَلَدٌ لَكَانَ الْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ الْبَنُونَ؛ لِأَنَّ الْبَنِينَ أَعْلَى مِنَ الْبَنَاتِ بِلَا شَكٍّ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَى مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْأَعْلَى لِلْأَعْلَى، وَالْأَدْنَى لِلْأَدْنَى، هَذِهِ الْقِسْمَةُ الْعَادِلَةُ، ثُمَّ هُنَاكَ قِسْمَةٌ أُخْرَى دُونَهَا فِي الْعَدْلِ، وَلَكِنْ فِيهَا عَدْلٌ أَنْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ الْبَنَاتَ وَلَهُمُ بَنَاتٌ، وَلِلْبَنِينَ، وَلَهُمُ بَنِينَ لَكِنْ مَا فَعَلُوا هَذَا، جَعَلُوا الْأَدْنَى لِلْخَالِقِ، وَالْأَعْلَى لَهُمْ.

وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ ثُمَّ عَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الْمَعْبُودَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا﴾: ﴿إِنْ﴾ هُنَا

نافية بمعنى (ما)، وهذا ضابطٌ يَنْتَفِعُ به طالب العلم أَنَّهُ إذا أتت (إلا) مُثبتة بعد (إن) فإنَّ (إن) هنا تكون نافية مثل: إن هذا إلا بشرٌ، إن هذا إلا مُجتهد، وما أشبه ذلك فـ(إن) هنا نافية بمعنى ما هي إلا أسماء سَمَّيْتُمُوهَا، يعني ما هذه الأصنام إلا مجرد أسماء لا حقيقة لها، سَمَّوْهَا إلهًا معبودًا، ولكنَّه لا حقيقة لذلك، ما هي إلا مُجَرَّد أسماء، والاسم لا يدلُّ على مُسمَّاه، فلو أَنَّكَ سَمَّيتَ الحديدَ خشبًا، ما صار خشبًا، ولو سَمَّيتَ الخشبَ حديدًا، ما صار حديدًا، ولو سَمَّيتَ البغلَ حمارًا، لم يكن حمارًا، وهكذا هذه الأصنام يُسَمُّونها آلهة، ولا تكون إلهًا، بل مُجَرَّد اسم، والاسم بلا مُسمَّى لا فائدة منه؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ هِيَ﴾، أي: ما هذه الأصنام والمُسَمَّيات ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، المُخَاطَبُونَ هم الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْبَعْثَةَ، ﴿وَآبَاؤُكُمْ﴾ يعني الأجداد السَّابِقِينَ، مُجَرَّد أسماء ﴿مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: ﴿مَّا﴾ نافية، والمعنى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يُنْزِلْ بِهَا دليلاً، وَسُمِّيَ الدَّلِيلُ سلطانًا؛ لأنَّ صاحبَ الدَّلِيلِ معه سُلْطَةٌ يعملو بها على خَصْمِهِ، وَمَنْ ليس له دليل ليس له سُلْطَانٌ، فالسُّلْطَانُ يأتي دائماً بمعنى الْحُجَّةِ أي الدَّلِيلِ؛ لأنَّ مَنْ معه الدَّلِيلُ ذو سُلْطَةٌ على خَصْمِهِ.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾: ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى (ما)، ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أي: هؤلاء وآبَاؤُهُمْ ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾، أي: الوَهْمُ الَّذِي لا حقيقة له؛ لِأَنَّهُمْ يقولون هذه آلهة، واعتمدوا في ذلك على الوَهْمِ، فالظَّنُّ هنا بمعنى الوَهْمِ، يعني ما يَتَّبِعُ هؤلاء بقولهم إِنَّهَا آلهةٌ إلا الظَّنَّ، أي الوَهْمُ الخيال الَّذِي لا حقيقة له، ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾، يعني وما تَمِيلُ إليه نُفُوسُهُمْ من الباطل، ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ الجملة هنا مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات: الْقَسَمُ المحذوف، وَاللَّامُ، وَقَدْ، وتقديره:

والله لقد جاءهم من ربهم الهدى، فيؤكد الله هنا أنه قد جاءهم من ربهم الهدى، وفي قوله: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل: من الله؛ إشارة إلى أنه لا يجوز تلقي الشريعة إلا من عند الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الربُّ، والربُّ هو الخالق المالك المدبِّر ﴿الْهُدَى﴾، فاعل والمُرَاد به العلم المُقابل بقوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فهم يتبعون الظنَّ، والعلم جاء من عند الله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي: العلم على لسان الرُّسل عليهم الصَّلَاة والسلام، الَّذِينَ خُتِمُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ.



## الآيتان (٢٤، ٢٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ [النجم: ٢٤-٢٥].

• • • • •

﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾: ﴿ أَمْ ﴾ هنا مُنْقَطِعَةٌ؛ لِأَنَّهَا تَأْتِي مُنْقَطِعَةً وَتَأْتِي مُتَّصِلَةً، فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ مُقَابِلٌ فَهِيَ مُتَّصِلَةٌ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُقَابِلٌ فَهِيَ مُنْقَطِعَةٌ، فَإِذَا قُلْتَ: أَعِنْدَكَ زَيْدٌ أَمْ عَمْرُو؟ فَهِيَ مُتَّصِلَةٌ، وَإِذَا قُلْتَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ فَهِيَ بِمَعْنَى بَلْ وَهَمَزَةٌ اسْتِفْهَامٌ، يَعْنِي بَلِ الْإِنْسَانُ مَا تَمَنَّى، وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلْإِنْكَارِ وَالتَّنْفِي، أَيْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى، كَمَا يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ لَا يَحْصُلُ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ مُدْبِرًا، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى رَدِّ صَنِيعِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنِينَ، وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ، وَهُمْ وَإِنْ تَمَنَّوْا ذَلِكَ وَصَارَ فِي مُحِيطَتِهِمْ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى، كَثِيرًا مَا يَتَمَنَّى الْإِنْسَانُ شَيْئًا وَلَكِنْ لَا يَحْصُلُ، كَثِيرًا مَا يَتَمَنَّى الشَّيْءَ وَيَسْعَى فِي أَسْبَابِهِ، وَلَكِنْ لَا يَحْصُلُ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ وَبَدَأَ بِالْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ مُلْكَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآخِرَةِ يَظْهَرُ أَكْثَرَ مِمَّا فِي الدُّنْيَا، فَالدُّنْيَا فِيهَا مُلُوكٌ، وَفِيهَا رُؤَسَاءٌ، وَفِيهَا زُعَمَاءٌ، يَرَى الْعَامَّةُ أَنَّ لَهُمْ تَدْبِيرًا، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَا يَوْجَدُ هَذَا ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

الآية (٢٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَرَّمَن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى ﴾ [النجم: ٢٦].

• • • • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَرَّمَن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرِضَى ﴾: (كم) تكثيرية؛ لأنها تأتي تكثيرية، وتأتي استفهامية، فإذا قلت: كم ملك؟ فهي استفهامية، وهنا ﴿ وَكَرَّمَن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي: كثير من الملائكة في السموات لا تُغْنِي شَفَاعَتَهُمْ وهنا نقول: كم من ملك وما أكرم الملائكة، كما قال الله تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ لا في الأرض، والسموات أعلى من الأرض، وإذا كان هؤلاء الملائكة الكرام الذين مقرهم السموات -إلا من أذن له ينزل الأرض- إذا كانت شفاعتهم لا تنفع، فهل يُمكن أن تنفع شفاعة اللات والعزى ومناة؟ الجواب: لا، كأنَّ الله تعالى يقول هؤلاء: ما أصنامكم هذه التي تشفعون بها إلى الله؟ كم من ملك وهو أشرف من هذه الأصنام في السموات وهي أشرف من الأرض، لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا لو شُفِعَ إلا بثلاثة شروط:

الأول: أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَشْفَعَ فَيُشَفَّعَ.

الثاني: أَنْ يَرْضَى عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ.



الثالث: يَرْضَى عن الشَّافِعِ؛ لَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْذَنَ لِلشَّافِعِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَرْضَى عن المشفوع له وإلا فلا تَنَفَّعَ الشَّافِعَةُ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فأصنامكم هذه لن تَنَفَّعَ ولن يَقْبَلَ الله شفاعتها، فشرط الشَّافِعَةُ ثلاثة:  
الأول: رِضا الله عن الشَّافِعِ بأن يكون أهلاً للشَّافِعَةُ لكونه من المُقَرَّبِينَ لله عَزَّوَجَلَّ.

الثاني: أَنْ يَرْضَى عن المشفوع له، بأن يكون أهلاً لَأَنْ يُشَفَّعَ له، أمَّا الكافر فما تَنَفَّعَهُمْ شفاعَةُ الشَّافِعِينَ.

الثالث: الإِذْنُ لقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ وهذا فيه تَبْيِيسٌ هؤلاء المُشْرِكِينَ من شَفَاعَةِ أَهْلِهِمْ.



## الآية (٢٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾

[النجم: ٢٧].

• • • • •

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ أكد الله هذا الخبر بمؤكدين هما القسم المُقَدَّر واللام، ومعنى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها ولا بها فيها من الثواب والعقاب، إذ إنَّ الإيمان بالآخرة لا بدُّ أن يكون إيماناً بأنَّ هذا اليوم سيكون، وإيماناً بكلِّ ما ثبت من حصوله ووقوعه فيه، إمَّا في القرآن وإمَّا في السنة، حتَّى إنَّ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ قال: إنَّ ممَّا يدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر، وصدق رَحِمَهُ اللهُ؛ لأنَّ الإنسان إذا مات قامت قيامته، وانتهى من الدنيا كأن لم يكن، فكما أنَّه أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فسيأتي عليه حينٌ من الدهر لم يكن إلا خبراً من الأخبار، كما قال الشاعر الحكيم:

فِي الدُّنْيَا بَيْنَ يَرَى الْإِنْسَانُ فِيهِ مُخْبِرًا      حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِنَ الْأَخْبَارِ

فأنت الآن تُخبر تقول: حصل كذا وحصل كذا، وقال فلان كذا وفي يوم من الأيام سوف يُخبر عنك، قال فلان كذا وأنت رَمِيم، فالإيمان باليوم الآخر يتضمَّن ثلاثة أمور:

الأول: الإيمان بوقوع اليوم الآخر أنه لا بُدَّ كائن.

الثاني: الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من: أهوال، وحساب، وموازن، وصراط، وجنة، ونار لا بُدَّ من هذا.

الثالث: من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما يكون في القبر من فتنة القبر، سؤال الملكين الميت عن ثلاثة أشياء: مَنْ رَبُّكَ؟ ما دينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هل أحد من الناس لا يؤمن بالآخرة؟

نعم كثير من الناس، أكثر الناس لا يؤمنون بالآخرة، حتَّى إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ فِي الْإِنْسَانِ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴿يُعْجِزُنَا فِيهِ﴾ ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ قَالَ مَنْ يُعْجِزَ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿ [يس: ٧٧-٧٨] ما أحسن قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ قبل أن يقول مَقَالَةَ هذا الإنسان، يعني هذا الإنسان قال: ﴿مَنْ يُعْجِزَ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾، ما هو خَلْقُهُ؟ إِنَّهُ لم يَكُنْ شَيْئًا، خُلِقَ من ماء دافِق، فصار عظامًا وعصبًا ولحمًا، وصار إِنْسَانًا يَنْطِقُ وَيُحَاصِمُ ﴿مَنْ يُعْجِزَ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ [يس: ٧٨-٧٩].

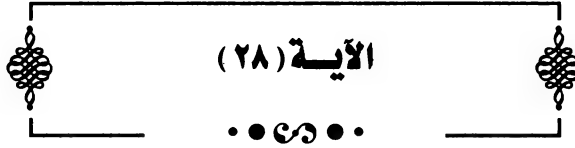
وذكر الأدلة على إمكان ذلك<sup>(١)</sup>، فمن الناس من يُنْكِرُ اليوم الآخر، ويقول: لا بَعْثَ، وهذا من سَفَهه في عقله وضلاله في دينه، وإلا فهل من الحكمة أن تُخْلَقَ هذه الخليقة وتُبتلى بالأمر والنهي، ويحصل الجهادُ وقتالُ الأعداء، واستحلال دمائهم وأموالهم ونسائهم ثمَّ يكون نتيجة هذا لا شيء، هذا لا يُمكن، وتأباه الحكمة.

إذن: الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، سَفَهَاءٌ عَقُولًا، ضَلَالٌ دِينًا.

(١) انظر تفصيل ذلك في تفسير فضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لسورة يس.

﴿لَيْسُنَا الْمَلَائِكَةُ قَسِيَّةَ الْآثَى﴾ يَعْنِي يَجْعَلُونَ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا كَالْمَشْرِكِينَ، قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، فَسَمَّوُا الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْآثَى، وَهِيَ الْبَنَتُ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَلَوْ آمَنُوا بِالْعِقَابِ مَا قَالُوا هَذَا، لَكِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُونَ مَا يُرِيدُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ نَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُمْ بِذَلِكَ عِلْمٌ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ: هَلْ شَهِدُوا خَلْقَ الْمَلَائِكَةِ؟ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾، وَالْجَوَابُ: لَا، لَكِنْ ﴿سَتُكْنَبُ شَهَدَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، حِينَ لَا يَجِدُونَ جَوَابًا فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ وَعِلْمٌ هُنَا مَجْرُورَةٌ بِحَرْفِ الْجَرِّ وَحَرْفِ الْجَرِّ هُنَا عِنْدَ الْمُعَرِّبِينَ: حَرْفُ جَرِّ زَائِدٌ، الْفَائِدَةُ مِنْهُ تَوْكِيدُ النَّفْيِ؛ وَلِهَذَا هُنَا قَاعِدَةٌ مَفِيدَةٌ: جَمِيعُ الْحُرُوفِ الزَّائِدَةِ يَقْصِدُ بِهَا التَّوْكِيدَ، وَهِيَ مِنْ أَدَوَاتِ التَّوْكِيدِ.





﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].﴾

•••••

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني لا قليل ولا كثير؛ لأنهم لم يشهدوا خلقهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾: ﴿إِنْ﴾ هنا بمعنى (ما)، والضابط أنه إذا جاءت (إِلَّا) بعد (إِنْ) فهي بمعنى ما، ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، أي: ما نحن إِلَّا بَشَرٌ مثلكم، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، أي: ما هذا إِلَّا مَلَكٌ كريم، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، أي: ما أنتم إِلَّا بَشَرٌ مثلنا: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي ما هم إِلَّا يَظُنُّونَ، والأمثلة على هذا كثيرة ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني ما يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، والمراد بالظَّنِّ هنا الوهم الكاذب، وليس المراد بالظَّنِّ هنا الرَّاجح من أحد الاحتمالين، وانتبه لهذا فالظَّنُّ يأتي بمعنى التُّهمة، ويأتي بمعنى رُجحان الشيء، ويأتي بمعنى اليقين.

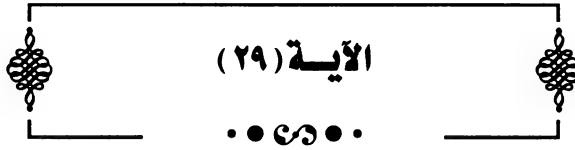
قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، والمراد: اليقين ولا يكفي الظَّنُّ في اليوم الآخر، بل لا بُدَّ من التَّيَقُّنِ، وقال النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّرْ الصَّوَابَ»<sup>(١)</sup> والتَّحَرِّيُّ هنا يعني هو الظَّنُّ الغالب.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢)، من حديث ابن مسعود.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ظَنُّ الاتِّهامِ يَعْنِي يَظُنُّونَ ظَنًّا، هُوَ وَهُمْ، لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ، وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْعَمَلُ بِالظَّنِّ فِي الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَسَائِلِ الْفَقْهِيَّةِ ظَنِّيَّةٌ: إِمَّا لِحِفَاءِ الدَّلِيلِ، أَوْ خِفَاءِ الدَّلَالَةِ: لَيْسَ كُلُّ مَسْأَلَةٍ فِي الْفَقْهِ يَقُولُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَلَى سَبِيلِ الْيَقِينِ أَبَدًا، بَلْ بَعْضُهَا يَقِينٌ وَبَعْضُهَا ظَنٌّْ، وَالظَّنُّ إِذَا تَعَذَّرَ الْيَقِينُ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ، وَمِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ أَنَّهُ إِذَا تَعَذَّرَ الْيَقِينُ رَجَعْنَا إِلَى غَلْبَةِ الظَّنِّ، فَلَيْسَ كُلُّ ظَنٍّْ مُنْكَرًا، لَكِنَّ الظَّنَّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ يُبْنَى عَلَيْهِ مُنْكَرٌ.

فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَمَّوُا الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى لَا عِلْمَ لَهُمْ بِذَلِكَ بَلْ هُوَ ظَنٌّْ مَبْنِيٌّ عَلَى وَهُمْ، وَرُبَّمَا يَكُونُ مَبْنِيًّا عَلَى أَهْوَاءٍ، يَعْنِي لَمْ يَطْرَأَ عَلَى بَالِهِمْ أَنَّهُمْ إِنَاثٌ، وَلَكِنْ تَبِعُوا آبَاءَهُمْ ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أَي: هَذَا الظَّنُّ الْمَبْنِيٌّ عَلَى الْوَهْمِ لَا عَلَى الْقَرَائِنِ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، أَي لَا يُفِيدُ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ وَهُمْ بَاطِلٌ، وَالْوَهْمُ الْبَاطِلُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُفِيدَ.





﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩].

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿ فَأَعْرِضْ ﴾ الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ، أَوِ الْمُرَادُ بِهِ كُلُّ مَنْ يَصِحُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَيْهِ الْخِطَابُ، فَعَلَى الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمَعْنَى: أَعْرِضْ يَا مُحَمَّدُ، وَعَلَى الثَّانِي يَكُونُ: أَعْرِضْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ ﴿ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ يَعْنِي أَعْرِضْ عَنْهُ لَا تَتَّبِعْهُ وَلَا يُهَمِّنْكَ أَمْرُهُ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى: أَعْرِضْ عَنْهُ لَا تَنْصَحْهُ؛ لِأَنَّ التَّذْكِيرَ وَاجِبٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] يَعْنِي ذَكِّرْ كُلَّ أَحَدٍ، فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَنْتَفِعُ، وَمِنْهُمْ لَا يَنْتَفِعُ، وَالَّذِي يَنْتَفِعُ هُوَ الْمُؤْمِنُ، فَعَلَى هَذَا نَقُولُ مَعْنَى أَعْرِضْ يَعْنِي لَا تُبَالِ بِهِ وَلَا يُهَمِّنْكَ أَمْرُهُ، وَلَا تَسْتَحْسِرْ مِنْ أَجْلِ تَوَلَّيْهِ، بَلِ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَيَّا كَانَ، لَكِنْ مَنْ أَعْرِضَ وَتَوَلَّى لَا يُهَمِّنْكَ أَمْرُهُ، ﴿ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ هُوَ الْقُرْآنُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الذِّكْرُ بِمَعْنَى التَّذْكِيرِ، أَيْ عَنْ تَذْكِيرِنَا، وَكِلَا الْمَعْنَيْنِ مُتَلَازِمَانِ صَحِيحَانِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ ذَكَرَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩]، أَوِ الْمَعْنَى ﴿ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أَيْ: عَنْ تَذْكِيرِنَا بِالْمَوَاطِظِ الَّتِي يُنْزِلُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ يَعْنِي لَا يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَلَا يَهْتَمُّ بِهَا، بَلِ هُمُّهُ الدُّنْيَا

ما المَرْكوب؟ وما الملبوس؟ وما المَسْكَن؟ فلا يَهْتَمُّ بِالْآخِرَةِ، وَأَهْمُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ الدُّنْيَا، أَمَّا ذِكْرُ اللَّهِ الْقُرْآنَ، أَوْ تَذْكِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مُتَوَلَّى عَنْهُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ، وَالْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَصَفَّهَا بِالدُّنْيَا مِنَ الدُّنْوِ وَهُوَ الْقُرْبُ، وَذَلِكَ لَانْحِطَاطِ مَرْتَبَتِهَا، وَلِسَبْقِهَا عَلَى الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الدَّارَ الدُّنْيَا هِيَ أَوَّلُ دَارٍ يَنْزِلُهَا الْإِنْسَانُ، وَهِيَ سَابِقَةٌ فِي الزَّمَنِ عَلَى الْآخِرَةِ، فَهِيَ دُنْيَا قَرِيبَةٌ، وَهِيَ أَيْضًا دُنْيَا مِنْ حَيْثُ الْمَرْتَبَةُ، لَيْسَتْ بِشَيْءٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْآخِرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا صَحَّ عَنْهُ: «لَمَوْضِعُ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»<sup>(١)</sup> فَلَيْسَتْ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا الَّتِي أَنْتَ فِيهَا فَقَطْ، بَلْ مِنَ الدُّنْيَا مُنْذُ أَنْ خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى أَنْ تَفْنَى، مَوْضِعُ السَّوْطِ الَّذِي يَكُونُ بِقَدْرِ الْمِثْرِ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

إِذَنْ: هِيَ دُنْيَا حَقِيقَةٌ؛ وَلِهَذَا إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ حُمِلَ مِنْ بَيْتِهِ الَّذِي يَسْكُنُهُ وَيَأْوِي إِلَيْهِ، وَفِيهِ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَحَشَمُهُ، إِذَا خَرَجَ تَقُولُ رُوحُهُ: قَدَّمُونِي قَدَّمُونِي؛ لِأَنَّ مَا سَتَذْهَبُ إِلَيْهِ خَيْرٌ مِمَّا تَخْرُجُ مِنْهُ، قَالَ اللَّهُ شُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۖ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] لَكِنْ لِمَنْ؟ ﴿لِمَنْ أُنْفَى ۖ لَكِنَّهَا شَرٌّ لِمَنْ لَمْ يَتَّقِ﴾.

وَيُذَكَّرُ أَنَّ ابْنَ حَجَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَانَ رَئِيسَ الْقَضَاءِ فِي مِصْرَ، مَرَّ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ فِي مَوْكِبِهِ عَلَى الْعَرَبَةِ تَجَرُّهَا الْبِغَالُ، وَحَوْلَهُ الْجُنُودُ، بِرَجُلٍ يَهُودِيٍّ زَيَّاتٍ يَبِيعُ الزَّيْتَ، قَدْ تَدَنَّسَتْ ثِيَابُهُ بِالزَّيْتِ، وَشَقِيَ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ فَأَوْقَفَهُ الْيَهُودِيُّ وَقَالَ لَابْنِ حَجَرَ: إِنَّ نَبِيَّكُمْ يَزْعُمُ أَنَّ الدُّنْيَا سَجَنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ! فَكَيْفَ يَتَّفَقُ هَذَا الْحَدِيثُ مَعَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الواقع، أنت الآن مؤمن وهو يهودي فأأيهما الشقي؟ قال: نعم ما أنا فيه الآن بالنسبة للآخرة سجن؛ لأن الآخرة خير لمن اتقى، وما أنت فيه بالنسبة للآخرة جنة؛ لأن الآخرة ليس لك فيها إلا النار وبئس القرار، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله<sup>(١)</sup>.

فانظر كيف فتح الله عليه حيث ظهر صدق كلام الرسول عليه الصلاة والسلام بكل سهولة، فالآخرة خير من الدنيا وما فيها؛ ولهذا دَمَّ الله تعالى الذي أعرَضَ عن ذكر الله.

﴿وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَنْ تَحْصُلَ لَهُ قِطْعًا، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي: ما يشاء الله، لا ما يشاء هو ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿[الإسراء: ١٨-١٩]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ لَأَنَّهُ يُعْطَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي بعضها وليس كُلُّهَا ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].



(١) ذكرها المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٦).

الآيتان (٣٠، ٣١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَلِكُمْ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿ ٣٠ ﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣٠-٣١].

• • • • •

﴿ ذَلِكُمْ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ والمُشار إليه كونهم مُتَوَلِّين مُعْرِضِينَ، لا يُريدون إلا الحياة الدنيا، يعني ذلك مُنتهى بُلُوغِ عِلْمِهِمْ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ قَاصِرٌ، لا يَنْظُرُونَ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، ولا يُصَدِّقُونَ بِخَبَرٍ، فتجد أكبر هَمِّهم أن يُصْلِحُوا حَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا مُعْرِضِينَ عَنْ حَالِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، وفي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا»<sup>(١)</sup>.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ هو أَعْلَمُ عَزَّوَجَلَّ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ فَعَلًّا، وَمَنْ سِيَّضَلُّ؛ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا كَانَ وَبِمَا يَكُونُ، فَقَوْلُهُ: ﴿ بِمَنْ ضَلَّ ﴾ لا تعني أَنَّهُ لا يَعْلَمُ إِلَّا مَنْ حَصَلَ مِنْهُ الضَّلَالُ بِالْفِعْلِ بَلْ هُوَ يَعْلَمُ مَنْ حَصَلَ مِنْهُ الضَّلَالُ بِالْفِعْلِ، وَمَنْ سِيَحْصُلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِالْعِلْمِ التَّامِّ فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْمَاضِي.

وقوله: ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ ضِدُّ الضَّلَالِ، فَالنَّاسُ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ: إِمَّا مُهْتَدٍ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٠٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإِذَا ضَلَّ، وَإِنَّمَا بَيَّنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَبِمَنْ اهْتَدَى،  
لفائدتين:

**الفائدة الأولى:** أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ مَا وَقَعَ مِنَ الضَّلَالِ والهداية فهو صادر عن عِلْمِ  
الله وبيارادته، إِذْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ فِي خَلْقِهِ خِلَافٌ مَعْلُومُهُ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنْ يُوجَدَ فِي  
خَلْقِهِ خِلَافٌ مَعْلُومُهُ لَكَانَ اللهُ جَاهِلًا، وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ.

**الفائدة الثانية:** التَّحْذِيرُ مِنَ الضَّلَالِ، وَالتَّرْغِيبُ فِي الْإِهْتِدَاءِ، مَا دَامَ الْإِنْسَانُ  
يَعْلَمُ أَنَّ أَيَّ عَمَلٍ صَدَرَ مِنْهُ فَعِلْمُهُ عِنْدَ اللهِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَحْشَى أَنْ يَعْصِيَ اللهُ، وَسَوْفَ  
يَسْعَى أَنْ يُرْضِيَ اللهُ عَزَّجَلَّ.

كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ ضَلَلْتُ فَاللهُ أَعْلَمُ بِكَ، وَإِنْ اهْتَدَيْتَ فَاللهُ أَعْلَمُ بِكَ، فَيَجْزِي  
الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ يَقُولُ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ: إِنَّهُ إِذَا تَقَدَّمَ شَيْءٌ  
حَقُّهُ التَّأْخِيرُ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى الْحَصْرِ وَالتَّخْصِصِ، فَلَنَنْظُرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هَلْ فِيهَا تَأْخِيرٌ  
وَتَقْدِيمٌ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: (الله) خَبَرٌ مُقَدَّمٌ (وما في السموات)  
مَبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ.

إِذَنْ: قُدِّمَ فِيهَا مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ وَهُوَ الْخَبَرُ؛ لِأَنَّ حَقَّ الْخَبَرِ أَنْ يَكُونَ مُتَأَخِّرًا عَنِ  
الْمَبْتَدَأِ. تَقُولُ: الرَّجُلُ قَائِمٌ وَلَا تَقُولُ: قَائِمُ الرَّجُلِ، فَالْأَصْلُ أَنَّ الْمَبْتَدَأَ -عَلَى اسْمِهِ-  
يَكُونُ هُوَ الْأَوَّلَ وَالْخَبَرُ هُوَ الثَّانِي، لَكِنْ أَحْيَانًا يُقَدَّمُ الْخَبَرُ لِفَائِدَةٍ.

فَهَذَا الْفَائِدَةُ: الْحَصْرُ يَعْنِي: اللهُ عَزَّجَلَّ لَا لغيره ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾  
وَلَا أَحَدٌ يَمْلِكُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَلَا مَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنَحْنُ نَمْلِكُ

ما نَمْلِكُ من أموالنا ولكن مُلْكنا ليس عامًّا، فمُلْكِي ليس مِلْكًا لك، ومُلْكُكَ ليس مِلْكًا لي، فأملأنا ليست عامَّة، ثمَّ نحن لا نملك التَّصَرُّفَ بها هو ملكنا كما نشاء، فتصرَّفنا محدود حسب الشَّريعة؛ ولهذا لو تراضى اثنان في بيع الرِّبَا قلنا: لا تَمْلِكَا ذلك، ولو أراد الإنسان أن يَحْرِقَ ماله قلنا: هذا ممنوع، فملك غير الله قاصر، وغير شامل، والمُلْكُ التَّامُّ الواسع الشَّامل لله عَزَّجَلَّ.

ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو مالِك لذواتهما، ومالِك لما فيهما أيضًا، وكم من مَلِك في السَّموات، وكم من مخلوق في الأرض كُلُّه مِلْك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَصَرَّفُ فيه كما يشاء حسب ما تقتضيه حكمته، وإيماننا بأنَّ لله مِلْك السَّموات والأرض يُفيد فائدتين عظيمتين:

**الفائدة الأولى:** الرِّضا بقضاء الله، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لو قَضَى عليك مرضًا فلا تَعْتَرِضْ، ولو قَضَى عليك فقرًا فلا تَعْتَرِضْ؛ لأنَّك مِلْكُه يتصرَّف فيك كما يشاء، فهو كما يتصرَّف في السَّحاب يُمِطُّرُ أو لا يُمِطُّرُ، يَمِضِي أو لا يَمِضِي، ويتصرَّف في الشَّمس والقمر، ويتصرَّف في المخلوقات، يتصرَّف فيك أيضًا كما يشاء، إن شاء أعطاك صِحَّةً، وإن شاء سَلَبَهَا، إن شاء أعطاك عقلاً، وإن شاء سَلَبَكَ، إن شاء أعطاك مالاً، وإن شاء سَلَبَكَ، أنت ملكه، فإذا آمَنت بهذا رَضِيتَ بقضائه.

**الفائدة الثانية:** الرِّضا بشرعه وقبول شرعه والقيام به؛ لأنَّك ملكه، إذا قال لك: افْعَلْ، فافْعَلْ، وإذا قال: لا تَفْعَلْ، فلا تَفْعَلْ، أَرَأَيْتَ لو كان لك عبد رقيق فأمرته، ولكنه لم يَفْعَلْ، أو نَهَيْتَهُ ففَعَلَ، فالسِّيادة ناقصة.

إذن: أنت إذا عَصَيْتَ رَبَّكَ: إما بفعل مُحَرَّم وإما بترك واجب، فإنَّك خرجتَ عن مُقتَضَى العبوديَّة التَّامَّة؛ لأنَّ مُقتَضَى العبوديَّة التَّامَّة أن تَخضع لشرعه، كما أنَّك

خاضع كُرهاً أو طائعاً لقضائه وقدره، فانتبه ليس معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أن يُخبرنا أنه مالك فقط، لكن لأجل أن نعتقد مقتضى هذا الملك، وهو الرضا بقضائه، والرضا بشرعه، هذه حقيقة الملك.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ جاءت كلمة ﴿لِيَجْزِيَ﴾ كأن قائلًا يقول: وإذا تبين أن الملك لله عزَّ وجلَّ فما النتيجة؟ النتيجة أن النَّاسَ بين مُحْسِنٍ وبين مُسِيءٍ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْتُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وإذا كانوا بين مُحْسِنٍ ومُسِيءٍ فما جزاء كلِّ واحد ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ الَّذِينَ أَسَاءُوا هم الَّذِينَ خَالَفُوا الْمَأْمُورَ أَوْ ارْتَكَبُوا الْمَحْظُورَ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَسَاءُوا لِيَجْزِيَهُمْ بِمَا عَمِلُوا، السَّيِّئَةُ بِالسَّيِّئَةِ لَا تَزِيدُ، أَوْ يَعْفُو عَزَّ وجلَّ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ، وهو كُلُّ مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ الشَّرِكِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَزِيدَ سَيِّئَةً لَمْ يَعْمَلْهَا الْإِنْسَانُ؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ بُدُونِ زِيَادَةٍ ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ولم يقل: بما عَمِلُوا؛ لِأَنَّ فَضْلَ اللَّهِ أَوْسَعَ مِنْ أَعْمَالِنَا، يَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى، فَأَنْتَ إِذَا فَعَلْتَ حَسَنَةً فَتَكُونُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَنَضْرِبُ مَثَلًا قَرِيبًا، الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ عِنْدَمَا تَتَوَضَّأُ وَتُسَبِّحُ الْوُضُوءَ ثُمَّ تَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ لَا تُخْرِجُكَ مِنْ بَيْتِكَ إِلَّا الصَّلَاةُ فَمَا الثَّمَرَاتُ الَّتِي تَحْصُلُ عَلَيْهَا؟

كُلُّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا يَرْفَعُ اللَّهُ لَكَ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحْطُ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً، فَخُطُوتُكَ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وجلَّ، مَعَ أَنَّ الْمَقْصُودَ شَيْءً وَاحِدًا وَهُوَ الصَّلَاةُ، لَكِنَّ سَعْيَكَ إِلَى الصَّلَاةِ فِيهِ أَجْرٌ مَا دُمْتَ خَرَجْتَ مِنْ بَيْتِكَ لَا تُخْرِجُكَ إِلَّا الصَّلَاةُ، وَتَأَهَّبْتَ فِي بَيْتِكَ، أَسْبَغْتَ الْوُضُوءَ فِي بَيْتِكَ، فَأَنْتَ لَا تَخْطُو خُطْوَةً إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ لَكَ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ

عنك بها خطيئة، والخطوات لا يُحصيها إلا الله، ثم إذا وصلت المسجد وصلت ما شاء الله، ثم انتظرت الصلاة ولو تأخر مجيء الإمام لصلاة الجماعة يُكتب لك أجر المصلي، «لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظَرِ الصَّلَاةَ»<sup>(١)</sup>، وهذا أحسن من أعمالنا ولهذا قال: ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ أي بما هو أحسن وأكثر من عملهم، وهذا يدُلُّك على سعة فضل الله سبحانه وتعالى وإحسانه وكمال عدله، فالمُسيئون يُجازيهم بالعدل أو يعفو، والمُحسنون يُجازيهم بالفضل.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٤٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، رقم (٦٤٩/٢٧٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (٣٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢].

• • • • •

ثم ذكر شيئاً من أوصافهم فقال: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ أي: يبتعدون عنه، وسُمي الابتعاد اجتناباً، لأنَّ الإنسان في جانب، والذي أبعد عنه في جانب آخر، فيبتعدون، ولا يتصلون بكبائر الإنم والفواحش إلا اللَّمَمَ.

﴿ كَبِيرَ الْإِنْمِ ﴾: ﴿ كَبِيرَ ﴾ جمع كبيرة، والكبيرة بعض العلماء عدّها، وبعض العلماء حدّها، والصّواب الحدّ، أي أنّها محدودة وليست معدودة، والذين ذكروا عدداً الظاهر والله أعلم أنّهم أرادوا المثال، فمثلاً إذا قال الإنسان: هي الشُّرك بالله، والسُّحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ، والتَّوَلَّى يوم الزّحف، وقذف المحصّنات المؤمنات، وأكل الرِّبَا، وأكل مال اليتيم، هذه سبع، إذا قال الإنسان هذه هي الكبائر ليس معنى قوله أنّها محصورة في هذا، إذ من الممكن أن يُحمَل كلامه أنّ ذلك على سبيل التّمثيل فقط، أمّا الذين حدّوها يعني جعلوا له ضابطاً، فقالوا في ضابطةا: (كُلُّ ذَنْبٍ رَتَّبَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَعْنَةً، أَوْ غَضَبًا، أَوْ سَخَطًا، أَوْ تَبَرُّاً مِنْهُ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَهُوَ كَبِيرَةٌ)، ورأيت لبعضهم ومنهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ ذَنْبٍ

جُعِلَتْ لَهُ عَقُوبَةٌ خَاصَّةٌ إِمَّا فِي الدُّنْيَا، أَوْ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ كَبِيرَةٌ<sup>(١)</sup>.

فالزنا كبيرة؛ لأن فيه عقوبة وهي الجلد أو الرجم، والسَّرقَة كبيرة، وقَطْع الطُّرُق كبيرة، وعُقُوق الوالدين كبيرة، وهَلُمَّ جَرًّا، فكلُّمَا رَأَيْتَ شَيْئًا مِنَ الذُّنُوبِ جَعَلَ الشَّارِعُ لَهُ عَقُوبَةٌ خَاصَّةٌ فَهُوَ كَبِيرَةٌ.

أَمَّا الذَّنْبُ الَّذِي نَهَى عَنْهُ فَقَطْ فَهُوَ صَغِيرَةٌ: كَنَظَرِ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ لِلشَّهْوَةِ، هَذَا لَيْسَ كَبِيرَةً هُوَ صَغِيرَةٌ مِنَ الصَّغَائِرِ، لَكِنْ إِنْ أَصَرَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَصَارَ هَذَا ذَنْدَنَهُ، صَارَ كَبِيرَةً بِالْإِصْرَارِ لَا بِالْفِعْلِ.

وَمُكَالِمَةُ الْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّلَذُّذِ حَرَامٌ وَلَيْسَ بِكَبِيرَةٍ، وَلَكِنْ إِذَا أَصَرَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ وَصَارَ لَيْسَ لَهُ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَشْغَلَ الْهَاتِفَ عَلَى هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ وَيَتَحَدَّثَ إِلَيْهِنَّ صَارَ كَبِيرَةً، فَالْإِصْرَارُ عَلَى الصَّغِيرَةِ يَجْعَلُهَا كَبِيرَةً مِنْ حَيْثُ الْإِصْرَارُ؛ لِأَنَّ إِصْرَارَهُ عَلَى الصَّغِيرَةِ يَدُلُّ عَلَى تَهَاوُنِهِ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَبَالٍ بِهَا حَرَّمَ اللَّهُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّوْاحِشُ﴾ أَي: كِبَائِرُ الْكِبَائِرِ؛ لِأَنَّ الْكِبَائِرَ مِنْهَا مَا هُوَ فَاحِشٌ يُسْتَفْحَشُ وَيُسْتَعْظَمُ وَيُسْتَقْبَحُ بِشِدَّةٍ، وَمِنْهَا مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، فَمَثَلًا الزُّنَا فَاحِشَةٌ ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وَاللُّوَاطُ فَاحِشَةٌ أَعْظَمُ مِنَ الزُّنَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ فِي الزُّنَا: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ وَقَالَ فِي اللُّوَاطِ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] فَاتَى بِ(ال) الدَّالَّةِ عَلَى الْقُبْحِ، وَأَنَّهَا جَامِعَةٌ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْفَوَاحِشِ، وَنِكَاحُ الْمَحَارِمِ فَاحِشَةٌ، قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] فَهُوَ أَشَدُّ مِنَ الزُّنَا، فَلَوْ زَنَا الْإِنْسَانُ بِامْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ مِنْهُ، وَبِأَمِّ

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠).



زوجته مثلاً صار زناه بأُمِّ زوجته أعظم وأشدَّ وأشنع.

ولهذا كان القول الرَّاجح من أقوال العلماء: أَنَّ مَنْ زنا بامرأة من محارمه وإن لم يكن مُحْصَنًا فَإِنَّهُ يُرْجَم؛ لِأَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنَ الزَّنا وَبَيْنَ نِكَاحِ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ فَالزَّنا بِذَوَاتِ الْمَحَارِمِ وصفه الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ والزَّنا وصفه بوصف بواحد وهو: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ وجاءت السُّنَّةُ بالتَّفْرِيقِ بَيْنَ مَنْ زَنَا بامرأة من محارمه أو بامرأة أجنبية، فَجَعَلَتْ حَدَّ الْأَوَّلِ الْقَتْلَ بِكُلِّ حَالٍ، وَإِنْ لَمْ يَتَزَوَّجْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثِيًّا؛ لِأَنَّ هَذَا أَعْظَمُ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، إِنْسَانٌ يَزْنِي بِأُمِّهِ أَوْ أُخْتِهِ أَوْ أُمِّ زَوْجَتِهِ، أَوْ بِنْتِ زَوْجَتِهِ الَّتِي دَخَلَ بِهَا هَذَا فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ.

إذن: هم يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ، وَالْفَوَاحِشُ كِبَائِرُ الْكِبَائِرِ وَأَعْظَمُ. ونأخذ من هذه الآية الكريمة أَنَّ الْكِبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ تَخْتَلِفُ؛ لِأَنَّ كِبَائِرَ وَصَفَ، كُلُّهَا كَانَ أَعْظَمَ صَارَ أَشَدَّ كَبِيرَةً، وَالْفَوَاحِشُ كَذَلِكَ، وَفِيهَا سُقْنَاهُ مِنَ الْآيَاتِ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، فَفَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهَا، مَعَ أَنَّهَا كُلُّهَا فَوَاحِشٌ، لَكِنَّ بَعْضَهَا أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ. قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قيل: إِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ؛ لِأَنَّ اللَّمَمَ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ، فَهَلِ الْمَعْنَى إِلَّا الشَّيْءُ الْقَلِيلُ مِنَ الْكِبَائِرِ، أَيْ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ مِنَ الْكِبَائِرِ، أَوِ الْمَعْنَى إِلَّا الصَّغَائِرَ مِنَ الذُّنُوبِ.

إِنْ قُلْنَا بِالْأَوَّلِ، فَالْإِسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ، وَإِنْ قُلْنَا بِالثَّانِي، فَالْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ. وَتَكُونُ

بمعنى لکن، والمعنى الثاني أقرب من حيث التقسيم؛ لأنَّ الله ذَكَرَ الكبائر والفواحش والصَّغائر، وعلى هذا فيكون معنى ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ يعني: أنَّ هؤلاء الذين أحسنوا يأتون الصَّغائر، والصَّغائر والحمد لله مُكفَّرة بالحسنات.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] وأخبر النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الصَّلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مُكفَّرات لما بينهنَّ إذا اجْتَنِبْتَ الكبائر<sup>(١)</sup>، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا فيكون المعنى أَنَّ الصَّغائر تقع مُكفَّرة إما باجتناب الكبائر، أو باجتناب الكبائر مضمومًا إليها فعل هذه الحسنات العظيمة: الصَّلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان.

والخلاصة: أَنَّ الصَّغائر التي تقع مَغْفُورَةٌ لِلإنسان إذا اجْتَنَبَ الكبائر، وإذا أَحْسَنَ فِي الصَّلوات الخمس والجمعة ورمضان.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ﴾ في هذه الجملة إشارة إلى قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ يعني أَنَّ اللَّمَمَ يَقَعُ فِي سَعَةِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَيَغْفِرُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، والمغفرة هي سِتْرُ الذَّنْبِ مع التَّجَاوُزِ عنه، ولا يكفي سِتْرُ الذَّنْبِ بل لا بُدَّ من تَجَاوُزِ، والدَّلِيلُ على هذا أمران: لُغَوِيٌّ وَسَمْعِيٌّ، أمَّا اللُّغَوِيُّ فَلأنَّ المغفرة مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْمَغْفَرِ، والمَغْفَرُ وهو ما يُوضَعُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان...، رقم (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب وجوب العمرة وفضلها (١٧٧٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم (١٣٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على الرأس عند القتال ويُسمى خَوْذَةً، ويُسمى بيضة، يُوضع على الرأس لِيَتَّقِيَ السَّهْمَ. هذا الَّذِي يُوضَعُ على الرأس جَمَعَ بين أمرين الوِقاية والِسْتَر.

فإذن: المغفرة لا بُدَّ فيها من ستر ووقاية، وأمَّا السَّمْعِي فهو أَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا خَلَا بعنده المؤمن يوم القيامة وقرَّره بذنوبه وأقرَّ قال: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»<sup>(١)</sup> فدلَّ هذا على أَنَّ الوِقاية من الذُّنُوب وعدم المُؤاخِذَة من المغفرة، نسأل الله تعالى أن يَغْفِرَ لنا ما تقدَّم من ذُنُوبنا وما تأخَّر.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ إشارة إلى أَنَّ الصَّغَائِر تُغْفَر، وقد ثَبَّت في القرآن الكريم أَنَّ الصَّغَائِر تُغْفَر باجتناب الكبائر، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ أمَّا إذا قلنا: اللَّمَمُ القليل من الفَوَاحِش والكبائر، فيكون قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ إشارة إلى أَنَّ الكبائر إذا تاب الإنسانُ منها غَفَرَ اللهُ له، وكأَنَّها لم تُكُنْ، وإن لم يُتَب منها فهو تحت المَشِيئَة: إن شاء غَفَرَ اللهُ له، وإن شاء عاقَبه بما يَسْتَحِقُّ، هذه الكبيرة.

وللأسف يوجد قوم من هذه الأُمَّة يقولون: إِنَّ الكبيرة لا تُغْفَر، وهُمُ الخَوَارِج والمُعْتَزِلَة يقولون: إِنَّ الإنسان إذا فَعَلَ كبيرةً خَرَجَ من الإيمان، لكنَّ الخَوَارِج يقولون: خارج من الإيمان داخل في الكُفْر.

والمُعْتَزِلَة يقولون: خارج من الإيمان غير داخل في الكُفْر بل هو في مَنزِلَة بين مَنزِلَتَيْن، لكنَّ قولهم باطل، والصَّواب: أَنَّ فاعل الكبيرة داخل تحت قوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لعنة الله على الظالمين﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فلو قال قائل: إذا قلت هذا فتحت الباب على مضراعيه لفعل الكبائر؛ لأنَّ أيَّ إنسان يفعل كبيرة ويقول: أنا يمكن أن يغفر الله لي، وهذا يحتاج به العوامُّ، يقول: إذا كان الله يقول: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي ما دون الشرك لمن يشاء، إذن سأفعل الكبائر، ويغفر الله لي، فهذه حُجَّة فكيف نُجيبه؟

نُجيبه: أن الله تعالى قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ولم يقل لكلِّ أحد بل قال: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فهل أنت تتيقن أنك ممن يغفر الله له، هل أحدٌ يتيقن هذا؟ أحدٌ يتيقن هذا؟ لا أحدٌ يتيقن.

إذن: لا حُجَّة في هذه للعاصي، ثمَّ إنَّ قوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ نعلم أن الله حكيم، لا يشاء أن يغفر للمُذنب غير الشرك إلا إذا اقتضت الحكمة أن يغفر ذلك، ومن ممَّا يستطيع أن يقول إن حكمة الله تقتضي أن يغفر لي؟ لا أحد يقول هذا، بل لو قال هذا لقلنا: إنَّ قولك هذا من أسباب المؤاخظة والمعاقبة؛ لأنَّك تألَّيت على الله.

ثمَّ قال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أعلمُ بنا من ذاك الوقت الطَّويل البعيد ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، أي بخلق أبينا آدم؛ لأنَّ آدم خُلِقَ من التُّراب، ثمَّ صار طيناً، ثمَّ صار صلصالاً، ثمَّ خلقه الله بيده جسماً ونفخ فيه الرُّوحَ، فصار آدمياً إنساناً، هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، إذن نحن من الأرض أول نشأة، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]، أي الإخراج الَّذي ليس بعده وفاة يوم القيامة، ولذلك الآن بنو آدم كالأرض تماماً، فيهم الحزن الصَّلب الشَّديد، وفيهم السَّهل، وفيهم ما بين ذلك، وفيهم الأبيض،

وفيهم الأحمر، وفيهم الأسود؛ لأنَّ الأراضِي تَخْتَلِفُ، هكذا، وقد ذُكِرَ أَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ أَخَذَ مِنْ كُلِّ الْأَرْضِ سَهْلَهَا وَحَزَنَهَا، وَأَسْوَدَهَا وَأَبْيَضَهَا كُلَّهَا<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذْ أَنْتَرُ أَجَنَّةً فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ هذه النَّشْأَةُ الثَّانِيَّةُ، ﴿أَجَنَّةً﴾ جَمْعُ جَنِينٍ وهو الحَمْلُ، وَسُمِّيَ الحَمْلُ جَنِينًا؛ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ ﴿وَإِذْ أَنْتَرُ أَجَنَّةً﴾ أَيِ مُسْتَتِرُونَ ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، أَيِ مِنْ حِينَ كَانَ الْإِنْسَانُ نُطْفَةً، وَمِنْ النُّطْفَةِ يُخْلَقُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]، فَمِنْ حِينَ يَكُونُ نُطْفَةً يَكُونُ جَنِينًا ثُمَّ يَتَطَوَّرُ أَرْبَعَةَ، أَوَّلًا: نُطْفَةً، ثُمَّ عَلَقَةً، ثُمَّ مُضْغَةً مُخَلَّقَةً وَغَيْرَ مُخَلَّقَةٍ، ثُمَّ أَنْشَأَنَاهُ خَلْقًا آخَرَ: الطَّوْرَ الْآخِرَ الَّذِي تَحِلُّ فِيهِ الرُّوحُ.

إِذَنْ: هُوَ عَالَمٌ بَنَّا حِينَ النَّشْأَةِ الْأُولَى، وَحِينَ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِنَا.

﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَيِ: لَا تَزَكِّهَا وَتَقِلَّ عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَصَلَيْتُ، وَزَكَيْتُ، وَصُمْتُ، وَجَاهَدْتُ، وَحَجَجْتُ، لَا تَقِلَّ هَكَذَا، تُدِلُّ بِعَمَلِكَ عَلَى رَبِّكَ، هَذَا لَا يَجُوزُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]؟

فَالْجَوَابُ: بَلَى، لَكِنَّ مَعْنَى ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ أَيِ: مَنْ عَمِلَ عَمَلًا تَزَكُّو بِهِ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى مَنْ زَكَّاهَا مَنْ أَثْنَى عَلَيْهَا وَمَدَحَهَا بِأَنَّهَا عَمِلَتْ وَعَمِلْتُ، بَلِ الْمُرَادُ عَمِلَ عَمَلًا تَزَكُّو بِهِ نَفْسَهُ، فَلَا مُعَارَضَةَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِذِكْرِ مَا عَمِلَ مِنَ الصَّالِحَاتِ فَإِنَّهُ لَمْ يُزَكِّ نَفْسَهُ، فَمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِمَدَحِهَا فَإِنَّهُ لَمْ يُزَكِّ

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٤/٤٠٠)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ السَّنَةِ، بَابُ فِي الْقَدْرِ، رَقْمُ (٤٦٩٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ وَمِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، رَقْمُ (٢٩٥٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نفسه، وفرق بينهما، فالتزكية التي يُحمد عليها الإنسان أن يعمل الإنسان عملاً صالحاً تزكو به نفسه، والتزكية التي يُذم عليها أن يدل بعمله على ربه ويمدحه، وكأنه يَمُنُّ على الله، يقول: صليتُ، وتصدقْتُ، وصُمتُ، وحججتُ، وجاهدتُ، وبرزتُ والدي وما أشبه ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يُزكي نفسه.

وفي هذا ردّ على أولئك الصوفيّة الذين يدعون أنهم أئمةٌ ويُزكون أنفسهم، ويقولون: وصلنا إلى حدٍّ لا تَلزَمنا الطّاعة، وصلنا: إلى عالم الملكوت فليس علينا صلاة، ولا صدقة، ولا صيام، ولا يحرم علينا شيء، وهؤلاء مُنسلخون من الدين انسلاخاً تاماً، ولذلك نقول: هؤلاء الذين يُزكون أنفسهم هم أبعدُ النَّاس عن الزّكاة؛ لأنهم أعجبوا بأعمالهم، وأدلوها على الله عزّ وجلّ وجعلوا لأنفسهم منصباً لم يجعله الله تعالى لهم.

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ كأنه يقول: لماذا تُزكون أنفسكم؟ أتريدون أن تُعلموا الله بما أنتم عليه؟ الجواب: لا؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ يعني إن كنت متّقياً لله، فالله أعلم بك، ولا حاجة أن تقول لله: إني فعلتُ وفعلتُ، وفي هذا إشارة إلى أنّ النطق بالنية عند فعل العبادة قد يدخل في نوع من التزكية، فإذا أردت أن تتوضّأ فلا تقل: اللهم إني نويت أن أتوضّأ، وبعض العلماء يقول: قلها سرّاً، بينك وبين نفسك، وعملوا هذا فقالوا: من أجل أن يطابق اللسان القلب، فالقلب نوى، لكن قل باللسان: اللهم إني نويت أن أتوضّأ، وأنت تُصلي قل: اللهم إني نويت أن أصلي الظهر مثلاً أو العصر، وبعض العلماء يقول هكذا، وهم علماء أجلاء من الفقهاء.

فيُقال: هذا غلط، وهذا قياس في مُقابلة النص: والرّسول ﷺ لم يشرع لأُمَّته

النُّطْقَ بِالنِّبَةِ، لَا فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ وَلَا ضَعِيفٍ، وَمِنَ الطَّرْفِ الطَّرِيفَةُ أَنَّ رَجُلًا عَامِّيًّا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ سَمِعَ شَخْصًا يُرِيدُ أَنْ يُصَلِّيَ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ: اللَّهُمَّ إِنِّي نَوَيْتُ أَنْ أُصَلِّيَ الظُّهْرَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُكَبِّرَ قَالَ الرَّجُلُ: بَاقٍ عَلَيْكَ، قَالَ: مَا الْبَاقِي؟ قَالَ: بَاقِ التَّارِيخِ، قُلْ: فِي الْيَوْمِ الْفُلَانِي. أَنْتَ الْآنَ ذَكَرْتَ الْمَكَانَ، وَذَكَرْتَ الْعَمَلَ، فَادْكُرْ التَّارِيخَ قُلْ: فِي الْيَوْمِ الْفُلَانِي، مِنَ الشَّهْرِ الْفُلَانِي، مِنَ السَّنَةِ الْفُلَانِيَّةِ. فَانْتَبَهَ الرَّجُلُ فَقَالَ: هَلْ أَنْتَ تُعَلِّمُ رَبِّكَ بِنَيْتِكَ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنَيْتِكَ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وَعِنْدَ الصَّيَامِ مِثْلًا إِذَا تَسَحَّرَ الْإِنْسَانُ وَأَرَادَ أَنْ يَصُومَ فَإِنَّهُ لَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي نَوَيْتُ الصَّيَامَ مِنَ اللَّيْلِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْبِدْعِ، بَقِيَ أَنْ يُقَالَ فِي الْحَجِّ هَلْ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي نَوَيْتُ الْعُمْرَةَ، أَوْ نَوَيْتُ الْحَجَّ، أَوْ نِيَّةَ الْقِرَانِ أَوْ التَّمَتُّعِ؟ لَا تَقُلْ هَذَا، حَتَّىٰ عِنْدَمَا تَغْتَسِلَ وَتَلْبَسَ الْإِحْرَامَ، لَا تَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي نَوَيْتُ الْعُمْرَةَ أَوْ نَوَيْتُ الْحَجَّ، تَكْفِي التَّلْبِيَةُ؛ لِأَنَّكَ سَوْفَ تَقُولُ: لَبَّيْكَ عُمْرَةً، إِنْ كُنْتَ فِي عُمْرَةٍ، أَوْ لَبَّيْكَ حَجًّا، إِنْ كُنْتَ فِي حَجٍّ، أَوْ لَبَّيْكَ عُمْرَةً وَحَجًّا، إِنْ كُنْتَ قَارِنًا، فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّلَفُّظِ بِالنِّبَةِ فَكُلُّ الْعِبَادَاتِ لَا يُنْطَقُ فِيهَا بِالنِّبَةِ؛ وَلهَذَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتَقَى﴾.



الآيات (٣٢-٣٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّلْ ﴿٣٢﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِئٌ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ إِلَّا نَزْدُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴾ [النجم: ٣٣-٣٨].

• • • • •

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّلْ﴾ الخطابُ في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ للنَّبِيِّ ﷺ، ويجوز أن يُراد به كُلٌّ مَنْ يَتَوَجَّهْ إليه الخطابُ، فيكون المعنى على الأوَّل: أفرأيت يا مُحَمَّدُ، وعلى القول الثاني: أفرأيت أنت أيُّها المُخاطَبُ أي أخبرني، وكلُّما جاءت (أَرَأَيْتَ) في القرآن فهي بمعنى أخبرني.

﴿الَّذِي تَوَكَّلْ﴾، أي: عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وعن الإيِّمان بالله ورُسُوله ﷺ، وعن إقامة شعائر الإسلام.

﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ يعني أحيانًا يُعطي، وإذا أعطى أعطى قليلًا، وأحيانًا يُكْدي، أي: يَمْنَع فلا يُعطي شيئًا؛ لأنَّه ليس يُنْفِق المَالَّ ابتغاء وجه الله، فلذلك كانت حاله بين أمرين: إمَّا المَنِّ، أو الإِعطاء قليلًا، قالوا: وأكْدَى مأخوذة من الكُذْيَةِ، وهي الصَّخرة الشَّديدة الَّتِي لَا تَتَفَتَّتْ إِلَّا بِالْمَعَاوِل، فهذا الرَّجُل ليس مُطِيعًا لله وليس نافعًا لعباد الله فهو مُتَوَلٍّ عن طاعة الله، وهو مانع فَضْلَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ وهذا الاستِخْبار ليس لِعَدَمِ علمه جَلَّ وَعَلَا، ولكن لَشَحْذِ النُّفُوسِ



وَالْهَمَمَ إِلَى الْإِسْتِمَاعِ إِلَى مَا يُلْقَى، وَهَذَا الَّذِي أُعْطِيَ قَلِيلًا وَأَكْدَى، يَزْعُمُ أَنَّهُ إِذَا بُعِثَ فَإِنَّهُ سَوْفَ يُعْطَى الْمَالُ الْكَثِيرَ، وَهَذِهِ عَادَةٌ مِنْ يُنْكِرُ الْبَعْثَ، كَمَا فِي صَاحِبِ الْجَنَّةِ الَّذِي قَالَ: ﴿وَلَيْنَ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، فَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ سَوْفَ يُمْتَعُّ فِي الدُّنْيَا وَيُمْتَعُّ فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرَ وَأَكْثَرُ إِنْ كَانَ آمَنَ بِهَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ وَهَذَا الْإِسْتِفْهَامُ اسْتِفْهَامُ اسْتِنْكَارٍ بِمَعْنَى النَّفْيِ، يَعْنِي لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ سَيَسْتَقِيلُ إِلَى دَارِ أَفْضَلٍ مِنَ الَّتِي هُوَ فِيهَا، وَعَلَى هَذَا فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ جُمْلَةً نَفْيِيَّةً، وَلَيْسَتْ جُمْلَةً إِثْبَاتِيَّةً، وَلَيْسَتْ جُمْلَةً اسْتِخْبَارِيَّةً، بَلْ هِيَ جُمْلَةُ نَفْيٍ وَاسْتِنْكَارٍ، إِذْ لَا أَحَدَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ، وَلَوْلَا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ وَالْجَحِيمِ لِأَهْلِ النَّارِ، مَا عَلِمْنَا مِنْ هَذَا شَيْئًا.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَمْ هُنَا لِلْإِصْرَابِ وَالْمَعْنَى بَلْ ﴿لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ ذَكَرَ مُوسَى؛ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالتَّوْرَةُ هِيَ الَّتِي عَلَيْهَا عُمْدَةٌ مَا نُزِّلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى إِبْرَاهِيمَ فِيهَا الْمَوَاعِظُ، وَفِيهَا الْأَحْكَامُ، لَكِنْ لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا مِنْهَا شَيْئًا سِوَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَعَلَى الْمِلَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ، فَهُوَ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَأَبُو الْأَنْبِيَاءِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَذَا قَدَّمَ مُوسَى عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَفِي سُورَةِ الْأَعْلَى قَدَّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَى مُوسَى، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَحَقَّ بِالتَّقْدِيمِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،

لأنَّه أَسْبَقَ زَمَنًا وَأَعْلَى مَرْتَبَةً، وَلَكِنْ مَرَاعَاةً لِفَوَاصِلِ الْآيَاتِ قَدَّمَ مُوسَى، وَلِأَجْلِ الثَّنَاءِ الْخَاصِّ بِإِبْرَاهِيمَ قَدَّمَ مُوسَى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي وفَّى بما أمر به ربه، ومن أعظم ما وفَّاه أَنَّهُ أَمَرَ بِذَبْحِ ابْنِهِ فَاثْتَمَلَ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَصَمَّمْ عَلَى تَنْفِيزِهِ، حَتَّى إِنَّهُ تَلَّهَ عَلَى جَبِينِهِ لِيَمَرَّ السَّكِينُ عَلَى رَقَبَتِهِ، وَلَكِنَّ الْفَرَجَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿وَقَدَرْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، وَالَّذِي فِي هَذِهِ الصُّحُفِ قَالَ: ﴿أَلَا نَزَرُ وَأَزَرُهُ وَزَرُ أُخْرَى﴾ هَذِهِ بَيَانٌ مَا فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿أَلَا نَزَرُ﴾ أي: لَا تَحْمِلْ إِنْهُمْ، ﴿وَأَزَرُهُ﴾ أي: آثَمَهُ، ﴿وَزَرُ أُخْرَى﴾ أي: إِنْهُمْ أُخْرَى، يَعْنِي: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَحْمِلُ ذَنْبَ غَيْرِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ، إِذَا كَانَ صَاحِبَ سُنَّةٍ آثَمَةٍ فَإِنَّ عَلَيْهِ وَزَرَهَا، وَوَزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ هَذَا لَا يَتَحَمَّلُ وَزَرَ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ قَدْ وَزَرَ وَأَثَمَ، لَكِنْ هُوَ تَحْمَلُ إِنْهُمْ السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ وَالْبَدَأَ بِالشَّرِّ، فَيَكُونُ حَقِيقَةً أَنَّهُ لَمْ يُوزَرَ وَزَرَ غَيْرِهِ وَلَكِنَّهُ وَزَرَ يُوْزَرُ نَفْسِهِ.

﴿أَلَا نَزَرُ وَأَزَرُهُ وَزَرُ أُخْرَى﴾ وَقَدْ كَذَّبَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَمِلِينَ مِنْ خَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]، حَتَّى لَوْ قَالَ لَكَ الْقَائِلُ: افْعَلْ هَذَا الذَّنْبَ وَالْإِثْمَ عَلَيَّ فَإِنَّهُ لَا يَتِمَّكَنُ مِنْ هَذَا، وَلَا يُمَكِّنُ، فَإِنْ فَعَلَ هَذَا، وَقِيلَ لَهُ: الْإِثْمُ عَلَيَّ فَالْإِثْمُ عَلَى الْفَاعِلِ، ثُمَّ إِنْ كَانَ الْفَاعِلُ مِمَّنْ يَغْتَرُّ بِالْقَوْلِ وَلَا يَفْهَمُ، فَعَلَى الْقَائِلِ إِنْهُمْ التَّغْرِيرُ، أَيْ أَنَّهُ غَرَّرَ وَخَدَعَ.



## الآيات (٣٩-٤١)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

•••••

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ يعني ليس للإنسان من الثواب إلا ثواب ما سعى وما عمل، فلا يمكن أن يُعطى من ثواب غيره، يعني لا يمكن أن نأخذ من أجر زيد ونعطيه عمراً، كما لا يمكن أن نأخذ من سيئات زيد ونضيفها إلى سيئات عمرو، فهذا لا يمكن إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم، فصار الإنسان مُرتَهناً بكسبه: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [الدثر: ٣٨]، فلا يمكن أن يؤخذ من حسناته إلى غيره، ولا أن يؤخذ من أوزار غيره فيحمل عليها إلا ما ورد من اقتصاص المظلوم من الظالم.

وقد استدل بعض أهل العلم على أنه لا يمكن أن يتتفع الميت بثواب عمل غيره؛ لأن الله قال: ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ وعلى هذا فلو أنك صليت ركعتين لزيد وهو ميت، أو صُمت يوماً لزيد وهو ميت فإنه لا ينفعه، لعموم قوله: ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ فإذا أورد عليهم أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»<sup>(١)</sup> قالوا: هذا في الواجب؛ لأن عليه صياماً وليس في التطوع،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم (١٩٥٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، رقم (١١٤٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وكذلك الحجُّ الواجب لحديث: أَفَاحُجُّ عَنْهُ؟ قال: «نَعَمْ»<sup>(١)</sup>، وإذا أورد عليهم أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ أُمِّي افْتَلَتَتْ نَفْسُهَا، وَأَظْنُهَا لَوْ بَقِيتْ لَتَصَدَّقَتْ أَفَاتَصَدَّقَ عَنْهَا؟ قال: «نَعَمْ»<sup>(٢)</sup>، قالوا: هذا مُسْتَشْنَى بالنَّصِّ، وليس لنا أن نَرُدَّ النَّصَّ.

والعامُّ يجوز تخصيصه بحُكْمٍ مُخَالَفٍ، وإذا أورد عليهم قول سعد بن عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَخَارِفِهِ أَي فِي نَحْلِهِ الَّذِي يُحَرِّفُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ صَدَقَةً لِأُمِّهِ فَأَجَازَ النَّبِيُّ ﷺ<sup>(٣)</sup> قالوا: هذا وَرَدَ بِهِ النَّصُّ، وما وَرَدَ بِهِ النَّصُّ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَدَّ؛ لِأَنَّ نُصُوصَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ جَاءَتْ بِتَخْصِصِ الْعَامِّ، يَعْنِي بِإِخْرَاجِ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعَامِّ، فَيُحَكِّمُ لَهُ بِحُكْمٍ مُخَالَفٍ لِأَحْكَامِ الْعَامِّ، وَعَلَى هَذَا نَقُولُ: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَفِعَ الْإِنْسَانُ بِعَمَلٍ غَيْرِهِ حَيًّا كَانَ أَوْ مَيِّتًا إِلَّا مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَهُ وَجْهَةٌ نَظَرٌ قَوِيَّةٌ، وَلَكِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ<sup>(٤)</sup>:  
أَيُّ قُرْبَةٍ فَعَلَهَا وَجَعَلَ ثَوَابَهَا لِمَيِّتٍ أَوْ حَيٍّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ، وَقَالَ: إِنَّ الَّذِي وَقَعَ قَضَايَا أَعْيَانٍ، بِمَعْنَى أَنَّ رَجُلًا حَصَلَتْ لَهُ حَادِثَةٌ فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَجَازَهَا، فَإِذَا أَجَازَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جِنْسَ الْعِبَادَاتِ وَلَوْ كَانَتْ مَالِيَّةً دَلَّ ذَلِكَ عَلَى جَوَازِ جِنْسِ جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ، وَقَالُوا أَيْضًا: الصَّيَّامُ لَيْسَ عِبَادَةً مَالِيَّةً، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب حج المرأة عن الرجل، رقم (١٨٥٥)، ومسلم: كتاب الحج، باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو للموت، رقم (١٣٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب موت الفجأة البغته، رقم (١٣٨٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، رقم (١٠٠٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا قال: أرضي أو بستانني صدقة لله عن أُمِّي فَهوَ جَائِزٌ، رقم (٢٧٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) انظر: المحرر للمجد ابن تيمية (٢٠٩/١)، وزاد المستفنع (ص ٧٢).

«مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ»<sup>(١)</sup> وإذا أُجيز هذا في الواجب، والواجب مُتَحَتِّمٌ، فهو كالدين، والدين إذا قضاها الغيرُ عن المدين أجزأه، وحملوا قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ على أن المعنى أنه لا يُمكن أن يأخذ من عمل غيره، لكن إذا أهدى إليه غيره من العمل فإنه لا بأس به، كما أن الإنسان ليس له التَّصَرُّفُ في مال غيره، ولو أعطاه شخصٌ مالا لتصرَّف فيه.

وقد نقل الجمل في حاشيته على الجلالين (الفتوحات الإلهية) في هذا الموضع عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ<sup>(٢)</sup> أنه يجوز إهداء القرب وأن الميت يتنفع بذلك، وذكر لهذا أكثر من عشرين وجهاً، فمن أحب أن يُراجعه فليُراجعه.

وعلى كل حال: حتَّى ولو قلنا بما ذهب إليه الإمام أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ من أيِّ قربة فعلها الإنسان وجعلها لمسلم، فإنَّ ما عليه عملُ النَّاسِ اليوم مُخَالِفٌ لهذا الكلام، إذ إنَّ النَّاسَ اليوم تجدهم يهْدُونَ كثيراً من العمل الصَّالح للأموات، يَعْتَمِرُ للميت دائماً ويصوم عنه تطوعاً دائماً، ويُضْحِي عنه دائماً، ولو ضحَّى لنفسه كل هذا ليس من عمل السَّلف، والسَّلف يَهْدُونَ بهدي الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهدي النَّبيِّ ﷺ هو أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»<sup>(٣)</sup> فأرشد إلى الدُّعاء للميت، لكن كونك كُلِّمَا سَبَّحْتَ قُلْتَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ثَوَابَهُ لَأبي، لأمي، وكلِّمَا عَمِلْتَ تقول: اجْعَلْ ثَوَابَهُ لِي أَبِي إِلَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم (١٩٥٢)، ومسلم: كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، رقم (١١٤٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين (٤/٢٤٤-٢٤٥).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أُمِّي، أو جدي، أو خالي، أو عمِّي فهذا غير صحيح، وأنت محتاج إلى العمل كما هم محتاجون للعمل، فلا تجعل عملك لهم، اجعل لهم ما أرشدك إليه الرسول ﷺ وهو الدعاء، أمّا العمل فخصّ به نفسك.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾: ﴿سَعْيُهُ﴾ يعني عمله سوف يرى، وهل المراد ثواب السعي يرى في الآخرة عند الجزاء، أو أن السعي يرى في الدنيا ويعرف، الجواب: أن هذا عام سوف يرى في الدنيا وفي الآخرة، الذي يرى في الآخرة وفي الدنيا هو نفس العمل؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] يعني عملكم لن يخفى عليّ ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه إلى أن بعض الناس إذا عمل عملاً كمكتبة، أو مسجد، أو عمارة للفقراء أو ما أشبه ذلك كتب: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ، وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وهذا لا يجوز؛ لأن أحد الأطراف الثلاثة لا يمكن أن يراه، وهو الرسول عليه الصلاة والسلام، صحيح أن الله عز وجل يرى والمؤمنين في هذا الوقت يرون، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يرى، ثم هذا في المنافقين وهو تهديد لهم وليس ثناء عليهم.

وعلى كل حال: نقول: سعي الإنسان سوف يرى، ولكن قد يستر الله تعالى عن العبد ذنوبه فضلاً منه ومِنَّةً، وإذا لاقاه في الآخرة خلّا به سبحانه وتعالى وقرّره بذنوبه وقال: «قَدْ سَتَرْنَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»<sup>(١)</sup>، لكن في الأصل أن سعي

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الإنسان سوف يُرى.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أي: بعد أن يُرى يُجزى عليه الجزاء الأوفى، أي: الأكمل، والأوفى في الصّالح زيادة المثوبة، والأوفى في السيئ العَدْل؛ بحيث لا يُزاد في سيئاته، وعلى هذا فالأوفى يُفسّر بمعنى العَدْل، ويُفسّر بالزيادة والفضل، العَدْل في السيئة لا يُمكن أن يُزاد سيئة. والفضل في الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.



(الآية ٤٢)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهٗ﴾ [النجم: ٤٢].

• • ❦ • •

﴿وَأَنِّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهٗ﴾ هذه الآية فيها قراءتان: القراءة الأولى فتح الهمزة: ﴿وَأَنِّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهٗ﴾ والثانية كسر الهمزة «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ».

فَإِنَّ صَحَّتِ الْقِرَاءَةُ وَكَانَتْ بِالْكَسْرِ: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ» صَارَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ وَمَا بَعْدَهَا لَيْسَتْ فِي ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩] بَلْ تَكُونُ اسْتِثْنَاءً، وَإِذَا كَانَتْ بِالْفَتْحِ صَارَتْ الْجُمْلَةُ وَمَا بَعْدَهَا مِمَّا جَاءَ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ، وَعَلَىٰ كُلِّ فَهِيَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَمَّا إِنْ كَانَتْ الْقِرَاءَتَانِ صَحِيحَتَيْنِ سَبْعَتَيْنِ وَقَرَأَ الْإِنْسَانُ بِأَحَدَاهُمَا صَحَّ، بَلِ الْأَوَّلَىٰ لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يَعْرِفُ الْقِرَاءَاتِ أَنْ يَقْرَأَ بِهِذِهِ الْقِرَاءَةَ مَرَّةً، وَبِهِذِهِ الْقِرَاءَةَ مَرَّةً أُخْرَىٰ، لَكِنْ لَا يَقْرَأُ عَلَىٰ مَلَأَ مِنَ النَّاسِ وَسَمَاعٍ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْعَامَّةَ إِذَا سَمِعُوا تَقْرَأُ عَلَىٰ خِلَافِ مَا يَقْرَأُونَ فَسَيَحْصُلُ بِذَلِكَ مَفْسَدَةٌ، إِمَّا أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ، وَإِمَّا أَنْ يَتَشَكَّكُوا فِي الْقُرْآنِ؛ حَيْثُ يَظُنُّ الْعَامِيُّ أَنَّ الْقُرْآنَ يُمَكِّنُ أَنْ يُبَدَّلَ أَوْ يُغَيَّرَ.

لِذَلِكَ نَنْصَحُ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِلْمًا فِي الْقِرَاءَاتِ أَنْ لَا يَقْرَأُوا إِلَّا بِالْقِرَاءَةِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَ الْعَامَّةِ حَتَّىٰ لَا يَحْصُلَ اللَّبْسُ، لَكِنْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ



إِذَا كُنْتَ تُدْرِكُ الْقِرَاءَةَ الثَّانِيَةَ إِدْرَاكَ تَامًّا فَاقْرَأْ بِهَا أَحْيَانًا؛ لِأَنَّ الْكَلَّ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَى﴾ أي: المنتهى في أمور الدين والدنيا، فإلى الله المنتهى في مسائل العلم، فعندما تُشكّل علينا مسألة من مسائل العلم فنتهي إلى الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُودُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والنبي ﷺ لا يقول شيئاً من عنده، إنما هو من عند الله عَزَّجَلَّ فيكون المنتهى إلى الله في الحكم بين الناس وفي الحكم للناس: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَى﴾ أي مُنتهى الخلائق أيضاً؛ لأن هذا الخلق الموجود الآن سوف يَفْنَى وَيَتَقَلَّبُ إِلَى خَلْقٍ آخَرَ، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

والمُنْتَهَى على هذا التقدير هو يوم القيامة، فإلى الله المُنْتَهَى، وإلى الله المصير، فمُنْتَهَى أحوالنا وأحكامنا وجميع ما يصدر منا وعلينا إلى الله عَزَّجَلَّ وإذا كان إلى الله المُنْتَهَى، فإلى مَنْ تشكو إذا أصابك الضُّرُّ؟ إلى الله عَزَّجَلَّ، وإذا أردت النِّفْعَ فَتَطْلُبُهُ من الله عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّهُ الْمُنْتَهَى، وكم من إنسان انعقدت له أسباب الرِّزْق وإذا هو مُحْرَمٌ منها في آخر لحظة.

إِذْنُ: لَا يَجْلِبُ لَكَ الْخَيْرُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَمْنَعُ عَنْكَ الضَّرَرُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ فَاجْعَلْهُ مُنْتَهَاكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ.



الآيتان (٤٣، ٤٤)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾

[النجم: ٤٣-٤٤].

• • • • •

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ هل المراد حقيقة الضحك، أو المراد لازم ذلك وهو الفرح، وكذلك يُقال في أبكى: هل المراد حقيقة البكاء، أو المراد الحزن، إذا نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا: الضحك الحقيقي، والضحك الحقيقي لا ينشأ إلا عن سرور، وأبكى البكاء الحقيقي، وهو لا يحصل إلا عن حزن، فالله تعالى أضحك في الدنيا وأبكى، وأضحك في الآخرة وأبكى، والكفار في الدنيا يضحكون على المسلمين، وعلى المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]، لكن هذا الضحك سيعقبه بكاء يوم القيامة ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، فالذي أضحك في الدنيا وأبكى، والذي أضحك في الآخرة وأبكى هو الله عَزَّوَجَلَّ.

إذن: هو مُقدِّر ما يكون به الضحك، ومقدِّر ما يكون به البكاء، وأتى بالأمرين وهما مُتقابلان، ليُعلم بذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وهو القادر على خلق الضدين.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: أَمَاتَ في الدنيا وأَحْيَا في الدنيا، وأَمَاتَ في الدنيا

وأحيا في الآخرة، أمات وأحيا البَشَرَ، تَجِدُ هذا تُنْفَخُ فيه الرُّوحُ اليوم، فيكون الله قد أحياه، والآخر تُنَزَعُ رُوحُه من بَدَنه ويكون الله قد أماته، وهكذا دَوَالَيْكَ، هو الَّذِي أمات وأحيا، وهناك أيضًا مِيتة عامَّة وحياة عامَّة، أمات العالم في الدُّنيا، وأحياهم في الآخرة، فهو الَّذِي خَلَقَ الموتَ، وهو الَّذِي خَلَقَ الحياةَ، وهذان أيضًا مُتضادَّان، حياة وموت، كلُّها من عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله تعالى على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.



## الآيات (٤٥-٤٧)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٤٥ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ ٤٦ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥-٤٧].

• • •

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٤٥ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، الزوج بمعنى الصَّنْف، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ [ص: ٥٨]، أي: أصناف، وقوله تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] ليس المراد زوجاتهم، بل المراد بأزواجهم، أي: أصنافهم.

إذن: الزوجين يعني الصنفتين، ثم بين هذين الزوجين فقال: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ من مادة واحدة، ﴿نُطْفَةٍ﴾ وهي المنى ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: تُراق وتُصبُّ في رَحِمِ المرأة، فالله عَزَّوَجَلَّ خلق هذين الصنفتين المختلفتين خلقًا، والمُتخِلِفِينَ مَزَاجًا، والمُتخِلِفِينَ عَقْلًا، والمُتخِلِفِينَ فِكْرًا، خَلَقَهُمَا مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ مِنْ نُطْفَةٍ.

ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آخِرِ سُورَةِ الْقِيَامَةِ: ﴿يَجْعَلُ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٣٩ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩-٤٠]، الجواب: بلى، فالله تعالى خلق الزوجين من شيء واحد، وهذا يدلُّ على كمال قُدْرَتِهِ جَلَّ وَعَلَا، إذ إنَّه خلق صِنْفَيْنِ مُتخِلِفَيْنِ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ: فِي الْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، وَالْفِكْرِيَّةِ، وَالتَّنْظِيمِيَّةِ يَخْتَلِفُ الذَّكَرُ عَنِ الْأُنْثَىٰ، وَبِذَلِكَ نَعْرِفُ ضَلَالَ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُلْحِقُوا الْمَرْأَةَ بِالرَّجُلِ

في أعمال تختصُّ بالرجل، فإنَّهم سُفهاءُ العقول، ضلالُ الأديان، فكيف يُمكن أن نُسوِّي بين صِنْفَيْن، فَرَّقَ اللهُ بينهما خِلْقَةً وشرعاً، فهناك أحكام يُطالب بها الرجل ولا تُطالب بها المرأة، وأحكام تُطالب بها المرأة ولا يُطالب بها الرجل، وأمَّا قدرًا وخلقةً فالأمر واضح، لكنَّ هؤلاء الذين لم يُوفِّقوا وسَلَبَ اللهُ عقولهم وأضعفَ أديانهم يُحاولون الآن أن يُلحِقوا النساءَ بالرجال، وهذه لا شك أنَّها فكرة خاطئة مُخالِفةٌ للفِطرة، ومُخالِفةٌ للطَّبيعة كما أنَّها مُخالِفةٌ للشَّريعة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَى﴾ أي: على الله، وفي هذا دليل على أن الله أوجِبَ على نفسه أن يبعث النَّاس؛ لأنَّه لو كان النَّاس يَمُوتون بلا إرجاع لكان هذا عبثاً مُحْضاً؛ لأنَّنا نعلَمُ الآن أنَّ النَّاس في الدُّنيا يَختلفون في الغنى والفقر، والقوَّة والضعف، والذكاء والعقل وغير ذلك، ولو كان الخلق هكذا فقط بدون إرجاع لكان هذا مُنافياً للحكمة تماماً، لكن لا بُدَّ من رُجوع.

ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾ و(على) تُفيد الوجوب، فيكون الله أوجِبَ على نفسه أن يُنشئ النَّاس مرة أخرى، ولا مانع من أن الله يَفْرِض على نفسه ما شاء، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، أي: أوجِبَ على نفسه الرَّحمة، كذلك هنا قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَى﴾ أي أن الله أوجِبَ على نفسه أن يُنشئ النَّاس نشأةً أخرى للجزء، كلِّ بحسب عَمَلِهِ، والنَّشأةُ الأخرى تُفيد بأن هناك نشأة قبل وهي النَّشأة الأولى، وهي خلق النَّاس فابتداء خلق النَّاس من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي قوله: ﴿الْآخِرَى﴾ فائدة عظيمة وهي الإشارة إلى أنَّ القادر على الأولى قادر على الآخرة، والنَّشأة الآخرة أهون من الأولى، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ

الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ ﴿[الروم: ٢٧]﴾، والهَيْنُ يَخْتَلِفُ باعتبار ذاته لا باعتبار  
 قُدرة الله فَإِنَّهَا لَا تَخْتَلِفُ: كُنْ فيكون، سواء كان أعلى شيء أو أدنى شيء، لكن بالنسبة  
 للمقدور عليه الإعادة أهون، أمّا بالنسبة لقدرة الله فكلُّها واحد؛ لأنَّ المسألة لا تَعْدُو  
 أن يقول: كُنْ فيكون، وبهذا نَعْرِفُ أَنَّ بعض المفسِّرين رحمهم الله وعفا عنهم قالوا  
 في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ (أي: وهو هَيِّنٌ عليه) وهذا غلط، كيف يقول الله عن  
 نفسه ﴿وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ ويقول: وهو هَيِّنٌ، لكن نقول الهون له نسبتان: نسبة  
 للمفعول، ونسبة للفاعل، بالنسبة للفاعل هما سواء؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ منهما يَتَكَوَّنُ  
 بكلمة واحدة كُنْ فيكون، وبالنسبة للمفعول يَخْتَلِفُ لا شكَّ أَنَّ الأوَّلَ أَشَدُّ من  
 الثَّانِي.



## الآيتان (٤٨، ٤٩)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ (٤٨) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٨-٤٩].

• • ❁ • •

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ، فَهُوَ الَّذِي أَغْنَىٰ مَن شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ قيل: المعنى أَفْقَرَ؛ لِأَنَّهَا فِي مُقَابَلَةِ ﴿أَغْنَىٰ﴾ وَقِيلَ: أَغْنَىٰ بِالْكَفَايَةِ، وَأَقْنَىٰ بِمَا زَادَ عَلَى الْكِفَايَةِ، فَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بَسَطَ لِعِبَادِهِ الرِّزْقَ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَغْنَاهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْنَاهُ، أَي: جَعَلَ لَهُ قَنِيَةً وَهِيَ الزَّائِدُ عَنْ الْكِفَايَةِ، وَالْقَاعَادَةُ: أَنَّ الْكَلِمَةَ إِذَا كَانَتْ تَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا وَلَا مُرْجَحَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَيْهِمَا؛ لِأَنَّهُ أَعْمٌ لِلْمَعْنَى، فَالَّذِي يُغْنِي هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَالَّذِي يُقْنِي هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي هِيَ مَنَاءُ وَالْعُزَّى، بَلْ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾ أتى بضمير الفضل تأكيداً للجُمْلَةِ، ﴿رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾ أي: هُوَ خَالِقُهَا وَمَالِكُهَا وَمُدَبِّرُهَا، وَالشَّعْرَى هِيَ النَّجْمُ الْمَاضِي الَّذِي يَخْرُجُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَنَصَّ عَلَى هَذَا النَّجْمِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا وَيُعْظَمُونَهَا، فَبَيَّنَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ الشَّعْرَى مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَرْبُوبَاتِ وَلَيْسَتْ إِلَهًا، وَلَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ.

• • ❁ • •

الآيات (٥٠-٥٤)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿٥٠﴾ وَأَنْتَ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥١﴾ وَتَمُودًا مَّا أَبْقَى ﴿٥٢﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿٥٣﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٤﴾ فَغَسَّطْنَا مَا غَشَى ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٠-٥٤].

• • • • •

﴿وَأَنْتَ﴾ أي: الله عَزَّجَلَّ ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم قوم هُودٍ، و﴿الْأُولَى﴾ وصف كاشف، وليس وصفًا مُّقْبِداً، يعني ليس هناك عَادٌ أُولَى وعَادٌ ثَانِيَّة، بل هي واحدة، لكنّها عَادٌ قَدِيمَةٌ سَابِقَةٌ؛ ولهذا وَصَفَهَا بِأَنَّهَا الْأُولَى أي: أَنَّهَا الْقَدِيمَةُ السَّابِقَةُ وليس ثمة عَادٌ أُخْرَى، وهم قوم هُودٍ، وكان الله تعالى قد أعطاهم من الْقُوَّةِ وَالنَّشَاطِ وَشِدَّةِ الْبَطْشِ ما ليس لغيرهم، حَتَّى إِنَّهُمْ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، فهؤلاء القوم يَفْتَخِرُونَ بِشِدَّتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ فَأَهْلَكَهُمْ اللهُ بِالطَّفِ الْأَشْيَاءِ، أَهْلَكَهُمْ ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ﴿٦﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعٌ لِّبَالٍ وَثَمَنِيَّةٌ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٧]، ابْتَدَأَتْ مِنْ بَعْدِ الْفَجْرِ وَانْتَهَتْ عِنْدَ الْغُرُوبِ فَصَارَتِ الْأَيَّامُ ثَمَانِيَّةً، وَاللَّيَالِي سَبْعًا، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تَحْمِلُ الْإِنْسَانُ إِلَى الْقَمَّةِ ثُمَّ تَقْدِفُ بِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَصَارُوا ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ والعياذ بالله، فهؤلاء القوم مع شِدَّةِ بَطْشِهِمْ وَشِدَّةِ بَأْسِهِمْ لَمْ يَمْنَعَهُمْ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللهِ عَزَّجَلَّ وَقَوْلِهِ: ﴿وَتَمُودًا مَّا أَبْقَى﴾ أي: وَأَهْلَكَ تَمُودَ وَمَا أَبْقَاهُمْ، وَتَمُودُ هُمْ أَصْحَابُ الْحِجْرِ، أَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ صَالِحًا فَكَذَّبُوهُ، وَكَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ



أعطاهم قوّة، وأعطاهم معرفة وعِلْمًا بهندسة البناء، لكن مع ذلك ما دفعوا ما أراد الله بهم، صِيحَ بهم وَرَجَفَتْ بهم الأرض ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، والعياذُ بالله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ يعني وأهلك قوم نُوح من قبلُ بالغرق، كما قال الله تعالى عن نبيهم نُوح ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ﴾ [القمر: ١٠-١١]، وفي قراءة «ففتّحنا» ممّا يدلُّ على الكثرة وشدة الانفتاح ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ﴾ يعني نازلًا بشدّة: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] الأرض كلّها كانت عيونًا يعني ليس فيها موضع شبر إلّا وهو يفور، حتّى إنّ التَّنُّورَ الَّذِي هو محل الإيقاد صار يفور مع أنّ محل الإيقاد أبعد ما يكون عن الرطوبة لكنّه فارّ، فصارت الأرض كلّها عيونًا والسّماءُ تُمَطِّرُ، والتقى الماء، ماء السّماء وماء الأرض على أمر قد قُدِرَ، يعني أمر مُقدَّر محدّد بدون زيادة ولا نقص، فغرق القوم حتّى بلغ الماء قِمَمَ الجبال.

ويُذكر أنّ امرأةً كان معها صبيّ فكلّمها علّا الماء صعدت الجبل، كلّمها علّا الماء صعدت الجبل، حتّى وصل الماء إلى قِمّة الجبل ووصل إلى المرأة وارتفع إلى جسدها، وكان معها صبيّ، فحملت الصّبيّ على يديها ترفعه، لئلاّ يغرق قبلها، وجاء في الحديث: «لَوْ رَحِمَ اللَّهُ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصّبيّ»<sup>(١)</sup> لكن إذا حقّت كلمة الله فلا رادّ لقضاء الله تعالى، أجازني الله وإياكم من العذاب الأليم، وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَنَ﴾ اختلّف المفسّرون في مرجع الصّмир فقيل: إنّ الصّмир يعود على قوم نُوح فقط.

وقيل: إنّّه يعود على كلّ الأمم الّتي ذكرها الله عزّ وجلّ ممّن أهلكهم.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٣٤٢، ٥٤٧)، وابن أبي حاتم في التفسير (٦/٢٠٢٧ رقم ١٠٨٤٨) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

فعلى القول الأول يكون المعنى أن قوم نوح أظلم وأطغى من قوم ثمود وعاد، ووجه ذلك أنهم حصل منهم عتو واستكبار مع طول المدّة؛ حيث إن نوحاً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۖ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعُمْ فِيءَ إِذْأَنِهِمْ ۖ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا ۖ وَاسْتَعْصَفُوا نِيَابَهُمْ ۖ فَغَطُّوا بِهَا حَتَّى لَا يُبْصِرُوا، وهذا يدلُّ على شدّة كراهتهم لما يدعوهم إليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥-٧]، أي: استكباراً عظيماً فلم يخضعوا لعبادة الله عَزَّجَلَّ، فكانوا أظلم وأطغى من عادٍ ومن ثمود.

وعلى القول الثاني: إن الضمير يعود على كل هؤلاء الأمم، يكون المعنى: أن هؤلاء كانوا أظلم وأطغى من قريش الذين كذبوك يا مُحَمَّدُ، فيكون في هذا تسليّة للرّسول ﷺ بأن الله أهلك هؤلاء القوم مع أنهم أظلم وأطغى من قومك، والذي أهلك من سبق قادر على أن يهلك من لحق، وكلا المعنيين صحيح، فهؤلاء الأمم أظلم وأطغى من قريش، وقوم نوح أظلم وأطغى من عادٍ وثمود.

ثم قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَالْمُؤَنَفَكَةُ أَهْوَى﴾ أي: أسقط، والمؤنفكة هي قري قوم لوط، وأهوى بمعنى أنزل، واختلف المفسّرون في قوله: ﴿أَهْوَى﴾ هل المعنى أنه أهوى بها من فوق إلى أسفل بناءً على أن الله تعالى رفع هذه القرى إلى فوق ثم قلبها، أو أن المعنى أن أهوى أسقطها، أي: أرسل عليها الحجارة حتّى تهدم البناء فصار أعلى البناء أسفله.

المُهم: أن الله تعالى أخبر عن قوم لوط بأنّه أهواهم أي أسقطهم، سواء من

الجو، أو من سُقوط أعلى البناء على أسفله<sup>(١)</sup>.

﴿فَنَسْنَاهَا﴾ أي: غطّاها، ﴿مَا عَشَى﴾ مُبْهَمٌ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ، كقوله تعالى:  
﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلَيمٍ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، أي غَشِيَهُمْ شَيْءٌ عَظِيمٌ، فالإبهام أحياناً يُراد  
به التَّعْظِيمُ وَالتَّهْوِيلُ وَالتَّفْخِيمُ، كما في هذه الآية.



(١) انظر وفقك الله تفسير فضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لسورة الصافات (ص ٢٨٩).

## الآيتان (٥٥، ٥٦)

• • ❦ • •

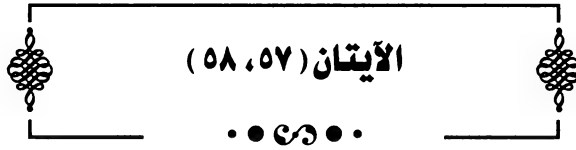
❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَ نَتَامَى ۝ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾

[النجم: ٥٥-٥٦].

• • ❦ • •

﴿فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكَ نَتَامَى﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ و﴿ءَالَآءُ﴾: النعم، و﴿نَتَامَى﴾ أي: تتشكك، أي: بأي نعم الله تتشكك أيها الإنسان، إذ إن الواجب أن الإنسان يُقر بنعم الله ويشكر الله عليها، لا أن يتشكك، ويقول: هذا من عملي، هذا من كذا، هذا من كذا، كما كانت العرب تقول: مُطَرْنَا بِنَوْء كذا وكذا، يعني بالنجم وينسون الخالق عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ المُشار إليه الرَّسُول ﷺ ﴿نَذِيرٌ﴾ بمعنى مُنذِر، والمُنذِر هو الذي يُعلم بالشيء على وجه التَّخْوِيف؛ لأنَّ الإنذار هو إعلام بتخويف، والبشارة إعلام بوجاء: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ ولم يقل (بشير)؛ لأنَّ المقام لا يقتضي إلَّا ذَكَرَ الإنذار، إذ إنَّ الله تحدَّث من أوَّل السُّورَةِ إلى آخرها عن قریش، وتكذيبها للرَّسُول ﷺ وعبادتها للأصنام، فيقول: مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أي: من الرُّسُل السَّابِقِينَ، وكما أنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ حَلَّ بِهِمُ الْعِقَابُ وَالنَّكَالُ فَأَنْتُمْ أَثِمَّا الْمَكْذُبُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُوْشِكُ أَنْ يَحْلَلَ بِكُمْ النَّكَالُ وَالْعُقُوبَةُ؛ لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مثل غيره نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ، فإذا كان نَذِيرًا مِنَ النَّذْرِ فَإِنَّ مَنْ كَذَّبَهُ سَوْفَ يَقَعُ بِهِ مِثْلُ مَا وَقَعَ بِالْأُمَمِ السَّابِقَةِ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَنُصْرَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم: ٥٧-٥٨].



﴿أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ﴾ أي: قُرِبَتِ الْقِيَامَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ<sup>(١)</sup>:

أَزَفَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنْ رِكَابَنَا  
لَمَّا نَزَلَ بِرِحَالِنَا وَكَأَنَّ قُذُنَ

فَالْأَزِفَةُ هِيَ الْقِيَامَةُ؛ لِأَنَّ السَّاعَةَ قَرِيبَةٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْآخَرَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] فَهِيَ قَرِيبَةٌ، وَيَدُلُّ لُقُبُهَا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ الرُّسُلِ، فَمَعْنَاهُ أَنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ، وَأَمَّا كَوْنُ اللَّهِ تَعَالَى يَذْكُرُ أَنَّ الْأَمْرَ قَرِيبٌ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ نُزُولِ الْقُرْآنِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَنَحْنُ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ، وَمَعَ ذَلِكَ يَذْكُرُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنَّ السَّاعَةَ قَرِيبَةٌ، وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ أَنَّ عُمَرَ الدُّنْيَا طَوِيلٌ وَبَعِيدٌ، وَلَكِنْ هَلْ نَأْخُذُ بِقَوْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَخَرَّصُونَ، وَيَقُولُونَ: عُمَرُ الدُّنْيَا الْمَاضِي كَذَا وَكَذَا؟

وَالْجَوَابُ: لَا نَأْخُذُ بِقَوْلِهِمْ، وَلَا نُصَدِّقُهُمْ وَلَا نُنْكَذِّبُهُمْ، أَحْيَانًا يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ عَثَرُوا عَلَى آثَارِ حَيَوَانَ لَهُ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ، أَوْ عَلَى أَحْجَارٍ، فَهَذَا لَا نُصَدِّقُهُ وَلَا نُنْكَذِّبُهُ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ الْمَاضِي، وَإِنَّمَا يَقَيِّسُونَهُ بِحَالِ الْحَاضِرِ، أَيَّ يَقَيِّسُونَ عُمَرَ هَذَا الْآثَرِ بِحَسَبِ الْمُؤَثَّرَاتِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ، لَكِنْ مَنْ يُعْلِمُنَا أَنَّ الْمُؤَثَّرَاتِ فِي

(١) الْبَيْتُ لِلنَّابِغَةِ الذَّبْيَانِي، دِيَوَانُهُ (ص ٨٩).

الوقت الحاضر هي المؤثرات في الوقت الماضي لا ندري، قد يتغير الطقس من حرارة إلى برودة، ومن برودة إلى حرارة، وقد تتغير الرياح والأمطار وغير ذلك، وما نقرؤه أو نسمع به من علوم هؤلاء موقفنا نحوها أن لا نُصدّق ولا نُكذّب.

أما في المستقبل فيجب أن نُكذّب كُلّ مَنْ أخبر عن شيء مُستقبل؛ لأنّه يدّعي الغيب، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، فعليه: ﴿أَرَفَتِ الْآزِفَةَ﴾ أي قربت القيامة لكن هل يُمكن أن نُحدّد مدى القرب؟ لا يُمكن.

وَمَنْ ادّعى أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ فَإِنَّهُ مُكَذِّبٌ لِّلَّهِ وَرَسُولِهِ، أما الله فقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وأما الرسول عليه الصّلاة والسّلام فإنّ جبريل لما سأله قال: «أخبرني عن الساعة؟» قال له النبي ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»<sup>(١)</sup> يعني إذا كنت تجهلها فأنا مثلك، فمن ادّعى أن الساعة تقوم بعد مليون سنة، أو مئة ألف سنة، أو أقل، أو أكثر فإننا يجب علينا أن نُكذّبهِ، ونقول: إنّه كافر؛ لأنّه مُكذّبٌ لله ورسوله.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ لها معنيان:

المعنى الأوّل: كاشفة يعني مانعة، يعني لا أحد يكشفها أي: يَمنعها، كما في قوله: ﴿أَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

والمعنى الثّاني: كاشفة يعني عالمة تكشفها وتُبينها.

وعلى كل حال: فلا أحد يَمنع الساعة إذا شاء الله، ولا أحد اطلع على الساعة متى تكون.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآيات (٥٩-٦٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْبُودُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضَحَكُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦١﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦٢﴾ فَاعْبُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم: ٥٩-٦٢].

• • • • •

﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْبُودُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضَحَكُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦١﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦٢﴾ فَاعْبُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ الخطاب هنا للمُكذِّبين لرسول الله ﷺ، والاستفهام في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْحَدِيثَ﴾ للإنكار والتعجب من هؤلاء المُكذِّبين للرسول ﷺ الذي جاء بالآيات البينات، وأخبر عن الأمم السابقة، وبيَّن أنَّ مُحَمَّدًا رسول الله ﷺ نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولى، ويُحْشَى على مَنْ كَذَّبَهُ أَنْ يَنَالَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَا نَالَ الْمُكذِّبِينَ لِلنُّذُرِ الأولى.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْبُودُونَ﴾ أيها المُكذِّبون للنبي ﷺ، ومعنى ﴿تَعْبُودُونَ﴾ أي: ترونه عجباً مُنْكَرًا؛ ولهذا قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال الله تعالى: ﴿بَلْ يَحِبُّوْنَ أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، فهم يَتَّخِذُونَ ما جاء به الرسول ﷺ عجباً، والمُرَاد عَجَبُ الإنكار والاستبعاد.

﴿وَتَضَحَكُونَ﴾ يعني استهزاء بهذا الحديث الذي هو القرآن، وكذلك يَضْحَكُونَ بشرائع هذا الحديث؛ حيث كانوا يَضْحَكُونَ من رسول الله ﷺ وعبادته وَيَسْخَرُونَ به.

إذن: ﴿تَعْبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء.

﴿وَلَا يَتَّكِنُونَ﴾، أي: لا يَتَّكِنُونَ من هذا الحديث خشيةً وخوفاً وإنابةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ بل هم أقسى النَّاسِ قُلُوباً والعياذ بالله أو من أقسى النَّاسِ قُلُوباً لا تَلِينُ قُلُوبُهُمْ ولا يَبْكُونَ من خشية الله.

﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ أي: غافلون بما تُمارِسونه من اللغو والغناء وغير ذلك؛ لأنَّ منهم مَنْ إِذَا سَمِعُوا كلامَ الله عَزَّوَجَلَّ جَعَلُوا يُغَنُّونَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فسَامِدُونَ قِيلَ: المعنى مُغَنُّونَ، وقيل: المعنى غافِلُونَ، والصَّواب أنَّ المُرَادَ غافِلُونَ عنه بالغناء وغيره ممَّا تَتَلَهَّوْنَ به، حتَّى لَا تَسْمَعُوا كلامَ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا نظير ما قاله المكذَّبون لأوَّلَ رسول أُرْسِلَ إلى بني آدَمَ؛ حيثُ قال الله عَزَّوَجَلَّ عن قوم نوح: ﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصْوَعَهُمْ فِيْءَآذَانِهِمْ﴾ حتَّى لَا يَسْمَعُوا ﴿وَاسْتَعْشَوْا نِيَابَهُمْ﴾ أي: تَغَطَّوْا بها حتَّى لَا يَرَوْا وَلَا يُبْصِرُوا ﴿وَأَصْرُوا﴾ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا [نوح: ٧]، فما كان في أوَّلِ أمة كان في آخر أمة.

﴿فَاتَّبِعُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ اسجدوا لله خُضُوعًا وَذُلًّا، والمُرَادُ بالسُّجُودِ هُنَا الصَّلَوَاتُ كُلُّهَا، وليس الرُّكْنَ الْخَاصُّ الَّذِي هُوَ السُّجُودُ، وليس أيضًا سُجُودُ التَّلَاوَةِ بل هو عامٌّ في كُلِّ الصَّلَوَاتِ.

﴿وَاعْبُدُوا﴾ هذا عامٌّ لِكُلِّ الْعِبَادَاتِ، وَخَصَّ الصَّلَاةَ بِالذِّكْرِ وَقَدَّمَهَا؛ لِأَنَّهَا أَهَمُّ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الظَّاهِرَةِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْعَطْفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى:



﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر: ٤] من باب عطف الخاص على العام.

وبهذا انتهى الكلام الذي من الله به في تفسير هذه السورة (سورة النجم)  
أسأل الله تعالى أن ينفعني وإياكم به.





## سورة القمر

### الآيات (٥-١)

• • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١﴾ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿٢﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ ﴿٣﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٥﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التَّذَرُّؤُا﴾

[القمر: ١-٥].

• • •

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ البَسْمَلَةُ تقدِّمُ الكلامَ عليها.

﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾: ﴿أَقْتَرَبَتِ﴾ بمعنى قُرِبَتْ، لكنَّ العلماء يقولون: إنَّ زيادة المَبْنَى يدلُّ على زيادة المعنى، وهنا اقْتَرَبَتْ فيها زيادة المَبْنَى على قُرِبَتْ، والزيادة: الهمزة والتَّاء، فيدلُّ على أنَّ القُرْبَ قَرِيبٌ جدًّا، فمعنى اقْتَرَبَتْ أي قُرِبَتْ جدًّا، والسَّاعَةُ هي يوم القيامة، وقد قال الله تعالى فيها: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، أي: عَلامَاتُهَا، ومن عَلامَاتِهَا بَعَثَةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ بَعَثَةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وكونه خاتَمَ الأنبياء دليلٌ على أَنَّهُ قد قُرِبَتْ السَّاعَةُ؛ ولهذا حَقَّقَ النَّبِيُّ ﷺ هذا بقوله: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»<sup>(١)</sup> وقال بإصبعه الوُسْطَى والسَّبَابَةَ، والسَّبَابَةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، رقم (٦٥٠٤)، ومسلم: كتاب الفتنة وأشرط الساعة، باب قرب الساعة، رقم (٢٩٥١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قريبة من الوسطى ليس بينهما إلا جزءٌ يسير مقدار الظفر، وهذا يدلُّ على قربها، لكن مع ذلك كم بيننا وبين الرّسول ﷺ؟

نحن في القرن الخامس عشر الهجريّ بعد بعثة الرّسول ﷺ بثلاث عشرة سنة، ومع ذلك ما زالت الدُّنيا باقيةً ممّا يدلُّ على أنّ ما مضى طويل جداً، حتّى إنّ الرّسول ﷺ عند غروب الشّمس قال: «إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا - يَعْنِي بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ سَبَقَكُمْ - إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا»<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ كأنّ الله أشار إلى أنّ هذا من أشراط السّاعة، ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ والمعنى أنّه صار فرقتين تُمَيِّز بعضهما عن بعض، إحداهما على جبل أبي قُبَيْس، والثّانية على جبل قعيقعان، يعني فِلَقَة على الصّفا وفِلَقَة على المروة، والمسافة السّاوية في رؤيا العين ما بين الصّفا والمروة بعيدة جداً، قد تستغرق سنوات، انشقّ القمر بلحظة بأمر الله عزّ وجلّ وتباعدت أجزاءه بلحظة؛ لأنّ قريشاً كانوا يتحدّثون الرّسول ﷺ ويطلبون منه الآيات، وقد قال الله ردّاً عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَلَايْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ؟ [العنكبوت: ٥٠-٥١] لكن لم يكفهم؛ لأنّهم مُعَانِدُونَ لا يُريدون الحقّ، أتوا إلى الرّسول ﷺ عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام قالوا: يا مُحَمَّدُ، أنت تقول إنّك رسول، وإنّك يأتيك الخبر من السّماء وكذا وكذا فأرنا آية، فأشار النّبي ﷺ إلى القمر ودعا ربّه فانفلق فرقتين بلحظة<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب ما أخبر النّبي ﷺ أصحابه بها هو كائن إلى يوم القيامة، رقم (٢١٩١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتِ السَّاعَةَ﴾ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ، رقم (٤٨٦٤)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن يَفْلُقْ هذا الجسم العظيم الأَفْقِيَّ العَالِيَّ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ عَزَّجَلَّ؟! أَرَاهُمْ  
إِيَّاهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَنْفَعَهُمْ، وَقَالُوا: سَحَرْنَا مُحَمَّدٌ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ: سَحَرَ الْقَمَرُ، وَأُنْكِرُوا،  
فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اسْأَلُوا الْمُسَافِرِينَ إِذَا قَدِمُوا هَلْ رَأَوْهُ أَمْ لَا؟ فَصَارُوا يَسْأَلُونَ  
الْمُسَافِرِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ: هَلْ رَأَوْهُ أَمْ لَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، رَأَيْنَاهُ فِي اللَّيْلَةِ الْفُلَانِيَّةِ كَذَا  
وَكَذَا، وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْقَرِيِّينَ مِنْهُمْ كَأَهْلِ الْجَزِيرَةِ مَثَلًا، أَمَّا الْبَعِيدُونَ فَقَدْ لَا يَرُونَهُ.

وَكَمَا نَعْلَمُ الْآنَ أَنَّ اللَّيْلَ هُنَا يَكُونُ نَهَارًا فِي مَكَانٍ آخَرَ، أَوْ لَوْجُودُ غُيُومٍ  
وَضُبَابٍ كَثِيرٍ يَمْنَعُ الرُّؤْيَا، وَلِهَذَا لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا لِأَيِّ عَاقِلٍ أَنْ يُنْكِرَ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ  
انْشِقَاقًا حَسِيًّا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُذَكَّرْ فِي تَارِيخِ الْيُونَانِ، وَلَمْ يُذَكَّرْ فِي تَارِيخِ الْهِنْدِ وَلَمْ يُذَكَّرْ فِي  
كَذَا وَكَذَا، هَذَا لَيْسَ حُجَّةً يَبْطُلُ بِهِ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَنَّ الْقَمَرَ انْشَقَّ  
فِعْلًا انْشِقَاقًا حَسِيًّا.

وَنَحْنُ نُوْمنُ بِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى أَنْ يَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكَتَبِ،  
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَفْلُقَ الْقَمَرَ فِرْقَتَيْنِ، وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ، ﴿وَمَا كَانَتْ لَآلِهَةٍ لِيُعْرِضَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي  
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]؛ وَلِهَذَا لَا وَجْهَ لِلْإِنْكَارِ مَنْ  
أُنْكِرَ ذَلِكَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْأَفْلَاقَ السَّمَاوِيَّةَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ  
تَتَغَيَّرَ، نَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، مَنْ الَّذِي خَلَقَ الْأَفْلَاقَ السَّمَاوِيَّةَ أَلَيْسَ اللَّهُ؟ بَلَى، إِذَنْ هُوَ قَادِرٌ  
عَلَى أَنْ يُغَيِّرَهَا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فَانْشِقَاقُ الْقَمَرِ انْشِقَاقٌ حَسِيٌّ، انْفَلَقَ فِرْقَتَيْنِ، وَرَأَاهُ النَّاسُ وَشَاهَدُوهُ، وَلَكِنَّ  
الْمُكَابِرَ الْمُعَانِدَ لَا يَقْبَلُ شَيْئًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾: ﴿آيَةً﴾ نَكْرَةً فِي  
سِيَاقِ الشَّرْطِ، أَيُّ آيَةٍ يَرُونَهَا يُعْرِضُونَ عَنْهَا وَلَا يَقْبَلُونَهَا، وَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الْإِعْرَاضِ  
وَبَيْنَ الْإِنْكَارِ بِاللُّسَانِ.

﴿يُعِزُّوْا﴾ أي: بقلوبهم وأبدانهم، ويقولوا بألسنتهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، أي: هذا سحر، والسحر لا يؤثر في قلب الأعيان، ولكن يؤثر في رؤية الأعيان، والدليل أن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما ألقى السِّحْرَةَ سِحْرَهُمْ، كان يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى حَيَّةً، وانقلب الوادي كله حَيَّاتٍ تسعى، حتَّى إِنَّ موسى أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مِنْ هَوْلٍ مَا رَأَى، لكنَّ هذه الحبال والعِصْيَ لم تنقلب إلى حَيَّاتٍ، لكن حسب نظر الرائي أَنَّهَا حَيَّاتٍ، فهم يقولون: سَحَرْنَا مُحَمَّدٌ حتَّى كَانَتْ أَعْيُنُنَا تَرَى الْقَمَرَ وَهُوَ وَاحِدٌ تَرَاهُ فِرْقَتَيْنِ.

﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾: ﴿مُستَمِرٌّ﴾، قيل: إِنَّ المعنى زائل ذاهب من مرٍّ بالشَّيء إذا تجاوزَه، يقولون: هذا سحر ولن يَسْتَقِرَّ ولا قَرَار له، وقيل: مُستَمِرٌّ يَعْنِي أَنَّ كُلَّ الآيَاتِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا سِحْرٌ، أَي مُستَمِرٌّ من استمرار الشَّيء ودوام الشَّيء، وَأَيَّا كَانَ فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا وَكَذَّبُوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا﴾، أي: كَذَّبُوا النَّبِيَّ ﷺ، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ.

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: ما يُريدون مِنَ الْبَاطِلِ ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، أي: كُلُّ أَمْرٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَرَارٍ، فَهَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبُونَ قَرَارَهُمُ الذُّلُّ وَالْخُسْرَانُ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّارُ فِي الْآخِرَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ اتَّبَعَهُ أَمْرُهُمْ مُستَقَرٌّ بِالنَّصْرِ والتَّأيِيدِ فِي الدُّنْيَا، وَالْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأُنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ هذه الجُمْلَةُ فِيهَا اللَّامُ وَقَدْ، وَهُمَا مِنْ أَدَوَاتِ التَّوَكِيدِ، وَفِيهَا قَسَمٌ مُقَدَّرٌ دَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾، وَعَلَيْهِ فَتَكُونُ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةً بِثَلَاثَةِ مُؤَكَّدَاتٍ، الْقَسَمُ وَاللَّامُ وَقَدْ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ صَادِقٌ بَغَيْرِ تَوَكِيدٍ لَخَبْرِهِ، لَكِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَاللِّسَانِ

العربيُّ من بلاغته تأكيدُ الأشياءِ المهمّةِ حتّى تثبّت وترسخ في الذّهن، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ أي: قريشًا جاءهم من الأنباء التي فيها رُشْدُهم وصلاحتهم وفلاحهم. ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ازدجار عن الشّرك والعصيان، ولكنّهم لم يتنفّعوا بذلك.

﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ يعني أنّ الأنباء التي جاءتهم حكمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، والحكمة هي تنزيل الشّيء منزله اللائقة به، ولا شك أنّ شريعة الله حكمة كلّها ومُطابِقة لما فيه صلاح العباد في معاشهم ومَعادهم، وقوله: ﴿بَلِغَةٌ﴾ أي: تامّة واصلة إلى الغرض المقصود منها.

﴿فَمَا تُغْنِ الْنُذُرُ﴾: (ما) يَحْتَمِلُ أن تكون نافية، يعني أنّ النُّذُر لا تُغْنِيهم شيئاً، ويَحْتَمِلُ أن تكون استفهاماً على وجه التّوبيخ، يعني فأَيُّ شيء تُغْنِيهم، وكلاهما صحيح، فالنُّذُر لم تُغْنِيهم شيئاً، وإذا لم تُغْنِيهم هذه النُّذُر المُشْتَمِلَة على حكمة بالغة فأَيُّ شيء يُغْنِيهم؟

الجواب: لا شيء؛ لأنّهم مُعَانِدُونَ مُسْتَكْبِرُونَ، لهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.



## الآيات (٦-٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ ٦ ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ ٧ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ [القمر: ٦-٨].

• • • • •

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ الخطاب للرَّسُول ﷺ، تَوَلَّى عَنْ هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ مُسْتَكْبِرُونَ، سَوْفَ يَأْتِيهِمْ مَا وُعِدُوا بِهِ، وَسَوْفَ يَتَحَقَّقُ لَكَ مَا وُعِدْتَ بِهِ.

وَيَحْسُنُ أَنْ يَقِفَ الْقَارِئُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ وَيَقُولُ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾؛ لِأَنَّ الْقَارِئَ لَوْ وَصَلَ لِأَوَّلِهِمْ أَنَّ التَّوَلَّى يَكُونُ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوَلَّى فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَ يَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِي، وَقَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ ظَرْفٌ، وَالظَّرْفُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ، كَالْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَامِلٍ، وَكَجَمِيعِ الْمَفْعُولَاتِ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ عَامِلٍ، فَمَا هُوَ الْعَامِلُ؟

العامل قوله: يَخْرُجُونَ ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾ فِيهِ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أَي: سَوْفَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ يَوْمَ ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ هُوَ دَاعِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ﴾ أَي: مُنْكَرٍ عَظِيمٍ لِشِدَّةِ أَهْوَالِهِ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَنْكَرَ عَلَى النَّفْسِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا لَهُ نَظِيرًا ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ يَعْنِي أَنَّ أَبْصَارَهُمْ خَاشِعَةٌ ذَلِيلَةٌ،



كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ هم الآن مُسْتَكْبِرُونَ رَافِعُونَ رُؤُوسَهُمْ، يَرُونَ أَنَّ النَّاسَ تَحْتَهُمْ، وَأَنَّهُمْ فَوْقَ النَّاسِ، لكن سيأتي اليوم الذي يكونون بالعكس.

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾: (الأجداث) هي القبور، والجراد المنتشر هو المُنْتَشِرُ في الأرض الذي لا يدري أين وجهه ليس له طريق قائمة، لا يعرف كيف ينتهي، ولكنهم مُنتَشِرُونَ، وهذا من أدق التشبيهات؛ لأن الجراد المنتشر تجده يذهب يمينًا ويسارًا لا يدري أين يذهب، فهم سيَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ على هذا الوجه، بينما هم في الدُّنْيَا لهم قائد، ولهم أمير، ولهم مُوجِّه يَعْرِفُونَ طَرِيقَهُمْ، وإن كان طريقًا فاسدًا.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ يعني أَنَّهُمْ مُسْرِعُونَ خَاضِعُونَ الْأَعْنَاقَ، كَالرَّجُلِ إِذَا أَسْرَعَ وَرَكَضَ تَجِدُهُ يُقَدِّمُ رَأْسَهُ يُخَضِّعُهُ، فهم يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي، أي مُسْرِعِينَ خَافِضِي رُؤُوسِهِمْ مِنَ الْفَرْعِ وَالْهَوْلِ وَالشَّدَّةِ ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ وتأمل قوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ ولم يقل: يقول الناس؛ لأنَّ هذا اليوم العَسِيرَ لَا شَكَّ أَنَّهُ فِي حَدِّ ذَاتِهِ عَسِيرٌ شَدِيدٌ عَظِيمٌ، لكنَّه على الكافرين عَسِيرٌ، وعلى المؤمنين يَسِيرٌ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠]، وَأَمَّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ يَسِيرٌ، والله الحمد، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ.



## الآيات (٩-١٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿٩﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَحْنُونا وَازْدُجِرْ ﴿١٠﴾ فَذَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١١﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١٢﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٣﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٤﴾ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ٩-١٧].

• • • • •

ثُمَّ بدأ الله عَزَّجَلَّ بِقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى وَجْهِ مُخْتَصَرٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، لَكِنَّهُ مُؤَثِّرٌ تَأْثِيرًا بِالْغَا، لَوْ قَرَأْتَهَا بِتَمَهُّلٍ وَتَدَبُّرٍ لَوَجَدْتَ أَنَّهَا مُؤَثِّرَةٌ جَدًّا، كَلِمَاتٌ مُخْتَصِرَةٌ لَكِنَّهَا رَادِعَةٌ تَمَامًا.

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وَنُوحٌ هُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ بِدَلَالَةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ أَنَّ إِدْرِيسَ هُوَ الْجَدُّ لِنُوحٍ كَذِبٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَيْسَ قَبْلَ نُوحٍ رَسُولٌ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ<sup>(١)</sup>؛ وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ عَقِيدَتِنَا أَنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾،

نُوح، وأنَّ آخر الأنبياء والرُّسل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ لم يُفَصِّلِ اللهُ عَزَّجَلْ هذا التَّكْذِيبَ، لكنَّه أنزل في ذلك سُورَةَ تَامَّةً وهي سُورَةُ نُوح، فَصَّلَ اللهُ فِيهَا تَفْصِيلًا تَامًا فِي تَكْذِيبِهِمْ وَأَخَذِهِمْ، ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ وهو نُوح وَصَفَهُ اللهُ بِالْعُبُودِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ أَشْرَفُ أَلْقَابِ الْبَشَرِ، وَهِيَ التَّذَلُّلُ لِلَّهِ بِالطَّاعَةِ وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْعُبُودِيَّةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ:

عُبُودِيَّةٌ عَامَّةٌ: تَشْمَلُ جَمِيعَ الْخَلْقِ، وَهِيَ التَّذَلُّلُ لِلأَمْرِ الْكُونِيِّ كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، أَي: مَا كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هَذِهِ حَالُهُ: أَنَّهُ آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا، وَهَذِهِ الْعُبُودِيَّةُ لِلأَمْرِ الْكُونِيِّ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللهِ عَزَّجَلْ الْكُونِيَّ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَفِرَّ مِنْهُ، مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُ.

النَّوعُ الثَّانِي: الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ بِالْمُؤْمِنِينَ: مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، فَهَذِهِ عَامَّةٌ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ.

الثَّالِثُ: الْعُبُودِيَّةُ الْخَاصَّةُ بِالْأَنْبِيَاءِ: وَهَذِهِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾.

وَقَدْ لَبِثَ فِيهِمْ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ، لَكِنَّهُمْ كُلَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى اللهِ لِيَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا قَوْلَهُ، وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ حَتَّى لَا يَرَوْهُ، وَلَا أَبْلَغَ مِنْ هَذَا الْاسْتِكْبَارِ أَنْ يَضَعَ الْإِنْسَانُ يَدَهُ فِي

= رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أُذْنِيهِ حَتَّى لَا يَسْمَعَ قَوْلَ الدَّاعِي، وَأَنْ يَسْتَعِثِّي ثَوْبَهُ فَيَتَغَطَّى بِهِ حَتَّى لَا يَرَاهُ ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ المجنون فاقد العقل الَّذِي يَهْدِي بِمَا لَا يَدْرِي قَالُوا: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وهذه القولة قِيلَتْ لِكُلِّ الرُّسُلِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، و﴿أَوْ﴾ هنا إما للتويع يَعْنِي بعضهم يقول: سَاحِرٌ، وبعضهم يقول: مَجْنُونٌ، أو أَنَّهُمْ يَقُولُونَ هَذَا وَهَذَا.

﴿وَأَزْذِجِرْ﴾ أَي: زُجِرَ زَجْرًا شَدِيدًا، وَالزَّجْرُ هُوَ النَّهْرُ بِشِدَّةٍ وَعُنفٍ، وَالذَّالُ هُنَا مُنْقَلِبَةٌ عَنْ تَاءٍ، وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ زِيَادَةَ الْمَبْنَى تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ زَجِرٌ شَدِيدٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَزْذِجِرْ﴾ يَنْبَغِي أَلَّا تُوَصَّلَ بِمَا قَبْلُهَا؛ لِأَنَّكَ لَوْ وَصَلْتَ وَقُلْتَ: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَأَزْذِجِرْ﴾ لَتَوَهَّم السَّامِعُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَجْنُونٌ وَأَزْذِجِرْ، يَعْنِي زَجَرَهُ غَيْرُهُ، لَكِنَّ الْمَعْنَى خِلَافَ ذَلِكَ، الْمَعْنَى كَذَّبُوهُ وَأَزْذِجَرُوهُ.

فإِذْنِ: الْأَوَّلَى أَنْ تَقِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ ثُمَّ تَصِلْ وَتَقُولَ: ﴿وَأَزْذِجِرْ﴾ فَيَكُونُ هُنَا لَمْ يَقْتَصِرْ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ عَلَى أَنْ كَذَّبُوا بَلْ كَذَّبُوا وَزَجَرُوا وَتَوَعَّدُوا وَسَخَرُوا، وَلَمَّا طَالَ الْأَمْدُ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَتَى مَقْلُوبٌ فَأَنْصَر﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ، كَلِمَتَانِ ﴿أَتَى مَقْلُوبٌ فَأَنْصَر﴾ وَلَقَدْ دَعَا أَهْلًا لِلْإِجَابَةِ جَلَّ وَعَلَا، فَأَجَابَ اللَّهُ قَالَ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا يُمْلَأُ مِنْهُنَّ﴾، وَفِي قِرَاءَةِ «فَتَحْنَا» وَكِلَاهُمَا حَقٌّ.

وَيَنْبَغِي لِمَنْ عِلْمُ الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى أَنْ يَقْرَأَ بِهَذِهِ تَارَةً وَهَذِهِ تَارَةً، بِشَرَطِ أَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ الْعَوَامِّ؛ لِأَنَّ الْعَوَامَّ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمْ قِرَاءَةً خَارِجَةً عَنِ الْمُصْحَفِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ فَتُحَدِّثَ لَهُمْ تَشْوِيشًا، وَرَبَّمَا تَهَيَّطَ مَنْزِلَةُ الْقُرْآنِ فِي نُفُوسِهِمْ، أَوْ يَنْسَبُونَكَ إِلَى الْغُلَطِ وَالتَّحْرِيفِ، لَكِنْ عِنْدَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ وَعِنْدَ التَّعْلِيمِ، أَوْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ يَنْبَغِي أَنْ تَقْرَأَ بِالْقِرَاءَاتِ الثَّابِتَةِ مَرَّةً بِهَذِهِ وَمَرَّةً بِهَذِهِ، كَمَا نَقُولُ هَذَا أَيْضًا فِي الْعِبَادَاتِ

الْمُنَوَّعَةَ تَفْعَلْ هَذِهِ مَرَّةً وَهَذِهِ مَرَّةً، كَالِاسْتَفْتَا حَاتٍ وَنَحْوَهَا.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ﴾ كُلَّ بَابٍ فِي السَّمَاءِ انْفَتَحَ ﴿بِمَاءٍ مُّثْمِرٍ﴾ أَي: مُنْصَبِّ صَبًّا شَدِيدًا، فَكَانَ كَأَفْوَاهِ الْقَرَبِ، لَيْسَ كَالذَّرَّاتِ الْمَعْرُوفَةِ، بَلْ أَشَدُّ.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، أَي عُيُونًا مِنَ الْمِيَاهِ، وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وَلَمْ يَقُلْ فَجَّرْنَا عُيُونَ الْأَرْضِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا كَانَتْ عُيُونًا مُتَفَجِّرَةً، حَتَّى التَّنُّورُ الَّذِي هُوَ أَبْعَدُ مَا يَكُونُ عَنِ الْمَاءِ لِحَرَارَتِهِ وَيُبُوسَتِهِ صَارَ يَفُورُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]، وَفِي هَذَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا لَا يَخْفَى، وَأَنَّ هَذِهِ الْفِيضَانَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ إِنَّهَا تَحْدُثُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَيْسَتْ كَمَا قَالَ الطَّبِيعِيُّونَ: إِنَّهَا مِنَ الطَّبِيعَةِ، يَقُولُونَ: هَاجَتِ الطَّبِيعَةُ، غَضِبَتِ الطَّبِيعَةُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، بَلْ هِيَ بِأَمْرٍ مَنِ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ هُنَا مَاءُان: مَاءٌ نَازِلٌ مِنَ السَّمَاءِ دَلٌّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثْمِرٍ﴾ وَمَاءٌ مِنَ الْأَرْضِ نَابِعٌ دَلٌّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فَلَمَّاذَا لَمْ يَقُلْ فَالْتَقَى الْمَاءُان؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مَاءَ السَّمَاءِ وَمَاءَ الْأَرْضِ؟ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ أَرَادَ الْجِنْسَ؛ لِأَنَّ الْجِنْسَ هُنَا وَاحِدًا، مَاءُ الْأَرْضِ وَمَاءُ السَّمَاءِ، أَوْ يُقَالُ: لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ بِهِذَيْنِ الْمَائَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا وَهُوَ عَذَابُهُمْ صَحَّ إِفْرَادُهُ.

﴿عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ أَي: عَلَى شَيْءٍ قَدْ قَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدَّرَهُ فِي الْأَزَلِّ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يَحْدُثُ إِلَّا وَهُوَ مَكْتُوبٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، يَعْنِي مِنَ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ، وَمِمَّا يَقَعُ فِي الْأَرْضِ كُلِّ شَيْءٍ مُحْصَى؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي: حملنا نوحًا وأهله إلا من سبق عليه القول منهم، وأمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معه، وما آمن معه إلا قليل، حمّله الله على ذات ألواح ودُسُر، يعني على سفينة ذات ألواح ودُسُر، وكان نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يصنعها، فيمرُّ به قومه ويسخرون منه قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨-٣٩].

وهذه السفينة وصفها الله بأنها ذات ألواح، وألواح جمع مُنكَرٌ يدلُّ على شيئين: الشَّيء الأول: كثرة ألواحها، والثاني: عظيمة هذه الألواح، ومَتَانَتِهَا، وحقُّ لسفينة تحمّل البشر على ظهرها أن تكون ذات ألواح عظيمة ﴿ودُسُرٍ﴾ أي: مسامير، وقيل: إنّ الدُّسُر ما تُربط به الأخشاب فيكون أعَمُّ من المسامير؛ لأنَّ الأخشاب قد تُربط بالمسامير وقد تُربط بالحبال.

فالمهمُّ: أن توثيق هذه الألواح بعضها ببعض كان قويًّا، وإنَّما ذكر الله عَزَّجَلَّ مادَّةَ صنْعِ السفينة، وأنَّها من الأخشاب والمسامير، أو الرُّوابط التي تُربط بين تلك الأخشاب، ليكون ذلك تعليمًا للبشر أن يصنعوا السفن على هذا النحو.

﴿تَجْرَى﴾ أي: تسيرُ على هذا الماء العظيم الذي بلغ قِمَمَ الجبال، والتقوى فيه ماء الأرض وماء السماء، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: ونحن نراها بأعيننا، ونكلؤها ونحفظها، والباء في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ للمصاحبة يعني أن عين الله عَزَّجَلَّ تصحب هذه السفينة، فيراها الله عَزَّجَلَّ ويكلؤها ويحفظها؛ لأنَّها سفينة بُنيت لتقوى الله عَزَّجَلَّ وإنجاء أوليائه من العرق، الذي شمل أعداءه.

﴿جَزَاءُ لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾ أي: مُكَافَأَةٌ لِمَن كَانَ كُفْرًا بِهِ وَهُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّ قَوْمَهُ كَفَرُوا بِهِ وَكَذَّبُوهُ، فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ إِنْجَاءَ نُوحٍ بِهَذِهِ السَّفِينَةِ كَانَ جَزَاءً لَهُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ أَكْثَرَ مِنْ إِحْسَانِهِمْ.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ الضَّمِير (ها) اخْتَلَفَ فِيهَا الْمُفَسِّرُونَ هَلِ الْمَعْنَى: وَلَقَدْ تَرَكْنَا هَذِهِ الْقِصَّةَ - وَهِيَ قِصَّةُ نُوحٍ - وَإِغْرَاقَ قَوْمِهِ، أَبْقَيْنَاهَا آيَةً لِمَن يَأْتِي بَعْدَهُمْ، الْوَجْهَ الثَّانِي: وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا، أَي: السَّفِينَةَ، وَالْمُرَادُ الْجِنْسَ، أَيِ جِنْسِ هَذِهِ السَّفِينَةِ أَبْقَيْنَاهَا آيَةً لِمَن بَعْدَ نُوحٍ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مُحْتَمِلٌ.

وَالْقَاعِدَةُ فِي التَّفْسِيرِ: أَنَّ الْآيَةَ إِذَا احْتَمَلَتْ مَعْنَيْنِ لَا يُنَافِي بَعْضُهُمَا الْآخَرَ، وَلَيْسَ أَحَدُهُمَا بِأَرْجَحَ مِنَ الْآخَرِ، فَإِنَّهَا تُحْمَلُ عَلَى الْمَعْنَيْنِ جَمِيعًا.

فَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَرَكَ الْقِصَّةَ آيَةً وَعِبْرَةً لِمَن يَأْتِي بَعْدَ نُوحٍ، وَتَرَكَ السَّفِينَةَ آيَةً وَعِبْرَةً يَصْنَعُ مِثْلَهَا مَن يَأْتِي بَعْدَهُ، وَيُدُلُّ هَذَا الْقَوْلُ وَأَنَّهُ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ، أَنَّ الضَّمَائِرَ أحيانًا تَعُودُ إِلَى الْجِنْسِ لَا إِلَى الْفَرْدِ، نَظِيرَ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿[المؤمنون: ١٢-١٣]﴾، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ آدَمَ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ لَيْسَ آدَمُ هُوَ الَّذِي جُعِلَ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، بَلِ الْإِنْسَانُ الَّذِي هُوَ جِنْسُ آدَمَ، وَهُمْ بَنُو آدَمَ، وَمِثْلُ ذَلِكَ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، لَيْسَتْ الْمَصَابِيحُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ هِيَ الَّتِي تَرْجُمُ الشَّيَاطِينَ، وَلَكِنَّهَا شُهُبٌ تَخْرُجُ مِنْهَا فَتَرْجُمُ الشَّيَاطِينَ.

﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ الاستِفْهَامُ هُنَا لِلتَّشْوِيقِ، يَعْنِي هَلِ أَحَدٌ يَذْكُرُ وَيَتَّعِظُ بِمَا جَرَى لِلْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ وَتَدْمِيرِهِمْ، وَقِيلَ: إِنَّ الْاسْتِفْهَامَ لِلأَمْرِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى

فادَّكروا، وسواء قُلْنَا لِلتَّشْوِيقِ أَوْ لِلأَمْرِ، فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ وَأَنْ نَخْشَى مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَعِقَابُ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ خَاصَّةً لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَشْمَلَهُمْ جَمِيعًا، لَكِنْ قَدْ يَشْمَلُ مَنَاطِقَ مَعِينَةٍ تَوْخَذَ بِالْعَذَابِ بِهَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾: (كَيْفَ) هُنَا لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعَجُّبِ، يَعْنِي: مَا أَعْظَمَ الْعَذَابَ وَالنُّذْرَ! وَقِيلَ: إِنَّ الْإِسْتِفْهَامَ لِلتَّقْرِيرِ، يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ يُقَرِّرُنَا بِالْعَذَابِ وَبِالنُّذْرِ، لَكِنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ أَقْرَبُ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، أَيِ مَا أَعْظَمَ عَذَابِي النَّازِلَ بِأَعْدَائِي، وَمَا أَعْظَمَ نُذْرِي الَّتِي تُنْذِرُ وَتُخَوِّفُ مِنَ الْعِقَابِ أَنْ يَنْزِلَ بِمَنْ خَالَفَ، فَهَذَا الْعَذَابُ الَّذِي حَصَلَ لِقَوْمِ نُوحٍ عَذَابٌ يُعْتَبَرُ مِنَ النُّذْرِ الْمُخَوِّفَةِ لَنَا مِنْ مُحَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يَعْنِي سَهَّلْنَا، وَالْقُرْآنُ هُوَ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَسُمِّيَ قُرْآنًا؛ لِأَنَّهُ يُقْرَأُ أَيِ يُتْلَى، وَقَوْلُهُ: ﴿لِلذِّكْرِ﴾، قَالَ بَعْضُهُمْ: لِلْحِفْظِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ مُيَسَّرَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْفَظَهُ، وَقِيلَ: يَسَّرَ مَعَانِيهِ لِمَنْ تَدَبَّرَ، وَيَسَّرَ الْفَاضِلَ لِمَنْ حَفَظَ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالذِّكْرِ الْإِذْكَارُ وَالِاتِّعَازُ، يَعْنِي أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لِيَتَذَكَّرَ بِهِ وَيَتَّعِظَ بِهِ سَهَّلَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَاتَّعِظَ وَانْتَفَعَ، وَهَذَا الْمَعْنَى أَقْرَبُ لِلصَّوَابِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يَعْنِي: هَلْ أَحَدٌ يَذْكُرُ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ سَهَّلَ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، أَفَلَا يَلِيقُ بِنَا وَقَدْ سَهَّلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أَنْ نَتَّعِظَ وَنَتَذَكَّرَ؟ بَلَى هَذَا هُوَ اللَّائِقُ، فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ.





## الآيات (١٨-٢٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٨﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرِ ﴿١٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿٢٠﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢١﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٨-٢٢].

• • • • •

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ هذه هي الأمة الثانية مَن قصَّهم الله علينا في هذه السُّورة الكريمة، وعَادٌ تتلو قوم نُوح غالبًا، وقد تتقدَّم عليها كما في سُورة (الذَّارِيَات)، ولكن الغالب أنَّ قصَّة نوح هي الأولى في قصص الأنبياء؛ لأنَّه أوَّل نبيِّ أُرْسِلَ إلى أهل الأرض، وعَادٌ هم قوم هُود، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] كَذَّبُوا نَبِيَّهِمْ هُودًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكانوا أقوياء أشدَّاء، وكانوا يفتخرون بشدَّتِهِمْ وقوَّتِهِمْ، ويقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا [فصلت: ١٥-١٦].

يقول هنا: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِيرِ ﴾ والجواب: كان شديدًا عظيمًا واقعًا موقِعَه، فالاستفهام للتفخيم والتعظيم والتقرير، وهو أنَّ عذاب الله كان عظيمًا، وكان واقعًا موقِعَه، ﴿ وَنَذِيرِ ﴾ يعني: آياته، كذلك كانت عظمة واقعة موقِعَها، فبماذا أهلكهم الله؟ أهلكهم الله بالطف شيء وهو الرِّيح الَّتِي تملأ الآفاق، ومع ذلك لا يُحِسُّ

الإنسان بها؛ لأنها سهلة لئِنَّ يَخْتَرِقَهَا الإنسان بسهولة، مكاننا الَّذِي نحن فيه مملوء بالهواء ومع ذلك نَخْتَرِقُهُ ولا نُحِسُّ به، فهي من ألطف الأشياء، فأهلك الله عَادًا الَّذِينَ يَفْتَخِرُونَ بِقُوَّتِهِمْ بهذه الرِّيح.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَخْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ الجملة هنا مؤكدة بأنَّ و﴿أَرْسَلْنَا﴾ يعني الرَّبَّ عَزَّجَلَّ نفسه، وجمع الضَّمير للتَّعْظِيمِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، أي على عَادٍ ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، أي: ذات صرير لقوتها وشدتها، حتَّى إِنَّ مَجْرَدَ نُفُوذِهَا يُسْمَعُ لَهُ صَرِيرٌ، وإن لم تَصْطِدْمِ بما يقتضي الصَّرير؛ لأنها قُوَّةٌ جَدًّا، وهي الرِّيحُ الغَربِيَّةُ، أتت من جهة الغرب لِعَادٍ، فقالوا: هذا عَارِضٌ مُّطَرِنَا، وكانوا قد أُجْدِبُوا قبل ذلك سنوات، فلما أَقْبَلَتْ بِسَوَادِهَا وَعَظَمَتِهَا وَزَجَرَتِهَا قالوا: هذا عَارِضٌ مُّطَرِنَا، ولكنَّ الأمر كان بالعكس، كانت رِيحًا فيها عذاب أليم، كانت رِيحًا عَقِيمَةً ليس فيها مَطَرٌ، ولا يُرْجى أَنْ يَأْتِيَ مِنْهَا مَطَرٌ.

﴿فِي يَوْمٍ نَخْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: في يومِ شُؤْمٍ مُّسْتَمِرٍّ بالنِّسْبَةِ لِعَادٍ، وليس كُلُّ وقت، فالיום الَّذِي أَهْلِكُوا فِيهِ ليس هو نفسه نَحْسًا مُّسْتَمِرًّا، ولكنه بالنِّسْبَةِ لهؤلاء كان يومَ نَحْسٍ مُّسْتَمِرًّا، كما قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿أَغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، هؤلاء أَهْلِكُوا بِالرَّيْحِ فَأَدْخِلُوا النَّارَ، فَالنَّحْسُ أَيُّ الشُّؤْمِ كَانَ مُّسْتَمِرًّا معهم، فعذاب الآخرة مُّتَّصِلٌ بعذاب الدنيا.

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ أي: تَأْخُذُهُمْ بِشِدَّةٍ وَقُوَّةٍ وَتَرْفَعُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ نَسَأَلُ الله العَافِيَةَ حتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: تَرْفَعُهُمْ حتَّى يَغِيبَ الْإِنْسَانُ عَنِ الرُّؤْيَةِ مِنْ عُلُوِّهِ، ثُمَّ تَطَّرَحَهُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا سَقَطُوا عَلَى الْأَرْضِ سَقَطُوا عَلَى أُمَّ رُؤُوسِهِمْ ثُمَّ انْفَصَلَ الرَّأْسُ عَنِ الْجَسَدِ مِنْ شِدَّةِ الصَّدْمَةِ، تَنْزِعُ النَّاسَ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ فِي حَالِ سُقُوطِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ

﴿أَعْبَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ أعجاز أي أصول، والنخل معروف، والمنقعر الساقط من أصله، يعني كأنهم نخل سقط من أصله بقيت جثته، وصاروا كأعواد النخل؛ لأنه ليس لهم رؤوس على ما قال المفسرون؛ حيث إن رؤوسهم انفصلت من شدة الصدمة، فسبحان القوي العزيز، هؤلاء القوم الأشداء الأقوياء وصلوا إلى هذه الحال بريح من عند الله عز وجل تنزع الناس: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْبَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾.

وهنا قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْبَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾، وفي الحاقة قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْبَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، والمعنى متقارب، لكن من بلاغة القرآن أن يجري الكلام فيه على نسق واحد، فهناك ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْبَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ مناسب للفواصل التي في الحاقة، أمّا هنا ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْبَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ مناسب للفواصل التي في سورة القمر؛ لأن تناسب الكلام واتساقه من كمال بلاغته.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿كرّر الله تعالى هذا عند آخر كل قصة من أجل أن نحرص على التذكّر بالقرآن، وتدبّر القرآن، وتفهم القرآن؛ لأنه ميسّر، والجملة مؤكدة بمؤكدات ثلاثة: القسم، واللام، وقد، مما يدل على الترغيب في تذكر القرآن والتذكّر به، فهل من مدكّر، نرجو الله عز وجل أن يجعلنا من المدكرين بكتاب الله عز وجل.﴾



## الآيات (٢٢-٢٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿٢٢﴾ كَذَبْتَ ثُمُودَ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مَتَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا  
لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَهْلَيْ آلِ الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ  
الْكَذَّابِ الْأَشْرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ  
بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا  
عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخِطَرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿٣٢﴾  
[القمر: ٢٣-٣٢].

• • • • •

﴿ كَذَبْتَ ثُمُودَ بِالنُّذُرِ ﴾ أي: بما جاءهم من النُّذُر، وهي الآيات التي جاء بها صالح  
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وديارهم معروفة الآن ببلاد الحِجْر في طريق تبوك من المدينة، وكان  
صالح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُرْسِلَ إِلَى قَوْمِهِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ  
كسائر الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا  
أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ  
الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، أَرْسَلَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ إِلَى قَوْمِهِ، وَأَعْطَاهُ آيَةً وَهِيَ نَاقَةٌ هِيَ نَاقَةُ هَا شَرِبَ  
وَلَهُمْ شَرِب، أَي أَنْ يَشْرَبِ النَّاقَةُ الْكَبِيرَةُ الْغَزِيرَةُ الْمَاءَ.

وقد ذَكَرُوا أَنَّهَا إِذَا شَرِبَتْ إِنَاءً مِنَ الْمَاءِ فَإِنَّ الَّذِي يَسْقِيهَا إِنَاءً مِنَ الْمَاءِ يَحْلِبُ

من لبنها بقدر ما أسقاها، وهذا من آيات الله أن ناقة تشرب ماء ثم تُخْرِجه في الحال لبنًا، فإن هذا ليس له عادة، ولكنها آية من آيات الله عزَّ وجلَّ أراهم الله تبارك وتعالى إياها حتى يعتبروا؛ لأن الله لم يرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، رحمة منه وحكمة؛ لأنه لا يُعقل أن رجلًا من بين الناس يأتي ويقول: إني رسول الله إليكم، إلا إذا آتاه الله آيات تدلُّ على صدقه.

قال العلماء: وما من آية أوتيتها نبي من أنبياء الله السابقين إلا كان لرسول الله ﷺ مثلها أو أشد، ولكن قد تكون غير متوفرة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنها موجودة في أمته الذين اتبعوه.

ولهذا كان من القواعد المقررة عند العلماء: (أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه)؛ لأن هذه الكرامة تشهد بصدق ما كان عليه الولي، وهذا الولي تابع لرسول سابق، فيكون في ذلك آية على أن هذا الشرع الذي عليه هذا الولي حق، وهذه تكون آية للنبي.

وعليه فنقول: من آيات موسى أنه يضرب الحجر، وإذا ضربه انفجر عيونًا، ينبع ماء من حجر يابس، فهل كان لرسول الله ﷺ مثله؟

الجواب: كان له أعظم، فإن النبي ﷺ جيء إليه بقَدَح من ماء وليس مع الناس ماء إلا ما في هذه الرُّكوة فوضع يده فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع يده كالعيون<sup>(١)</sup>، سبحانه الله!

وهذا أعظم من آية موسى؛ لأن آية موسى يخرج الماء من الحجر، وخروج

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأشربة، باب شرب البركة والماء المبارك، رقم (٥٦٣٩)، من حديث جابر رضي الله عنه.

الماء من الحجر معتاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْآنَهَرُ﴾ [البقرة: ٧٤]، لكن لم تجرِ العادة أن يخرج الماء من الإناء الذي بينه وبين الأرض فاصل إذن هذه أعظم، وموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضَرَبَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ أَسْوَاقًا يَابِسَةً، وهذه لا شك آية عظيمة، وجرى لهذه الأمة أعظم من هذه، مشوا على الماء دون أن يضرَبَ لهم طريق يبس، مشوا على الماء المائع الهين الذي يغوص فيه مَنْ يَقَعُ فيه، مشوا بدوابهم وأرجلهم ولم يغرقوا، وذلك في قصّة العلاء بن الحضرمي<sup>(١)</sup>، وفي قصّة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مشوا على الماء، وهذا أعظم من أن يمشوا على الأرض التي تفرّق عنها الماء.

آية صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه النّاقة لها شرب ولثمود شرب، لها يوم ولهؤلاء يوم، وقد وقع مثلها لرسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الهجرة، فإنه مرّ براعي غنم وعنده ماعز أو ضأن ليس فيها لبن، فمسح النبي ﷺ صَرْعَهَا فَجَعَلَتْ تَبَشُّ مِنَ اللَّبَنِ<sup>(٢)</sup>. فالمهم: أنه ما من نبي بعثه الله إلا أعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، قلنا: هذا رحمة وحكمة، رحمة بالناس من أجل أن تحمّلهم هذه الآيات على التصديق فينجو من عذاب الله، وحكمة؛ لأنه ليس من الحكمة أن يقوم إنسان من بين الناس ويقول: أنا رسول الله، حتّى يؤتى آيات.

يقول عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾: (النّذر) جمع نذير، والمراد بها الآيات التي أوتيتها صالح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقالوا من جملة ما قالوا في تكذيبهم ﴿أَبْشَرْنَا مِنَّا وَاحِدًا

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مجابو الدعوة رقم (٤١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٩٥) رقم (١٦٧)، والأوسط رقم (٣٤٩٥)، وأبو نعيم في دلائل النبوة رقم (٥٢١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة رقم (٥٢٢).

نَتَّبِعُهُ ﴿٢٢﴾ أَنْكَرُوا الْآيَاتِ وَمَا كَأَنَّهَا أَتَتْ، يَعْنِي أَنْتَبَعَ بَشَرًا مَنَّا وَاحِدًا، لَا نَقْبَلُ، وَهَذَا النَّفْيُ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ، يَعْنِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَّبَعَ وَاحِدًا مَنَّا ﴿٢٣﴾ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ يَعْنِي إِنَّا إِنْ أَتَبَعْنَاهُ لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ، أَي لَفِيَ جَهْلٌ وَفِي عَذَابٍ، كَأَنَّهُ وَعَدَهُمْ بِأَنَّهُمْ إِنْ أَتَبَعُوهُ اهْتَدَوْا وَنَجَوْا مِنَ النَّارِ، فَقَالُوا بِالْعَكْسِ: لَوْ أَتَبَعْنَاهُ لَضَلَلْنَا وَاحْتَرَقْنَا بِالسُّعْرِ بِالنَّارِ، عَكْسُ مَا قَالَ، وَهَذَا مِنْ أَشَدِّ الْمُرَاعْمَةِ لِلرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْمُحَادَّةُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

﴿أَمْ لَيْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ﴿٢٥﴾ هَذَا أَيْضًا اسْتِفْهَامٌ احْتِقَارٌ، يَعْنِي كَيْفَ يُلْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا، مَا الَّذِي مَيَّزَهُ، وَكُلُّ مَا ذَكَرُوا شُبُهَاتٍ، لَا دِلَالَاتٍ، فَكَوْنُهُ بَشَرًا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ رَسُولًا، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ رَسُولَ الْبَشَرِ بَشَرًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٢٧﴾ [الأنعام: ٨-٩]، يَعْنِي لَوْ أَرْسَلْنَا مَلَكًا لِلزِّمِ أَنْ نَجْعَلَهُ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ حَتَّى يُمَكِّنَ أَنْ يَخْتَلِطَ بِالنَّاسِ وَيَأْتِلِفَ بِهِمْ، وَإِذَا جَعَلْنَا الْمَلَكَ بَشَرًا لَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ، فَعَادَتِ الْمَسْأَلَةُ مُخْتَلِطَةً، الشُّبُهَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنَّهُ مَنَا لَا يَتَمَيَّزُ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ، الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ وَاحِدٌ لَمْ يُؤَيَّدْ، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَهُكُم مُّرْسَلُونَ ﴿٢٩﴾ [يس: ١٣-١٤]، وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: وَاحِدٌ لَا بُدَّ يَعَزِّزُ بَثْنٍ وَثَالِثٍ، الرَّابِعَةُ: ﴿أَمْ لَيْقَى الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾؟ يَعْنِي كَيْفَ يُلْقَى عَلَيْهِ الذِّكْرُ وَالْوَحْيُ مِنْ بَيْنِنَا؟ هَذَا لَا يُمَكِّنُ، أَرْبَعُ شُبُهَاتٍ وَهُمْ يَرُونَهَا حُجَجًا تُوجِبُ رَدَّ صَالِحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْوَاقِعُ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِحُجَجٍ، بَلْ هِيَ شُبُهَةٌ وَتَضْلِيلٌ، وَهَكَذَا الْمُبْطِلُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ يُورِدُونَ الشُّبُهَةَ عَلَى الْحَقِّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ

أَنْ يَبَيِّنَ الْحَقَّ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ.

ثُمَّ قَالُوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾: ﴿بَلْ﴾ هنا لإبطال دعواه أَنَّهُ حَقٌّ ﴿كَذَّابٌ﴾ صيغة مُبالَغة وفي نفس الوقت وَصَفٌ؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ فَعَّالٍ تَأْتِي لِلْمُبَالَغَةِ وَتَأْتِي لِلْوَصْفِ، فَإِذَا قُلْتَ: فُلَانٌ نَجَّارٌ، يَعْنِي مِنَ النَّجَّارِينَ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُرْ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَإِذَا قُلْتَ فُلَانٌ نَجَّارٌ لِكثْرَةِ النَّجَارَةِ صَارَتْ مُبَالَغَةً، فَهَمَّ يَرُونَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ أَنَّهُ كَذَّابٌ مُوصُوفٌ بِالْكَذِبِ، لَيْسَ لَهُ صِفَةٌ إِلَّا الْكَذِبُ، وَكَثِيرُ الْكَذِبِ أَيْضًا ﴿أَشِرٌّ﴾ أَي: بَطَرٌ مُتَعَالٍ، مُتَعَاظِمٌ مُسْتَكْبِرٌ، مُدَّعٍ مَا لَيْسَ لَهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْآشِرُّ﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّيِّئِينَ هُنَا لِلتَّحْقِيقِ وَالتَّقْرِيبِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ سَيَقُومُ زَيْدٌ فَهَذَا تَأْكِيدٌ وَتَقْرِيبٌ أَيْضًا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: التَّحْقِيقُ مَعْرُوفٌ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، لَكِنْ كَيْفَ التَّقْرِيبُ؟

قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [السَّاعَةُ: ٦٣]، وَمِنْ الْأَمْثَالِ الْعَابِرَةِ (كُلُّ آتٍ قَرِيبٌ)، وَالَّذِي بَقِيَ عَلَيْهِ أَلْفُ سَنَةٍ أَقْرَبُ مِنَ الَّذِي لَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ إِلَّا عَشْرُ دَقَائِقَ؛ لِأَنَّ الَّذِي مَضَى عَلَيْهِ عَشْرُ دَقَائِقَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْجِعَ، لَكِنَّ الْمُسْتَقْبَلَ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ ﴿إِنَّ مَأْتُوْعَدُوْكَ لَا۟تٍ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٣٤]، وَسُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ غَدًا؛ لِأَنَّهُ يَأْتِي بَعْدَ يَوْمِهِ.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْآشِرُّ﴾، أَصَالِحُ هُوَ الْكَذَّابُ الْآشِرُّ أَمْ هَؤُلَاءِ؟ وَهَذَا وَعِيدٌ عَظِيمٌ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٢٢٧]، وَالْإِنْسَانُ فِي غَفْلَةٍ عَنْ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا﴾ يَعْنِي



مِنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ، ﴿فِي غَمَرَةٍ﴾ مَغْطَاةٌ عَنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ، ﴿وَلَهُمْ أَثْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] يَعْنِي أَعْمَالُ الدُّنْيَا هُمْ لَهَا عَامِلُونَ، وَأَتَى بِجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ يَعْنِي أَنَّهُمْ مُحَقِّقُونَ لِلْعَمَلِ فِيهَا لَا يَتْرُكُونَهَا وَلَا يُفَرِّطُونَ فِيهَا، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْهَا ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾: ﴿إِنَّا﴾ يَعْنِي نَفْسَهُ جَلَّ وَعَلَا، وَأَتَى بِصِيغَةِ الْجَمْعِ تَعْظِيمًا لَهُ جَلَّ وَعَلَا؛ لِعَظَمَةِ صِفَاتِهِ، وَكَثْرَةِ كَلِمَاتِهِ، وَكَثْرَةِ جُنُودِهِ، فَلِذَلِكَ يُكْنَى عَنْ نَفْسِهِ بِصِيغَةِ التَّعْظِيمِ، ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾، أَي: بَاعِثُوهَا فِتْنَةً لَهُمْ وَابْتِحَارًا، هَلْ يُؤْمِنُونَ أَوْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يُظْهِرُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، حَتَّى إِذَا اسْتَكْبَرَ كَانَ اسْتِكْبَارُهُ عَنْ عِلْمٍ، فَكَانَ عِقَابُهُ أَشَدَّ وَأَوْجَعُ؛ وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ النَّافَةَ فِتْنَةً؛ لِأَنَّهَا أَظْهَرَتْ الْحَقَّ لَهُمْ، وَلَكِنْ لَمْ يَقْبَلُوهُ، وَانْتَبِهَ لِهَذَا الْاسْتِدْرَاجِ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِذَا يَسَّرَ اللَّهُ لَكَ أَسْبَابَ الْمَعْصِيَةِ، فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ اللَّهَ رَبًّا يُسِّرُ أَسْبَابَ الْمَعْصِيَةِ لِلْإِنْسَانِ فِتْنَةً لَهُ، أَرَأَيْتُمْ أَصْحَابَ السَّبْتِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُسِّرَتْ لَهُمْ أَسْبَابُ الْمَعْصِيَةِ فِتْنَةً، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ صَيْدَ السَّمَكِ يَوْمَ السَّبْتِ فَكَانَتِ الْحَيْتَانُ تَأْتِي يَوْمَ السَّبْتِ شُرْعًا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَبِكَثْرَةِ عَظِيمَةٍ، لَكِنَّهُمْ مُلْتَزِمُونَ لَمْ يَصِيدُوا السَّمَكِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ عَجَزُوا عَنْ مَلِكِ أَنْفُسِهِمْ، فَرَجَعُوا إِلَى طَبِيعَتِهِمْ وَهِيَ الْغَدْرُ وَالْحِيلَةُ وَالْمَكْرُ، فَاحْتَالُوا عَلَى صَيْدِ السَّمَكِ، صَارُوا يَجْعَلُونَ شَبَاكًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَتَأْتِي الْحَيْتَانُ وَتَدْخُلُ فِي الشَّبَاكِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْأَحَدِ أَخَذُوا الْحَيْتَانِ، وَهَذِهِ حِيلَةٌ وَاضِحَةٌ، فَقَلْبَهُمُ اللَّهُ قِرْدَةً، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

وَفِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْمُحَرِّمِينَ الصَّيْدَ ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾

فبعث الله الصَّيِّدَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ مُحْرَمُونَ تَنَالَهُ أَيْدِيهِمْ وَرِمَاحُهُمْ، يَعْنِي أَنَّ الَّذِي يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ يَمْسِكُونَهُ بِالْيَدِ مِثْلَ الْأَرْنَبِ وَالْغَزَالِ يَمْسِكُهُ الْوَاحِدُ بِالْيَدِ. وَالطَّائِرُ الَّذِي كَانَ لَا يُنَالُ إِلَّا بِالسَّهْمِ؛ لِأَنَّهُ بَعِيدٌ، صَارَ يَطِيرُ وَكَأَنَّهُ عَلَى الْأَرْضِ، الرُّمَحُ يُدْرِكُهُ، فَتَنَةٌ، فَهَنًا يَسَّرَ اللَّهُ لَهُمْ أَسْبَابَ الْمَعْصِيَةِ، لَكِنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنْهُمْ صَيْدَةً وَاحِدَةً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بَيْنَمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ تَحِيلُوا وَخَادَعُوا اللَّهَ، أَمَّا سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَفَقْنَا اللَّهَ لِمُوَافَقَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا فِي أَعْمَالِهِمْ وَفِي الْآخِرَةِ فِي مَسَاكِينِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا.

وَهَذِهِ النَّاقَةُ أَرْسَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِتْنَةً لِّثُمُودَ لَكِنْ مَا أَغْتَنَهُمْ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ أَي: ارْتَقِبْ عَذَابَهُمْ، أَوْ ارْتَقِبْ أَفْعَالَهُمْ، وَانْظُرْ مَاذَا يَفْعَلُونَ. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ يَعْنِي اصْبِرْ، وَأَصْلُ اصْطَبِرَ (اصْتَبَرَ) بِالتَّاءِ لِلْمُبَالَغَةِ، لَكِنْ قُلِبَتْ التَّاءُ طَاءً لِعَلَّةَ تَصْرِيفِيَّةٍ اقْتَضَتْهَا اللَّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِرُسُولِهِمْ صَالِحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ارْتَقِبْ هَؤُلَاءِ وَاصْطَبِرْ فَالنَّصْرُ قَرِيبٌ.

﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ لَهُ شَرْبٌ وَلِلنَّاقَةِ شَرْبٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كُلُّ شَرِبٍ مُمْخَضٌ﴾، يَعْنِي كُلُّ شَرْبٍ يَحْضُرُهُ مَنْ يَسْتَحِقُّهُ، إِمَّا النَّاقَةُ وَإِمَّا هُمْ، وَبَقُوا عَلَى هَذَا لَكِنْ لَمْ يَسْتَمِرُّوا.

﴿فَادَّأَوْ صَاحِبَهُمْ﴾ الَّذِي يَرُونَهُ قُوًى شُجَاعًا، وَقَالُوا لَهُ: هَذِهِ النَّاقَةُ ضَايَقْتَنَا لَوْ أَنَّهَا عَقَرْنَا هَا لَكُنَّا نَشْرَبُ كُلُّ يَوْمٍ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَعْقِرَهَا نَسْأَلَ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَهَذَا الصَّاحِبُ الْقَوِيُّ الشُّجَاعُ الَّذِي يَرُونَهُ أَشَدَّ مِنْهُمْ إِقْدَامًا، بَقِطْعَ النَّظَرِ عَنْ اسْمِهِ، فَبَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ سَمَّاهُ، لَكِنْ لَا يَهْمُنَا لَمْ يَتَأَخَّرْ، بَلْ بَادَرَ.

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: (تعاطى) تفاعل من العطاء يعنى بذل نفسه وبسرعة، ويدلُّ على السَّريعة الفاء في قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ من حين نَادَوْه، وافق ﴿فَعَقَرَ﴾، عقر النَّاقَةَ نسأل الله العافية قطع أطرافها أولاً، ثُمَّ نَحَرَهَا ثانياً، وهي من آيات الله عَزَّجَلَّ ومن مَصالحهم، لكن نسأل الله العافية، نُفوسُهم لا تقبل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ يقول الله عَزَّجَلَّ مُحَاطَبًا الإنسان: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾؟ هل وقع مَوْقعه؟ وهل كان شديداً؟

الجواب: نَعَمْ، كان في مَوْقعه، وكان شديداً، ما هذا العذاب؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّعَةً وَجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ صَيَّعَ بهم والعياذ بالله مع الرَّجْفَةِ، ففي السَّماء أصوات، وفي الأرض رجفان، أخذتهم الرَّجْفَةُ والصَّيَّعَةُ فأصبحوا في ديارهم جَائِمِينَ، كَانَتْهم لم يَغْنُوا فيها، كَانَتْهم ما وَجِدُوا.

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ يعنى الحِطَار يجعله الإنسان لغنمه فالأعرابي في البادية يجعل على الغنم حِطَارًا من الشَّجر اليابس ومن عِشْب النَّخْلِ، وما أشبه ذلك، لئلا تَخْرُجَ، ولئلا تَعْدُو عليها السَّباع.

هذا الحِطَار مع طُول الزَّمن والشمس والرياح يَتَفَتَّتْ حَتَّى يَتَلَاشَى، كان هؤلاء الأقوياء الأشدَّاء المكذِّبون لرسولهم كانوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ، أي كالْحِطَار حينما يَتَلَفُ، وهذا من آيات الله عَزَّجَلَّ وتَمَام قُدْرته وسُلْطانه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكانوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ سبق تفسيرُها، والمعنى أَنَّ الله تعالى يَسِّر القرآن، أي يَسِّر معانيه لَمَنْ تدبَّره، ويسَّر ألفاظه لَمَنْ حَفِظَه، فإذا اتَّجَهَتْ اتَّجَاهًا سَلِيًّا

للقرآن للحفظ يسره الله عليك، وإذا اتجهت اتجاهًا حقيقيًا إلى التدبر وتفهم المعاني يسره الله عليك.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ وهل للتشويق، يُشَوِّقنا الله عزَّ وجلَّ إلى أن نذكر القرآن فتتَّعظ به، جعلنا الله مَن يَتْلُوهُ حقَّ تلاوته لفظًا ومعنى وعملاً، إنه على كلِّ شيء قديرٌ.



## الآيات (٣٣-٤٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَال لُوطٍ  
 نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنَّا عِندَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا  
 فَتَمَارَوْا بِالَّذِرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ  
 صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسْرَأ الْفِرْعَوْنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن  
 مُّذَكِّرٍ ﴿[القمر: ٣٣-٤٠]﴾.

• • • • •

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾: ﴿ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ هم أناس كفروا بالله عَزَّوَجَلَّ وأشركوا به، وكان  
 مما اختصوا به من المعاصي هذه الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواط، أي إتيان الذكر،  
 وحذّرهم نبيّهم من هذا وقال لهم: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ  
 لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]، ولكنهم والعياذ بالله  
 استمروا على هذا حتّى جاءهم العذاب.

﴿ بِالَّذِرِ ﴾: النَّذر جمع نذير وهي الكلمات التي أنذرهم بها لوطٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،  
 وجمعها يذُلُّ على أنّه كان يُكرّر عليهم هذا، ولكنهم أبوا وأصرّوا على هذا الفعل،  
 فبين الله عقوبتهم بقوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَال لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾: ﴿ حَاصِبًا ﴾  
 أي: شيئاً يَحْصِبُهُم من السَّمَاء، أمطر الله عليهم حجارةً من سِجِّيل، فهدمت بُيوتهم  
 حتّى كان عاليها سافلها؛ لأنّ البناء إذا تهدّم صار أعلاه أسفله.

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾: ﴿إِلَّا لُوطٌ﴾ هم أهل بيته، إِلَّا زوجته كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَأَوَدْنَا فِيهَا عِزْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦] وانظر، نبي يُبعث إلى قومه ولم يتبعه إِلَّا آل بيته إِلَّا امرأته أيضًا فكانت كافرةً ومع ذلك فهو صابر حتى أذن له بالخروج.

﴿بَجَّيْنَهُمْ إِسْحَرٍ﴾ أي: في السحر بالصباح، وذلك أَنَّ هؤلاء القوم أخذهم العذاب صباحًا، كما ابتدأ عذاب عاد بالصباح، سبع ليالٍ وثمانية أيام حُسومًا؛ لأنَّه ابتدأ بالصباح فأخذهم العذاب والعياذ بالله في الصباح، فأهلكهم الله ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾، أي: أنعمنا على آل لوط نعمة من عند الله عزَّ وجلَّ، من وجهين:

الوجه الأول: أَنَّ الله أنجاهم.

والوجه الثاني: أَنَّ الله أهلك عدوَّهم؛ لأنَّ إهلاك العدو من نعمة الله، فصارت نعمة الله على آل لوط بالنجاة وإهلاك العدو ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء، وهو الإنجاء والنعمة ﴿نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ نعمة الله، وشكر نعمة الله تعالى هي القيام بطاعته، وليست مجرد قول الإنسان: أشكر الله، بل لا بدَّ من القيام بالطاعة.

ولهذا من قال: (أشكر الله) وهو مُقيم على معاصيه فإنَّه ليس بشاكر، بل هو كافر بالنعمة مُستهزئ بالله عزَّ وجلَّ، إذ إنَّ مقتضى النعمة أن يشكر الله، ولكنَّه عكس الأمر، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنسَوْنَ أَلْقَارُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]، فكلُّ مَنْ شَكَرَ الله فَإِنَّ الله تعالى يُنجِّيه ويُهْلِك عدوَّه.

﴿وَلَقَدْ أُنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ يعني أَنَّ لوطًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُنذر قومه البطشة،

وهي الأخذ بالقوة ﴿فَتَمَارَوْا بِالْأُنْذُرِ﴾ أي: تشككوا فيه ولم يؤمنوا به، ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ﴾، أي: راودوا لوطاً عن صيفه الذي جاء إليه من الملائكة، وكان الله تعالى قد بعث إليه الملائكة على صورة شباب مُرد، ذوي جمال وهيئة، امتحاناً من الله عزَّ وجلَّ، فلما سمع قوم لوط بهؤلاء الضيف أتوا يُهرعون إليه يُسرِّعون، يريدون هؤلاء الضيف، ليفعلوا بهم الفاحشة والعياذ بالله.

﴿نَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: فطمس الله أعينهم، أمّا كيف طمس أعينهم هل جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه أو غير ذلك؟ الله أعلم، إنّما علينا أن نؤمن بأن الله تعالى طمس أعينهم، حتّى أصبحوا لا يبصرون.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ الأمر هنا للامتهان، أو إنّه أمرٌ كوني، يعني أنّ الله أمرهم أمر إهانة، أو أمراً كونياً أن يذوقوا العذاب، ومثل هذا قول الله تبارك وتعالى عن صاحب الجحيم ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، فإنّ هذا الأمر أمر إهانة بلا شك، وليس أمر إكرام ولا أمر إباحة.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ يعني أنّ العذاب صَبَّحَهُمْ أتاهاهم في الصباح على حين قيامهم من النوم، واستقبالهم يومهم وهم فرحون، كلّ واحد منهم يُفكّر فيما يفعل هذا اليوم، فإذا بالعذاب يقع بهم، نسأل الله العافية.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ من العبر في هذه الآية أنّ هؤلاء الذين قلب الله فطرتهم وطبيعتهم قلب الله عليهم البُنيان برميهم بحجارة من سجيل، فتهدم البُنيان حتّى صار أعلاه أسفله، وقيل: إنّ الله تعالى قلب بهم ديارهم اقتلعها من أساسها حتّى رفعها ثم قلبها، فإنّ صحَّ هذا فالله على كلّ شيء قدير، وإن لم يصحَّ فليس لنا إلّا أن نأخذ بظاهر القرآن، أنّهم أمطروا بحجارة

من سَجِيل، فتهدّم البناء عليهم<sup>(١)</sup>.

وأخذ أهل العلم من ذلك أنَّ اللُّوطِيَّ يُقْتَلُ بكلِّ حال، الفاعل والمفعول به، وهذا هو القول الرَّاجح أنَّ اللُّوطَ يجب فيه القتل على كل حال وليس كالزَّنا، فالزَّنا يُفَرَّقُ فيه بين المتزوّج وغير المتزوّج، أمّا اللُّوطُ فيُقْتَلُ فيه على كلِّ حال ما دام الفاعل والمفعول به بالغين عاقلين، فإنّه يَجِبُ قتلها بكلِّ حال إلا المكره، فليس عليه شيء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ<sup>(٢)</sup>: أجمع الصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على قتل الفاعل والمفعول به، إلّا أنّهم اختلفوا كيف يُقْتَلان، فقال بعضهم: يُقْتَلان بالرَّجم بالحجارة حتّى يموتا، وقال بعضهم: يُقْتَلان بأن يُلقيا من أعلى مكان في البلد ويُتبعان بالحجارة، وحرّق أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اللُّوطِيَّ بالنَّار، وكذلك خالدُ بنُ الوليد<sup>(٣)</sup> وأحدُ خلفاء بني أُمَيَّة<sup>(٤)</sup> حرّقوهم بالنَّار لعِظَم جُرْمهم، والعياذ بالله؛ ولأنَّ هذه الفاحشة إذا انتشرت في قوم صار الرِّجال نساء، وصار الواحد منهم يتَّبَعُ فُحُول الرِّجال حتّى يفعلوا به الفاحشة والعياذ بالله، وانقلبت الأوضاع وضاع النّسل بمعنى أنَّ النَّاسَ يَنْصَرِفُونَ إلى الذُّكور، وَيَدْعَوْنَ النِّسَاءَ اللَّاتِي هُنَّ حَرْتٌ للرِّجال، والتَّحَرُّزُ منه صعب؛ لأنّه لا يُمكن أن نجد اثنين ونقول: كيف صَحِبَتْ هذا؟ لكن لو وجدنا رجلاً وامرأة يُمكن التَّحَرُّزُ منهما، فلذلك كان دواء المجتمع من هذه الفعلة القبيحة الشَّنيعة أن يُقْتَلَ الفاعل والمفعول به.

(١) انظر تفسير فضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ سورة الصافات، الآيات: ١٣٣-١٣٨.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/٥٤٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي رقم (١٤٠)، والخراطي في مساوئ الأخلاق رقم (٤٢٨)،

والآجري في ذم اللواط رقم (٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/٢٣٢).

(٤) هو هشام بن عبد الملك، وانظر التخريج السابق.



وقد جاء في ذلك حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ يَحْتَرِزُ مِنْ هَذَا غَايَةَ الْحَرَّازِ، وَأَنْ تَنْفَقِدَ أَبْنَاءَنَا أَيْنَ ذَهَبُوا وَمِنْ أَيْنَ جَاءُوا، وَمَنْ أَصْدَقَاؤُهُمْ، وَهَلْ هُمْ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ أَوْ لَا، حَتَّى نَحْمِيَ الْمَجْتَمَعَ مِنْ هَذَا الْعَمَلِ الْخَبِيثِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ يَسِّرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ لِحِفْظِهِ وَلِفَهْمِ مَعْنَاهُ، وَهَذَا الْخَبَرُ يُرَادُ بِهِ الْحَثُّ عَلَى حِفْظِ الْقُرْآنِ وَعَلَى تَدَبُّرِ مَعْنَاهُ؛ لِأَنَّهُ مُيسَّرٌ سَهْلٌ، وَأَنْتَ جَرَّبٌ تَدَبَّرْ فِي آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ لَتَفْهَمَ مَعْنَاهَا، وَانْظُرْ كَيْفَ يُيسِّرُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ لَكَ فَهْمَهَا حَتَّى تَفْهَمَ مِنْهَا مَا لَا يَفْهَمُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾؟ وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّشْوِيقِ، وَالْمَعْنَى هَلْ أَحَدٌ يَذْكُرُ وَيَتَّعِظُ بِمَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.



(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، رقم (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

## الآيتان (٤١، ٤٢)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (٤١) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْدِرٌ﴾ [القمر: ٤١-٤٢].

• • ❦ • •

﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ الجملة مؤكدة بالقسم المقدّر واللام وقد، ﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ يعني قومه وعلى رأسهم فرعون، كما أخبر الله تعالى في آيات أخرى متعددة أنه أرسل موسى إلى فرعون وملئه.

والنُّذُر قيل: بمعنى الإنذار والتَّخْوِيف. وقيل: إنه جمع نذير وهو كُلُّ ما يُنذَر به العبد، والمراد به الآيات التي جاء بها موسى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وهذا الأخير هو الصَّحِيح أَنَّ النُّذُر جمع نذير، وليست بمعنى الإنذار، ويدلُّ لهذا قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ أي: كل الآيات الدَّالَّة على صدق رسالة موسى ﷺ، كَذَّبُوا بها وقالوا: إِنَّ موسى مَجْنُون، وإنَّه ساحر، حتَّى إِنَّ فِرْعَوْنَ مِنْ كِبْرِيَاءِهِ قَالَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ولما كَذَّبُوا بِالآيَاتِ أَخَذَهُمُ اللَّهُ ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ﴾ أي: غَالِب، ﴿مُقْدِرٌ﴾ أي: قَادِر، ولكنها أبلغ من كلمة (قادر) لما فيها من زيادة الحُرُوف، وإنما ذَكَرَ اللهُ تعالى أَنَّهُ أَخَذَهُمُ ﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْدِرٌ﴾؛ لأنَّ فرعون كان مُتَكَبِّراً، وكان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وكان يَسْحَرُ مِنْ موسى وَمَنْ أَرْسَلَهُ، فَنَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ اللهُ تعالى أَخْذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ

مُقتدر، وقد أجمل الله تعالى هذه القصّة في هذه الآية، ولكنه بيّنها في آيات كثيرة، وأنّ أخذهم كان بإغراقهم في البحر، فأغرقه الله عزّ وجلّ بمثل ما كان يفتخر به؛ لأنّه كان يقول لقومه: يا قوم أليس لي مَلِكٌ مِصرَ وهذه الأنهار تجري من تحتي، يُقرّرهـم بهذا، سيقولون: بلى، أفلا تُبصرون، ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، يعني بذلك موسى، فأغرقهم الله في اليمّ حين جمّع فرعون جُنوده واتّبع موسى ومن اتّبعه ليَقْضِي عليهم، ولكنّ الله بحمده وعِزّته قَضَى عليهم.



الآيات (٤٣-٤٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿٤٣﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٣-٤٥].

• • • • •

ثم قال تعالى: ﴿ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ ﴾ الخطاب هنا لقريش، أي: يعني هل كفاركم خير من هذه الأمم السابقة التي أهلكها الله؟  
﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ يعني أم لكم براءة في الكتب أن الله مبرئكم من عاقبة أفعالكم؟

والجواب: لا هذا ولا هذا، يعني إما أن يكون كفاركم خيراً من الكفار السابقين، وإما أن يكون لكم براءة من الله عزَّجَل كتبها الله لكم ألا يُعاقِبكم، وكلُّ هذا لم يكن، فليس كفارهم خيراً من الكفار السابقين، وليس لهم براءة في الزُّبُر.

ولهم دعوى ثالثة ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴾: ﴿ أَمْ ﴾ هنا بمعنى (بل) الإضرابية، وهي إضراب الانتقال، يعني: بل يقولون نحن، والضَّمير لقريش ﴿ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴾ جميع هنا بمعنى جمع؛ ولهذا قال ﴿ مُنْتَصِرُونَ ﴾، ولم يقل (مُنتصرون)، يعني جمع كثير مُنتصِر على مُحَمَّد وقومه، هذا معنى كلامهم، فأعجبوا بأنفسهم، وظنوا أنهم قادرون على القضاء على مُحَمَّد ﷺ ورسالته، فإذا كان جوابهم من الله تعالى؟

قال الله تعالى: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ أي: يُخَذِّلُونَ شَرَّ خَذِيلَةٍ، وَيُولُونَ الدُّبْرَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْمَقَاوِمَةَ وَلَا الْمُدَافَعَةَ وَلَا الْمُهَاجِمَةَ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ، وَلَكِنْ لَا انْتِصَارَ لَهُمْ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَأَوَّلُ مَا وَقَعَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حِينَ اجْتَمَعَ كُبْرَاؤُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ وَصَنَادِيدُهُمْ فِي نَحْوِ مَا بَيْنَ تِسْعِ مِائَةٍ إِلَى أَلْفِ رَجُلٍ، فِي مَقَابِلِ ثَلَاثِ مِائَةٍ وَبِضْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَهَزَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شَرَّ هَزِيمَةٍ، وَتَحَدَّثَتْ بِهِمُ الْأَخْبَارُ، وَأُلْقِيَ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ نَفَرًا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ فِي قَلْبٍ مِنْ قُلُبِ بَدْرِ خَبِيثَةٍ مُتَتِنَةٍ، وَهَذِهِ شَرُّ هَزِيمَةٍ لَا شَكَّ، وَلِذَا قَالَ: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾، هَذِهِ عُقُوبَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾.



## الآيات (٤٦-٤٩)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٦﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٧﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٨﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٩﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٦-٤٩].

• • ❦ • •

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ يَعْنِي أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ مَوْعِدُهُمْ وَهُوَ يَوْمَ الْبَعْثِ.

﴿ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ أَي: أَشَدُّ فَتْكَاً، وَأَمَرُّ مَذَاقاً؛ لِأَنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مُبَيِّنًا مَاذَا يَحْدُثُ لَهُمْ وَلَأَمْثَالَهُمْ فَقَالَ: ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ الضَّلَالُ فِي الدُّنْيَا لَا يَهْتَدُونَ، وَالسُّعُرُ فِي الْآخِرَةِ، أَي: فِي نَارٍ شَدِيدَةِ التَّأْجِجِ تَحْرِقُهُمْ، كُلَّمَا نَضَّجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّهِمْ اللَّهُ جُلُودًا غَيْرَهَا، لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ أَي: فِي ضَلَالٍ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي يَهْتَدُونَ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا فِي الدُّنْيَا فَضَلُّوا فِي الْآخِرَةِ.

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ يُسْحَبُونَ سَحَبًا كَمَا تُسْحَبُ الْجِيفَةُ، لِيُبْعَدَ بِهَا عَنِ الْمَنَازِلِ، وَلِيَسُوا يُسْحَبُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَلَكِنْ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَيُقَالُ: ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ وَلَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوَةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الزمر: ٢٤]، أَي: الَّذِي يَتَّقِي بِوَجْهِهِ وَكَانَ يَتَّقِي فِي الدُّنْيَا

الحرَّ بيديه لوقاية وجهه، لكنَّه في النَّارِ ليس له ما يقي وجهه النَّارَ، بل يَتَّقِي وجهه نسأل الله العافية، فهم يُسْحَبُونَ في النَّارِ على وجوههم، وهذه ليست أساطير الأولين، وليست قصصًا تُقال، هذه حقيقة نشهد بها والله كأننا نراها رَأْيَ الْعَيْنِ، لا بُدَّ أن يكون هذا لكلِّ مجرم.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ السَّاحِبُ هم الملائكة الموكِّلون بهم؛ لأنَّ للنَّارِ ملائكة موكِّلين بها، ويُقال: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾، انظر إلى الإذلال: جسدي وقلبي، الجسديُّ هو أنَّهم يُسْحَبُونَ على وُجُوهِهِمْ، والقلبيُّ أنَّهم يُوبَّخُونَ، ويُقال: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾: ﴿مَسَّ﴾ أي: صلاها، وسَقَرَ من أسماء النَّارِ نسأل الله العافية، ثُمَّ قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾ لما ذَكَرَ عذاب أهل النَّارِ ثُمَّ سيذكر نعيم أهل الجنَّة، ذَكَرَ بينهما أنَّ هذا الخلق وتفاوته بِقَدَرِ الله عَزَّجَلَّ فكلُّ شيء مخلوق فهو بِقَدَرٍ، كل ذرَّة في رملة فهي مخلوقة بِقَدَرٍ، وكلُّ نقطة تقع على الأرض من السَّحاب فهي مخلوقة بِقَدَرٍ، وكلُّ شيء تَعُمُّ ما سوى الخالق؛ لأنَّه ما ثَمَّ إلا مخلوق وخالق، فإذا كان كلُّ شيء مخلوقًا كان الخالق وحده الأوَّل الَّذي ليس قبله شيء، والآخر الَّذي ليس بعده شيء، والظاهر الَّذي ليس فوقه شيء، والباطن الَّذي ليس دونه شيء.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزَ وَالْكَيْسَ»<sup>(١)</sup> العجز يعني تكاسل الإنسان، والكيسُ يعني حزم الإنسان ونشاطه في طَلَبِ ما يَنْفَعُهُ والبُعدُ عَمَّا يَضُرُّهُ، وفي هذه الآية الكريمة دليل على أنَّ الإنسان مخلوق لله تعالى، وأنَّ أفعاله مخلوقة لله، وأنَّ كُلَّ شيء قد قُدِّرَ وانتهى، وإذا كان كذلك فيلجأ الإنسان إذا أصابته ضراءٌ إلى الله الخالق، وإذا أراد السَّراءَ أيضًا يُلْتَجَى إلى الله الخالق، لا يَفْخَرْنَ وَيَعْجَبْنَ بِنَفْسِهِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، رقم (٢٦٥٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إِذَا حَصَلَ لَهُ مَطْلُوبٌ، وَلَا يَيَأْسُنَ إِذَا أَصَابَهُ الْمَكْرُوبُ، فالأمر بيد الله.

ولهذا قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ»<sup>(١)</sup> القوي في إيمانه، والقوي في إرادته وهِمَّتِه ونشاطه، وليس المراد القوي في بَدَنه، فقوة البدن إمَّا لك وإمَّا عليك، إن استعملتها في العمل الصالح فهي لك، وإن عجزت عنه مع فعلك إيَّاه في حال القوة كتب لك، وإن استعملت هذه القوة في معصية الله كانت عليك، لكن المراد بقوله ﷺ: «الْقَوِيُّ» أي: في إيمانه وإرادته، إمَّا قوة البدن فهي لك أو عليك، قال: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ» أي: في كلٍّ من القوي والضعيف خير، وهذه الجملة يُسمِّيها علماء البلاغة جملة احترازية؛ لأنَّه لما قال: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» يظنُّ الظَّانُّ أنَّ المؤمن الضَّعِيف ليس فيه خيرٌ، فقال: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ»، ولها نظائر، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ يعني من قبل صلح الحديبية ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠] كَلَّا من هؤلاء وهؤلاء، يعني فلا تظنوا أنَّ هذا التفاوت يخطُّ من قدر الآخرين ويحرِّمهم الخير، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

فهنا قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، اخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ»<sup>(٢)</sup> فإذا فعلت ذلك،

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



حَرَصْتُ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعْنَيْتَ بِاللَّهِ، وَكُنْتَ حَازِمًا نَشِيطًا وَقَوِيًّا فِي مُرَادِكَ، إِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ يَعْنِي هَذَا قَدَرُ اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ، أَنْتَ عَلَيْكَ أَنْ تَسْعَى لِلْخَيْرِ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ يَتِمَّ لَكَ مَا تُرِيدُ.

المهم: أَنْ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ، فَمَنْ قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ الْهُدَايَةَ، وَمَنْ قَدَّرَ لَهُ الشَّقَاءَ فَهُوَ بِقَدَرٍ، وَلَكِنْ السَّبَبُ لِتَقْدِيرِ اللَّهِ الشَّقَاءَ عَلَى الْعَبْدِ هُوَ نَفْسُ الْعَبْدِ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].



## الآية (٥٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

• • • • •

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ يعني ما أمرنا فيما نريد أن يكون ﴿إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ أي: إلا مرة واحدة، بدون تكرار ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ بدون تأخر، سبحانه الله، أمر الله عزَّوجلَّ واحدة لا تكرار، بسرعة فورية أسرع ما يُمكن أن يكون كَلَمْحٍ لِلْبَصَرِ، كُن فيكون، واشتهر عند العوامَّ يقولون: يا مَنْ أمره بين الكاف والنون، وهذا غلط ليس أمر الله بين الكاف والنون، بل بعد الكاف والنون؛ لأنَّ الله قال: كُن فيكون، بعد كُن، فقولهم بين الكاف والنون غلط؛ لأنَّه لا يتم الأمر بين الكاف والنون، بل لا يتم الأمر إلا بالكاف والنون، أي بعد الكاف والنون فوراً كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ.

وإن شئت أن ترى عجائب ذلك فانظر إلى الزلازل تُصيب مئات القرى، أو آلاف القرى وبلحظة واحدة تعدِّمها، لو جاءت المعاولُ و(الدركترات) والقنابلُ ما فعلت مثل فعل لحظة واحدة من أمر الله عزَّوجلَّ، واسأل الخبراء بالزلازل تجد الجواب، وانظر إلى ما هو أعظم من ذلك، الموتى في قبورهم، والحشرات والحيوانات وكل الأشياء تُبعث يوم القيامة بكلمة واحدة، كما قال جلَّ وعلا: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، صَيْحَةً واحدة فقط، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾، كُلُّهُمْ ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا ﴿مُحْضَرُونَ﴾ فصدق الله عزَّوجلَّ وعده ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ مثل لمح البصر.

## الآية (٥١)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ﴾ [القمر: ٥١].

• • •

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ﴾ الخطابُ لكُفَّار قريش، وقوله: ﴿ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أي: أشباهكم من الكُفَّار السابقين، وقد قصَّ الله سُبحَانَهُ وتعالى في هذه السُّورة مِنْ نَبِيَّهِمْ ما فيه عِبْرَةٌ وعِظَةٌ، قصَّ علينا ما حصلَ لقوم نوح، وما حصلَ لعادٍ، ولثمودَ، ولقوم لوط، ولآل فرعونَ، وفي هذا مُدَكِّيرٌ لِمَنْ أرادَ الادِّكارَ؛ ولهذا قال: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ ﴾، يعني هل من مُتَنَعِّظٍ ومُعتَبِرٍ بما جرى على السابقين أن يجري على اللاحقين؛ لأنَّ الله سُبحَانَهُ وتعالى ليس بينه وبين عباده مُحَابَاةً أو نَسَبَ، بل أكرمهم عند الله أتقاهم له من أي جنس كان، وفي أيِّ مكان كان، وفي أيِّ زمان كان، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى ﴾ [الحجرات: ١٣].

• • •

الآية (٥٢)

• • • • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ كُلُّ مُبْتَدَأٍ ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ خَبَرُهُ، وليس هذا من باب الاشتغال، بل هو خبر مُحَضَّرٌ؛ لِأَنَّ (كُلَّ) لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا لَفَعَلُوهُ، بل هي مُبْتَدَأٌ.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أَي: فَعَلْتَهُ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ، أَوِ الْأُمَمُ اللاحقة، فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ ﴿فِي الزُّبُرِ﴾ أَي فِي الْكُتُبِ، وَكِتَابَةُ الْأَعْمَالِ كِتَابَةٌ سَابِقَةٌ، وَكِتَابَةٌ لَاحِقَةٌ، وَالْكِتَابَةُ السَّابِقَةُ كِتَابَةٌ عَلَى أَنَّ هَذَا سَيَفْعَلُ كَذَا، وَهَذِهِ الْكِتَابَةُ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ لَمْ يَكْلَفْ بِهَا بَعْدَ، وَكِتَابَةٌ لَاحِقَةٌ وَهِيَ كِتَابَةٌ أَنَّهُ فَعَلَ، فَإِذَا فَعَلَ الْإِنْسَانُ حَسَنَةً كَتَبَهَا اللَّهُ، وَإِذَا فَعَلَ سَيِّئَةً كَتَبَهَا اللَّهُ، وَهَذِهِ الْكِتَابَةُ اللاحقة هي الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَبِمَا قَرَّرْنَاهُ يَزُولُ الْإِشْكَالُ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَشْكُلُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ، كَيْفَ يَقُولُ عَزَّوَجَلَّ ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ وَهُوَ قَدْ عَلِمَ؟ فَيُقَالُ: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ يَعْنِي الْعِلْمَ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ، وَأَمَّا عِلْمُ اللَّهِ السَّابِقُ فَإِنَّهُ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَلَا الْعِقَابُ.

وَالْكِتَابَةُ السَّابِقَةُ مَعْنَاهَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كُلَّ شَيْءٍ،

كما جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّي وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.

فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، نؤمن بهذا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ ابْنَ الْأَرْضِ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، أمّا الكتابة اللاحقة فهي أن الله عز وجل إذا عمل الإنسان عملاً كتبه، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٢﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩-١١]، وهذه الكتابة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ومعنى الآية: أن كل شيء يفعله الإنسان فإنه مكتوب، فلا تظن أنه يضع عليك شيء أبداً، كما قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَدُّونَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، سبحانه الله، بعد مئات السنين التي لا يعلمها إلا الله يجدونه حاضراً، لا يظلم ربك أحداً.



(١) أخرجه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، رقم (٢١٥٥)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٥٣)

• • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣].

• • •

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ كلُّ صغير وكبير ممَّا يحدث في هذا الكون من المخلوقات، وأوصافها، وأعمالها، ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾، أي: مُسَطَّرٌ في الكتاب العزيز، اللُّوح المحفوظ، كل صغير وكبير حتَّى الشوكة يُشاكها الإنسان تُكْتَب، حتَّى ما يَزِن مِثقال ذرَّة من الأعمال يُكْتَب، كل صغير وكبير، وإذا آمَنت بذلك، ويَجِب عليك أن تؤمن به، فإنه يَجِب عليك الحَذَرُ من المُخالفة، فإِيَّاكَ أن تُخالف بقولك، أو فِعْلِكَ، أو تَرْكِكَ؛ لأنَّ كُلَّ شيء مكتوب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وما يفعل من فعل كذلك لديه رَقِيبٌ عَتِيدٌ؛ لأنَّه إذا كانت الأقوال تُكْتَب وهي أكثر بآلاف المرات من الأفعال، فما تَنطِق به لا يُحصى، فإذا كانت الأقوال تُكْتَب، فالأفعال من بابِ أُولَى، فعليك أن تتَّقِيَ الله عَزَّوَجَلَّ ولا تُخالف الله، إذا سمعت الله يقول خبراً، فقل: آمَنت به وصدَّقت، وإذا سمعت الله يقول شيئاً أمراً، فقل: آمَنت به سَمِعاً وطاعة، نهياً آمَنت به، وسمِعاً وطاعة. فاترك المنهي عنه، وافعل المأمور به.

• • •

## الآيتان (٥٤، ٥٥)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

• • ❦ • •

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ هذا مقابل قوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ الجنَّات جمع جنة، وقد ذكر الله تعالى أصنافها في سورة الرحمن فقال: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢] فهي إذن أربع ذكرها الله في سورة الرحمن.

إذن: ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ يعني في هذه الجنَّات الأربع، هذه الأصناف لكن أنواعها كثيرة، والجنَّات تُفسَّرُ بِأَنَّهَا شَرَعًا هِيَ: (الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ، فِيهَا مَا لَا عَيْنُ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ)، لكن عندما تقرأ قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ تفسِّرُ الْجَنَّةَ بِأَنَّهَا الْبُسْتَانُ الْكَثِيرُ الْأَشْجَارِ، وعندما تقرأ: ﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهُمَا﴾ [الكهف: ٣٣] تفسِّرُ بِأَنَّهَا بَسْتَانُ كَثِيرُ الْأَشْجَارِ، لكن لا تُفسِّرُ جَنَّةَ النَّعِيمِ فِي الْآخِرَةِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ؛ لِأَنَّكَ إِنْ فَسَّرْتَهَا بِهَذَا التَّفْسِيرِ قَلَّتِ الرَّغْبَةُ فِيهَا وَهَبَطَتْ عَظَمَتُهَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ، لَكِنْ قُلْ: هِيَ الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ، فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، سَكَاتُهَا

خير البشر، النبيون، والصّديقون، والشّهداء والصّالحون، حتّى تحفز النفوس على العمل لها، وحتّى لا يتصور الجاهل أنّ ما فيها كأمثال ما في الدنيا.

وقوله: ﴿وَنَهَرِ﴾ يعني بذلك الأنهار، وذكر الله تعالى أصنافها أربعة في سورة القتال: ﴿أَنهَرُ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [عمد: ١٥]، أمّا المكان: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ﴾ يعني في مقعد صدق ليس فيه كذب لا في الخبر عنه ولا في وصفه، كله حقّ وعند من؟ ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وهو الله جلّ وعلا، اللهم اجعلنا منهم، عند ملكٍ مُّقْتَدِرٍ، يَتَنَعَّمُونَ بِلَذَّةِ النَّظَرِ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ وهو أنعم ما يكون لأهل الجنة، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنِي وَزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦] الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] يعني حسنة بهيّة يكسوها الله تعالى نصراً، أي: حسناً وجمالاً وبهاءً، لتكون مُستعدّة للنظر إلى الله عَزَّجَلَّ ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣] ثم ينظرون إلى الله فيزدادون حسناً إلى حسنهم؛ ولهذا إذا رجعوا إلى أهلهم، قال لهم أهلهم: إنكم ازددتم بعدنا حسناً بالنظر إلى وجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى<sup>(١)</sup>، اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العُليا أن تجعلنا من هؤلاء بِمَنِّكَ وَكَرَمِكَ، إنك على كلّ شيء قديرٌ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم الجمال، رقم (٢٨٣٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



سورة الرحمن  
الآيات (١-٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤].

• • • • •

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الْبَسْمَلَةُ تَقْدَمُ الْكَلَامَ عَلَيْهَا.

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ خبر، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ خبر ثانٍ، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ خبر ثالث، والمعنى أن هذا الرَّبَّ العظيم الَّذِي سَمَّى نَفْسَهُ الرَّحْمَنَ تَفَضَّلَ عَلَى عِبَادِهِ بِهَذِهِ النِّعَمِ، وَالرَّحْمَنُ هُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وَابْتَدَأَ هَذِهِ السُّورَةَ بِالرَّحْمَنِ عِنَاوَانًا عَلَى أَنْ مَا بَعْدَهُ كُلُّهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ نِعَمِهِ.

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي: عَلَّمَهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، فَعَلَّمَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلًا، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ، ثَانِيًا ثُمَّ بَلَّغَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ ثَالِثًا إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَالْقُرْآنُ هُوَ هَذَا الْكِتَابُ الْعَزِيزُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [١٣] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣]،

وتعليم القرآن يَشْمَلُ تعليمَ لَفْظِهِ، وتعليمَ معناه، وتعليمَ كيف العملُ به، فهو يَشْمَلُ ثلاثةَ أشياء.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ المراد الجنس، فيَشْمَلُ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ، أي: أَوْجَدَهُ مِنَ الْعَدَمِ، فالإنسان كان معدوماً قَبْلَ وُجُودِهِ، وقَبْلَ خَلْقِهِ، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، يَعْنِي أَتَى عَلَيْهِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ، وليس شيئاً مذكوراً ولا يَعْلَمُ عَنْهُ، وبدأ الله تعالى بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان إشارة إلى أَنَّ نِعْمَةَ الله علينا بتعليم القرآن أَشَدُّ وَأَبْلَغُ مِنْ نِعْمَتِهِ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالْأَفْئِدَةُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ سَابِقٌ عَلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ تَعْلِيمُ الْقُرْآنِ أَعْظَمَ مَنَّةً مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى الْعَبْدِ قَدَّمَهُ عَلَى خَلْقِهِ ﴿عَلَّمَهُ﴾ أي: عَلَّمَ الْإِنْسَانَ ﴿الْبَيَانَ﴾، أي: مَا يَبِينُ بِهِ عَمَّا فِي قَلْبِهِ، وَأَيْضًا مَا يَسْتَتِينُ بِهِ عِنْدَ الْمُخَاطَبَةِ.

فهنا بيانان: البيان الأول من المتكلم، والبيان الثاني من المخاطب، فالبيان من المتكلم يَعْنِي التَّعْبِيرَ عَمَّا فِي قَلْبِهِ، وَيَكُونُ بِاللِّسَانِ نُطْقًا، وَيَكُونُ بِالْبَيَانِ كِتَابَةً، فعندما يكون في قلبك شيء تُريد أن تُخْبِرَ بِهِ، تارة تُخْبِرُ بِهِ بِالنُّطْقِ، وتارة بِالْكِتَابَةِ، كِلَاهُمَا دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، وَأَيْضًا ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ كَيْفَ يَسْتَتِينُ الشَّيْءُ، وَذَلِكَ بِالنَّسْبَةِ لِلْمُخَاطَبِ يَعْلَمُ وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ صَاحِبُهُ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَأَسْمَعَ الْمُخَاطَبَ الصَّوْتَ دُونَ أَنْ يَفْهَمَ الْمَعْنَى، فَالبيان سواء من المتكلم، أو من المخاطب كِلَاهُمَا مَنَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، فَهَذِهِ ثَلَاثُ نِعَمٍ: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ❶ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ❷ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ❸.



## الآيات (٥-١٣)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٥﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٦﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٧﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٨﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٩﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿١٠﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١١﴾ فِيهَا فَكْهَمٌ وَلَنُخَلِّ ذَاتَ الْأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَلِلْهَبِ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٥-١٣].

• • • • •

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ لما تكلم عن العالم السفلي بين العالم العلوي فقال: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي: بحساب دقيق معلوم متقن مُنتظم أشد الانتظام، يجريان كما أمرهما الله عَزَّوَجَلَّ ولم تتغير الشمس والقمر منذ خلقهما الله عَزَّوَجَلَّ إلى أن يُفنيهما يسيران على خط واحد، كما أمرهما الله، وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه، وكمال علمه أن تكون هذه الأجرام العظيمة تسير سيرًا مُنظمًا، لا تتغير على مدى السنين الطوال.

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾: (النجم) اسم جنس، والمراد به النجوم تسجد لله عَزَّوَجَلَّ فهذه النجوم العليا التي نشاهدها في السماء تسجد لله عَزَّوَجَلَّ سُجودًا حقيقيًا، لكننا لا نعلم كيفيته؛ لأن هذا من الأمور التي لا تدركها العقول، والشجر يسجد لله عَزَّوَجَلَّ سُجودًا حقيقيًا، لكن لا ندري كيف ذلك، والله على كل شيء قدير، وانظر إلى الأشجار إذا طلعت الشمس تتجه أوراقها إلى الشمس تُشاهدها بعينك، وكلما

ارتفعت، ارتفعت الأشجار، وإذا مالت للغروب مالت، لكن هذا ليس هو السجود، إنما السجود حقيقة لا يعلم، كما قال عز وجل: ﴿سُجِّدَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فالنجوم كلها تسجد لله، والأشجار كلها تسجد لله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾، ويقابله ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨] فلا يسجد، والعباد بالله ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ يعني ورفع السماء ولم يحدد في القرآن الكريم مقدار هذا الرفع، لكن جاءت السنة بذلك، فهي ربيعة عظيمة ارتفاعاً عظيماً شاهقاً.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: وضع العدل، والدليل على أن المراد بالميزان هنا العدل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] يعني العدل، وليس المراد بالميزان هنا الميزان ذا الكفتين المعروف، ولكن المراد بالميزان العدل، ومعنى وضع الميزان أي أثبته للناس، ليقوموا بالقسط أي بالعدل.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ يعني ألا تطغوا في العدل، يعني وضع العدل لئلا تطغوا في العدل فتجوروا، فتحكم للشخص وهو لا يستحق، أو على الشخص وهو لا يستحق، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ يعني وزنكم للأشياء، أقيموه ولا تبخسوه فتقصوا، لهذا قال: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تخسروا الموزون، فصار الميزان يحتلف في مواضعه الثلاثة: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: العدل ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ لا تجوروا في الوزن ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: الموزون.

﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ يعني: أَنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْأَرْضَ لِلْأَنَامِ أَي: أَنْزَلَهَا بِالنِّسْبَةِ لِلسَّمَاءِ، وَالْأَنَامُ هُمُ الْخَلْقُ، فِيهَا الْإِنْسُ، وَفِيهَا الْجِنُّ، وَفِيهَا الْمَلَائِكَةُ، تَنْزِلُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ مِنَ السَّمَاءِ، وَإِنْ كَانَ مَقَرُّ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ لَكِنْ يَنْزِلُونَ إِلَى الْأَرْضِ، مِثْلَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الْمُعَقَّبَاتِ، وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَنْزِلُونَ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿فِيهَا﴾، أَيِ فِي الْأَرْضِ ﴿فَنَكْهَةٌ﴾ أَي: ثَمَارٌ يَتَفَكَّهُ بِهَا النَّاسُ، وَأَنْوَاعُ الْفَاكِهَةِ كَثِيرَةٌ، كَالْعِنَبِ وَالرُّمَانِ وَالتُّفَاحِ وَالبُرْتَقَالِ وَغَيْرِهَا.

﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ نَصَّ عَلَى النَّخْلِ؛ لِأَنَّ ثَمَرَتَهَا أَفْضَلُ الثَّمَارِ فَهِيَ حُلْوَى وَغَذَاءٌ وَفَاكِهَةٌ، وَشَجَرَتَهَا مِنْ أَبْرَكَ الْأَشْجَارِ وَأَنْفَعَهَا، حَتَّى إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَبَّهَ النَّخْلَةَ بِالْمُؤْمِنِ فَقَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مِثْلُهَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ»، فَخَاضَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الشَّجَرِ حَتَّى أَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا النَّخْلَةُ<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ جَمْعُ كُمٍّ وَهُوَ غُلَافُ الثَّمَرَةِ، فَإِنَّ ثَمَرَةَ النَّخْلِ أَوَّلَ مَا تَخْرُجُ يَكُونُ عَلَيْهَا كُمٌّ قَوِيٌّ، ثُمَّ تَنْمُو فِي ذَلِكَ الْكُمِّ حَتَّى يَتَفَطَّرَ وَتَخْرُجَ الثَّمَرَةُ، ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ الْحَبُّ يَعْنِي الَّذِي يُؤْكَلُ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالذُّرَّةِ وَالذَّخْنِ وَالْأَرْزِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ يَعْنِي مَا يَحْصُلُ مِنْ سَاقِهِ عِنْدَ بَيْسِهِ وَهُوَ مَا يَعْرِفُ بِالتَّنِّينِ؛ لِأَنَّهُ يُعَصَفُ أَيِ تَطَوُّهُ الْبَهَائِمُ بِأَقْدَامِهَا حَتَّى يَنْعَصِفَ، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ هَذَا الشَّجَرُ ذُو الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ، فَذَكَرَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ الْفَوَاكِهَ، وَالنَّخْلَ، وَالْحَبَّ، وَالرَّيْحَانَ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ لَهُ اخْتِصَاصٌ يَخْتَصُّ بِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا، رقم (٦١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب مثل المؤمن مثل النخلة، رقم (٢٨١١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أجل مصلحة العباد ومنفعتهم.

﴿فَأَيُّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ الخطاب للجن والإنس، والاستفهام للإنكار،  
أي: أي نعمة تُكذِّبون بها؟.



## الآيات (١٤-١٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿١٤﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٥﴾ وَخَلَقَ  
الْجَانَ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَيَايَءَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٤-١٦].

• • • • •

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ خلق الإنسان يعني جنسه من صلصال، والصلصال هو الطين اليابس الذي له صوت، عندما تنقره بظفرك يكون له صوت كالْفَخَّارِ، هو الطين المشوي، وهذا باعتبار خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّ الله خلقه من تُرَابٍ، من طِينٍ، من صلصال كالْفَخَّارِ، من حمًا مسنون، كل هذه أوصاف للتُّرَابِ يَنْتَقِلُ من كونه تُرَابًا، إلى كونه طِينًا، إلى كونه حمًا، إلى كونه صلصالًا، إلى كونه كالْفَخَّارِ، حَتَّى إِذَا اسْتَمَّ نَفَخَ اللهُ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ فَصَارَ آدَمِيًّا.

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَ ﴾ وهم الجنُّ ﴿ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴾، المارج هو المختلط الذي يكون في اللَّهَبِ إِذَا ارْتَفَعَ صَارَ مُخْتَلِطًا بِالْذُّخَانِ، فيكون له لون بين الحُمْرَةِ وَالصُّفْرَةِ، فهذا هو المارج من نار، والجانُّ، خُلِقَ قَبْلَ الْإِنْسِ؛ ولهذا قال إبليسُ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿ فَيَايَءَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي: بأيِّ نعمة من نِعَمِ اللهِ تُكذِّبون، حيثُ خَلَقَ اللهُ عَزَّجَلَّ الْإِنْسَانَ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ، وَالْجَنَّ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ، وَأَيُّهَا خَيْرُ التُّرَابِ أَمْ النَّارُ؟ التُّرَابُ خَيْرٌ، لَا شَكَّ فِيهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ إِلَى كَلَامِ

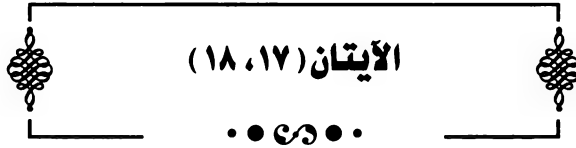
ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَاب (إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ مِنْ مَكَائِدِ الشَّيْطَانِ)<sup>(١)</sup>.




---

(١) وانظر: الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٠٤)، وبدائع الفوائد (٤/ ١٣٩).





﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿١٧﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٨﴾﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾﴾

[الرحمن: ١٧-١٨].



﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يعني هو ربُّ، فهي خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو ربُّ المشرقين وربُّ المغربين، يعني أَنَّهُ مالِكُهُمَا وَمُدَبِّرُهُمَا، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يُشْرِقُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا يَغْرُبُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَا مِنْ شَيْءٍ يَحُوزُهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلْ، وَثَنَى الْمَشْرِقَ هُنَا بِاعْتِبَارِ مَشْرِقِ الشِّتَاءِ وَمَشْرِقِ الصَّيْفِ، فَالشَّمْسُ فِي الشِّتَاءِ تُشْرِقُ مِنْ أَقْصَى الْجَنُوبِ، وَفِي الصَّيْفِ بِالْعَكْسِ، وَالْقَمَرُ فِي الشَّهْرِ الْوَاحِدِ يُشْرِقُ مِنْ أَقْصَى الْجَنُوبِ وَمِنْ أَقْصَى الشَّمَالِ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] فَجَمَعَهَا، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزمل: ٩] فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا؟

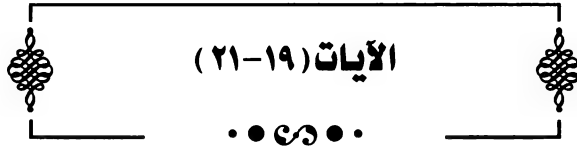
نقول: أَمَّا الثَّنِيَّةُ فَباعْتِبَارِ مَشْرِقِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، أَمَّا جَمْعُ الْمَغَارِبِ وَالْمَشَارِقِ فَباعْتِبَارِ مَشْرِقِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَغْرِبِهِ؛ لِأَنَّ الشَّمْسَ كُلَّ يَوْمٍ تُشْرِقُ مِنْ غَيْرِ الْمَكَانِ الَّذِي أَشْرَقَتْ مِنْهُ بِالْأَمْسِ، فَالشَّمْسُ يَتَغَيَّرُ شُرُوقُهَا وَغُرُوبُهَا كُلَّ يَوْمٍ، وَلَا سِيَّما عِنْدَ تَسَاوِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَتَجِدُ الْفَرْقَ دَقِيقَةً أَوْ دَقِيقَةً وَنَصْفًا بَيْنَ غُرُوبِهَا بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ، وَكَذَلِكَ الْغُرُوبُ، أَوْ بِاعْتِبَارِ الشَّارِقَاتِ وَالْغَارِبَاتِ؛ لِأَنَّهَا تَشْمَلُ الشَّمْسَ

والقمر والنجوم، وهذه لا يُحصيها إلا الله عَزَّجَلَّ، أمَّا قوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ فباعتبار الناحية؛ لأنَّ النّواحي أربع: مَشْرِق، ومَغْرِب، وشَمَال، وجَنُوب.

﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: بأيّ شيءٍ مِن نِعَمِ الله تُكذِّبان يا معشر الجنِّ والإنس؟ فما جوابنا على هذه الاستفهامات بهذه الآيات كُلِّها؟ جوابنا: أَلَا نُكذِّبُ بشيءٍ من آلائِكَ يا رَبَّنَا؛ ولهذا وَرَدَ حديث في إسناده ضَعْفٌ، عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: خَرَجَ رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سُورة الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فسكتوا، فقال: «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ، لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قَالُوا: لَا شَيْءٍ مِنْ نِعْمِكَ رَبَّنَا نُكذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ»، لكن هذا الحديث ضعيف<sup>(١)</sup>، يذكُرهُ المفسِّرون هنا، وكلُّ آية أعقبت ﴿فَيَأْتِي ٱلْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فهي تتضمَّن نِعْمًا عظيمة، فما النِّعم التي يَتَضَمَّنُها اختلاف المشرق والمغرب؟ النِّعم ما يَتَرَتَّبُ على ذلك من مصالح الخلق: صيفًا، وشتاءً، ربيعًا، وخريفًا، وغير ذلك مما لا نعلم، فهي نِعَمٌ عظيمة باختلاف المشرق والمغرب.



(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الرحمن، رقم (٣٢٩١)، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وقال الترمذي: هذا حديث غريب.



﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَبْتِغِيَانِ بَرْزَخًا لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿[الرحمن: ١٩-٢١].﴾

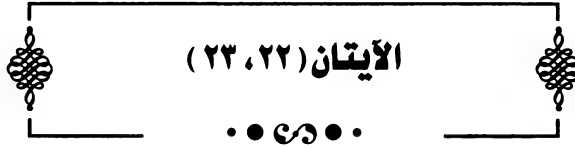


ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾: ﴿مَرَجَ﴾ بمعنى أَرْسَلَ الْبَحْرَيْنِ، يعني المالح والعذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾، يلتقي بعضُهما ببعض، البحر المالح هذه البحار العظيمة، البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأطلسي، وهذه البحار كلها مالحة، وجعلها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مالحة؛ لأنَّها لو كانت عذبة لفسد الهواء وأنتنت، لكنَّ المِلْح يمنع الإِثْنَانِ والفساد، والبحر الآخر البحر العذب وهو الأنهار التي تأتي: إمَّا من كثرة الأمطار، وإمَّا من ثلوج تذوب وتسيح في الأرض، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْسَلَهَا بحكمته وقدرته حيث شاء عَزَّجَلَّ ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يلتقي بعضُهما ببعض عند مصبِّ النَّهْرِ في البحر فيمْتَزِج بعضُهما ببعض، لكن حين سَيَرهما أو حين انفردهما، يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿يَبْتِغِيَانِ بَرْزَخًا﴾ وهو اليَابِس من الأرض.

﴿لَا يَبْتِغِيَانِ﴾ أي: لا يَبْغِي أحدهما على الآخر، ولو شاء الله تَعَالَى لَسَلَّطَ الْبَحَارَ ولفاضت على الأرض وأغرقت الأرض؛ لأنَّ البحر عندما تَقِف على السَّاحِل لا تَجِد جِدَارًا يَمْنَع انسيابه إلى اليابس مع أنَّ الأرض كُروِيَّة، ومع ذلك لا يَسِيح البحر لا هاهنا ولا هاهنا، بقدرة الله عَزَّجَلَّ، ولو شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَسَاحَت مِاءُ الْبَحْرِ على اليابس من الأرض ودمَّرتها.

إذن: البرزخ الذي بينهما هو اليابس من الأرض هذا قول علماء الجغرافيا، وقال بعض أهل العلم: بل البرزخ أمر معنويّ يحُول بين المالح والعذب أن يختلط بعضُهما ببعض، وقالوا: إنه يُوجد الآن في عمق البحار عُيون عذبة تنبع من الأرض، حتّى إنّ الغوّاصين يَغوصون إليها ويشربون منها كأعذب ماء، ومع ذلك لا تُفسدها مياه البحار، فإذا ثبت ذلك فلا مانع من أن نقول بقول علماء الجغرافيا وقول علماء التفسير، والله على كلّ شيء قديرٌ.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴾

[الرحمن: ٢٢-٢٣].



﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي: يَخْرُجُ من البحرَيْنِ العذْب والمالح اللُّؤْلُؤُ والمرجان، وهو قِطْع من اللُّؤْلُؤِ أحمر جميل الشكل واللون مع أنَّها مياه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمَا﴾ أضاف الخُرُوجَ إلى البحرَيْنِ العذْب والمالح، وقد قيل: إِنَّ اللُّؤْلُؤَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنَ المالح وَلَا يَخْرُجُ مِنَ العذْب، والَّذِينَ قالوا بهذا اضطَرَبوا في معنى الآية، كيف يقول الله ﴿مِنْهُمَا﴾ وهو مِن أحدهما؟ فأجابوا بأنَّ هذا من باب التَّغْلِيْب، والتَّغْلِيْب أن يُغْلَبَ أَحَدُ الْجَانِبَيْنِ على الآخر، مثلما يُقَالُ العُمَرَانُ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، ويُقَالُ القَمَرَانُ لِلشَّمْسِ والقمر، فهذا من باب التَّغْلِيْب، ف﴿مِنْهُمَا﴾ المراد واحد منهما، وقال بعضهم: بل هذا على حَذْفِ مضاف، والتَّقْدِير: يَخْرُجُ من أحدهما، وهناك قول ثالث: أن تَبْقَى الآية على ظاهرها لَا تَغْلِيْب وَلَا حَذْف، ويقول ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: منها جميعاً يَخْرُجُ اللُّؤْلُؤُ والمرجانُ، وإن امتاز المالح بأنه أكثر وأطيب.

فبأيِّ هذه الأقوال الثلاثة نأخذ؟ نأخذ بما يُوافِق ظاهر القرآن، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وهو خالقهما وهو يَعْلَمُ ماذا يَخْرُجُ منهما، فإذا كانت الآية ظاهراً أن اللُّؤْلُؤَ يَخْرُجُ منهما جميعاً وَجَبَ الأخذُ بظاهرها، لكن لَا شَكَّ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ

من الماء المالح أكثر وأطيب، لكن لا يَمْنَعُ أن نقول بظاهر الآية، بل يَتَعَيَّنُ أن نقول بظاهر الآية، وهذه قاعدة في القرآن والسُّنَّةُ أَنَّا نَحْمِلُ الشَّيْءَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَلَا نُؤَوِّلُ، اللَّهُمَّ إِلَّا لَظُرُورَةٍ، فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ ضَرُورَةٌ، فَلَا بُدَّ أَنْ نَتَمَشَّى عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الضَّرُورَةُ، أَمَّا بغير ضرورة فيجبُ أن نَحْمِلَ القرآنَ والسُّنَّةَ عَلَى ظَاهِرِهِمَا ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لِأَنَّ مَا فِي هَذِهِ الْبَحَارِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ، نِعَمٌ كَثِيرَةٌ لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُنْكِرَهَا أَبَدًا.



## الآيتان (٢٤، ٢٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿ ٢٤ ﴾ ﴾ فَبَاقِيَ مَا لَمْ يَكُنْ تَكْذِبَانِ ﴾ [الرحمن: ٢٤-٢٥].

• • • • •

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أي الله عَزَّوَجَلَّ مُلْكًا وتديرًا وتيسيرًا ﴿ الْجَوَارِ ﴾ بحذف الياء للتخفيف، وأصلها الجَوَارِي جمع جارية، وهي السفينة تجري في البحر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٣١]. ﴿ الْمُنشَآتُ ﴾ أي: التي أنشأها صانعوها ليسيروا عليها في البحر، وقوله: ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالْجَوَارِي أي الجوارِي في البحر، وليست فيما يظهر مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمُنشَآت، يعني الجوارِي التي تُصْنَعُ في البحر؛ لأنَّ السُّفْنَ تُصْنَعُ فِي الْبَرِّ أَوَّلًا، ثُمَّ تَنْزِلُ فِي الْبَحْرِ، وقوله: ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ تشبيهه، والأعلام جمع عَلَم وهو الجبل، كما قال الشاعر<sup>(١)</sup>:  
وَأَنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهَدَاةَ بِهِ      كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

كأنه جبل، ومن شاهد السفن في البحار رأى أَنَّ هَذَا التَّشْبِيهَ مُنْطَبِقٌ تَمَامًا عَلَيْهَا، فهي كالجبال تسير في البحر بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وَإِنَّمَا نَصَّ اللَّهُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ الْأَرْزَاقَ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسِّرُهَا لَكَانَ فِي ذَلِكَ فَوَاتٌ خَيْرٌ كَثِيرٌ لِلْبِلَادِ الَّتِي تَنْقِلُ مِنْهَا وَالْبِلَادِ الَّتِي تَنْقِلُ إِلَيْهَا.

(١) ديوان الخنساء، ط. دار المعرفة (ص ٤٦).

وفي هذا العصر جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَوَارِي أُخْرَى، لَكِنَّهَا تَجْرِي فِي الْجَوِّ، كَمَا تَجْرِي هَذِهِ فِي الْبَحْرِ، وَهِيَ الطَّائِرَاتُ، فَهِيَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَمِنَّتِهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي جَوَارِي الْبَحَارِ، بَلْ رُبَّمَا نَقُولُ: إِنَّ السَّيَّارَاتِ أَيْضًا مِنْ جَوَارِي الْبَرِّ، فَتَكُونُ الْجَوَارِي ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: بَحْرِيَّةٌ، وَبَرِّيَّةٌ، وَجَوِّيَّةٌ، وَكُلُّهَا مِنْ نِعَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أَيُّ بَأْيٍ: نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ تُكْذَّبَانِ، وَالْخُطَابُ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ.





## الآيات (٢٦-٢٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٨].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أَي: كُلُّ مَنْ عَلَى الْأَرْضِ ﴿فَانٍ﴾ أَي: ذَاهِبٌ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْحَيَوَانِ وَالْأَشْجَارِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨]، أَي: خَالِيَةً، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ أَي: يَذَرُ الْأَرْضَ قَاعًا صَفْصَفًا، أَوْ يَذَرُ الْجِبَالَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَالِيَةً شَاخِضَةً قَاعًا كَالْقِيعَانِ مُسَاوِيَةً لِّغَيْرِهَا، صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا.

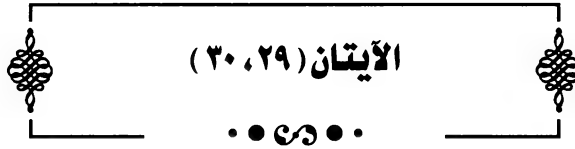
﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أَي: يَبْقَى اللَّهُ عَزَّجَلَّ ذُو الْوَجْهِ الْكَرِيمِ، وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ إِذَا قَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَصَلَ بَعْضَهُمَا بِبَعْضٍ <sup>(١)</sup>، قَالَ: لِيَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ كِمَالُ الْخَالِقِ وَنَقْصُ الْمَخْلُوقِ؛ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ فَانٍ وَالرَّبَّ بَاقٍ، وَهَذِهِ الْمُلَاحَظَةُ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصِلَ فَنَقُولُ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وَهَذَا هُوَ مَحَطُّ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ أَنْ تَفْنَى الْخَلَائِقُ وَيَبْقَى اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٧/٤٥٦) عَنِ الشَّعْبِيِّ، وَعَزَاهُ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٧/٦٩٨) لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فيه إثبات الوجه لله عزَّ وجلَّ ولكنه وجه لا يُشبهه أوجه المخلوقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] يعني أنت تؤمن بأنَّ الله وجهًا، لكن يجب أن تؤمن بأنَّه لا يُماثل أوجه المخلوقين بأيِّ حال من الأحوال؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ولما ظنَّ بعض أهل التَّعطيل أن إثبات الوجه يستلزم التَّمثيل أنكروا أن يكون لله وقالوا: المراد بقوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ثوابه، أو أن كلمة ﴿وَجْهُ﴾ زائدة، وأنَّ المعنى: ويبقى ربُّك! ولكنَّهم ضلُّوا سواء السَّبيل، وخرَّجوا عن ظاهر القرآن وحرفوه وخرَّجوا عن طريق السَّلف الصَّالح، ونحن نقول: إنَّ الله وجهًا؛ لإثباته له في هذه الآية، ولا يُماثل أوجه المخلوقين لنفي المماثلة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وبذلك نُسلم ونُجري النَّصوص على ظاهرها المراد بها، وقوله: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظَّمة ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: إكرام من يُطيع الله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، فالإكرام أي أنَّه يُكرم من يستحقُّ الإكرام من خلقه، ويحتَمِل أن يكون لها معنى آخر وهو أنَّه يُكرم من أهل العِبادَة من خلقه، فيكون الإكرام هذا المصدر صالحًا للمفعول والفاعل، فهو مُكرم ومُكرم.

﴿فَيَأْتِيْءَ الْآءَ رَبُّكَ تَكْذِبَانِ﴾ وهذه الآية تكرَّرت عدَّة مرَّات في هذه السُّورة، ومعناها أنَّه بأيِّ نعمة من نعم الله تُكذَّبَان يا معشر الجنِّ والإنس؟ وهذا كاللَّحْدِي لهم؛ لأنَّه لن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذه النِّعم.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿يَسْتَلْهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ٢٩ ﴿فَأَيَّ  
ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٩-٣٠].



ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْتَلْهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أَي: يَسْأَلُ  
اللَّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِي فِي السَّمَوَاتِ هُمُ الْمَلَائِكَةُ يَسْأَلُونَ اللَّهَ عَزَّجَلْ،  
وَمِنْ سْؤَالِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿وَيَسْتَفْتُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا  
فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] إِلَى آخِرِهِ، وَيَسْأَلُهُ مَنْ فِي  
الْأَرْضِ مِنَ الْخَلَائِقِ، وَسْؤَالُ أَهْلِ الْأَرْضِ اللَّهُ عَزَّجَلْ قِسْمَانِ:

الأَوَّلُ: السُّؤَالُ بِلِسَانِ الْمَقَالِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَالْمُؤْمِنُ يَسْأَلُ  
رَبَّهُ دَائِمًا حَاجَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَقْضِيهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلْ وَسْؤَالُ الْمُؤْمِنِ رَبَّهُ عِبَادَةً،  
سِوَا حَصَلِ مَقْصُودِهِ أَمْ لَمْ يَحْصُلْ، فَإِذَا قُلْتَ: يَا رَبِّ أَعْطِنِي كَذَا، فَهَذِهِ عِبَادَةٌ، كَمَا  
جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»<sup>(١)</sup>، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ  
لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فَقَالَ:

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٢٦٧/٤)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ الدُّعَاءِ، رَقْمُ (١٤٧٩)،  
وَالْتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ وَمِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، رَقْمُ (٢٩٦٩)، وَابْنُ مَاجَةَ: كِتَابُ  
الدُّعَاءِ، بَابُ فَضْلِ الدُّعَاءِ، رَقْمُ (٣٨٢٨)، مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿ادْعُونِي﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِيكَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ وهذا دليل على أن الدعاء عبادة.

النوع الثاني: دعاء بلسان الحال، وهو أن كل مخلوق مفتقر إلى الله ينظر إلى رحمته، فالكفار مثلاً ينظرون إلى الغيث النازل من السماء، وإلى نبات الأرض، وإلى صحة الحيوان، وإلى كثرة الأرزاق وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يجدوا ذلك بأنفسهم، فهم إذن يسألون الله بلسان الحال، ولذلك إذا مسَّتْهم ضراءُ اضطروا إلى سؤال الله بلسان المقال ﴿وَلِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌّ كَالظُّلُمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ من يُحْصِي الأيام؟ لا أحد إلا الله عزَّ وجلَّ ومن يُحْصِي الشُّهور؟ لا أحد إلا الله عزَّ وجلَّ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، يُغني فقيراً، ويُفقر غنياً، ويُمْرِضَ صحيحاً، ويشفي سقيماً، ويؤمِّن خائفاً، ويخوِّف آمناً، وهلمَّ جراً، كل يوم يفعل الله تعالى ذلك، هذه الشُّئون التي تتبدَّل عن حكمة ولا شك، قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، فنحن نُؤمِّن أن الله لا يُقدِّر قدراً إلا لحكمة، لكن قد نعلم هذه الحكمة وقد لا نعلم؛ ولهذا قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، ولكن اعلم أيها المؤمن أن الله تعالى لا يُقدِّر لك قدراً إلا كان خيراً لك، إن أصابَتْكَ ضراءُ فاصبر وانتظر الفرَج، وقُل: الحمد لله على كلِّ حال. وكما يُقال: دوام الحال من المحال، فينتظر الفرَج فيكون خيراً له، وإن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له، وليس هذا لأحد إلا للمؤمن.

﴿فَإَيَّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ نقول فيها ما قلنا في الآيات السابقة أن المعنى بأيِّ

نعمة من نعم الله تُكذَّبَان؟

والجواب: لا تُكذَّب بشيء من نعم الله، بل نقول: هي من عند الله، فله الحمد وله الشكر، ومن نسب النعمة إلى غير الله فهو مُكذَّب، وإن لم يقل إنه مُكذَّب قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، وهذه الآية يعني بها قولهم: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا.

وقد قال النبي ﷺ وهو يُحدِّث أصحابه على أثر مطرٍ كان، قال لهم بعد صلاة الصُّبح: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بنوء كَذَا، وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ»<sup>(١)</sup>.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، رقم (٧١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآيتان (٣١، ٣٢)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

[الرحمن: ٣١-٣٢].

• • ❁ • •

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ هذه الجملة المقصود بها الوعيد، كما يقول قائل لِمَن يَتَوَعَّدُه سَأَتَفَرَّغَ لَكَ، وَأُجَازِيكَ. وليس المعنى أَنَّ الله تعالى يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ ثُمَّ يَفْرُغُ مِنْ هَذَا، وَيَأْتِي إِلَى هَذَا، هو سبحانه يُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ فِي آنٍ وَاحِدٍ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا فِي السَّمَوَاتِ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يُدَبِّرُهُ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَلَا يُعْجِزُهُ، فَلَا تَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أَنَّهُ الْآنَ مَشْغُولٌ وَسَيَفْرُغُ، بَلْ هَذِهِ جُمْلَةٌ وَعِيدِيَّةٌ تُعَبِّرُ بِهَا الْعَرَبُ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مِنَ التَّعْظِيمِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ حَيْثُ أَتَى بِضَمِيرِ الْجَمْعِ، ﴿سَنَفْرُغُ﴾ تَعْظِيمًا لِنَفْسِهِ جَلَّ وَعَلَا وَإِلَّا فَهُوَ وَاحِدٌ.

وقوله: ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ وَالْإِنْسَ، وَإِنَّمَا وَجَّهَ هَذَا الْوَعِيدَ إِلَيْهِمَا؛ لِأَنَّهَا مَنَاطُ التَّكْلِيفِ.

﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سَبَقَ تَفْسِيرُهَا فَلَا حَاجَةَ إِلَى التَّكْرَارِ.

• • ❁ • •

## الآيات (٣٢-٣٦)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَمَعَشَرِ الْيَمِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٣﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٦].

•••••

﴿ يَمَعَشَرِ الْيَمِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ بعد الوعيد قال: ﴿ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا ﴾ أي: ممَّا نُرِيدُهُ بِكُمْ ﴿ مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ ولكنكم لا تستطيعون هذا، فالأمر هنا للتعجيز؛ ولهذا قال: ﴿ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ يعني ولا سلطان لكم، ولا يمكن لأحد أن ينفذ من أقطار السموات والأرض إلى أين يذهب؟ لا يمكن.

ثم قال تعالى: ﴿ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٣٢﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ يعني لو استطعتم، أو لو حاولتم لكان هذا الجزاء ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أي: محمى بالنار.

﴿ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴾ أي: فلا ينصركم بعضاً، وهذه الآية في مقام التحدي، وقد أخطأ غاية الخطأ من زعم أنها تشير إلى ما توصل إليه العلماء من الطيران، حتى يخرجوا من أقطار الأرض ومن جاذبيتها، وإلى أن يصلوا كما يزعمون إلى القمر أو إلى

ما فوق القمر، فالآية ظاهرة في التَّحْدِي، والتَّحْدِي هو توجيه الخطاب إلى مَنْ لا يستطيع.

ثمَّ نقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ هَلْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ، لَوْ فَرَضْنَا أَنَّهُمْ نَفَذُوا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ مَا نَفَذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ، فالآية واضحة أَنَّهَا فِي مَقَامِ التَّحْدِي، وَأَنَّهَا لَا تُشِيرُ إِلَى مَا زَعَمَ هَؤُلَاءِ أَنَّهَا تُشِيرُ إِلَيْهِ، وَنَحْنُ نَقُولُ الشَّيْءَ الْوَاقِعَ لَا نَكْذِبُهُ، وَلَكِنْ لَا يُلْزَمُ مِنْ تَصْدِيقِهِ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ دَلًّا عَلَيْهِ أَوْ السُّنَّةُ، الْوَاقِعَ وَاقِعٌ، فَهَمْ خَرَجُوا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَهَذَا وَاقِعٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ.

وهذه الآية في سياقها إذا تَأَمَّلْتَهَا وَجَدْتَ أَنَّ هَذَا التَّحْدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ ﴿يَمْعَشَرِ الْغَيْنِ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ مَا بَعْدَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿فَإِذَا أُنشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يَعْنِي تَفْتَحَتْ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أُنشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ١-٦].





## الآيات (٣٧-٤٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَأْيِءُ آلَاءُ رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَيَأْيِءُ آلَاءُ رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٧-٤٠].

• • • • •

﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً ﴾ أي: مثل الورد في الحمرة ﴿ كَالدِّهَانِ ﴾، كالجلد المدهون، ﴿ فَيَأْيِءُ آلَاءُ رِيكُمَا تُكْذِبَانِ ﴾.

﴿ فَيَوْمِذٍ ﴾ أي: إذا انشقت ﴿ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ لماذا؟ لأن كل شيء معلوم، والمراد لا يُسأل سؤال استرشاد واستعلام؛ لأن كل شيء معلوم، أمّا سؤال تبييت فيسأل مثل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿ [القصص: ٦٥-٦٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ﴿٣١﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَرُكَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ﴾ [المدر: ٣٩-٤٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ لأهل النار وهم يُلقون فيها: ﴿ أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [غافر: ٥٠] وأمثالها كثير.

إذن: لا يُسأل عن ذنبه سؤال استرشاد واستعلام، وإنما يُسألون سؤال تبييت وتوبيخ، وما جاء من سؤال الإنس والجن عن ذنوبهم: هل أنت عملت أو لم تعمل؟

فهو سؤال تبيكيت وتوبيخ، وهناك فرق بين سؤال الاسترشاد وسؤال التوبيخ  
 فلا تتناقض الآيات، فما جاء أنهم يُسألون فهو سؤال توبيخ، وما جاء أنهم لا يُسألون  
 فهو سؤال استرشاد واستعلام؛ لأنَّ الكلَّ معلوم ومكتوب.



## الآيات (٤١-٤٥)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَيَأَيَّ  
ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ  
مَّانٍ ﴿٤٤﴾ فَيَأَيَّءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٤١-٤٥].

• • • • •

﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ﴾ أي: بعلامتهم يُعرفون، ومن علاماتهم والعياذُ بالله  
أنهم سُود الوجوه، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]  
وأنهم يُحْشَرُونَ يوم القيامة زُرْقًا إِمَّا أَنَّهُمْ زُرْقٌ أحيانا وسود أحيانا، وإمَّا أَنَّهُمْ سُود  
الوجوه زُرْقُ العُيُون، وإمَّا أَنَّهُمْ زُرْقٌ زُرْقَةٌ يَعْنِي بِالْغَةِ يَحْسِبُهَا الْإِنْسَانُ سُودَاءَ.

﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾: (النَّوَصِي) مقدَّم الرأس،  
والأقدام معروفة، فتؤخذ رجله إلى ناصيته، هكذا يطوى طيًّا إهانة له وخزيًا له،  
فيؤخذ بالنَّوَصِي والأقدام، ويلقون في النَّار ﴿فَيَأَيَّءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ  
الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني يُقَالُ هذه جهنم التي تُكذَّبون بها، وقال ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾  
ولم يقل: تُكذَّبون بها، إشارة إلى أَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ، وما أعظم جُرم الكُفَّار الَّذِينَ كَفَرُوا  
بالله ورسوله، واستهزؤوا بآيات الله وأنخذوها هُزُؤًا وَلَعِبًا، ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي:  
يَتَرَدَّدُونَ بينها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَّانٍ﴾ أي: شديد الحرارة، والعياذُ بالله.

أَمَّا كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ فَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَكِنَّا نُوْمِنُ بِأَنَّهُمْ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَمِيمِ  
الْحَارِّ الشَّدِيدِ الْحَرَارَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ، ﴿فَيَأَيَّءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

### الآيات (٤٦-٦١)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾  
 ذَوَاتًا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا  
 تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِزْقَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى  
 فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىُّ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ  
 قَصَصَتْ الْأَطْرَفُ لَمَّ يَطْمِئِنَّهُنَّ لِنِسٍّ فَتِلْهُهُنَّ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾  
 كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا  
 الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿ الرحمن: ٤٦-٦١ ﴾. ]

• • ❦ • •

ثم ذكر جزاء أهل الجنة فقال: ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ يعني أن من خاف  
 المقام بين يدي الله يوم القيامة، فإن له جنتين. وهذا الخوف يستلزم شيئين:  
 الشيء الأول: الإيثار بقاء الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الإنسان لا يخاف من شيء إلا وقد  
 تيقنه.

والثاني: أن يتجنب محارم الله، وأن يقوم بما أوجبه الله خوفاً من عقاب الله  
 تعالى، فعليه يلزم كل إنسان أن يؤمن بقاء الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ  
 إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ  
 مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وأن يقوم بما أوجبه الله، وأن يتجنب محارم الله

فَمَنْ خَافَ هَذَا الْمَقَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَلَهُ جَنَّتَانِ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سَبَقَ الكلام عليها.

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أي صاحبتا أفنان، والأفنان جمع فَنَن وهو الغُصْن، أي أنهما مُشْتَمِلَتَانِ على أشجار عظيمة ذَوَاتِي أغصان كثيرة وهذه الأغصان كُلُّهَا تُبْهِجُ النَّاطِرِينَ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في الجنتين عينان تجريان، وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى أَنَّ فِي الْجَنَّةِ أَنْهَارًا مِنْ أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [مُحَمَّد: ١٥]، والعَيْنَانِ اللَّتَانِ تَجْرِيَانِ، يَظْهَرُ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا سِوَى هَذِهِ الْأَنْهَارِ الْأَرْبَعَةِ ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: في هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ، وَالْفَاكِهَةُ كُلُّ مَا يَتَفَكَّهُهُ الْإِنْسَانُ بِهِ مَذَاقًا وَنَظَرًا، فَيَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْفَاكِهَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الدُّنْيَا، وَرَبَّمَا يَكُونُ هُنَاكَ فَوَاكِهُ أُخْرَى لَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ فِي الدُّنْيَا، ﴿فِي أَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٥٣﴾ مُتَكَبِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: يَتَنَعَّمُونَ بِهَذِهِ الْفَاكِهَةِ حَالِ كَوْنِهِمْ مُتَكَبِّينَ، وَعَلَى هَذَا فَكَلِمَةُ مُتَكَبِّينَ حَالٍ مِنْ فَاعِلٍ وَالْفِعْلُ الْمَحْذُوفُ، أَي: يَتَنَعَّمُونَ وَيَتَفَكَّهُونَ مُتَكَبِّينَ، وَالِاتِّكَاءُ قِيلَ: إِنَّهُ التَّرَبُّعُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ أُرِيحَ مَا يَكُونُ إِذَا كَانَ مُتَرَبِّعًا، وَقِيلَ ﴿مُتَكَبِّينَ﴾ أي: مُعْتَمِدِينَ عَلَى مَسَانِدٍ مِنَ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ وَوَرَاءَ الظَّهْرِ.

﴿عَلَى فُرُشٍ﴾ يَعْنِي جَالِسِينَ ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ يَعْنِي بِطَانَةَ الْفِرَاشِ وَهُوَ مَا يَدْحَى بِهِ الْفِرَاشُ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَهُوَ غَلِيظُ الدِّيَبَاجِ، وَأَمَّا أَعْلَى هَذِهِ الْفُرُشِ فَهُوَ مِنْ

سُنْدُس، وهو رقيق الدِّيَاج، وكلُّه من الحرير ﴿وَحَيَّ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ تأمل أو تصوّر هذه الحال، إنسان مُتَكَيّ مُطمئن مُستريح يُريد أن يتفكّكه من هذه الفواكه هل يقوم من مكانه الذي هو مُستقرّ فيه مُتَكَيّ فيه ليتناول الثمرة؟

بيّن الله بقوله تعالى ذلك ﴿وَحَيَّ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قال أهل العلم: إنّه كلّما نظر إلى ثمرة وهو يشتهيها، مال الغصن حتّى كانت الثمرة بين يديه لا يحتاج إلى تعب وإلى قيام، بل هو مُتَكَيّ، ينظر إلى الثمرة مُشتهياً إيّاها، فتدلّى له بأمر الله عزّ وجلّ مع أنّها جماد، لكنّ الله تعالى أعطاه إحساساً بأن تتدلّى عليه إذا اشتهاها، ولا تستغرب فيها هي الأشجار في الغالب تستقبل الشّمس، انظر إلى وجوه الأوراق أوّل النّهار تجدها مُتّجهة إلى المشرق، وفي آخر النّهار تجدها مُتّجهة إلى المغرب ففيها إحساس، كذلك أيضاً جنّ الجنّتين دان قريب مُحسّ، إذا نظر إليه الرّجل أو المرأة فإنّه يتدلّى حتّى يكون بين يديه.

﴿فَيَأْتِيءَ الْآلَاءَ رِيكًا مُتَكَدِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ﴾: ﴿فِيهِنَّ﴾ أكثر العلماء يقولون: إنّ الضّمير يعود إلى الجنّتين، وأنّ الجمع باعتبار أن لكلّ واحد من النّاس جنّة خاصّة به، فيكون ﴿فِيهِنَّ﴾ أي في جنّة كلّ واحد ممّن هو في هاتين الجنّتين قاصرات الطّرف، وعندي أنّ قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ يشمل الجنّات الأربع، هاتين الجنّتين، والجنّتين اللّتين بعدهما، ﴿قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ﴾ يعني أنّها تقصر طرفها أي نظرها على زوجها فلا تُريد غيره، والوجه الآخر: قاصرات الطّرف، أي: أنّها تقصر طرف زوجها عليها فلا يُريد غيرها.

وعلى القول الأوّل يكون قاصرات مضافاً إلى الفاعل، وعلى الثّاني مضافاً إلى المفعول ﴿لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: لم يُجامعهنّ، وقيل: إنّ الطّمث مُجامعة

البكر، والمعنى أَنَّهُمْ أَبْكَارٌ لَمْ يُجَامِعْهُنَّ أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ لَا إِنْسٌ وَلَا جِنٌّ، وفي هذا دليل واضح على أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْجَنِّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، ﴿فَيَأْتِي ۡءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي: في الحُسْنِ وَالصَّفَاءِ كَالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ، وهما جَوْهَرَانِ نَفِيسَانِ، الْيَاقُوتُ فِي الصَّفَاءِ، وَالْمَرْجَانُ فِي الْحُمْرَةِ، يَعْنِي أَنَّهُنَّ مُشْرِبَاتٌ بِالْحُمْرَةِ مَعَ صَفَاءٍ تَامٍّ ﴿فَيَأْتِي ۡءَالَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ يَعْنِي مَا جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ، الْإِحْسَانُ الْأَوَّلُ: الْعَمَلُ، وَالْإِحْسَانُ الثَّانِي: الثَّوَابُ، أَي: مَا جَزَاءُ إِحْسَانِ الْعَمَلِ إِلَّا إِحْسَانُ الثَّوَابِ.



## الآيات (٦٢-٧٧)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ١٣ ﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿ ١٤ ﴾ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ١٥ ﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا ﴿ ١٦ ﴾ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ١٧ ﴾ فِيهِمَا فُكْكُمُ ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ١٨ ﴾ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ١٩ ﴾ فِيهِمَا خَبَرَاتٌ حَسَنٌ ﴿ ٢٠ ﴾ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ٢١ ﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْجَنَّاتِ ﴿ ٢٢ ﴾ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ٢٣ ﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ ٱلسُّ قُلُوبُهُنَّ ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ٢٤ ﴾ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ٢٥ ﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِي حَسَنٍ ﴿ ٢٦ ﴾ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿ ٢٧ ﴾ ﴾ [الرحمن: ٦٢-٧٧].

• • ❦ • •

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي: من دُونِ الْجَنَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ جَنَّتَانِ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ مُبَيَّنًا فِي السُّنَّةِ، حَيْثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أَيْتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا<sup>(١)</sup>» وَالآيَةُ صَرِيحَةٌ أَنَّ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ دُونَ الْأُولَيَيْنِ.

﴿ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿ ١٣ ﴾ أي: سَوْدَاوَانِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَشْجَارِ ﴿ فَيَأْتِي ٱلْأَيْ رَيْكُمَا تُكْذِبَانِ ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا ﴿ ١٦ ﴾ أي: تَنْضَخُ بِالْمَاءِ، أي: تَنْبُعُ، وَفِي الْجَنَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ قَالَ: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾، وَالْجَرِيُّ أَكْمَلُ مِنَ النَّبْعِ؛ لِأَنَّ النَّبْعَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾، رَقْمُ (٤٨٧٨)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ إِثْبَاتِ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ رِبْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَقْمُ (١٨٠)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



لَا يَزَالُ فِي مَكَانِهِ لَكِنَّهُ لَا يَنْضَبُ، أَمَّا الَّذِي يَجْرِي فَإِنَّهُ يَسِيحُ، فَهُوَ أَعْلَى وَأَكْمَلُ، ﴿فَيَأْتِيَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَكِّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وَهُنَاكَ يَقُولُ: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، أَمَّا هَذَا فَقَالَ: ﴿فِيهِمَا فَكِّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وَالنَّخْلُ وَالرُّمَّانُ مَعْرُوفَانِ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا، الْأَسْمُ وَاحِدٌ وَالْمُسْمَى يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وَلَوْ كَانَ النَّخْلُ وَالرُّمَّانُ كَالنَّخْلِ وَالرُّمَّانِ فِي الدُّنْيَا لَكُنَّا نَعْلَمُ، لَكُنَّا لَا نَعْلَمُ، فَالْأَسْمُ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ الْحَقِيقَةُ مُخْتَلِفَةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءُ فَقَطُّ»<sup>(١)</sup>.

﴿فَيَأْتِيَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٨﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ﴾: ﴿فِيهِنَّ﴾ وَهَذَا جَمْعٌ، وَقَدْ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿فِيهِمَا﴾؛ لِأَنَّ هَذَا الْجَمْعَ يَعُودُ عَلَى الْجِنَانِ الْأَرْبَعِ، فِيهِ الْجِنَانُ الْأَرْبَعُ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ كَمَا سَبَقَ، وَفِي الْجِنَانِ الْأَرْبَعِ ﴿خَيْرٌ حَسَنٌ﴾ أَيُّ: فِي الْأَخْلَاقِ، الْأَخْلَاقُ طَيِّبَةٌ، حِسَانُ الْوُجُوهِ وَالْبَدَنِ، فَالْأَوَّلُ حُسْنُ الْبَاطِنِ وَهَذَا حُسْنُ الظَّاهِرِ.

﴿فَيَأْتِيَ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ الْحَوْرَاءُ هِيَ الْجَمِيلَةُ، الَّتِي جُمِلَتْ فِي جَمِيعِ خَلْقِهَا، وَبِالْأَخْصِ الْعَيْنُ: شَدِيدَةُ الْبَيَاضِ، شَدِيدَةُ السَّوَادِ، وَاسِعَةُ مُسْتَدِيرَةٍ مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ، ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ أَيُّ: مُحَبَّاتٌ، ﴿فِي الْخِيَامِ﴾: جَمْعُ خَيْمَةٍ، وَالْخَيْمَةُ مَعْرُوفَةٌ هِيَ بِنَاءٌ لَهُ عَمُودٌ وَأَرْوَقَةٌ، لَكِنَّ الْخَيْمَةَ فِي الْآخِرَةِ لَيْسَتْ كَالْخَيْمَةِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ هِيَ خَيْمَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ مُرْتَفِعٌ جَدًّا، وَيُرَى مَنْ فِي بَاطِنِهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، وَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِهَا وَجَمَالِهَا، هَؤُلَاءِ الْحُورُ مَقْصُورَاتُ

(١) أَخْرَجَهُ هِنَادٌ فِي الزَّهْدِ رَقْمَ (٣، ٨)، وَالطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (١٦٦/١)، وَابْنُ حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٦٦/١ رَقْمَ ٢٦٠)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ رَقْمَ (١٢٤).

مُخَبَّنَاتٍ فِي هَذِهِ الْخِيَامِ عَلَى أَكْمَلِ مَا يَكُونُ مِنَ الدَّلَالِ وَالتَّنْعِيمِ.

﴿لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ يَعْنِي لَمْ يُجَامِعْهُنَّ أَحَدٌ، بَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ عَلَى بَكَارَتِهَا إِلَى أَنْ يَغْشَاهَا زَوْجُهَا، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ، ﴿وَلَا جَانٌّ﴾ أَي: وَلَا جِنٌّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مَعَ الْإِنْسِ وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا، وَالْجِنَّ مِنْهُمْ صَالِحُونَ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مُسْلِمُونَ وَمِنْهُمْ كَافِرُونَ، كَالْإِنْسِ تَمَامًا، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ فِيهِمْ مُطِيعٌ وَعَاصٍ، وَفِيهِمْ كَافِرٌ وَمُؤْمِنٌ، كَذَلِكَ الْجِنُّ، وَالْجِنُّ الْمُسْلِمُ فِيهِ خَيْرٌ، وَيَدُلُّ عَلَى الْخَيْرِ، وَيُنْبِئُ بِالْخَيْرِ، وَيُسَاعِدُ أَهْلَ الصَّلَاحِ مِنَ الْإِنْسِ، وَالْجِنُّ الْفَاسِقُ أَوْ الْكَافِرُ مِثْلَ الْفَاسِقِ أَوْ الْكَافِرِ مِنْ بَنِي آدَمَ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، وَكَافِرُهُمْ يَدْخُلُ النَّارَ، بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وَهَذَا نَصُّ الْقُرْآنِ، وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ مِنَ الْجِنِّ يَدْخُلُ النَّارَ، وَمُؤْمِنُ الْجِنِّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئْنَنْ إِنْشَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ يدل على أن الجن يدخلون الجنة، وهو كذلك.

﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ (٧٠) مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفَرٍ خُضِرَ وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ﴾ أَي: مُعْتَمِدِينَ بِأَيْدِيهِمْ وَظُهُورِهِمْ ﴿عَلَى رَفَرٍ﴾ أَي: عَلَى مَسَانِدٍ تُرْفَرُ مِثْلَ مَا يَكُونُ عَلَى أَطْرَافِ الْمَسَانِدِ، وَيَكُونُ فِي الْأَسْرَةِ، هَكَذَا يَرْفَرُ، ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفَرٍ خُضِرَ﴾؛ لِأَنَّ اللَّوْنَ الْأَخْضَرَ أَنْسَبُ مَا يَكُونُ لِلنَّظَرِ، وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ بِهِجَةً لِلْقَلْبِ.

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حَسَانٍ﴾: (العبقريُّ) هُوَ الْفُرْشُ الْجَيِّدَةُ جَدًّا؛ وَهَذَا يُسَمَّى الْجَيِّدَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ عَبْقَرِيٌّ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الرُّؤْيَا الَّتِي رَأَاهَا حِينَ نَزَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «فَمَا رَأَيْتُ عَبْدًا يَفْرِي فَرِيَةً»<sup>(١)</sup> أَي: يَنْزِعُ نَزْعَهُ: مِنْ قُوَّتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿فَيَأْتِيءُ الْآءَ رِيكًا تَكْذِبَانِ﴾ الْمَعْنَى التَّقْرِيرُ، يَعْنِي أَنَّ النِّعَمَ وَاضِحَةٌ فَبِأَيِّ شَيْءٍ تُكْذِبُونَ؟

الجواب: لَا تُكْذِبُ بِشَيْءٍ، نَعْتَرِفُ بِآلَاءِ اللَّهِ وَنَعْمِهِ وَنُقَرِّبُهَا وَنَعْتَرِفُ بِأَنَّا مُقْصِرُونَ، لَمْ نَشْكُرْ اللَّهَ تَعَالَى حَقَّ شُكْرِهِ، وَلَكِنَّا نُوْمِنُ أَنَّ اللَّهَ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِنَا، وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَفُوٌّ كَرِيمٌ يُحِبُّ تَوْبَةَ عَبْدِهِ، وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ، حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ» وَذَكَرَ الرَّجُلَ فِي فَلَاةٍ أَضَلَّ رَاكِحَتَهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ، فَطَلَبَهَا وَلَمْ يَجِدْهَا، فَأَيْسَ مِنْهَا فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَنْتَظِرُ الْمَوْتَ، آيسَ مِنَ الْحَيَاةِ، فَإِذَا بِخِطَامٍ نَاقَتِهِ مُتَعَلِّقًا بِالشَّجَرَةِ، فَأَخَذَهُ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»<sup>(٢)</sup>، يُرِيدُ أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، لَكِنْ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ أَخْطَأَ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»، فَاللَّهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ بِنَاقَتِهِ، اللَّهُمَّ ثُبِّ عَلَيْنَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.



(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا»، رَقْم (٣٦٧٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَقْم (٢٣٩٣)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ التَّوْبَةِ (٦٣٠٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ فِي الْحُضِّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْفَرَحِ بِهَا، رَقْم (٢٧٤٧)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

### الآية (٧٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

• • • • •

﴿بَرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ خَتَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الْعَظِيمَةِ، أَيِ مَا أَعْظَمَ بَرَكَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَمَا أَعْظَمَ الْبَرَكَةَ بِاسْمِهِ، حَتَّى إِنَّ اسْمَ اللَّهِ يُحَلِّلُ الذَّبِيحَةَ أَوْ يُحَرِّمُهَا، لَوْ ذَبَحَ الْإِنْسَانُ ذَبِيحَةً وَلَمْ يَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ تَكُونُ مَيْتَةً حَرَامًا نَجَسَةً مُضِرَّةً عَلَى الْبَدَنِ، حَتَّى لَوْ ذَبَحَ وَنَسِيَ أَنْ يَقُولَ بِسْمِ اللَّهِ، فَهِيَ حَرَامٌ نَجَسَةٌ تُفْسِدُ الْبَدَنَ، فَيَجِبُ أَنْ يَسْحَبَهَا لِلْكَلابِ؛ لِأَنَّهَا نَجَسَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فَانْظُرُ الْبَرَكَةَ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا تَوَضَّأَ وَلَمْ يُسَمِّ فَوْضُوؤُهُ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ فَاسِدٌ لَا بَدَّ مِنَ الْإِعَادَةِ؛ لِأَنَّ الْبِسْمِلَةَ وَاجِبَةٌ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا رَأَى الصَّيْدَ الرَّاحِفَ، أَوْ الطَّائِرَ فَيَرْمِيهِ وَلَمْ يُسَمِّ يَكُونُ هَذَا الصَّيْدُ حَرَامًا مَيْتَةً نَجَسًا مُضِرًّا عَلَى الْبَدَنِ، فَانْظُرُ الْبَرَكَةَ، وَالْإِنْسَانُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ يَعْنِي جَامِعَ زَوْجَتِهِ وَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا» كَانَ هَذَا حِمَاةً لِهَذَا الْوَلَدِ الَّذِي يَنْشَأُ مِنْ هَذَا الْجَمَاعِ، حِمَاةً لَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ

أَبَدًا»<sup>(١)</sup> والإنسان يسعى يمينًا وشمالًا لحماية ولده ويَحْسَر الدَّراهم الكثيرة، وهنا هذا الدَّواء من الرِّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو يَسِير من ناحية العَمَل، وسَهْل، وكلُّ هذا دليل على بركة اسم الله عَزَّجَلَّ.

﴿ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ذي العَظْمَة والإِكْرَام، ﴿ذِي الْمَلَكِ وَالْإِكْرَامِ﴾: بمعنى صَاحِب، وهي صفة لِرَبِّ، لا لـ(اسم) ولو كانت صِفة لـ(اسم) لكانت ذُو، والإِكْرَام يعني هو يُكْرِم وهو يُكْرَم، فهو يُكْرَم ويُحْتَرَم ويُعْظَم عَزَّجَلَّ وهو أيضًا يُكْرِم، قال الله تعالى في أصحاب الجنة ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥] فهو ذُو الجلال والإِكْرَام يُكْرِم مَنْ يَسْتَحِقُّ الإِكْرَام، وهو يُكْرِمه عَزَّجَلَّ عِبَادَهُ الصَّالِحُونَ جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ بَمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم (١٤١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.



سورة الواقعة  
الآيات (١-٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿ ١ ﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ﴿ ٢ ﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿ ٣ ﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿ ٤ ﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿ ٥ ﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿ ٦ ﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿ ٧ ﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿ ٨ ﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿ ٩ ﴾ ﴾ [الواقعة: ١-٩].

• • • • •

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ البَسْمَلَةُ تَقْدَمُ الْكَلَامَ عَلَيْهَا.

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿ ١ ﴾ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ﴿ ٢ ﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿ ٣ ﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ حَذَفَ اللَّهُ جَوَابَ الشَّرْطِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَذْهَبَ الذَّهْنُ فِي تَقْدِيرِهِ كُلِّ مَذْهَبٍ، يَعْنِي إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ صَارَتِ الْأَهْوَالُ الْعَظِيمَةُ، وَصَارَ انْقِسَامُ النَّاسِ، وَحَصَلَ مَا حَصَلَ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِمَّا يَكُونُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وقوله: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ كقوله: ﴿ الْحَاقَّةُ ﴿ ١ ﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة: ١-٢]، والمراد بذلك يوم القيامة ﴿ لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبٌ ﴾ أي: ليست لوقعتها كذب، بل وقعها حق ولا بدَّ، والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة التي أخبر بها رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»<sup>(١)</sup> وكثيرًا ما يُقَرَّنُ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ بِالْإِيمَانِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

باليوم الآخر؛ لأنَّ الإيمان باليوم الآخر يَحْدُو بالإنسان أن يَعْمَلَ العمل الصَّالح، وأنَّ يَتَّعِدَ عن العمل السيِّئ؛ لأنَّه يُؤْمِن أن هناك يومًا آخر يُجَازَى فيه الإنسان المُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ والمُسيءُ بِإِسَاءَتِهِ.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ يعني هي خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ، أي: يُخَفِّضُ فِيهَا النَّاسُ وَيُرْفَعُ فِيهَا آخَرُونَ. وَلَكِنْ مَنْ الَّذِي يُرْفَعُ؟ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمُ الرَّفْعَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سِوَاهُمْ فَإِنَّهُمْ مَوْضُوعُونَ بِحَسَبِ بُعْدِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، وَتُخَفِّضُ أَهْلَ الْجَهْلِ وَالْعَصِيَانِ، وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ فِي الدُّنْيَا رَفِيعُ الْجَاهِ، مَعْظَمُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَحَقَرِ عِبَادِ اللَّهِ، وَالْجَبَّارُونَ الْمُتَكَبِّرُونَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَمْثَالِ الذَّرِّ يَطَّوَّهُمُ النَّاسُ بِأَقْدَامِهِمْ<sup>(١)</sup>، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مُتَبَخَّرُونَ مُسْتَكْبِرُونَ عَالُونَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْضُوعُونَ مَهِينُونَ قَدْ أَخْزَاهُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ يعني زُلْزِلَتْ زُلْزَلَةً عَظِيمَةً؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رَجًّا﴾ أي: رَجًّا عَظِيمًا، وَأَنْتَ تَصَوِّرُ أَنَّكَ تُرْجُ إِنَاءً فِيهِ مَاءٌ كَيْفَ يَكُونُ اضْطِرَابُ الْمَاءِ فِيهِ، فَالْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُرْجُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقَوْا رَبَّكُمْ إِنَّ زِلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أي: بُعِثِرَتْ وَهَبَطَتْ وَصَارَتْ كَثِيرًا مَهِيلًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ كَالْهَبَاءِ الَّذِي نَرَاهُ حِينَما تَنْعَكِسُ أَنْوَارُ الشَّمْسِ فِي حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ،

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (١٧٩/٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ، رَقْمُ (٢٤٩٢)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



ترى هذا الهباء من خلال ضوء الشمس مُنبثًا مُتفرِّقًا، هذه الجبال الصُّمُّ الصَّلْبَةُ الَّتِي  
يكون الصَّخْرُ فيها أكبرَ من الجبال، بل ربِّها يكون الجبل الواحدُ صخرةً واحدةً يكون  
يومَ القيامة هباءً مُنبثًا بأمر الله عَزَّجَلَّ، فَبَقِيَ الأرض ليس فيها جبال ولا شَجَر  
ولا أودية ولا رمال، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ  
فَيَذَرُهَا ۚ أَيُّ الْأَرْضِ ۚ قَاعًا صَفْصَفًا ۖ﴾ (١٨) لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿طه: ١٠٦-١٠٧﴾،  
﴿وَكُنْتُمْ ۚ﴾ الخطاب للآدميين عموماً.

﴿أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۚ﴾ أي أصنافاً، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿أَخْتَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ۚ﴾  
[الصفات: ٢٢] أي: أصنافهم، وقال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا ۚ﴾ أي: أصناف،  
فمعنى أزواجاً يعني أصنافاً (ثلاثة) لا رابع لها: السابقون، وأصحاب اليمين،  
وأصحاب الشمال، فينقسم الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام لا رابع لها.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ﴾ (٨) ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ﴾ (٩)  
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ غَيْرَ مُرْتَبِّينَ فِي الْفَضْلِ، فبدأ الله بأصحاب الميمنة  
ثم ثنى بأصحاب الشمال، ثم ثلث بالسابقين، لكن عند التفصيل بدأ بهم مرتين  
على حسب الفضل فبدأ بالسابقين، ثم بأصحاب اليمين، ثم بأصحاب الشمال،  
وهذا التفصيل المرتب خلاف الترتيب المُجَمَّل، وهو من أساليب البلاغة.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ﴾ يعني أَنَّهُ عَزَّجَلَّ أَخْبَرَ أَنَّ أَحَدَ الْأَصْنَافِ  
أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ﴾ مِنْ هُمْ، وسيأتي إن شاء الله ذكْرهم  
مُفَصَّلًا، ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ﴾ أي: ذَوُو الشُّؤْمِ، وسيأتي أيضًا ذكْرهم مُفَصَّلًا،  
﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ﴾ هؤلاء أَفْضَلُ الْأَصْنَافِ.



## الآيات (١٠-٢٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ﴿١٩﴾ وَفَلَاحُهُمْ مِمَّا يَشْتَبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمٌ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبَهُونَ ﴿٢١﴾ وَخُورٌ عَيْنٍ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْزِ الْأَمْكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ١٠-٢٦].

• • • • •

وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أصحُّ الأعراب فيها أنَّ قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿السَّابِقُونَ﴾، يعني أنَّ السابقين إلى الأعمال الصالحة هم السابقون إلى الثواب في الآخرة، فكأنَّه قال: السابقون في الدنيا بالأعمال الصالحة هم السابقون في الآخرة بالثواب.

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: إلى الله عَزَّوَجَلَّ فهم في أعلى الجنان، وأعلى الجنان أقرب إلى الرحمن عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الفردوس وهو أعلى دَرَجات الجنة فوقه عرش الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ذَكَرَ مَنَزِلَتَهُمْ قَبْلَ ذِكْرِ مَنَزِلِهِمْ، وكما يُقَالُ: الجار قبل الدَّار، وكما قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ آتِنِي لِي عِنْدَكَ﴾ بدأت بالجوار ﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١]، وهنا قال: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ قبل أن يبدأ بذكر الثواب؛ لأنَّ قُرْبَهُمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فوق كُلِّ شيء، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ.

﴿أُولَئِكَ الْمَقَرُّونَ﴾ (١١) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١١﴾ أَي فِي هَذَا الْمَقَرِّ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَأَضَافَ الْجَنَّاتِ إِلَى النَّعِيمِ؛ لِأَنَّ سَاكِهَا مُنْعَمٌ فِي بَدَنِهِ، وَمُنْعَمٌ فِي قَلْبِهِ، كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ (١٠) فَوَقَّهَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١٠﴾ [الإنسان: ١٠-١١]، نَضْرَةً فِي الْوُجُوهِ، وَسُرُورًا فِي الْقُلُوبِ، فَهُمْ فِي نِعْمَتَيْنِ: هُمَا نَعِيمُ الْبَدَنِ، وَنَعِيمِ الْقَلْبِ، ﴿يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، هَذَا مِنْ نَعِيمِ الْبَدَنِ أَيْضًا ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، هَذَا مِنْ نَعِيمِ الْبَدَنِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنْ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِلَّا أَنَّ الْإِنْسَانَ يُخَلَّدُ فِيهَا لَا يَمُوتُ، وَيَصِحُّ فَلَا يَسْقَمُ، وَيَشَبُّ يَكُونُ شَابًّا دَائِمًا فَلَا يَهْرَمُ، وَفَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ النَّظَرُ إِلَى وَجهِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، يَعْنِي فَوْقَ الْحُسْنَىٰ وَفَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الزِّيَادَةَ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجهِ اللَّهِ (١)، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ قِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ.

﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ تَكُونُ قَلَّةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِاعْتِبَارِ كَثَرَةِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقِينَ بِاعْتِبَارِ كُلِّ نَبِيٍّ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَوَّلِينَ أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَي: ثُلَّةٌ مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَلِيلٌ مِنْ آخِرِهَا، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم (١٨١)، من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الصَّحِيح، بل هو الْمُتَعَيَّن؛ لَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup> أي نصفهم، وفي حديث آخر: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِثَّةٌ وَعِشْرُونَ صَفًّا مِنْهُمْ ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ»<sup>(٢)</sup> وعلى هذا لا يصحُّ أن نقول قليل من هذه الأمة، وكثير من الأمم السابقة، بل نقول: ثلَّة أي كثير من هذه الأمة من أولها، وقليل من آخرها.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾: ﴿سُرُرٍ﴾ جمع سَرِير، وهو ما يَتَّخِذُهُ الْإِنْسَانُ لِلْجُلُوسِ والنَّوْمِ، ﴿مَوْضُونَةٍ﴾ قال العلماء: مَنْسُوجَةٌ مِنَ الدَّهَبِ، ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: مُعْتَمِدِينَ عَلَى أَيْدِيهِمْ وَعَلَى ظُهُورِهِمْ، فَهَمَّ فِي رَاحَةٍ فِي الْيَدِ وَفِي الظَّهْرِ.

﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ أي: يُقَابِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ الْمَكَانِ؛ لِأَنَّ الْمَكَانَ إِذَا كَانَ ضَيِّقًا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مُتَقَابِلِينَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَمَكِنَةَ وَاسِعَةٌ وَهِيَ كَذَلِكَ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنَزَلَةً مِنْ يَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفِي عَامٍ، يَنْظُرُ أَقْصَاهُ كَمَا يَنْظُرُ أَدْنَاهُ<sup>(٣)</sup>، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْجَنَّةُ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ يُحِيطُ بِسَمَاءٍ وَاحِدَةٍ، كَيْفَ وَهِيَ عَرْضُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَالسَّمَوَاتِ السَّبْعِ بَعْضُهَا مِنْ فَوْقَ بَعْضٍ؟! وَكَلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ فَوْقَ كَانَتْ دَائِرَتُهُ أَوْسَعَ، فَمَنْ يُحِيطُ بِهَذَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لأدم أخرج بعث النار، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٤٧/٥)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أهل الجنة، رقم (٢٥٤٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٩)، من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٣/٢)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، رقم (٢٥٥٣)، وفي كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة القيامة، رقم (٣٣٣٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إذن: هم مُتقَابِلُونَ؛ لأنَّ أمكتهم واسعة، ولأنَّ لديهم من كمال الأدب ما لا يُمكن أن يستدبر أحدهم الآخر، كلُّهم مُؤدَّبُونَ، كلُّهم قُلُوب صافية، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَاجًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن التدابر<sup>(١)</sup>، والتدابر يشمل التدابر القلبي بحيث يكون كلُّ واحد مُتَّجِهًا إلى وجهه، والتدابر البدنيّ إلَّا عند الحاجة أو الضُّرورة، وإلَّا فمتى أمكن التَّقابُل فهو أفضل، فلو أنَّ أحدًا يُكلِّمك وقد ولَّك ظهره هل يكون سَمَاعُكَ له ومحبَّتكَ له كما لو كان يُحدِّثك مُستَقْبِلًا إِيَّاكَ؟ وهذا شيء مُشاهد معلوم، فأهل الجنة على سُرُر مَوْضُونة مُتَكئين عليها مُتقَابِلِينَ، وفي حال الاتِّكاء ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾: (الوِلْدَان) جَمْع وَلَد، أو جَمْع وَلِيد: كغلمان جمع غلام ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يتردَّد عليهم.

﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي: خُلِقُوا لِيُخَلَّدُوا، وهم غلمان شباب إذا رأيتهم حسبتهم لَوْلَا مَشُورًا، لجمالهم وصفائهم وكثرتهم وانتشارهم في أملاك أسيادهم، إذا رأيتهم أي: إذا رأيت الولدان، فإذا كان الولدان تحسبهم لَوْلَا مَشُورًا، فكيف بالسَّادة؟ أعظم وأعظم ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ ١٧ يَا كَوَّابِ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ أكواب هي عبارة عن كؤوس لها عُرَى، والأباريق أيضًا أواني لها عُرَى ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ليس له عُروة، قوله: ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ أي: مِنْ خَمْرٍ مَعِين.

﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ﴾ يعني لا يُوجع بها الرَّأس، ولا يَنزِفُ بها العقل، بخلاف خمر الدُّنيا فإنَّها تُؤلم الرَّأس وتُذهب العقل، ﴿وَفَكَهَمَ﴾ معطوفة على قوله:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، رقم (٦٠٦٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابير، رقم (٢٥٥٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿بَاكُوبٍ﴾، أي: ويَطُوف عليهم الولدان بفاكهة ﴿مِمَّا يَتَخَبَّزُونَ﴾ لطيبيها منظرًا، وطيبيها مشمًا، وطيبيها مأكلاً، وهذه الفاكهة طيبة في منظرها، وطيبة في رائحتها، وطيبة في مأكليها ومذاقيها؛ لأنَّ الله قال: ﴿مِمَّا يَتَخَبَّزُونَ﴾ والإنسان لا يعافُ الشَّيء إلاَّ لقُبْح منظره، أو لقُبْح رائحته، أو لقُبْح مأكله، والفاكهة في الجنة طيبة في لونها، وحجمها، وريحها، ومذاقيها، وسبحان الله يُؤتون بها مُتشابهة في اللَّون والحجم والرائحة، لكن في المذاق مُختلفة، وهذا ممَّا يزيد الإنسان فرحًا وسرورًا وإيمانًا بقدرة الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَلَمَّا طَبَّخُوا مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ أي: ويَطُوف عليهم هؤلاء الولدان بلحم طير، وذَكَر لحم الطير؛ لأنَّ لحوم الطَّير أنعم اللُّحوم وألذُّها، وهذا الطَّير من أين يتغذى؟  
الجواب: ليس لنا أن نَسأل عن هذا؛ لأنَّ أمور الغيب يجبُ علينا أن نُؤمن بها بدون سؤال، فنقول: إن كانت هذه الطُّيور تحتاج إلى غذاء فما أكثر ما تتغذى به؛ لأنَّها في الجنة، وإن كان لا تحتاج إلى غذاء، فالله على كلِّ شيء قديرٌ.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ الحُور هنَّ البيض، وعِين: أي حَسَنَات الأعين، وهنَّ ذات العُيون الواسعة الجميلة ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُورِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: المغطَّى حتَّى لا تُفسده الشَّمْس ولا الهواء ولا الغبار فيكون صافيًا من أحسن اللُّؤلؤ ﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يُجزَّون بهذا الثَّواب الجزيل ﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بعَمَلهم، أو بالذي كانوا يَعْمَلونه؛ لأنَّ (ما) في قوله: ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يصحُّ أن تكون مصدرية، ويصحُّ أن تكون اسمًا موصولًا، والباء هنا للسببية، والباء لها معاني كثيرة بحسب السِّياق فتكون للعَوَض كقولهم: بعْتُ الثَّوبَ بدينار، وتكون للسببية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾

أي: بسببه، ولا يصح أن تكون الباء في قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ للعوض؛ لقول النبي ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»<sup>(١)</sup> فالباء في قوله: ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب عملهم، وليس المعنى أنه عوض؛ لأن الله تعالى لو أراد أن يُعَاوِضَنَا لكانت نعمة واحدة تُحِيط بجميع أعمالنا ﴿وَلِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] فانتبه لهذا!!

ولذلك استشكل بعض العلماء قوله تعالى: ﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والنبي ﷺ يقول: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ».

والجواب: أن الباء في النَّفْيِ بَاءُ الْعِوَضِ، والباء في الإثبات بَاءُ السَّبَبِ.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾<sup>(١٥)</sup> إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا أي: أهل الجنة لا يسمعون كلامًا لا فائدة منه، ولا كلامًا يَأْثِمُ به الإنسان، فالكلام الذي لا خير فيه، والكلام القبيح لا يوجد في الجنة.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ الاستثناء هنا استثناء مُنْقَطِع؛ لأنَّ المُسْتَثْنَى من غير جنس المُسْتَثْنَى منه، فالسلام ليس من اللغو ولا من التَّأْثِيمِ، وعلامة الاستثناء المُنْقَطِع أن تجعل بدل ﴿إِلَّا﴾ (لكن) فَيَسْتَقِيمُ الكلام، وهنا لو قِيلَ في غير القرآن: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ولكن قِيلًا سلامًا سلامًا لاستقام الكلام، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾<sup>(١١)</sup> لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ<sup>(١٢)</sup> إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ<sup>(١٣)</sup>

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب نهي تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَعَذَّبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿[الغاشية: ٢١-٢٤]﴾، فالاستثناء هنا ﴿إِلَّا مَنْ﴾ مُنْقَطِعٌ؛  
لأنَّ ما بعد ﴿إِلَّا﴾ ليس من جنس ما قبلها؛ لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ ليس بِمُصَيِّرٍ لا على  
الكافرين ولا على غيرهم، فتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن؛ ولهذا جاءت الفاء ﴿فَعَذَّبَهُ﴾  
اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿وعليه لو أنَّ قارئاً وقف على قوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾  
فالوقف صحيح.

﴿سَلَمْنَا سَلَمًا﴾ أي: إِلَّا قولاً فيه السَّلامَة وإدخال السُّرور والفرح بين أهل  
الجنة، جَعَلْنَا الله منهم.





## الآيات (٢٧-٤٠)

•••••

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٢٧﴾ وَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾  
 وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظَلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا  
 مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرشٍ مَّرْوَعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ فَبَعَلْنَهُمْ أُنثَكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرِيًّا أُنْزَابًا ﴿٣٧﴾  
 لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٢٧-٤٠].

•••••

﴿ وَأَصْحَبُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ ﴾ هذه الطبقة الثانية وهي دُونَ الْأُولَى،  
 والاستفهام في قوله: ﴿ مَا أَصْحَبُ الْيَمِينِ ﴾ استفهام تعجب وتفخيم، يَعْنِي: أَيُّ قَوْمٍ  
 هَؤُلَاءِ؟!

﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾: (السِّدْر) شجر معروف ظلُّه بارد ومُنَشِّط، ولكن السِّدْر  
 الَّذِي فِي الْجَنَّةِ لَيْسَ كَالسِّدْرِ الَّذِي فِي الدُّنْيَا، الْأَسْمُ وَاحِدٌ وَالْمَعْنَى مُخْتَلِفٌ، كَمَا قَالَ  
 تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]،  
 وَلَوْ كَانَ مَا فِي الْجَنَّةِ كَالَّذِي فِي الدُّنْيَا لَكُنَّا نَعْلَمُ، وَالْمَخْضُودُ الَّذِي لَا شَوْكَ فِيهِ.

﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾: (الطَّلْح) قِيلَ: إِنَّهُ شَجَرُ الْمَوْزِ، وَالْمَنْضُودُ الَّذِي مَلَأَ ثَمَرَةً  
 ﴿ وَظَلِّ مَمْدُودٍ ﴾ أَي: لَا نِهَايَةَ لَهُ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ لَيْسَ فِيهَا شَمْسٌ بَلْ هِيَ ظِلٌّ، وَصَفَهَا  
 بَعْضُ السَّلَفِ بِأَنَّهَا كَالنُّورِ الَّذِي يَكُونُ قُرْبَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، تَجِدُ الْأَرْضَ مَمْلُوءَةً نُورًا  
 وَلَكِنْ لَا تُشَاهِدُ شَمْسًا، فَهُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ فِي الْمَسَاحَةِ وَالزَّمَنِ ﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ أَي:

ماء مُسْتَمِرٌّ دائماً، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وغير الماء أنهار أخرى من عَسَلٍ وَلَبَنٍ وَخَمْرٍ، فالأنواع أربعة، وقد وَرَدَ أَنَّ هذه الأنهار تَجْرِي في غير أخذود، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي النُّوْبَةِ<sup>(١)</sup>:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أَخْدُودٍ جَرَتْ  
سُبْحَانَ مَنْسُكُهَا عَنِ الْفَيْضَانِ  
فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هل هذا مُمَكِّن؟!

فالجواب: نقول لا تتحدَّث هل هذا مُمَكِّن، بل صدِّق، وأخبار الغيب لا يُمَكِّن أن يرد عليها هذا السُّؤال، أليس النَّبِيُّ ﷺ أخبر أَنَّ الله تعالى يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حين يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ<sup>(٢)</sup>؟

الجواب: بلى، والواجب التَّصديق، وأن لا نقول: كيف؟ ولم؟ لأنَّ أمور الغيب ثابتة في القرآن والسُّنَّة فلا تسأل مثل هذا السُّؤال؛ لأنَّه لا يُمَكِّن الإحاطة بها، بل قل: آمَنْتُ بالله ورسوله، واستقيم.

﴿وَفَنَكِهَتْ كَثِيرَةً﴾: (الفاكهة) كُلُّ طعام أو شراب يتفكَّه به الإنسان؛ لأنَّ الطَّعام والشراب يكون أحياناً ضرورياً مُعتاداً لا تتفكَّه به بل هو ضروري للبقاء، وأحياناً يكون الطَّعام والشراب فاكهة يتفكَّه به الإنسان ﴿كَثِيرَةً﴾ أي: في أي وقت من الأوقات تجد هذه الفاكهة بينا في الدُّنيا الفواكه لها أوقات مُعيَّنة تنقطع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَ﴾ أي: لا تُقَطَّع أبداً في كُلِّ الأوقات ﴿وَلَا مَمْنُوعَ﴾ أي: لا أَحَدَ

(١) النوبة (ص ٣٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يَمْنَعُهَا، بل قد قال الله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، أي: ما يَقْطِفُه الإنسان من الثَّمَرَةِ دَانٍ، حَتَّى إِنَّهُ إِذَا اشْتَهَى الإنسان الثَّمَرَةَ وهي فوق تَدَلَّى الغُصْنِ حَتَّى يَكُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بَدُونِ تَعَبٍ، وفاكهة الدُّنْيَا مَقْطُوعَةٌ تَأْتِي فِي وَقْتِ دُونِ وَقْتٍ، وَمَنْعُوعَةٌ فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَدْخُلَ بُسْتَانُ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا.

﴿وَفُرْشٍ مَّرْقُوعَةٍ﴾ الْفِرَاشُ مَا يَنَامُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ ﴿مَرْقُوعَةٍ﴾ أَيُّ عَالِيَةٍ، وَلَمَّا كَانَ الَّذِي مَعَ الْإِنْسَانِ فِي الْفِرَاشِ الْحُورُ الْعَيْنُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً﴾ أَيُّ: أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً عَجَبِيًّا غَرِيبًا بَدِيعًا، وَفَسَّرَ هَذَا الْإِنِشَاءَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أَيُّ: هَؤُلَاءِ الزَّوْجَاتِ أَبْكَارٌ مَهْمَا أَتَاهَا زَوْجُهَا عَادَتْ بِكَرٍّ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وَنِسَاءُ الدُّنْيَا إِذَا افْتَضَّ الزَّوْجُ بَكَارَةَ الزَّوْجَةِ لَا تَعُودُ، وَلَكِنْ فِي الْآخِرَةِ تَعُودُ بِكَرٍّ ﴿عُرْيًا أَتْرَابًا﴾ الْعُرْبُ الْمُتَحَبِّاتُ إِلَى أَزْوَاجِهِنَّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ الْمُتَعَةِ أَنْ تَكُونَ الزَّوْجَةُ تَتَحَبَّبُ إِلَى زَوْجِهَا وَتَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ وَتُغْرِيه بِنَفْسِهَا، وَتَفْعَلُ كُلَّ مَا يُوجِبُ حُبَّتهَ لَهَا، ﴿أَتْرَابًا﴾ أَيُّ: عَلَى سِنٍّ وَاحِدَةٍ لَا تَخْتَلِفُ ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أَيُّ: ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنَ النَّعِيمِ النَّفْسِيِّ وَالْبَدَنِيِّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ٣١ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿هُؤُلَاءِ هُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَالْمَرْتَبَةِ الْأُولَى السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يَعْنِي ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ، فَإِنَّ خَيْرَ قُرُونِ الْأُمَّةِ الْقَرْنَ الْأَوَّلَ الَّذِي هُوَ قَرْنُ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّلَاثُ، ثُمَّ تَتَنَاقَصُ، أَمَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ٣١ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أَيُّ: جَمَاعَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَجَمَاعَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ.

## الآيات (٤١-٥٧)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤١﴾ وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَبُ الشِّمَالِ ﴿٤٢﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمِرٍ ﴿٤٤﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٥﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَنِثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٧﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٨﴾ أَوَّابًاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٥٠﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الصَّالُونَ الْمَكْذَبُونَ ﴿٥٢﴾ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُفَيْرٍ ﴿٥٣﴾ فَأَلْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٤﴾ فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِّنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٥﴾ فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٦﴾ هَذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴾ [الرابعة: ٤١-٥٧].

• • •

ثم ذكر الله القسم الثالث، فقال: ﴿ وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَبُ الشِّمَالِ ﴾ وهم الكُفَّار والمنافقون ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ هذا القسم في سَمُوم، أي: حرارة شديدة - والعياذ بالله - وقد بين الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة كيفيتها، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦]، وأخبر أنه ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ [الحج: ١٩-٢١]، والأيات في هذا المعنى كثيرة، وقوله: ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾، الحميم هو الماء الحار الشديد الحرارة، فهم - والعياذ بالله - مُحَاطُونَ بالحرارة من كُلِّ وجه، ومن كُلِّ جانب ﴿ وَظِلٍّ مِّنْ يَحُمِرٍ ﴾:

(الْيَحْمُوم) هو الدُّخَانُ الْمَخْضُ، وقد وصفه الله بآنه ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ يعني ليس بارداً يقيهم الحرَّ، ولا كريماً حَسَنَ الْمَنْظَرِ يَتَنَعَّمُونَ به، وَيَسْتَرِيحُونَ فيه فهو لا بارد كما هو الشَّانُ فِي الظِّلِّ، ولا كريم، أي: حَسَنَ الْمَظْهَرِ؛ لأنَّه دُخَانٌ كَرِيهٍ مَنْظَرُهُ حَارٌّ مَحَبَّرُهُ -نسأل الله العافية-.

ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَهُمْ مِنْ قَبْلِ فَقَالَ: ﴿إِنَّمُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، وذلك في الدُّنْيَا، قَدْ أَتَرَفَ اللَّهُ أَبْدَانَهُمْ، وَهَيَّأَ لَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْبَدَنِ مَا وَصَلُوا فِيهِ إِلَى حَدِّ التَّرَفِ، لَكِنْ هَذَا لَمْ يَنْفَعَهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَلَمْ يُنْجِهِمْ مِنَ النَّارِ، ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾: ﴿يُصِرُّونَ﴾ أي: يَسْتَمِرُّونَ عَلَيْهِ، وَالْحِنثُ الْعَظِيمُ هُوَ الشُّرْكُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْحِنثِ الْإِثْمُ، وَالْعَظِيمُ هُوَ الشُّرْكُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وَكَانُوا أَيْضًا يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿يُنْكِرُونَ هَذَا إِنْكَارًا عَظِيمًا، يَقُولُونَ: إِذَا بَلَيْتْ عِظَامُنَا وَصَارَتْ رُفَاتًا هَلْ نُبْعَثُ؟ وَأَيْضًا هَلْ يُبْعَثُ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ؟ وَهَذَا يَحْتَجُّونَ يَقُولُونَ: ﴿فَأَنَّا إِنَّا بَابَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦]، وَهَذِهِ حُجَّةٌ بَاطِلَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ لَهُمْ: إِنَّكُمْ سَتُبْعَثُونَ الْيَوْمَ، وَإِنَّمَا تُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَكَيْفَ تَتَحَدَّوْنَ وَتَقُولُونَ هَاتُوا آبَاءَنَا؟ فَالْيَوْمَ الْآخِرُ لَيْسَ هُوَ الْيَوْمَ الْحَاضِرُ حَتَّى يَتَحَدَّوْا وَيَقُولُوا هَاتُوا آبَاءَنَا نَقُولُ: إِنَّ هَذَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَالْآخِرُونَ كُلُّهُمْ سَيُبْعَثُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ، لَا جِبَالٌ وَلَا أَشْجَارٌ، وَلَا كُرُوبَةٌ بَلْ تُمَكِّدُ الْأَرْضُ مُسَطَّحَةً، يُرَى أَقْصَاهُمْ كَمَا يُرَى أَدْنَاهُمْ، وَالْآنَ لَمَّا كَانَتِ الْأَرْضُ كُرُوبَةً فَإِنَّ الْبَعِيدَ لَا تَرَاهُ؛ لِأَنَّهُ مُنْخَفِضٌ، لَكِنْ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَطَّحَتِ الْأَرْضُ، وَصَارَتْ

كالأديم، أي: كالجلد الممدود، فَيَبْعَثُ الخلائق كلَّهم على هذا الصَّعيد، وقوله: ﴿إِنِّي مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لقول الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أي بعد البعث ﴿أَنْتُمْ أَلْصَّالُونَ الْمَكْذِبُونَ﴾ الصَّالُونَ في العمل فهم لا يَعْمَلُونَ، الْمَكْذِبُونَ للخبر فهم لا يُصَدِّقُونَ -والعياذُ بالله- ﴿لَا أَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾ أي: أَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ، وهذا الشَّجر نوعه من زُقُومٍ، كما تقول: خاتم من حديد، وباب من حَسَبٍ، وجدار من طِينٍ، فقوله: ﴿مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ﴾ مِنْ شَجَرٍ مُتَعَلِّقَةٌ بأُكْلِهِمْ، ومن زُقُومٍ بيان للشَّجر، وَسُمِّيَ زُقُومًا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ -والعياذُ بالله- إذا أَكَلَهُ يَتَزَقَّمُهُ تَزَقُّمًا، لِشِدَّةِ بَلْعِهِ لَا يَبْتَلِعُهُ بِسُهُولَةٍ.

﴿فَالَّذِينَ مِنْهَا أَلْبُطُونَ﴾ أي: أَنَّهُمْ يَمْلَأُونَ الْبُطُونَ من هذا الشَّجر، مع أَنَّ هذا الشَّجر مُرٌّ خَبِيثُ الرَّائِحَةِ، كَرِيهِ الْمَنْظَرُ، لَكِنْ لِشِدَّةِ جُوعِهِمْ يَأْكُلُونَهُ كَمَا يَأْكُلُ الْجَائِعُ الْمُضْطَرُّ، فهم يَأْكُلُونَهُ عَلَى تَكْرَرِهِ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ (١١) يَتَجَرَّرُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِفُّهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيتٍ [إبراهيم: ١٦-١٧]، فهم يَأْكُلُونَ من هذا الشَّجر، وَيَمْلَأُونَ الْبُطُونَ مِنْهَا، يَأْتِيهِمْ شَغَفٌ عَظِيمٌ جَدًّا لِلْأَكْلِ، حَتَّى يَمْلَأُوا بُطُونَهُمْ مِمَّا يَكْرَهُونَهُ، وهذا أَشَدُّ فِي الْعَذَابِ -نَسَأُ اللَّهُ الْعَافِيَةَ-.

ثُمَّ إِذَا مَلَأُوا بُطُونَهُمْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ اشْتَدَّتْ حَاجَتُهُمْ إِلَى الشَّرْبِ، فَكَيْفَ يَشْرَبُونَ؟

قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنْ لَحِيمٍ﴾: ﴿لَحِيمٍ﴾ هو الماء الحارُّ، يَشْرَبُونَ مَاءً حَارًّا بعد أَنْ يَسْتَغِيثُوا مُدَّةً طَوِيلَةً، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ هَذَا الْمَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَمَاءٌ كَالْمُهْلِ

يَشْوِي الْوُجُوهُ يَنسَكُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿[الكهف: ٢٩]﴾ وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ فتأمل يا أخي هذا: إذا قَرَّبوه من الوجه يشويه وإذا دخل بطنهم قطع أمعاءهم، ومع ذلك يشربونه بشدة: ﴿شَرَبَ الْهَيْمِ﴾، أي: شرب الإبل، والهيَم: جمع هائمة، أو جمع هيماء، يعني أنها شديدة العطش لا يرويهما الشيء القليل، فيملؤون بطنهم -والعياذُ بالله- من الشجر الزُّقُوم، ويشربون من الحميم شرب الهيم، أسأل الله أن يُجِيرَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنَ النَّارِ.

﴿هَذَا تَزُكُّمُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: هذه ضيافتهم، بخلاف المؤمنين فإنَّ ضيافتهم جنَّات الفردوس ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغَوْنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]، ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ وهذا أمر لا أحد يُنكره: أن خالقنا هو الله، حتَّى المشركون الذين يُشركون مع الله إذا سُئلوا: مَنْ خَلَقَهُمْ؟ قالوا: الله، ﴿تَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: أول مرة ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: في إعادتكم ثاني مرَّة، ولولا هنا بمعنى هلا تُصدِّقون، كان الواجب عليهم وهم يُصدِّقون بأنَّ خالقهم أول مرَّة هو الله، أن يُصدِّقوا بالخلق الآخر؛ لأنَّ القادر على الخلق الأوَّل قادر على الخلق الآخر من بابٍ أولى، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ [النجم: ٤٧].



## الآيات (٥٨-٦٢)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿٥٨﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ نَحْنُ فَدَرَزْنَا بَيْنَكُمْ أَلَمُوتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦١﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٨-٦٢].

• • • • •

ثُمَّ صَرَبَ اللَّهُ تَعَالَىٰ أَمْثَالًا بِمَا فِيهِ وَجُودُنَا، وَمَا فِيهِ بَقَاؤُنَا، وَمَا فِيهِ اسْتِمْتَاعُنَا، فَقَالَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ أَي: أَخْبِرُونِي عَنْ هَذَا الْمَنِيِّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْكُمْ: هَلْ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ اللَّهُ؟

وَالْجَوَابُ: اللَّهُ عَزَّجَلَّ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُهُ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُهُ فِي الرَّحِمِ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ، فَنَحْنُ لَا نُوجِدُ هَذَا الْمَنِيَّ وَلَا نُطَوِّرُهُ فِي الرَّحِمِ، بَلْ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ الْجَوَابُ: بَلْ أَنْتَ يَا رَبَّنَا.

﴿نَحْنُ فَدَرَزْنَا بَيْنَكُمْ أَلَمُوتَ ﴾ أَي: قَضَيْنَاهُ بَيْنَكُمْ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَلَا بُدَّ حَتَّى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ﴿٦١﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي: لَا أَحَدٌ يَسْبِقُنَا فَيَمْنَعُنَا أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ، بَلْ نَحْنُ قَادِرُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَسَوْفَ



يُبَدِّلُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْثَالَنَا أَيُّ يُنْشِئُنَا خَلْقًا آخَرَ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿وَنُنْشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾  
وَهِيَ أَنَّكُمْ نَشِئْتُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ، وَأَخْرَجَكُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الْعَدَمِ ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾  
أَيُّ: فَهَلَا تَذَكَّرُونَ وَتَتَعَبُّونَ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْزِضُهُ عَلَى عِبَادِهِ  
وَمَعْنَاهُ: إِنَّا بَدَأْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَإِذَا بَدَأْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَلَسْنَا بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُعِيدَكُمْ  
ثَانِي مَرَّةً.



## الآيات (٦٣-٦٧)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٦٣﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٤﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٥﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٧﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٧].

• • • • •

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أي: أخبروني أيها المكذبون بالبعث عن الذي تزرعونونه بالحرث: هل أنتم الذين تُخرجونه زرعاً بعد الحب أم نحن الزارعون؟

الجواب: بل أنت يا ربنا، أنت الذي تزرعه، أي تُنبته حتى يكون زرعاً، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوْمِ﴾ [الأنعام: ٩٥] فلا أحد يستطيع أن يفلق هذه الحبة حتى تكون زرعاً، ولا هذه النواة حتى تكون نخلاً، إلا الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ولم يقل عَزَّوَجَلَّ لو نشاء لم نُخرجه بل قال: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي: بعد أن يخرج ويكون زرعاً وتتعلق به النفوس يجعله الله تعالى حُطامًا، وهذا أشد ما يكون سبباً للحزن والأسى؛ لأن الشيء قبل أن يخرج لا تتعلق به النفوس، فإذا خرج وصار زرعاً ثم سلط الله عليهم آفة، فكان حُطامًا، أي: محطوماً لا فائدة منه، فهو أشد حسرة ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تتفكّهون بالكلام تريدون أن تُذهبوا الحزن عنكم، فتقولون ﴿إِنَّا لَمُعْرِمُونَ﴾ أي لحقنا العُرم بهذا الزرع الذي صار حُطامًا، ثم تستأنفون فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: حُرِمنا هذا الزرع، وصار حُطامًا ففقدناه.

• • • • •

## الآيات (٦٨-٧٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٦٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٩﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٧٠﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْتَهُ أَجَاًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠].

• • • • •

ثم انتقل الله عَزَّوَجَلَّ إلى مادة أخرى، وهي مادة الحياة، وهي الماء فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي: أخبرونا عنه مَنْ الَّذِي خَلَقَهُ؟ مَنْ الَّذِي أَوْجَدَهُ ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾؟

والجواب: بل أنت يا ربنا، والمعنى: هل أنتم أنزلتم الماء الذي تَشْرَبُونَهُ من المُنْزَلِ أي من السَّحَابِ أم نحن المنزلون؟

الجواب: هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ لَأَنَّهُ يُرْسِلُ إِلَيْنَا السَّحَابَ فَيَنْزِلُ الْمَطَرُ فَمِنْهُ مَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا شَرِبَتْهُ الْأَرْضُ يَسْلُكُهُ اللَّهُ تَعَالَى يَنْأِيْعُ فِي الْأَرْضِ، وَيُسْتَخْرِجُ مِنَ الْآبَارِ، وَيَجْرِي مِنَ الْعُيُونِ، فَأَصْلُ الْمَاءِ الَّذِي نَشْرَبُ مِنَ الْمُنْزَنِ، مِنَ السَّحَابِ، وَلِذَلِكَ إِذَا قَلَّ الْمَطَرُ فِي بَعْضِ الْجِهَاتِ قَلَّ الْمَاءُ وَغَارَ، وَاحْتِاجَ النَّاسُ إِلَى الْمَاءِ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْتَهُ أَجَاًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي: جعلناه مالحًا، كَرِهَ الطَّعْمَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُشْرَبَ، وَهَذَا يَقُولُ: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْتَهُ أَجَاًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ولم يقل: لو نشاء لغورناه، أو منعنا إنزاله؛ لَأَنَّ كَوْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَاءِ رَأْيَ الْعَيْنِ وَلَكِنْ لَا يُمَكِّنُهُمْ شُرْبُهُ، أَشَدَّ حَسْرَةً مِمَّا لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَدَّاهُمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ شَيْءٍ فِي حَسْرَةِ نَفْسِهِمْ.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أي فهلا تشكرون الله عَزَّجَلَّ على إنزاله من المُنْزَنِ، وعلى كونه سائِغًا عَذْبًا لذيذ الطَّعم سَريع الهَضْمِ.



## الآيات (٧١-٧٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٧١﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٢﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٣﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمْتًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٤﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٤].

• • • • •

ثم انتقل الله تعالى إلى أمر ثالث يصلح به الطعام والشراب وهو النار، فقال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي: تُوقدون ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾.

والجواب: بل أنت يا ربنا، وشجرة النار هي شجر معروف في الحجاز، وربما يكون معروفًا في غيره، يُسمى المَرخ والعفار، وهذا الشجر له خاصية إذا ضرب بالمر أو بشيء ينقذ مع المماسّة، اشتعل نارا يُوقد منه وهو معروف.

ولهذا يُقال: (في كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ، وَاسْتَنْجَدَ الْمَرخُ وَالْعَفَارُ)<sup>(١)</sup>، يعني صار أعظمها، هذه النار التي تُوقدها، ونطبخ عليها طعامنا، ونُسَخِّن مياهاً وننتفع بها أنشأها الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً ﴾ أي: تذكّر هذه النار بنار الآخرة، مع أن نار الآخرة فضّلت بتسعة وستين جزءاً على نار الدنيا كلها، لما فيها من النيران الحارّة الشديدة.

(١) مثل عربي يُضرب في تفضيل أهل الفضل على بعض، ويروى: (واستمجد المَرخ والعفار). انظر: الأمثال لابن سلام (ص ١٣٦)، والحيوان (٤/ ٤٩١)، جهرة الأمثال (١/ ١٧٣).

﴿وَمَتَّعَا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: للمسافرين يتمتعون بالنار بالتدفئة، والدلالة على المكان؛ لأنهم في ذلك الوقت، وإلى وقت قريب كان الناس يستدلُّون على الأمكنة بنار يضعونها على مكان مُرتفع تهدي الضَّالَّ، ويضرب المثل في الدلالة بالعلم عليه النار، كما قالت الحنساء ترثي أخاها صخرًا<sup>(١)</sup>:

وإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهَدَاةَ بِهِ      كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارَ

﴿فَسَيَحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: سُبِّحَ الله عزَّجَلَّ بهذا الاسم، فقل: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، والتَّسْبِيحُ يعني أَنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، فإذا قُلْتَ: سُبْحَانَ الله، فالمعنى أَنِّي أَنْزَهَكَ يَا رَبِّي مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، وقوله: ﴿الْعَظِيمِ﴾ أي: ذُو الْعَظَمَةِ الْبَالِغَةِ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، وَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَيَحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، قال: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»<sup>(٢)</sup>؛ ولهذا ينبغي للإنسان إذا كان يُصَلِّي وقال: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، أَنْ يَسْتَحْضِرَ أَمْرَ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَيَحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وَأَمَرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ» حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.



(١) ديوان الحنساء، ط. دار المعرفة (ص ٤٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

## الآيات (٧٥-٨٠)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٧٥﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].

• • •

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ يُخِيرُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ يُقَسِّمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَلَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ فَلَا أَقْسِمُ ﴾ لِلتَّنْبِيهِ وَالتَّوَكُّيدِ وَلَيْسَتْ لِلنَّفْيِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ إِثْبَاتَ الْقَسَمِ وَلَيْسَ نَفْيُهُ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [البلد: ١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [القيامة: ١]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء: ٦٥]، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ يُؤْتَى بِـ (لَا) بِصُورَةِ النَّفْيِ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ التَّوَكُّيدَ وَالتَّنْبِيهِ، وَالْقَسَمُ تَأْكِيدُ الشَّيْءِ بِذِكْرِ مُعْظَمِ أَدَوَاتِ مَخْصُوصَةٍ، وَهِيَ الْوَاوُ وَالْبَاءُ وَالتَّاءُ.

وقوله: ﴿ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴾ اِخْتَلَفَ فِيهَا الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ أَوْقَاتَ نَزُولِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مُفْرَقًا، وَالشَّيْءُ الْمُفْرَقُ يُسَمَّى مُنْجَمًا، كَمَا يُقَالُ فِي الدِّينِ الْمُقْسَطُ عَلَى سَنَوَاتٍ أَوْ أَشْهُرٍ، يُقَالُ: إِنَّهُ دِينٌ مُنْجَمٌ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ مَوَاقِعَ الطُّلُوعِ وَالْغُرُوبِ؛ لِأَنَّ مَوَاقِعَ غُرُوبِهَا إِذَا بَالِغُ النَّهَارِ، وَمَوَاقِعَ طُلُوعِهَا إِذَا بَالِغُ اللَّيْلِ، وَتَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ الْكَبِيرَةِ

الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَيَكُونُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَقْسَمَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى إِقْبَالِ اللَّيْلِ وَإِذْبَارِهِ، وَقِيلَ الْمُرَادُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ: الْأَتْوَاءُ، وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يُعْظَمُونَهَا حَتَّى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَطَرَ يَنْزِلُ بِالنَّوْءِ. وَيَقُولُونَ: مُطَرَّنَا بَنُوْءُ كَذَا وَكَذَا.

وَالْمُهِمُّ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ عَلَى أَمْرٍ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ بَيْنَ عِظَمِ هَذَا الْقَسَمِ قَبْلَ أَنْ يُبَيِّنَ الْمُقْسَمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ وَأَتَى بِالْجُمْلَةِ الْإِعْرَاضِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ إِمَارَةً إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَتَفَقَّنَ لِهَذَا الْقَسَمِ وَعَظَمَتِهِ حَتَّى نَكُونَ ذَوِي عِلْمٍ بِهِ.

﴿وَإِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ أَي: إِنَّ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، وَالكَرَمُ يُرَادُ بِهِ الْحُسْنُ وَالْبَهَاءُ وَالْجَمَالُ، كَمَا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ وَأَمَرَهُ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ قَالَ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

وَالكَرَائِمُ جَمْعُ كَرِيمَةٍ، وَالْمُرَادُ بِهَا الشَّاةُ الْحَسَنَةُ الْجَمِيلَةُ، وَهُوَ كَرِيمٌ أَعْنِي الْقُرْآنَ كَرِيمٌ فِي ثَوَابِهِ، فَالْحَرْفُ بِحَسَنَةٍ، وَالْحَسَنَةُ بَعْشَرَةُ أَمْثَالِهَا، وَهُوَ كَرِيمٌ فِي آثَارِهِ عَلَى الْقُلُوبِ وَصَلَاحِهَا، فَإِنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ تُلِينُ الْقُلُوبَ، وَتُوجِبُ الْخُشُوعَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَكَرِيمٌ فِي آثَارِهِ بِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

فَالْمُهِمُّ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَرِيمٌ بِكُلِّ مَعْنَى الْكَرَمِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ اختَلَفَ العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ، فَقِيلَ: إِنَّهُ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٧٩﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ الْكُتُبُ الَّتِي بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٨٠﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿٨١﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿٨٢﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿٨٣﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢-١٦]، وَهَذَا الْقَوْلُ رَجَّحَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ (التَّبَيَّنَ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ) <sup>(١)</sup> وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ أَي: لَا يَمَسُّ هَذَا الْكِتَابَ الْمَكْنُونُ ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وَهَمُ الْمَلَائِكَةُ طَهَّرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الشَّرْكِ وَالْمَعَاصِي؛ وَلِهَذَا لَا تَقَعُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَعْصِيَةٌ، بَلْ هُمْ مُمَثِّلُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ قَائِمُونَ بِهِ عَلَى مَا أَرَادَ اللَّهُ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى قَوْلٍ غَرِيبٍ، وَقَالُوا: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أَي لَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ، وَلَكِنْ هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ <sup>(٢)</sup>؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ ذَلِكَ لَقَالَ (إِلَّا الْمُتَطَهَّرُونَ) يَعْنِي الْمُتَطَهِّرِينَ وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ أَي مِنْ قِبَلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ، وَلَوْلَا أَنَّهُ يُوجَدُ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ الَّتِي بِأَيْدِي النَّاسِ مَا تَعَرَّضْنَا لَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ.

فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ الْمَكْنُونِ الصُّحُفَ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ فَوَاضِحٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ وَإِذَا قِيلَ الْمُرَادُ بِهِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ فَكَذَلِكَ الْمُطَهَّرُونَ قَدْ يَمَسُّونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ لَا يَمَسُّونَهُ.

﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي: هَذَا الْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ مِنْ

(١) التَّبَيَّنَ فِي أَقْسَامِ الْقُرْآنِ (ص ٢٢٦).

(٢) انظر حكم مس المصحف بغير طهارة في فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (١١/ ٢١٢).

عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لَأَنَّهُ كَلَامُهُ، وكلام الله تعالى مُنَزَّلٌ غير مخلوق، ويُستفاد من هذه الآية الكريمة أَنَّ القرآن ليس بمخلوق؛ لَأَنَّهُ نَزَلَ من الله فهو كلامه، وكلامه من صفاته تعالى، وصفاته غير مخلوقة، وفي قوله: ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى أَنَّهُ يجب علينا أن نَعْمَلَ به؛ لأنَّ الَّذِي أَنزَلَهُ هو الرَّبُّ الْمُطَاعُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، الَّذِي يجب أن نُطِيعَهُ بِمَا أَمَرَ، وَنَنْتَهِيَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وَ﴿الْعَالَمِينَ﴾ كُلٌّ من سوى الله، وَسُمُّوا عَالَمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ عَلِمَ عَلَى خَالِقِهِمْ، فَإِنَّ هَذَا الْخَلْقَ إِذَا تَأَمَّلَهُ الْإِنْسَانُ دَلَّ عَلَى مَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ من عَظَمَةٍ وَسُلْطَانٍ وَرَحْمَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ من صفاته.



# الآيات ( ٨١ - ٨٧ )

• • • • •

﴿وَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تَجْعَلُونَ عطاء الله إِيَّاكُمْ تكذيبًا له كما قال عز وجل: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ومن ذلك أن يَنْسُبَ

الإنسان نعمة الله عَزَّجَلَّ إِلَى السَّبَبِ مُتَنَاسِيًا الْمُسَبَّبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كقوله مثلاً: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا فَيَنْسُبُ الْمَطَرَ إِلَى النُّوءِ لَا إِلَى الْخَالِقِ عَزَّجَلَّ، فهذا نوع من الشُّرْكِ، كما جاء ذلك صريحاً في حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الصُّبْحِ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْحُدَيْبِيَّةِ وَقَدْ نَزَلَ مَطَرٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ» يَعْنِي انْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ مُؤْمِنٌ وَكَافِرٌ، «فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»<sup>(١)</sup>.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي: الرُّوحُ، وَالَّذِي يُعَيَّنُ الْمَرْجِعُ هُنَا السِّيَاقُ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] أي: الشَّمْسُ، وَلَمْ يَسْبِقْ لَهَا ذِكْرُهَا، وَلَكِنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، فَمَرْجِعُ الضَّمِيرِ تَارَةً يَكُونُ مَذْكُورًا، وَتَارَةً يَكُونُ مَعْلُومًا: إِمَّا بِالسِّيَاقِ وَإِمَّا بِشَيْءٍ آخَرَ، وَالْحُلُقُومُ هُوَ مَجْرَى النَّفْسِ، وَفِي جَانِبِ الرَّقَبَةِ الْأَسْفَلِ مَجْرَيَانِ: مَجْرَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيُسَمَّى الْمَرْيءُ، وَمَجْرَى النَّفْسِ وَهُوَ الْحُلُقُومُ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ خَرَزَاتِ دَائِرَةِ لِيَنَّهُ مُنْفَتِحَةٌ، أَمَّا الْمَرْيءُ فَإِنَّهُ بِالْعَكْسِ فَإِنَّهُ كَوَاحِدٍ مِنَ الْأَمْعَاءِ.

ووجه ذلك أَنَّ مَجْرَى النَّفْسِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَفْتُوحًا؛ لِأَنَّ النَّفْسَ لَوْ كَانَ مَجْرَاهُ مُغْلَقًا لَكَانَ التَّنَفُّسُ شَدِيدًا، لَكِنْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ هَذَا مِثْلَ الْأَنْبُوبِ، لَكِنَّهُ لَيِّنٌ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، رقم (٧١)، من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خرزات مستديرة، حتَّى يَهونَ على المرءِ رَفْعَ رأسه وخَفْضه، أمَّا المَرِيءُ فهو مثل الأمعاء العاديَّة، والطَّعام والشَّراب قويا يَفْتَحُه عند النزول إليه، وذكر الله الخَلْقُومَ دُونَ المَرِيءِ؛ لأنَّ الخَلْقُومَ مجرى النَّفْسِ، وبانقطاعه يموت الإنسان، فإذا بَلَغَتِ الرُّوحُ الخَلْقُومَ وهي صاعدة من أسفل البَدَنِ إلى هذا الموضع، حينئذ تنقطع العلائق من الدُّنيا، ويَعْرِفُ الإنسان أنه أَقْبَلَ على الآخِرَةِ وانتهى من الدُّنيا.

﴿وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ﴾ أي تَنْظُرُونَ إلى المَيِّتِ وما يُعَانِيهِ من المشاقِّ والسَّكَراتِ، ولا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَرُدُّوا ذلك عنه، ولو كُنْتُمْ أَقْرَبَ قَرِيبَ إِلَيْهِ، وَأَحَبُّ حَبِيبَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَنَعِ الرُّوحِ إِذَا بَلَغَتِ الخَلْقُومَ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْرَبَ إِلَى الخَلْقُومِ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَكِنْ الْمُرَادُ أَقْرَبَ بِمَلَائِكَتِنَا.

ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ﴾ والله تعالى يُضَيِّفُ الشَّيْءَ إِلَى نَفْسِهِ إِذَا قَامَتْ بِهِ مَلَائِكَتُهُ؛ لِأَنَّ المَلَائِكَةَ رُسُلُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ بَابِ تَفْسِيرِ الشَّيْءِ بِمَا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ؛ لِأَنَّهُ رَبِّمَا يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ أَنَّ الْأَقْرَبَ هُوَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فَلِمَاذَا تُحَرِّفُونَهُ؟ فَنَقُولُ: نَحْنُ لَا نُحَرِّفُهَا، بَلْ فَسَّرْنَاهَا بِمَا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ﴾.

وهذا يدلُّ على أَنَّ هَذَا الْقَرِيبَ فِي نَفْسِ الْمَكَانِ وَلَكِنْ لَا بُصِيرَهُ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ يَكُونُ الْمُرَادُ قَرَبَ الْمَلَائِكَةِ لِاسْتِحَالَةِ ذَلِكَ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْقُرْبَ مُقَيَّدٌ بِحَالِ الْإِحْتِضَارِ، وَالَّذِي يَحْضُرُ المَيِّتَ عِنْدَ مَوْتِهِ هُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

فإن قيل: كيف يُضَيِّفُ اللَّهُ الشَّيْءَ إِلَى نَفْسِهِ وَالْمُرَادُ الْمَلَائِكَةُ؟

قُلْنَا: لا غرابة في ذلك، فإنَّ الله يُضَيِّفُ الشَّيْءَ إِلَى نَفْسِهِ وَهُوَ مِنْ فِعْلِ الْمَلَائِكَةِ لِأَنَّهُمْ رُسُلُهُ، ففعلهم فعله، أَلَمْ تَرَ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَغْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ [القيامة: ١٦-١٨]، والمُرَاد قِرَاءَةُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا قِرَاءَةَ اللَّهِ، لَكِنَّهُ أَضَافَ فِعْلَ جِبْرِيلَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ بِأَمْرِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِهِ.

إِذَنْ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي مَلَائِكَتُنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ؛ لِأَنَّهُمْ حَضَرُوا لِقَبْضِ الرُّوحِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ حَفِظَ الْإِنْسَانَ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، فَفِي حَيَاتِهِ هُنَاكَ مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ مَلَائِكَةٌ يَقْبِضُونَ الرُّوحَ وَيَحْفَظُونَهَا لَا يُفَرِّطُونَ فِيهَا إِطْلَاقًا، فَهُمْ قَرِيبُونَ مِنَ الْمَيِّتِ وَلَكِنَّا نَحْنُ لَا نُبْصِرُهُمْ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَالَمٌ غَيْبِي لَا يُرَوْنَ.

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ (٨٨) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٩﴾ أَي: فَهَلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مُجْزِينَ: أَيِ غَيْرِ مَبْعُوثِينَ وَمُجَازِينَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، الْجَوَاب: لَا يُمَكِّنُ، وَحِينَئِذٍ يَجِبُ أَنْ تُصَدِّقُوا بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ؛ لِأَنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى رَدِّ الرُّوحِ حَتَّى لَا تُجَازَى، فَأَيَقِنُوا بِالْبَعْثِ.



## الآيات (٨٨-٩٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٨٨﴾ فَاَمَّا اِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٩﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٩٠﴾ وَاَمَّا اِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الصَّالِينَ ﴿٩١﴾ فَتَزُلْ مِنْ حِمِيرٍ ﴿٩٢﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٤].

• • • • •

ثم قَسَمَ الله تعالى المحْتَضَرين إلى ثلاثة أقسام فقال في القسم الأول: ﴿ فَاَمَّا اِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ اللّهُمَّ اجعلنا منهم، وهم الذين أتوا بالواجبات، وتركوا المحرّمات، وأتوا بالمستحبات، وتزّهوا عن المكروهات، أي: أكملوا دينهم، والمُقَرَّبون هم السّابقون، الَّذِينَ ذكروا في أوّل السّورة، السّابقون إلى الخيرات ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴾ اختلف المفسّرون رَجَهُمُ اللّهُ في قوله: ﴿ فَرَوْحٌ ﴾، فقيل: فَرَاخَةٌ؛ لأنّ المؤمن وإن كان يكره الموت لكنّه يستريح به؛ لأنّه يُبَشِّر عند النّزع بروح وريحان، وربّ غير غضبان، فيُسّر ويبتهج ولا يكره الموت حينئذ بل يُحِبُّ لقاء الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا لا شكّ راحة له من نكد الدّنيا ونصبها وهُمومها، وقيل: الرّوح بمعنى الرّحمة، كما قال الله تعالى عن يعقوب عليه السّلام حين قال لِبَنِيهِ: ﴿ يَبْنَئِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ زَوْجِ اللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: من رَحْمَتِهِ، وهذا المعنى أعمّ من الأوّل؛ لأنّ الرّحمة أعمّ من أن تكون راحة، أو راحة مع حُصول المقصود، وإذا كان المعنى أعمّ كان حَمْل الآية عليه أولى.

إذن: ﴿فَرَّجَ﴾ أي: رحمة، ومن الرَّحمة الرَّاحَة ﴿وَرَيَّحَانٌ﴾ قيل: المراد بالريَّحان كل ما يسرُّ النَّفس، وليس خاصًّا بالريَّحان ذي الرَّائحة الطَّيِّبة، بل كل ما فيه راحة النَّفس ولذَّتْها من مأكول، ومشروب، وملبوس، ومنكوح ومشموم، فهو شامل، وقيل: المراد بالريَّحان الرَّائحة الطَّيِّبة كالريَّحان المعروف، والأوَّل: أشمل، فتُحمل الآية عليه.

﴿وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ أي: جنة ينعم بها، وهي الدَّار الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لأوليائه -جَعَلْنَا اللهُ منهم- يُنَعَّم الإنسان فيها ببدنه وقلبه، فهو لا يَتَعَب ولا يَنْصَب، ولا يَمْرَض ولا يَحْزَن، ولا يَهْتَم ولا يَغْتَم، بل هو في نعيم دائم، والدُّنيا فيها نعيم لكنَّه نعيم مُنْغَصَّ على حدِّ قول الشَّاعر<sup>(١)</sup>:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نَسَاءً وَيَوْمٌ نُسَرُّ

وهكذا الدُّنيا إذا سَرَّت يوماً فاستعدَّ للإساءة من غد، وإذا أساءت يوماً فقد تنعم في الثَّاني، أو لا تنعم، أمَّا الجَنَّة في الآخرة فهي دار نعيم في القلب ونعيم في البدن.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهم الَّذِينَ أَتَوْا بِالْوَاجِبَاتِ وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ، لكنَّ فيهم نقصاً في المُسْتَحَبَّاتِ وَالتَّنَزُّه عن المَكْرُوْهَاتِ ﴿فَسَلِّمُوا﴾ أي: سلامة ﴿لَكُمْ﴾ أي: أيُّهَا الْمُحْتَضَر ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: أنت من أصحاب اليمين، والمعنى: فسلام لك حال كونك من أصحاب اليمين، والأوَّلون هم الْمُقَرَّبُونَ إِلَيْهِمْ، وأصحاب اليمين لا سابقين ولا مخذولين، بَيْنَ بَيْنَ، لكنَّهم ناجون من العذاب؛ ولهذا قال:

(١) البيت للنمر بن تولب (ت ١٤هـ)، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).



﴿فَسَلِّ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ وهذا القسم الثاني.

أما القسم الثالث: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بالخبر ﴿الضَّالِّينَ﴾ في العمل فلا تصديق ولا التزام، فكلُّ كافر داخل في هذه الآية حتَّى المنافق ﴿فَنُزِّلَ مِنَ حَمِيمٍ﴾ أي: فله نُزْلٌ من حميم، والنُّزْلُ بمعنى الضَّيَافَةِ الَّتِي تُقَدَّمُ لِلضَّيْفِ أَوَّلَ مَا يَقْدَمُ، فهو لاء -والعياذُ بالله- حظُّهم هذا النُّزْلُ نُزْلٌ من حميم، والحميم هو شديد الحرارة ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي يُصَلُّونَ الجحيم فيُخَلَّدُونَ فيه، والجحيم من أسماء النار -أعاذنا الله وإياكم منها-.



الآيتان (٩٥، ٩٦)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ حَقُّ الْيَقِينِ ❶﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ

[الواقعة: ٩٥-٩٦].

• • ❦ • •

﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: إِنَّ هذا المذكور لكم، وهو انقسام الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة ﴿لَمَوْ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: اليقين المتحقق المتأكد وصدق الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يخرج الناس عن هذه الأقسام الثلاثة. وهم المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون الضالون، لا يمكن أن يخرجوا عن هذا.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ سَبِّح بمعنى نَزَّه، والذي يُنَزَّه الله عَزَّجَلَّ عنه كل نقص وعيب، أو ثمالة للمخلوق، فهو مُنَزَّه عن كل نقص لكمال صفاته وعن ثمالة المخلوق، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: من تعب وإعياء.

وقوله: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قِيلَ: إِنَّ الباء زائدة، وإنَّ المعنى سَبِّح اسم ربك، كما قال الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقِيلَ: إنها ليست بزائدة، وأنَّ المعنى سَبِّح الله باسمه فلا بدَّ من النطق بالتسبيح، فتقول: سُبْحَانَ اللَّهِ، أمَّا لو نَزَّهته بقلبك فهذا لا يكفي، فعلى هذا تكون الباء للمصاحبة يعني سَبِّح الله تسبيحًا مصحوبًا باسمه.

﴿إِسْمَ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾: (الرَّبُّ) هو الخالق المالك المدبّر، والعَظِيم ذو العَظْمَة والجلال جَلَّ وَعَلَا.

هذه السُّورة لو لم يَنَزَل في القرآن إلّا هي، لكانت كافية في الحثِّ على فعل الخير وترك الشرِّ، فقد ذَكَر الله تعالى في أولها يوم القيامة ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ثمَّ قَسَمَ النَّاس فيها إلى ثلاثة أقسام: السَّابِقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشَّمال، ثمَّ ذَكَر الله في آخرها حال الإنسان عند الموت، وقَسَمَ كلَّ النَّاس إلى ثلاثة أقسام: مُقَرَّبون، وأصحاب يمين، ومُكَذَّبون ضالُّون، وكذلك ذَكَر الله فيها ابتداء الخَلْق في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ٩٥ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٩٦﴾ والرَّزق مِن طعام وشراب وما يُصلِحهما فهي سُورة متكاملة؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يتدبَّرها إذا قرأها، كما يتدبَّر سائر القرآن لكن هي اشتملت على معاني عظيمة، والله الموفِّق.





سورة الحديد  
الآيتان (٢، ١)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿الحديد: ١-٢﴾.﴾

• • • • •

﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام عليها.

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ معنى سَبِّحْ أي نَزَّهَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عن كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ، وعن مُثَاقَلَةِ المَخْلُوقِينَ، ودليل تَنَزُّهه عن كُلِّ عَيْبٍ وَنَقْصٍ قول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، واللُّغُوبُ يَعْنِي التَّعَبَ وَالْإِعْيَاءَ، وهذا يدلُّ على كَمَالِ قُوَّتِهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]، فَتَنَزَّهَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ عَنِ الْغَفْلَةِ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فَتَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الْعُجْزِ، ودليل تَنَزُّهه عن مُثَاقَلَةِ المَخْلُوقِينَ، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأثبت الله لنفسه وجهًا في قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وأثبت الله لنفسه أنه استوى على العرش، والإنسان يستوي على البعير، أي يركب البعير ويستقر عليه ويعلو عليه، ليس استواؤه سبحانه وتعالى على العرش كاستواء الإنسان على البعير، والدليل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فكل صفة يُثبتها الله لنفسه وللمخلوق مثلها فإن ذلك موافقة للاسم فقط، أما في الحقيقة فليس كمثل شيء.

مثال ذلك: أثبت الله لنفسه علمًا، وأثبت للمخلوق علمًا، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَلَّمْنَاهُ مِثْلَهُ مُؤْمِنِينَ﴾ [المتحة: ١٠] فأثبت الله لنا علمًا، وأثبت لنفسه علمًا ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وليس العلم الذي أثبتته لنفسه كعلم المخلوق، والدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالله عز وجل لا يمكن أن يماثل شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته؛ ولهذا لا يمكننا أن ندرك الله عز وجل، نعلمه بآياته وصفاته وأفعاله، لكننا لا ندرك حقيقته عز وجل؛ لأنه مهما قدرت من شيء فالله تعالى مُحَالِفٌ له غير مُماثل.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كل ما في السموات والأرض، فإنه يُسَبِّح الله عز وجل ويُنزهه، ويشمل الآدمي، والجن، والملائكة، والحشرات، والحيوانات، وكل شيء، فكل ما في السموات والأرض يُسَبِّح الله، وهل يُسَبِّحه بلسان المقال بمعنى يقول: سبحان الله، أو بلسان الحال، بمعنى أن تنظيم السموات والأرض والمخلوقات على ما هي عليه يدل على كمال الله عز وجل وتنزهه عن كل نقص.

الجواب: أنه يُسَبِّح الله بلسان الحال وبلسان المقال، إلا الكافر، فإنه يُسَبِّح الله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأن الكافر يصف الله بكل نقص، يقول: اتخذ الله ولدًا،

ويقول: إِنََّّ معه إلهًا، وربما يُنكر الخالق أصلًا، لكنَّ حاله وخلقته وتصرُّفه تسبيح لله عَزَّوَجَلَّ. وهل الحشرات والحيوانات تُسبِّح الله بلسان المقال؟

الجواب: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] الحشرات كُلُّها تُسبِّح الله بلسان المقال، والحصي يُسبِّح الله كما كان ذلك بين يدي رسول الله ﷺ <sup>(١)</sup> ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز يعني ذو العِزَّة، والعِزَّة هي الكبرياء والغلبة والسُّلطان وما أشبه ذلك، فالعزيز هو ذو السُّلطان الكامل والغلبة الكاملة، فلا أحد يغلبه عَزَّوَجَلَّ، يقول الشاعر الجاهلي <sup>(٢)</sup>:

أَيَّنَ الْمَفْرُ وَالْإِلَهَ الطَّالِبُ      وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

والحكيم لها معنيان:

المعنى الأول: ذو الحكمة.

والمعنى الثاني: ذو الحكم التام، فهي مُشتقة من شيئين: من الحكمة والحكم، فالحكمة هي أن جميع أفعاله وأقواله وشرعه حكمة، وليس فيه سفه بأي حال من الأحوال؛ ولهذا قيل في تعريف الحكمة: (إنَّها وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها). فما من شيء من أفعال الله، أو من شرع الله إلَّا وله حكمة، فإذا قدر الله الحرَّ الشَّدِيد الذي يُهلك الثَّمار فهو حكمة لا شك، وإذا منع الله المطر فهو حكمة، وإذا ألقى الله الموت بين النَّاس فهو حكمة، وكلُّ شيء فهو حكمة، والشرائع كُلُّها حكمة فإذا أحلَّ الله البيع وحرَّم الربا فهو حكمة؛ لأنَّا نعلم أن الله حكيم، ففرَّق الله عَزَّوَجَلَّ

(١) أخرجه البزار في مسنده رقم (٤٠٤٠)، والطبراني في الأوسط رقم (١٢٤٤)، والبيهقي في دلائل

النبوة (٦/٦٤)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) نسبه ابن هشام في السيرة (١/٥٣) لنفيل بن حبيب.

بين البَيْع والرِّبَا، فالْبَيْع أحلَّه الله، والرِّبَا حرَّمه.

فإذا قال قائل: لماذا؟

قلنا: الله أعلم، الله حكيم عَزَّجَلَّ.

ولهذا لما قالت المرأة لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، ما بال الحائض تقضي الصَّوم -يعني إذا حاضت في رمضان- ولا تقضي الصَّلَاة؟ سؤال فيه إشكال، لماذا الحائض إذا أفطرت في رمضان يلزمها قضاء الصَّوم، وإذا تركت الصَّلَاة لا يلزمها قضاء الصَّلَاة، وكلاهما فرض، قالت لها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»<sup>(١)</sup>.

فاستدلَّت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بالحُكْم على الحكمة؛ لَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ الله حكيم عَزَّجَلَّ فلم يُوجِب عليها قضاء الصَّوم دُونَ قضاء الصَّلَاة إِلَّا لِحِكْمَةٍ، لكن أحياناً نَعْرِفُ الحكمة وأحياناً لا نَعْرِفُها، لماذا أحلَّ الله البَيْع وحرَّم الرِّبَا؟ نقول: لأنَّ الله أحلَّ البَيْع وحرَّم الرِّبَا.

ولذلك لما قال أهل الرِّبَا: إِنَّمَا البَيْع مثل الرِّبَا. ردَّ الله قولهم فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فإذا حَكَمَ الله بشيء شرعاً، أو حَكَمَ بشيء قدراً فلا يشكل عليك، إن وفَّقك الله لمعرفة الحكمة فهذا خير، وإن لم نَعْرِفْ فاعلم أنَّ الله حكيم وله أيضاً الحكم عَزَّجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] مَنْ يستطيع أن يرفع حُكْمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِمَا إِذَا نَزَلَ بِهِ المَوْتُ؟ لا أحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ﴾<sup>(٨٢)</sup> وَأَنْتُمْ جِينِدِرْ نَنْظُرُونَ<sup>(٨٤)</sup> وَتَحْنُ أَقْرَبُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).



إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿[الواقعة: ٨٣-٨٧]، لَا يُمَكِّنُ؛ لَأَنَّ اللَّهَ حَكَمَ بِهِذَا، وَإِذَا حَكَمَ عَزَّجَلَّ بِحُرُوبٍ وَفِتْنٍ مَنْ يَرَفَعُ هَذَا إِلَّا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْحُكْمُ فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

فَالْحُكْمُ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ الْحِكْمَةُ فِيمَا شَرَعَ، وَفِيمَا خَلَقَ وَقَدَّرَ، حِينَئِذٍ تَسْتَسْلِمُ وَلَا تُجَادِلُ؛ لَأَنَّ الَّذِي حَكَمَ بِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ، وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ عَزَّجَلَّ بَيْنَ الْعِبَادِ فَتَرْجِعُ الْأُمُورَ الشَّرْعِيَّةَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَفِي الْأُمُورِ الْقَدَرِيَّةِ تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، فَإِذَا حَكَمَ عَلَيْكَ بِالْمَرَضِ تَفْزَعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَإِذَا حَكَمَ عَلَيْكَ بِالْفَقْرِ تَفْزَعُ إِلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ أَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ، وَاقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، فَإِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ بِأَنَّ الْحُكْمَ كُلَّهُ لِلَّهِ إِنْ كَانَ حُكْمًا قَدَرِيًّا اسْتَسْلَمَ، وَقَالَ: هَذَا أَمْرُ اللَّهِ، وَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ سِوَى مَا كَانَ، وَإِذَا كَانَ شَرْعِيًّا، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَعْلَمَ وَأَحْكَمَ بِمَا يُصْلِحُ الْعِبَادَ.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقًا وَتَدْبِيرًا، فَلَا يَمْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَي: يَجْعَلُ الْجَمَادَ حَيًّا، وَيُمِيتُ مَا كَانَ حَيًّا، فَبَيْنَمَا نَرَى الْإِنْسَانَ لَيْسَ شَيْئًا مَذْكُورًا إِذَا بِهِ يَكُونُ شَيْئًا مَذْكُورًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، ثُمَّ يَبْقَى فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْدَمُ وَيَقْنَى، فَإِذَا هُوَ خَبَرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هَذِهِ جُمْلَةُ خَبَرِيَّةٍ عَامَّةٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مَوْجُودٍ وَمَعْدُومٍ، وَالْقُدْرَةُ صِفَةٌ تَقُومُ بِالْقَادِرِ حَيْثُ يَفْعَلُ الْفِعْلَ بِلَا عَجْزٍ.



## الآية (٣)

• • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾﴾

[الحديد: ٣].

• • •

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أربعة أشياء ﴿الْأَوَّلُ﴾ أي الذي ليس قبله شيء؛ لأنه لو كان قبله شيء لكان الله مخلوقاً، وهو عَزَّجَلَّ الخالق؛ ولهذا فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء<sup>(١)</sup>، فكلُّ الموجودات بعد الله فليس معه أحد ولا قبله ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء؛ لأنه لو كان بعده شيء لكان ما يأتي بعده غير مخلوق لله، والمخلوقات كلها مخلوقة لله عَزَّجَلَّ، فهو الأول لا ابتداء له، والآخر لا انتهاء له، ليس بعده شيء ﴿وَالظَّاهِرُ﴾، قال النَّبِيُّ ﷺ: تفسيرها: «الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ» فكلُّ المخلوقات تحته جَلَّ وَعَلَا، فليس فوقه شيء ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ قال النَّبِيُّ ﷺ: «الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ» أي: لا يحول دونه شيء، خير عليم بكل شيء، لا يحول دونه جبال، ولا أشجار، ولا جدران ولا غير ذلك، ليس دونه شيء، ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ اشتملا على عموم الزَّمان، ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ على عموم المكان.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كل شيء فالله عليم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم، رقم (٢٧١٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢﴾ [آل عمران: ٥٠] فلو عَمِلَ الإنسان في جَوْفِ بَيْتِهِ في حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ عَمَلَهُ، بل زِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا تُوسَّوِسُ بِهِ نَفْسُكَ كما قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. وَأَنْتَ إِذَا فَكَّرْتَ فِي شَيْءٍ فَاللَّهُ يَعْلَمُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، وَيَعْلَمُ الْمَاضِيَ الْبَعِيدَ، وَيَعْلَمُ الْمُسْتَقْبَلَ الْبَعِيدَ وَيَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ ولهذا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَمَّا سَأَلَهُ فِرْعَوْنُ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ يَعْنِي شَأْنَهَا، قُصَّصَهَا عَلَيْنَا ﴿قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢]، لَا يَضِلُّ مَعْنَاهُ لَا يَجْهَلُ؛ لِأَنَّ الضَّلَالَ مَعْنَاهُ الْجَهْلُ، كما قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي نَبِيِّهِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] ضَالًّا لَيْسَ مَعْنَاهَا فَاسِقٌ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ جَاهِلٌ لَا يَدْرِي، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا زَتَابَ الْمُبْتَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

إِذَنْ: اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ هَلْ يُمَكِّنُكَ أَنْ تُقَدِّمَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَأَنْتَ فِي خَفَاءٍ عَنِ النَّاسِ؟ لَا، لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُكَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، الْجَوَابُ: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فَإِذَنْ: إِذَا آمَنْتَ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ أَنْ لَا تَقُومَ بِمَعْصِيَتِهِ وَلَوْ فِي الْخَفَاءِ، وَأَنْ لَا تَتْرُكَ طَاعَتَهُ وَلَوْ فِي الْخَفَاءِ، وَلَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِيْءِ أَذَانِهِمْ﴾ لِأَجْلِ أَنْ لَا يَسْمَعُوا، ﴿وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: ٧] لَثَلَا يُبْصِرُوا بِهَا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - لِأَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الْحَقَّ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يَشْمَلُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ وَأَقْوَالَ الْعِبَادِ،

بل إِنَّهُ يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَإِنْ لَمْ يُظْهِرْهُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ فَفَسَّخْهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ إِذْ يَنْفَلِقُ الْمَتَلَقَّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [ق: ١٦-١٧].

فإياك أن تُضْمِرَ في قلبك شيئاً يُحَاسِبُكَ الله عليه، لكن الوسوس التي تطرأ على القلب ولا يميل الإنسان إليها بل يُحَارِبُهَا، ويُحَاوِلُ البُعد عنها بقدر إمكانه لا تَضُرُّهُ شيئاً، بل هي دليل على إيمانه؛ لأنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا يَأْتِي إِلَى القلب فيُلْقِي عليه الوسوس إذا كان قلباً سليماً، أمَّا إذا كان قلباً غير سليم فإنَّ الشَّيْطَانَ لا يُوسَّوِسُ له؛ لأنَّه قد انتهى.



## الآية (٤)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤].

• • • • •

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ خلق السموات والأرض أي: أوجدها سبحانه وتعالى بكل نظام وتقدير، والسموات سبع والأرضون سبع، والأرض سابقة على السماء؛ لأن الله تعالى قال في سورة (فُصِّلَتْ) لما ذَكَرَ خَلَقَ الْأَرْضَ قَالَ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، لكن الله يبدأ بالسموات؛ لأنها أشرف من الأرض وأعلى من الأرض، والسموات بينها مسافة بعيدة جدًا جدًا، وهذا يلزم أن يكون أصغر السموات سماء الدنيا وتليها الثانية والثالثة، كل واحدة أوسع من الأخرى سعة عظيمة، وهي طباق مُتطابقة بعضها فوق بعض.

وفي حديث المعراج أن الرسول ﷺ كلما صعد إلى سماء استفتح ففتح له<sup>(١)</sup>، والأرض جعلها تعالى في القرآن بصيغة الإفراد، لكن الله تعالى أشار إلى أنها

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسرائاء، رقم (٣٤٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسرائاء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٣)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

متعددة في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي: مثلهنَّ في العدد لا في الصِّفة؛ لأنَّ التَّمَثُّلَ في الصِّفة بين الأرض والسَّماء بعيد جدًّا، لكن مثلهنَّ في العدد، وصرَّحت بذلك السُّنَّة في قول النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنْ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّفَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»<sup>(١)</sup> وخلقها الله عَزَّجَلَّ في ستَّة أيام، والأيام أطلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولم يُبيِّن أنَّ اليوم خمسين ألف سنة، أو أقل، أو أكثر، وإذا أطلق يُحْمَل على المعروف المعهود وهي أيَّامنا هذه، وقد جاء في الحديث أنَّها الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة<sup>(٢)</sup>، فالجمعة منتهى خلق السَّموات والأرض، ومبتدؤه الأحد، والسبت ليس فيه خلق لا ابتداء ولا انتهاء.

فإذا قال قائل: أليس الله قادرًا على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى؛ لأنَّ أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كُنْ فيكون، وإنَّا خَلَقْناها في ستَّة أيام - والله أعلم - لحكمتين:

الحكمة الأولى: أنَّ هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتَّب الله تعالى بعضها على بعض حتَّى أحكمها، وانتهى منها في ستَّة أيام.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَام، رقم (٢٧٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله عَزَّجَلَّ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَام بعد العصر من يوم الجمعة...».

الحكمة الثانية: أَنَّ الله علَّم عباده التَّوَدَّةَ والتَّائِيَّ، وَأَنَّ الأهمَّ إحكام الشَّيْءِ لا الفراغ منه، حتَّى يتَأَنَّى الإنسان فيما يصنعه، فعَلَّمَ الله سبحانه عباده التَّائِيَّ في الأمور الَّتِي هم قادرون عليها، وكِلا الأمرين وجيه، وقد تكون هناك حِكَمُ أخرى لا نَعْلَمُها، ومع هذا لا نَجْزِمُ، ونقول: الله أعلم.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، استوى عليه يعني على وجه يليق بجلاله، ولا يُمكن أن نُثَمِّلَه بخلقه؛ لأنَّ الله ليس كَمِثْلِه شيء، والعَرْشُ مخلوق عظيم لا يَعْلَمُ قَدْرَه إِلَّا الَّذِي خَلَقَه عَزَّوَجَلَّ.

وقد جاء في الحديث: أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، والأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي الْكُرْسِيِّ كَحَلْقَةِ أَلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، الْحَلْقَةُ حَلْقَةُ الدَّرْعِ الْمَكُونَةُ مِنْ حَلَقٍ مِنَ الْحَدِيدِ، فَالْحَلْقَةُ مِنَ الْحَدِيدِ مِنَ الدَّرْعِ تَكُونُ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَلَاةِ لَا شَيْءَ، فَلَاةٌ مِنَ الْأَرْضِ وَاسِعَةٌ ضَاعَ فِيهَا حَلْقَةُ مِنْ حَلَقِ الدَّرْعِ مَاذَا تَكُونُ نِسْبَتُهَا وَمَاذَا تَشْغُلُ مِنَ الْأَرْضِ؟! لَا شَيْءَ.

قال ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةِ أَلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الْحَلْقَةِ»<sup>(١)</sup>.

إِذَنْ: لَا يَعْلَمُ قَدْرَه إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ وليس لنا أن نسأل: من أين مادَّة الكرسي؟ من ذَهَبٍ، من فضَّة، من لؤلؤ؟ ليس لنا الحق في أن نتكلَّم في هذا، هو عرش عظيم كما وصفه الله ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]،

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٦/ ١)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عرش عظيم جدًا جدًا، لا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إِلَّا اللهُ، استوى الله عليه لكمال سُلْطانه جَلَّوَعَلَا.

و(ثُمَّ) في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تدلُّ على الترتيب، أي أَنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ سَابِقٌ عَلَى الْإِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، ومعنى ﴿اسْتَوَى﴾ أي: عَلَا؛ لِأَنَّ الْإِسْتِوَاءَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِذَا تَعَدَّى بِـ(عَلَى) كَانَ مَعْنَاهَا الْعُلُو، مثاله قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿الزخرف: ١٢-١٣﴾.

ومن ذلك قوله تعالى عن نُوحٍ: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلَمُعِدُ لِلَّهِ الَّذِي تَجْعَلُنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

فقوله: ﴿اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾ يعني عُلُوْتُ عليه.

إذن: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني على العرش، وإذا رَأَيْتَ مَنْ يَقُولُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ أي اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اسْتَوَى إِذَا تَعَدَّتْ بَعْلَى فَهِيَ بِمَعْنَى الْعُلُو لا غَيْرِهِ، فَيَكُونُ الَّذِي يُفَسِّرُهَا بِاسْتَوَى كَاذِبًا عَلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ جَانِيًا عَلَى نُصُوصِ الْكِتَابِ، مُحَرِّفًا لَهَا، وَجَانِيَةً عَلَيْهَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: صَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا.

والوجه الثاني: إْحْدَاثُ مَعْنَى لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الظَّاهَرُ، وَهَذَا قَدْ يُوجَدُ كَثِيرًا فِي كُتُبِ الْأَشَاعِرَةِ، سِوَاكَ كَانُوا مُفَسِّرِينَ أَوْ غَيْرَ مُفَسِّرِينَ لَكُنْهُمْ بِهَذَا وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ



قد ضلُّوا ضلالًا مُبِينًا، نسأل الله العافية.

فَمَنْ الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَى الْعَرْشِ حِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟! إِذَا كَانَ اللَّهُ لَمْ يَسْتَوِلْ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ لَمَنْ مِنْ قَبْلِ؟! نَعَمْ يَلْزَمُهُمْ أَنْ يَقُولُوا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَإِلَّا فَقَدْ أَخْطَوْا يَعْنِي تَبَيَّنَ خَطْوُهُمْ وَهُمْ مُحْطِئُونَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنْ جُثِّ الْمَوْتَى، وَمِنْ الْحُبُوبِ الَّتِي تَنْبُتُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمِنْ الْمَيَاهِ الَّتِي يَسْلُكُهَا اللَّهُ يَنْابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُهَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَغَيْرِهَا، فَكُلُّ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُهُ اللَّهُ.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أَي: مِنَ النَّبَاتِ وَالْمَيَاهِ وَالْمَعَادِنِ وَغَيْرِهَا، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أَي: مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَمْطَارِ وَالشَّرَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أَي: إِلَيْهَا، لَكِنْ جَاءَتْ بِلَفْظِ ﴿فِيهَا﴾ بِذَلِكَ إِلَيْهَا لِنَسْتَفِيدَ فَائِدَتَيْنِ:

الفائدة الأولى: العُرُوجُ يَعْنِي الصُّعُودُ.

الفائدة الثانية: الدُّخُولُ؛ لِأَنَّ (فِي) يُنَاسِبُهَا مِنَ الْأَفْعَالِ الدُّخُولُ، تَقُولُ: دَخَلَ فِي الْمَكَانِ، أَمَّا عَرَجَ وَيَعْرُجُ فَالَّذِي يُنَاسِبُهَا إِلَى، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ عَدَلَ عَنْ قَوْلِهِ (يَعْرُجُ إِلَيْهَا) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ لِيُقْفِدَ الصُّعُودَ، وَالدُّخُولَ.

وَضُمِّنَ يَعْرُجُ مَعْنَى يَدْخُلُ، وَالتَّضْمِينُ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَفِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] الْمُنَاسِبُ لِيَشْرَبَ (مِنْ) كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ يَعْنِي مِنْهُ، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وَهَذَا قَالَ: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْحِكْمَةُ أَنْ يَشْرَبَ هُنَا ضُمِّنَتْ مَعْنَى يُرَوَّى، أَي: يُرَوَّى بِهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ:

يروى بها، فقد تضمّن معنى يَشْرَبَ وزيادة. والتّضمين فنّ مهمّ في باب البلاغة، ينبغي لطالب العلم أن يدرّسه ويحقّقه، حتّى يستفيد إذا اختلفت الحُرُوف مع عوامِلها.

﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الأشياء ما يصل إلى السّماء الدّنيا ويقف، ومنها ما يعرّج في السّماء الدّنيا حتّى يصل إلى الله عزّ وجلّ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: (هو) الضّمير يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: مُصَاحِب لَكُمْ، كما قال النّبي ﷺ: «اللّهُمَّ أَنْتَ الصّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ»<sup>(١)</sup> لكنّ هذه الصّحبة ليست صُحبة مكان، بمعنى أنّنا إذا كنّا في مكان كان الله معنا، حاشا وكلاً، لا يُمكن هذا، وكيف يتصوّر عاقل أنّ الله معنا في مكاننا، وكُرسيّه وَسِعَ السّموات والأرض؟! هذا مُستحيل، والكُرسيّ موضع القدمين، كما جاء عن ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا<sup>(٢)</sup>.

فإذا كان كذلك هل يُعقل أن ربّ السّموات والأرض الذي يوم القيامة تكون السّموات مطويات بيمينه، والأرض جميعاً قبضته هل يُمكن أن يكون معنا في أماكننا الضيّقة والواسعة؟ لا يُمكن.

إِذَنْ: ﴿مَعَكُمْ﴾ أي: مُصَاحِب لَكُمْ، والمُصَاحِب قد يكون بعيداً عنك، يقول العرب في أسلوبهم: ما زلنا نسير والقمر معنا، ما زلنا نسير والقُطب معنا، ما زلنا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٥٠ رقم ٣٠٣٠)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩١ رقم ٢٦٠١)، والطبراني في معجمه الكبير (١٢/ ٣٩ رقم ١٢٤٠٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٥٢)، والحاكم (٢/ ٢٨٢).

نسِير والجبل الفُلَانِيَّ معنا، وليس معهم في مكانهم. ومعلوم أَنَّ القمر في السَّمَاء، والنَّجْم في السَّمَاء، والجبل قد يكون بينك وبينه مسافة أَيَّام، ومع ذلك فالعرب تُطَلِّق عليه المَعِيَّة مع البُعد في المكان.

وكوننا نؤمن بأنَّ الله معنا إذن هو عالم بنا، سميع لأقوالنا، بصير بأفعالنا، له القدرة علينا والسُّلطان، ومدبِّر لنا بكلِّ معنى تقتضيه المَعِيَّة.

واعلم أنَّ من الضُّلَّال من يقول: إِنَّ الله معنا في أمكتنا، نسأل الله العافية، ويُنْكِرُونَ أَنَّ الله في السَّاء عَالِيًا فَاتُوا دَاهِيَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ، الأولى: إنكار عُلُوِّ الله. والثانية: اعتقاد أَنَّهُ في الأرض. سُبْحَانَ الله! هل يُعْقَلُ أَنْ يَعْتَقِدَ عَاقِلٌ فَضْلًا عَنْ مُؤْمِنٍ أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْمِرْحَاضِ كَانَ اللهُ مَعَهُ؟ أَعُوذُ بِاللَّهِ، الَّذِي يَعْتَقِدُ هَذَا أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّهُ كَافِرٌ؛ لِأَنَّ أَعْظَمَ اسْتِهْزَاءٍ بِاللَّهِ وَأَعْظَمَ حُطٍّ مِنْ قَدْرِ اللهِ هُوَ هَذَا، ثُمَّ نَقُولُ: إِذَا كَانَ اللهُ -كَمَا يَقُولُونَ- فِي كُلِّ مَكَانٍ يَعْنِي أَنَّهُ فِي الْحُجْرَةِ، وَفِي السُّوقِ، وَفِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ مَنْ الَّذِي يَكُونُ مَعَ أَنَاسٍ فِي الْحُجْرَةِ، وَأَنَاسٍ فِي الشَّارِعِ؟ أَهْمَا إِهَانٌ؟ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ مُتَعَدَّدٌ، هَلْ هُوَ مُتَجَزِّئٌ؟!

إِذَنْ: بَطُلَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَا بَذَاتِهِ فِي أَمَكْتِنَا؛ لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَعَدَّدًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَجَزِّئًا، وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ، قَرَرْتُ هَذَا لِأَنَّهُ يَوْجَدُ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ فَنَقُولُ: المَعِيَّة هِيَ الْمُصَاحَبَةُ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْمُصَاحَبَةِ الْمُقَارَّةُ فِي الْمَكَانِ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اللهُ مَعَكَ فِي مَكَانِكَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَا قَدَرُوا اللهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، وَلَا عَرَفُوا عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ، قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ﴾

وَتَعَلَّانِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ [الزمر: ٦٧].

فكيف يعتقد أن الله معنا في مكاننا، فيجب على الإنسان أن يعرف نعمة الله عليه بكونه يؤمن بالقرآن الكريم ظاهره مُعظِّمًا لله حقَّ تعظيمه.

﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: في أيِّ مكان؛ لأنَّ أين ظرف مكان.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: بما تعملون من الأعمال كلها بصير، والبَصَرُ هنا يشمل بصر الرؤية قال النبي ﷺ عن ربِّه: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»<sup>(١)</sup> ويشمل بصر العلم، فمن المعلوم أنَّ أعمالنا قد تكون مرئية الحركة، وقد تكون مسموعة كالأقوال، فرؤية المسموع العلم.



(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (٥)

••❦••

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾﴾ [الحديد: ٥].

••❦••

﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لله تعالى وحده مُلكُ السَّموات والأرض خلقًا وتدبيرًا، فلا يَمْلِكُ السَّموات والأرض أحدٌ إلَّا الله سُبحَانَهُوَعَالَى لا استقلالًا ولا مشاركة، قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبا: ٢٢]، فنفى الاستقلال ونفى المشاركة ﴿وَمَا لَهُ﴾ أي: ما لله ﴿مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: مِنْ مُسَاعِدٍ ساعده على خلق السَّموات والأرض، فله ملكُ السَّموات والأرض وعددها سَبْع، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، والأرضون أيضًا عددهم سبع كما جاء ذلك ظاهرًا في القرآن وصريحًا في السُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، يعني في العدد، وثبتَّ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوفَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، كُلُّ الْأُمُورِ أَيِ الشُّؤُونِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، الدِّينِيَّةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والدُّنْيَوِيَّةَ، والأُخْرَوِيَّةَ كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَصَرَّفُ كَمَا شَاءَ يَحْكُمُ بِمَا شَاءَ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ عَزَّوَجَلَّ فَكُلُّ أُمُورِ الْإِنْسَانِ الْخَاصَّةِ تَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، وَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْكَ إِذَا أَلَمْتَ بِكَ مِلَّةً أَنْ تَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ - إِذَا أَلَمْتَ بِهِمُ الْمِلَمَاتِ الَّتِي يَعْجِزُونَ عَنْهَا يَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِذَا عَصَفَتْ بِهِمُ الرِّيحُ فِي أَعْمَاقِ الْبَحَارِ عَلَى الشُّفَنِ يَلْجِئُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ، وَيَسْأَلُونَهُ أَنْ يُنَجِّيَهُمْ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، فَكَيْفَ بِكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ!!

فَالْجَأُ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، دِينِيٍّ أَوْ دُنْيَوِيٍّ خَاصٌّ بِكَ أَوْ بِأَهْلِكَ، لَا تَلْجَأُ لغيرِ اللَّهِ، فَمَنْ أَنْزَلَ حَاجَتَهُ بِاللَّهِ قُضِيَتْ، وَمَنْ أَنْزَلَ حَاجَتَهُ بِغَيْرِ اللَّهِ وَكِلَإِلَيْهِ، فَنَقُولُ: إِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ عَامَّةً: الْأُمُورُ الدِّينِيَّةُ وَالدُّنْيَوِيَّةُ وَالْأُخْرَوِيَّةُ، وَالْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ، وَإِذَا آمَنْتَ بِهَذَا، وَيَجِبُ أَنْ تَوْمِنَ بِهِ، صِرْتَ لَا تَلْجَأُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.



## الآية (٦)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿يُولِجُ آلِيلٌ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي آلِيلٍ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦].

• • ❦ • •

﴿يُولِجُ آلِيلٌ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي آلِيلٍ﴾: ﴿يُولِجُ﴾ أي يُدْخِلُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارُ أي يُدْخِلُهُ فِي اللَّيْلِ، وهذا يَعْنِي اختلافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الطُّوْلِ وَالْقِصْرِ، أحياناً يَبْدَأُ اللَّيْلُ فِي الزِّيَادَةِ فَيَدْخُلُ عَلَى النَّهَارِ، فهذا ﴿يُولِجُ آلِيلٌ فِي النَّهَارِ﴾، وأحياناً يَبْدَأُ اللَّيْلُ يَنْقُصُ وَيَزِيدُ النَّهَارُ، فَيَدْخُلُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ، ولا أحدٌ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لو اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ إِنْهُمْ وَجَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ مَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يُوجِـحُوا دَقِيقَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَلَا النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ أَوْ مِنَ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ.

ثُمَّ هَذَا الْإِيلَاجُ لَا يَأْتِي دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَلَكِنَّهُ يَأْتِي تَدْرِيجِيًّا شَيْئًا فَشَيْئًا، أَوَّلُ مَا يَبْدَأُ بِالزِّيَادَةِ تَجِدُهُ يَأْخُذُ قَلِيلًا فِي الْيَوْمَيْنِ أَوْ الثَّلَاثَةِ دَقِيقَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يَبْدَأُ يَزْدَادُ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ تَسَاوِيِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يَأْخُذُ حَوَالِي دَقِيقَتَيْنِ فِي الْيَوْمِ تَدْرِيجِيًّا، أَرَأَيْتُمْ لَوْ جَاءَ دَفْعَةً وَاحِدَةً، كُنَّا مِثْلًا فِي أَطْوَلِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ وَإِذَا بَنَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي إِلَى أَقْصَرِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ، فَيَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ؛ لِأَنَّ النَّاسَ سَيَنْقَلِبُونَ مِنْ حَرٍّ مُزْعِجٍ إِلَى بَرْدٍ مُؤْلِمٍ فِي خِلَالِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مُضَرٌّ بِالْأَبْدَانِ وَالنَّبَاتِ

والجَوِّ، ولكنه عَزَّجَلَّ يُوجِّهه على تنظيم موافق للحكمة تمامًا، ولا أحد يستطيع أن يفعل هذا أبدًا مهما بلغ من القوة.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: صاحبة الصدور يعني القلوب، والدليل أنها القلوب قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

إذن: هو عليم بما في القلب، وإذا كنت تُصدِّق بذلك؛ فهل يمكن أن تُضمِر في قلبك ما لا يرضاه الله، إن كنت مؤمنًا؟

لا يُمكن، فطهر قلبك من الرياء والتفاق والغِلِّ على المسلمين والحقد والبغضاء؛ لأنَّ قلبك معلوم عند الله عَزَّجَلَّ، اللَّهُمَّ طهر قلوبنا، اللَّهُمَّ طهر قلوبنا، اللَّهُمَّ طهر قلوبنا. فطهر القلب من هذا، واملاه بحبة الله تعالى وتعظيمًا، كما يليق به، ومحبة للرسول ﷺ وتعظيمًا، كما يليق به، ومحبة للمؤمنين، ومحبة لشريعة الله تعالى.

فلا تُضمِر في هذا القلب شيئًا يكرهه الله، فإن فعلت فالله عليم به لا يخفى عليه، فطهر قلبك حتَّى يكون نقيًّا سليمًا؛ لأنَّه لا ينفع يوم القيامة إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم، كما قال عَزَّجَلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وتغيُّرات القلب تغيُّرات سريعة وعجيبة، ربما يتَّقل من كُفر إلى إيمان، أو من إيمان إلى كُفر في لحظة، نسأل الله الثبات.

وتغيُّر القلب يكون على حسب ما يُحيط بالإنسان، وأكثر ما يُوجب تغيُّر القلب إلى الفساد حُبُّ الدُّنيا، فحُبُّ الدُّنيا آفة، والعجب أنَّنا مُتعلِّقون بها، ونحن



نَعْلَمُ أَنَّهَا مَتَاعُ الْغُرُورِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَرَّ يَوْمًا أَسِيءَ يَوْمًا آخَرَ، كما قال الشاعر<sup>(١)</sup>:  
 وَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا      وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

كُلُّ لَذَّةٍ فِي الدُّنْيَا فَهِيَ مُحَوَّطَةٌ بِمُنْغَصٍّ، لذلك احرص على تطهير القلب من  
 التَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا إِلَّا فِيمَا يَنْفَعُكَ فِي الْآخِرَةِ، كَأَن تَتَعَلَّقَ بِالدُّنْيَا لِتُصْبِحَ غَنِيًّا تُنْفِقَ مَالَكَ  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِيمَا يُرْضِي اللَّهَ عَزَّجَلَّ، فهذا شيء آخر، وَطَلَبُ الْمَالِ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ  
 خَيْرٌ، لَكِن طَلَبَ الْمَالِ لِمُزَاحِمَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ شَرٌّ.



(١) البيت للنمر بن تولب (ت ١٤هـ)، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

الآية (٧)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

• • ❦ • •

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾: ﴿ءَامِنُوا﴾، الخطاب للعباد كلهم، ﴿بِاللَّهِ﴾ رب العالمين ﴿وَرَسُولِهِ﴾ مُحَمَّد ﷺ، والأمر هنا للوجوب الذي هو أشد أنواع الوجوب تحتمًا، والإيمان بالله أن تؤمن بأنه رب العالمين، وأن تؤمن بأنه الإله المعبود حقًا الذي لا يستحق العبادة إلَّا هو، وأن تؤمن بأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأن تؤمن بأنه الفعال لما يريد، وأن تؤمن أنه لا معقب لحكمه وهو السميع العليم، وأن تؤمن أن مرجع الخلائق إليه في الأحكام الشرعية والأحكام الكونية، فمن يدبر الخلق إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ والذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون هو الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَرَسُولِهِ﴾ مُحَمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أرسله الله تعالى إلى جميع الخلق والإنس والجن، وختم به النبوات، فلا نبي بعده، والدليل ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. يعني كان رسول الله خاتم النبيين فلا نبي بعده، فمن ادعى النبوة بعده فهو كافر، يجب أن يقصَّ عنقه إلَّا أن يتوب ويرجع.

﴿وَأَنفِقُوا﴾، الإنفاق البذل، ﴿وَمَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني المال؛ لأنَّ الله جَعَلَنَا مُسْتَخْلَفِينَ فِي الْمَالِ فَهُوَ الَّذِي مَلَكَنا إِيَّاهُ، فَلَا مَنَّةَ لَنَا عَلَى اللَّهِ بِمَا نُنْفِقُ، بَلِ الْمِنَّةُ لِلَّهِ عَلَيْنَا بِمَا أُعْطِيَ، وَالْمِنَّةُ لَهُ عَلَيْنَا بِمَا شَرَعَ لَنَا مِنَ الْإِنْفَاقِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ شَرَعَ لَنَا أَنْ نُنْفِقَ لَكَانَ الْإِنْفَاقُ ضَيَاعًا وَبِدْعَةً، وَلَكِنْ شَرَعَ لَنَا أَنْ نُنْفِقَ، فَلِلَّهِ تَعَالَى الْمِنَّةُ أَوَّلًا فِيمَا مَلَكَنا مِنَ الْمَالِ، وَلَهُ الْمِنَّةُ ثَانِيًا بِمَا شَرَعَ لَنَا مِنْ إِنْفَاقِهِ، وَلَهُ الْمِنَّةُ ثَالِثًا بِالْإِثَابَةِ عَلَيْهِ ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ أَي: آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا﴾ أَي مِمَّا جَعَلَهُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ، ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فَوَصَفَ اللَّهُ الْأَجْرَ عَلَى الْعَمَلِ بِأَنَّهُ كَبِيرٌ عَظِيمٌ كَثِيرٌ، الْكَثِيرُ تَأْخُذُهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وَبِهَذَا نَعْرِفُ مَنَّةَ اللَّهِ عَلَيْنَا: يَأْمُرُنَا بِالْعَمَلِ وَنَعْمَلُ بِهِ وَيَأْجُرُنَا عَلَيْهِ أَجْرًا كَثِيرًا، أَجْرًا عَظِيمًا، أَجْرًا كَبِيرًا، مَنَّةٌ عَظِيمَةٌ كَبِيرَةٌ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ اللَّهَ، وَأَنْ نُنْفِقَ مِمَّا جَعَلَنَا مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ، فَهَلْ نُنْفِقُ كُلَّ مَا تَمْلِكُ أَوْ بَعْضَ مَا تَمْلِكُ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا﴾ وَمِنْ هَذِهِ هَلْ هِيَ لِلتَّبَعِضِ أَوْ هِيَ لِبَيَانِ مَا يُنْفَقُ مِنْهُ، إِذَا كَانَتْ لِلتَّبَعِضِ فَالْمَعْنَى أَنْفِقُوا بَعْضَ مَا رَزَقَكُمْ وَلَيْسَ كُلُّهُ.

إِذَا جَعَلْنَاهَا لِلْبَيَانِ، فَالْمَعْنَى أَنْفِقُوا حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ: إِمَّا الْكُلَّ وَإِمَّا الْبَعْضَ، وَالْأَحْسَنُ أَنْ تَجْعَلَ ﴿مِمَّا﴾ لِلْبَيَانِ، وَإِذَا جَعَلْنَاهَا لِلْبَيَانِ صَارَ الْإِنْسَانُ مُخَيَّرًا يُنْفِقُ كُلَّ مَالِهِ، أَوْ بَعْضَ مَالِهِ، أَكْثَرَهُ أَوْ أَقَلَّهُ، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْمَصْلَحَةُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْمَعْنَى أَوْسَعَ كَانَ الْأَخْذُ بِهِ كَانَ أَوْلَى، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْعَظِيمُ مَعَانِيهِ وَاسِعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِذَلِكَ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ مَرَّةً عَلَى الصَّدَقَةِ.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَتَسَابِقُونَ إِلَى الْخَيْرِ، كُلُّ وَاحِدٍ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ

السَّابِق، فقال عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اليومَ أُسَبِّقُ أبا بكرٍ؛ لأنَّ هذين الرَّجُلَيْنِ هما أَخْصَرُ الصَّحَابَةِ بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأَحَبُّ الصَّحَابَةِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَالنَّبِيِّ ﷺ يُحِبُّ أبا بكرٍ أَشَدَّ مِنْ حُبِّ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابْنُ عَمِّهِ وَزَوْجُ ابْنَتِهِ، لَكِنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحِبُّهُ أَشَدَّ وَأَكْثَرَ، فَقَدْ سُئِلَ: مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «أَبُو بَكْرٍ»<sup>(١)</sup> وَقَالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»<sup>(٢)</sup>.

وَالْمِهْمُ: أَنَّ عُمَرَ كَانَ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَفَرَسَيَّ رِهَانٍ، يُحِبُّ أَنْ يَسْبِقَهُ لَا حَسَدًا لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَكِنْ حُبًّا لِلْفَضْلِ لِنَفْسِهِ، قَالَ: الْيَوْمَ أُسَبِّقُ أبا بكرٍ، فَجَاءَ بِنِصْفِ مَالِهِ لِيُنْفِقَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يَا عُمَرُ، «مَاذَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: تَرَكْتُ لَهُمُ الشَّطْرَ، يَعْنِي النِّصْفَ، وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: «مَا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: تَرَكْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَيَّ أَتَى بِكُلِّ مَالِهِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ لَا أَسَابِقُكَ عَلَى شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا<sup>(٣)</sup>، عَرَفَ أَنَّهُ يَعِجْزُ أَنْ يَسْبِقَ أبا بكرٍ.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ، فَإِذَا رَأَى

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رَقْم (٣٦٦٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَقْم (٢٣٨٤)، مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «سَدُّوا الْأَبْوَابَ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ»، رَقْم (٣٦٥٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ، بَابُ مِنْ فَضَائِلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَقْم (٢٣٨٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الزَّكَاةِ، بَابُ الرِّخْصَةِ فِي ذَلِكَ؛ أَيَّ أَنْ يُخْرَجَ الرَّجُلُ مِنْ مَالِهِ، رَقْم (١٦٧٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ فِي مَنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ وَعَمَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كِلَيْهِمَا، رَقْم (٣٦٧٥)، مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإنسان المصلحة في أن يتصدق بجميع ماله، وأنَّ عنده من قوَّة التَّوَكُّل والاعتماد على الله واكتساب الرِّزْق ما يُمكنه أن يَسْتَرِدَّ شيئًا من المال لأهله ونفسه، فحينئذ نقول: تصدَّق بجميع مالك.

وإذا كان الأمر بالعكس فكان رجلًا أخرج لا يَعْرِف أن يَكْتَسِب، وليس هناك داعٍ أن يُنْفِق كثيرًا، فهنا نقول: الأولى أن تُنْفِق بعض المال.

وفي هذه الآية دليل على أنَّه ينبغي للإنسان أن يُحَقِّق إيمانه ويُثَبِّته، وكلَّما رأى فيه تَزَعُّرًا استعاذ بالله من الشَّيْطَان الرَّجِيم ومضى إلى سبيله، وأن يُنْفِق من المال، والمال محبوب قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال عزَّجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

ولا يُمكن أن يَبْذُل الإنسان شيئًا محبوبًا إليه إلَّا لما هو أحبُّ، فإذا بَذَلَ الإنسان المحبوب إليه ابتغاءً لِرِضْوَانِ الله، عَلِمْنَا أن الرَّجُل يُحِبُّ رِضْوَانِ الله أكثر من المال، وبذلك يَتَحَقَّقُ الإيمان، أسأل الله تعالى أن يَجْعَلَنَا من ذَوِي الْعِلْمِ الرَّاسِخِ وَالْإِيمَانِ الثَّابِتِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



الآية (٨)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

• • • • •

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا معطوف على الآية التي قبلها وهي ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يعني أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله، وقد تمت أسباب وجوب الإيمان به، وذلك بدعوة النبي ﷺ، كما قال عزَّجَلْ: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ﴾ يعني أخذ الله تعالى العهد أن تؤمنوا به وبرسوله، فصار هناك سببان للإيمان:

الأول: دعوة النبي ﷺ إليه.

والثاني: الميثاق الذي أخذه الله علينا.

وذلك بما أعطانا عزَّجَلْ من الفطرة والعقل والفهم الذي نُدرك به ما ينفعنا ويضرُّنا، هذا هو الصحيح في معنى الميثاق.

وقيل: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهره، إن صحَّ الحديث الوارد في ذلك<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٣٥)، من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُهِمُّ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْكِرُ عَلَى مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ فَيَقُولُ: مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى  
 أَنْ لَا تَوَافِقَ وَقَدْ تَمَّتْ أَسْبَابُ وَجُوبِ الْإِيمَانِ بِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وبأخذ الميثاق  
 ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يَعْنِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَالزَمُوا الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.



الآية (٩)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

• • ❦ • •

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ﴾ لما ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يدعو إلى الإيمان بَيَّنَّ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿ءَايَاتٍ﴾ أي: علامات دالة على صدقه، وأنَّ ما جاء به هو الحق، ﴿يَبَيِّنُ﴾ ظاهرات بما اشتملت عليه من القصص النافعة، والأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والفصاحة التامة، والبيان العجيب، حتَّى إِنَّ العرب وهم أئمة البلاغة وأمراؤها تحدّاهم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عدّة مرّات أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولم يستطيعوا.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون المراد بذلك الرّسول ﷺ أي يكون سبباً في إخراجكم من الظُّلُمات إلى النُّور، ويَحْتَمِلُ أن يعود إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أي ليُخْرِجَكُم الله تعالى بهذه الآيات من الظُّلُمات إلى النُّور، وكلا المعنيين حق، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال الله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

فالنَّبِيُّ ﷺ سبب في إخراج النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وأما المُخْرِجُ حقيقة



فهو الله عَزَّجَلَّ، والمُرَاد بالظُّلُمَات: ظُلُمَات الجَهِل، وظُلُمَات الشَّرْكَ، وظُلُمَات العُدْوَان، وظُلُمَات العِصْيَان، وكل ما خالف الحق فهو ظُلْمَة، وكل ما وافقه فهو نور.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَكْمُلُ لِرُءُوفٍ رَحِيمٍ﴾ هذه الجملة خَبَرِيَّة مُؤَكَّدَة بِإِنَّ، وَاللَّام ﴿لِرُءُوفٍ رَحِيمٍ﴾ الرَّأْفَة أَرْقُ الرَّحْمَة، وَالرَّحْمَة أَعْمُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رُءُوفٌ رَحِيمٌ، أَي ذُو رَحْمَة بِالْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] وَرَحْمَة اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِمَّا عَامَّةٌ وَإِمَّا خَاصَّةٌ، فَالْعَامَّةُ الشَّامِلَة لِجَمِيعِ النَّاسِ، وَالْخَاصَّةُ بِالْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَيُّ رَحْمَة مِّنَ اللَّهِ لِلْكَافِرِ؟

فَالْجَوَاب: أَمَدُّهُ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنِينَ، وَعَقْلٌ، وَأَمْنٌ، وَرِزْقٌ، بَلِ الْكَفَّارُ قَدْ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمَا مِنْ ذَابِقَةٍ وَلَئِنْ يُوَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، فَإِذَا سَأَلْتُكَ سَائِلٌ: هَلِ اللَّهُ رَحْمَة عَلَى الْكَافِرِ؟ لَا تَقُلْ: نَعَمْ وَلَا لَا، أَمَّا بِالْمَعْنَى الْعَامَّةِ فَنَعَمْ رَحْمَة، وَلَوْلَا رَحْمَة اللَّهِ بِهِ لَهْلَكَ، وَأَمَّا بِالْمَعْنَى الْخَاصَّةِ فَلَا، الرَّحْمَة الْخَاصَّةُ لِلْمُؤْمِنِينَ فَقَطْ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].



الآية (١٠)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠].

• • • • •

ولما أمرنا أن ننفق مما جعلنا مستخلفين قال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني أي شيء يمنعهم، والإنفاق في سبيل الله يشمل كل شيء أمر الله بالإنفاق فيه، ففي سبيل الله هنا عامة، وعليه يدخل في ذلك الإنفاق على النفس، والإنفاق على الزوجة، والإنفاق على الأهل، والإنفاق على الفقراء واليتامى، والإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فكل ما أمر الله تعالى بالإنفاق فيه فهو داخل في هذه الآية حتى إنفاقك على نفسك صدقة، وإنفاقك على زوجك صدقة، ولكن لاحظ النية، لقول النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا»<sup>(١)</sup>، فلزم هذا القيد، لا بُدَّ أن تبْتَغِي بها وجه الله إِلَّا أُجِرْتَ، أي: أُثِبَتْ عليها.

﴿ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يعني كيف لا تُنفق والذي سِيرت السموات

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (١٢٩٥)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأرض هو الله، ومن جملة ذلك ما لك الذي بخلت به سيرته الله عز وجل وترجع الأمور كلها لله سبحانه وتعالى. قال أهل العلم: إن الشح في إنفاق المال سفه في العقل؛ لأن هذا المال إما أن ينفى في حياتك فتعدمه، وإما أن يبقى بعد موتك فإذا ورث ما لك من بعدك، وإما أن يرثه صالح فيكون أسعد به منك، وإما أن يرثه مفسد فتكون خلقت له ما يستعين به على إفساده، فإذا خلقت المال فإما أن تخلفه إلى من ينفقه في سبيل الله فيكون هو أسعد بمالك منك، وإما أن تخلفه لمفسد يستعين به على معصية الله فتكون أعتته على معصية الله، بما خلقت له من المال.

إذن: اللائق بك أن تُنفقه في سبيل الله حتى يكون لك غنم وتسلم من غائلته لو ورثه من يفسد به، فتذكر يا أخي، عندما تُفكر في الإنفاق فيأتيك الشيطان فيأمرك بالبخل ويعدك الفقر، فكرر أنك إذا خلقت هذا المال فلا بُد أن يورث، لن يُدفن معك، لا بُد أن يورث ويكون الإرث دائراً بين الأمرين السابقين.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ دين الإسلام دين العدل في العمل والجزاء، وانتبه دين العدل في العمل والجزاء وليس كما يقول المحدثون: (إنه دين المساواة)، هذا غلط عظيم، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة، حتى يقول: المرأة والرجل، والمؤمن والكافر سواء، ولا فرق، وسبحان الله إنك لن تجد في القرآن كلمة المساواة بين الناس، بل لا بُد من فرق، بل أكثر ما في القرآن نفي المساواة: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وآيات كثيرة، فاحذر أن تتابع فتكون كالذي ينعم بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، بدل من أن تقول: (الدين الإسلامي دين مساواة) قل: (دين العدل الذي أمر الله به، يُعطي كل ذي حق حقه)، رأيت المرأة مع الرجل في الإرث، وفي الدية، وفي العقيقة،

وفكَّ الرِّهَانِ يَخْتَلِفُونَ.

وفي الدين: المرأة ناقصة إذا حاضت لم تُصَلِّ ولم تُصُمْ، وفي العقل المرأة ناقصة: شهادة الرَّجُلِ بِشهادة امرأتين، وهلمَّ جرًّا، والَّذِينَ يَطِّقُونَ بكلمة مساواة إذا قرَّروا هذا وأنه من القواعد الشرعية الإسلامية ألزومنا بالمساواة في هذه الأمور، وإلا لصرنا مُتَنَاقِضِينَ، فنقول: دين الإسلام هو دين العدل يُعْطِي كُلَّ إِنْسَانٍ مَا يَسْتَحِقُّ، حتَّى جاء في الحديث: «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ»<sup>(١)</sup> يعني إذا أخطأ الإنسان الشَّريف الوجيه في غير الحدود فاحفظ عليه كرامته وأقله، هذا الَّذِي تُقِيلُهُ إذا كان من الشُّرفاء، إقالتك إيَّاه أعظم تربية من أن تُجلِّده ألفَ جلدة؛ لأنَّه كما قيل: الكريم إذا أكرمته مَلَكْتَهُ، لكن لو وُجد إنسان فاسق ما جُنَّ فهذا اشدُّد عليه العقوبة وأعزَّره.

ولهذا لما كثر شرب الخمر في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضاعف العقوبة بدل أربعين جَعَلَهَا ثمانين<sup>(٢)</sup>، كذلك الحديث الصَّحِيح الَّذِي رواه أهل السُّنَنِ: «مَنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاقْتُلُوهُ»<sup>(٣)</sup>؛ لأنَّ لا فائدة في جلده، ثلاث مرَّات تُعَاقِبُهُ ولا فائدة إذْنِ خَيْرٍ لَهُ ولغيره أن يُقْتَلَ، وإذا قتلناه اسْتَرَّاحَ مِنَ الْإِثْمِ، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب في الحد يشفع فيه، رقم (٤٣٧٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، رقم (٦٧٧٩)، من حديث السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٨٠/٣)، وأبو داود: كتاب، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٤)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلطات في شرب الخمر، رقم (٥٦٦٢)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من شرب الخمر مرارًا، رقم (٢٥٧٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٠﴾  
[آل عمران: ١٧٨].

والخلاصة: أَنَّ التَّعْبِيرَ بِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ دِينَ الْمَسَاوَاةِ غُلَطٌ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، بل هو دين العدل ولا شكَّ، والعَجَبُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا الْكَلَامَ، يَقُولُونَ إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى» <sup>(١)</sup> فَيَتَنَاقَضُونَ، والحديث لم ينفِ مُطْلَقًا، وَإِنَّمَا قَالَ: «إِلَّا بِالتَّقْوَى» فهم يَخْتَلِفُونَ بِالتَّقْوَى، ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَا يَصَحُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كَنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كَنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» <sup>(٢)</sup> فَفَضَّلَ.

ولا شكَّ أَنَّ جِنْسَ الْعَرَبِ أَفْضَلُ مِنْ جِنْسٍ غَيْرِ الْعَرَبِ لَا شَكَّ عِنْدَنَا فِي هَذَا، وَالذَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي الْعَرَبِ أَكْمَلَ نُبُوَّةٍ وَرِسَالَةٍ مُحَمَّدًا ﷺ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فَلَا جِنَاسَ تَخْتَلِفُ، وَقَالَ ﷺ: «خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا» <sup>(٣)</sup>.

فاحذَرُ أَنْ تُتَابِعَ فِي الْعِبَارَاتِ الَّتِي تَرِدُ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ الْمُحَدِّثِينَ حَتَّى تَتَأَمَّلَهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِجْمَاعَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مَفَاسِدَ وَلَوْ عَلَى الْمَدَى الْبَعِيدِ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤١١)، من طريق أبي نضرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ مرفوعاً.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، رقم (٢٢٧٦)، من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ»، رقم (٣٣٧٤)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، رقم (٢٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

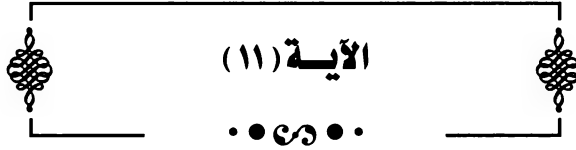
صراطه المستقيم وأن يتولانا في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾ أي: لا يكونون سواء، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية الذي جرى بين النبي ﷺ وبين قريش، وذلك في ذي القعدة من عام ستّة من الهجرة، وسُمّي فتحاً؛ لأنه صار فيه توسيع للمسلمين وتوسيع أيضاً للمشركين.

واختلط الناس بعضهم ببعض، وأمن الناس بعضهم بعضاً حتى يسّر الله عزّ وجلّ أن نقضت قريش العهد، فكان من بعد ذلك الفتح الأعظم، فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة في رمضان، قال الله عزّ وجلّ: ﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾ وذلك لأنّ الأولين أنفقوا وقاتلوا وسبقوا إلى الإسلام وكان الإسلام في حاجة لهم ولإنقاذهم، فكانوا أفضل ممّن أنفق من بعد وقاتل، والله عزّ وجلّ يجزي بالعدل بين عباده، ولكن لما كان تفضيل السابقين قد يُفهم منه أن لا فضل للاحقين قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي: كلّ من الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وعدهم الله الحسنَى، يعني الجنة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم ببواطن أموركم كظواهركم لا يخفى عليه شيء، وإذا كان عالماً بها فسوف يُجازي كلّ عامل بما عمِل، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].



ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَاتًّا وَمَرْغَبًا فِي الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ أَي: أَيْنَ الَّذِينَ يُقْرِضُونَ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا؟

أَي: يُنْفِقُونَ فِيمَا أَمَرَهُم بِالْإِنْفَاقِ فِيهِ، وَأَشَارَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذَا إِلَى شَيْئَيْنِ: إِلَى الْإِخْلَاصِ فِي قَوْلِهِ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ يَعْنِي لَا يَرَى سِوَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالْمُتَابَعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَسَنًا﴾؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ الْحَسَنَ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ هُمَا شَرْطَانِ فِي كُلِّ عَمَلٍ: أَنْ يَكُونَ مُخْلِصًا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَابِعًا فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَوَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِهِ بِالْقَرْضِ تَشْبِيهًا بِالْقَرْضِ الَّذِي يُقْرِضُهُ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّكَ إِذَا أَقْرَضْتَ غَيْرَكَ فَإِنَّكَ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّهُ سِيرُدُهُ عَلَيْكَ، هَكَذَا أَيْضًا الْعَمَلُ الصَّالِحُ سِيرُدٌ عَلَى الْإِنْسَانِ بِلَا شَكٍّ، بَلْ ﴿فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ وَالْمُضَاعَفَةُ هُنَا الزِّيَادَةُ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قُدْرَهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَقَالَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فأنت إذا أنفقت درهمًا فجزاؤه سبع مئة درهم، ثوابًا من عند الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، والله فضله أكثر من عدله وأوسع، ورحمته سبقت غضبه، فيُضَاعِفُه له إلى سبع مئة بل إلى أكثر كما جاء في الحديث إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، أي: حسن واسع، وذلك فيما يجده في الجنة، ففيها ما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.





## الآية (١٢)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾﴾ [الحديد: ١٢].

• • • • •

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: اذكر للأمة يوم ترى أيها الإنسان ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ يوم القيامة ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ يكون من الأمام ومن اليمين، أما من الأمام فلاجل أن يقتدي الإنسان به، وأما عن اليمين فتكريماً لليمين يكون بين أيديهم وبأييمانهم.

وقوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ يفيد بأن هذا النور على حسب الإيثار؛ لأن الحكم إذا علق بوصف كان قوياً بقوة ذلك الوصف، وضعيفاً بضعفه.

إذن: نورهم على حسب إيمانهم الذكر والأنثى.

﴿بُشْرَانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ﴾ تقول الملائكة لهم ﴿بُشْرَانُكُمُ﴾ أي: ما تبشرون به ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني يوم القيامة ﴿جَنَّتْ نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه الجنات فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين، فيها ما يشاؤون، كما قال الله عز وجل: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، وجمعها لأنها جنات متعددة متنوعة، ودرجات مختلفة حسب قوة الإيثار والعمل، وقوله: ﴿نَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تسير، وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة القتال أنها أربعة ﴿أَنْهَارٌ

مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴿[مُحَمَّد: ١٥]﴾، وهذه الأنهار لا تحتاج إلى حُفَرٍ ساقية ولا إلى جُدُولٍ، بل تسير على سطح الأرض، حيث شاء أهلها، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ<sup>(١)</sup>:

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أَخْدُودٍ جَرَتْ      سُبْحَانَ مُسْكُهَا عَنِ الْفَيْضَانِ

فلا تَذْهَبُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا حَيْثُ أَرَادَ أَهْلُهَا، وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ إشارة إلى علو قصورها وأشجارها، يعني تكون هذه الأنهار من تحت هذه القصور العالية والأشجار الرفيعة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها، وقد جاءت آيات متعددة بأن هذا المكث دائم ليس فيه زوال ولا انقطاع ولا تغير.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ المشار إليه ما وَعَدَهُمُ اللَّهُ به الجنات التي تجري من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم، و﴿هُوَ﴾ يُسَمِّيها العلماء ضميرَ فَضْلٍ، وهو مُفيد للتوكيد والاختصاص، أي هذا الذي ذكر هو الفوز العظيم؛ لأنه لا فوز مثله، كما أنه لا فوز أعظم منه.

نسأل الله أن يجعلنا من أهله إنه على كل شيء قديرٌ.



## الآيات (١٣-١٥)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ آتِهِمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَزَّكُمُ اللَّهُ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَأَلَيْكُمُ الْيَوْمَ نَارُكَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾﴾ [الحديد: ١٣-١٥].

• • • • •

﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: اذكر يومَ يقول، فكلمة ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ ظرف زمان، ولا بُدَّ للظرف الزماني والمكاني، والجار والمجرور من شيء تتعلق به، والعلماء يُقدِّرون المحذوف في كلِّ مكان بما يُناسب، وهنا المناسب أن يكون التقدير: اذكر أيُّها الإنسان يوم يقول المنافقون، هذا اليوم هو يوم القيامة، والمنافقون هم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ﴿يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، ولم يظهر النفاق إلَّا بعد أن قويت شوكة المسلمين بعد غزوة بدر، وكانت غزوة بدر في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، انتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا على الكفار، فلما بزغ فجر الإسلام وقويت شوكته ظهر النفاق.

والنفاق هو أنَّ الإنسان يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر، فظهر ذلك في المسلمين، فكانوا يأتون إلى النَّاسِ ويَحْضُرُونَ الجماعة لكنها ثقيلة عليهم، «وَأَثْقَلُ الصَّلَوَاتِ

عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ<sup>(١)</sup>؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أَضْوَاءٌ يُشَاهَدُونَ فِيهَا، وَهُمْ إِنَّمَا يُصَلُّونَ يُرَاوُونَ النَّاسَ، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَظْهَرُ نُورٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْطَفِئُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا الْإِنْسَانُ أَنَّ انْطِفَاءَ النُّورِ بَعْدَ ظُهُورِهِ يَكُونُ أَشَدَّ ظُلْمَةً مِمَّا لَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نُورٌ؛ وَلِهَذَا لَوْ أَطْفَأَتِ النُّورَ الْقَوِيَّ ثُمَّ فَتَحْتَ عَيْنَكَ لَمْ تَرَ شَيْئًا إِلَّا بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، فَيَكُونُ انْطِفَاءُ النُّورِ بَعْدَ وُجُودِهِ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِمَّا لَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نُورٌ، ثُمَّ تَكُونُ الْحَسْرَةُ أَشَدَّ، فَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ﴾، أَي: نَأْخُذُ شَيْئًا قَلِيلًا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾، وَالْقِيلُ هَذَا إِمَّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا نَدْرِي.

﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ وَهَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ يُرِيدُونَ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى مَكَانِ النُّورِ، الَّذِي انْطَفَأَ فِيهِ النُّورُ لَعَلَّهُ يَتَجَدَّدُ النُّورُ، أَوْ أَنَّ هَذَا مِنَ الْاسْتَهْزَاءِ بِهِمْ وَالسُّخْرِيَةِ؟ الْآيَةُ مُحْتَمِلَةٌ هَذَا وَهَذَا ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ﴾ أَي بَيْنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿سُورٍ لَهُمْ بَابٌ﴾ هَذَا سُورٌ عَظِيمٌ، لَهُ بَابٌ يَمْنَعُ مِنَ الْقَفْزِ، لَهُ بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ وَيُمنَعُ مِنْهُ الْمُنَافِقُونَ ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أَي: بَاطِنُ هَذَا السُّورِ فِيهِ الرَّحْمَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ لِلْمُنَافِقِينَ، وَأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَصَوَّرَ هَذِهِ الْحَالِ؛ لِأَنَّ الْحَالَ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَتَصَوَّرَهَا، حَالٌ عَظِيمَةٌ.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾، الْمُنَادِي الْمُنَافِقُونَ، وَالْمُنَادَى الْمُؤْمِنُونَ، ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا كُنَّا نُصَلِّيْ مَعَكُمْ وَنَتَصَدَّقُ وَنَذْكُرُ اللَّهَ، ﴿قَالُوا بَلَى﴾ يَعْنِي أَنْتُمْ مَعَنَا، وَلَكِنْ فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل العشاء في الجماعة، رقم (٦٥٧)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلّف عنها، رقم (٦٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الظَّاهِر دُونَ الْبَاطِن؛ ولهذا قالوا: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنَّا أَنْفُسَكُمْ﴾ يَعْنِي أَضَلَلْتُمُوهَا ﴿وَتَرَبَّصْتُكُمْ﴾،  
انتَظَرْتُكُمْ بِنَا الدَّوَائِرِ ﴿وَأَرْبَبْتُكُمْ﴾ شَكَّكُمْ فِي الْأَمْرِ، فَلَيْسَ عِنْدَكُمْ إِيمَانٌ.

﴿وَعَزَّيْتُكُمْ الْأَمَانِي﴾ أَي: ظَنَنْتُمْ أَنَّكُمْ مُحْسِنُونَ لَا تَكُفُّونَ إِنْ أَرَدْنَا  
إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا، نُوفِّقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَبَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، إِذَا لَقُوا  
الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا فَهَمَّ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ،  
فَهَمَّ مَعَ الْكَفَّارِ، ظَنُّوا أَنَّهُمْ بِهِهِ الْمُدَاهَنَةُ كَسَبُوا الْمَعْرَكَةَ، فَغَرَّتْهُمْ الْأَمَانِي ﴿حَتَّى جَاءَ  
أَمْرُ اللَّهِ﴾، وَذَلِكَ بِمَوْتِهِمْ.

﴿وَعَزَّيْتُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الْغُرُورُ هُوَ الشَّيْطَانُ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى  
عَنْهُ حِينَ وَسَّوَسَ إِلَى أَبِيوَيْنَا قَالَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فَالْغُرُورُ  
هُوَ الشَّيْطَانُ، ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ الْأَسِيرُ فِي الدُّنْيَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْدِيَ نَفْسَهُ  
وَيَبْذُلَ الْمَالَ فَيَسْلَمَ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ لَيْسَ فِيهِ فِدْيَةٌ ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أَيُّهَا  
الْمُنَافِقُونَ، ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الَّذِينَ أَعْلَنُوا الْكُفْرَ وَصَارُوا أَشْجَعَ مِنْ هَؤُلَاءِ  
الْمُنَافِقِينَ فَلَا فِدْيَةَ لَهُمْ هَؤُلَاءِ وَلَا لَهُؤُلَاءِ، ﴿مَأْوَانُكُمْ النَّارُ﴾ أَي: مَثْوَاكُمْ وَمَأْلَكُمْ النَّارُ  
﴿هِيَ مَوْلَانُكُمْ﴾ الَّذِي تَتَوَلَّوْنَهُ، وَالتِّي تَتَوَلَّوْاكُمْ، فَهَمَّ يَتَوَلَّوْنَ النَّارَ بِعَمَلِ أَهْلِهَا، وَالنَّارُ  
تَتَوَلَّاهُمْ لِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لَهَا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أَي: الْمَرْجِعُ وَهَذَا تَقْبِيحُهَا.

أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهَا، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنا مِمَّنْ رُخِّحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَمِنَ  
الْفَائِزِينَ الْمُتَّقِينَ الْمُفْلِحِينَ.



## الآية (١٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

• • • • •

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أي: ألم يحق لهؤلاء المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: أن تذلل وتنقاد غاية الانقياد لذكر الله تعالى في القلوب واللسان والجوارح ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ يعني القرآن الكريم، وهو من ذكر الله، وذكره بخصوصه لأهميته.

﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ الذين أوتوا الكتاب من قبل هم اليهود والنصارى ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ يعني طال بهم الزمن ونسوا حظهم مما ذكروا به فقست قلوبهم والعياذ بالله، وكثير منهم فاسقون وبعضهم مستقيم.

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى أنه قد حُقَّ للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولكتاب الله، وأن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمَدُ فقست قلوبهم لبعدهم عن زمن الرِّسالات، وفي هذا إشارة إلى أنَّ أوَّل الأُمَّة خير من آخرها، وأخشع قلوباً؛ وذلك لقربهم من عهد الرِّسالة.

وقد صحَّ بذلك الحديثُ عن النَّبِيِّ ﷺ فقال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»<sup>(١)</sup> وفي هذا التَّنْذِيرُ التَّامُّ باليهود والنصارى؛ لأنَّها قست قلوبهم لما طال عليهم الأمدُ، وفيه العدالة التَّامَّةُ في حكم الله سُبحَانَهُ وتعالى، حيث قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسِقُونَ﴾ ولم يُعمَّم، وهذا هو الواجب على مَنْ تحدَّثَ عن قوم أن يُبيِّنَ الواقعَ؛ لأنَّ بعض النَّاسِ إذا رأى مِنْ قوم زَيْغاً في بعضهم عمَّم الحكمَ على الجميع، والواجب العدلُ إن كان الأكثرُ هم الفاسقين، فقل: أكثرهم، وإن كان كثيرٌ منهم فاسقين فعبرَ بالكثير على حسب ما تقتضيه الحال؛ لأنَّ الواجب أن يقوم الإنسان بالعدل ولو على نفسه أو والديه والأقربين.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الآية (١٧)

• • ❦ • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾﴾ [الحديد: ١٧].

• • ❦ • •

﴿اعْلَمُوا﴾ فعل أمر، فأمر بالعلم بهذه القضية الهامة، وهي أَنَّ الله يُحْيِي الأرض بعد موتها، يعني أَنَّ الأرض تَجِدُهَا يَابِسَةً ليس بها نبات فيُنْزِلُ اللهُ عليها المطرَ فتنبت وتحيا وتنمو، إذا علمنا هذا ونحن عالمون به ونشاهده، فإنَّنا نَسْتَدِلُّ به على قُدرة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على إحياء الموتى، فإنَّ النَّاسَ أَحْيَاءُ الْآنَ، ثُمَّ يَمُوتُونَ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ يوم القيامة، فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها من أجل الحساب والجزاء؛ لَأَنَّهُ ليس من الحكمة أَنْ يَخْلُقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلْقًا يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ وَيُبِيحُ دِمَاءَ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ وَأَمْوَالَهُمْ ثُمَّ تَكُونَ النَّتِيجَةُ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ فَقَطْ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ حَيَاةٍ، هِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ومعنى الحيوان، أي: الحياة الحقيقية التامة الكاملة التي ليس بعدها موت، وليس المراد بالحيوان الحيوانات الدواب، فالقادر على أَنْ يجعل العيدان اليابسة خضرًا نامية، قادر على أَنْ يُحْيِي الموتى وبكلمة واحدة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ



كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿١٧﴾ [يس: ٥٣]، وقال عزَّ وجلَّ:  
﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: أظهرناها لكم، والآيات هي  
العلامات الدالة على كمال قدرة الله جلَّ وعلا، وعلى كمال رحمته وسُلطانه، وأضرب  
لذلك مثلاً: إذا أنزل الله المطرَ ونبتت الأرض، وشبعت البهائم، وطابت الأجواء  
فهذا من آثار رحمته، فنستدلُّ بهذا على رحمة الله، ونستدلُّ بها خلق الله في الكون من  
الشمس والقمر والنجوم، وما خلق الله سبحانه وتعالى في الأرض من الجبال والأنهار  
وغيرها على كمال حكمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأنك إذا تدبرتها وجدت فيها من الحكمة ما  
يُبهر العقل.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلَّ هنا للتعليل وليست للرجاء، مع أنَّها في اللغة العربية  
تأتي للرجاء كثيراً، لكنها هنا للتعليل؛ لأنَّ الرجاء لا يُمكن في حق الله، إذ إنَّ  
الرجاء طلب شيء فيه نوع من العسر، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يُتصور في حقِّه الرجاء،  
لكن تأتي لعلَّ للتعليل، أي لأجل أن تعقلوا، والمراد بالعقل هنا: عقل الرُّشد، أي:  
تعقلوا عقلاً ترشدون به، ويكون دليلاً لكم على ما فيه الخير.



الآية (١٨)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُمْضِعُهُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

• • ❦ • •

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ أصلها: إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ، لكن قُلِبَتِ التَّاءُ صَادًا لَعَلَّةَ تَصْرِيفِيَّةَ معروفة عند أهل النحو، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنْفَاقًا حَسَنًا، وَالْإِنْفَاقُ الْحَسَنُ مَا جَمَعَ شَرْطَيْنِ:

الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَالثَّانِي: الْمَتَابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فالمُرَائِي الَّذِي يُنْفِقُ رِيَاءً لَمْ يُقْرِضِ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا، ومثال ذلك: إنسان تصدَّق على فقير من أجل أن يراه النَّاسُ، فيقولون: إن فلانًا كثير الصَّدَقَةِ، فهذا مُرَائِي وَصَدَقَتُهُ لَا تَنْفَعُهُ، وَلَا تُقْبَلُ مِنْهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ عَمَلٍ يُرَادُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ فَهُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»<sup>(١)</sup>.

وإنسان آخر يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعِبَادَاتٍ غَيْرِ مَشْرُوعَةٍ، صَاحِبٌ بِدْعَةٍ لَكِنَّهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُخْلِص، لو سألتَه لِمَ فعلتَ هذا؟

قال: أريد ثوابَ الله، وأريد التقربَ إلى الله، فلا تَنفَعَه هذه العبادة، لعدم المُتَابَعَةِ، فقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: مُخْلِصِينَ فِيهِ لِلَّهِ، مُتَّبِعِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فإن قال قائل: لماذا عبَّرَ اللهُ تعالى بالقرض وهو الغنيُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

فالجواب: يقول هذا جَلَّ وَعَلَا؛ لِيُبينَ أَنَّ أَجْرَهُمْ مَضمُون، كما أَنَّ القرض مَضمُون، وسيردُّ عليه الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لكن كيف تكون الواحدة بعشرة وهي ربا في القرض، كيف يكون هذا؟  
الجواب:

أَوَّلًا: لا ربا بين العبد وبين ربِّه.

ثانيًا: القرض إذا أعطاك المُقْتَرِض شيئًا بدون شرط فهو حلال؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ استقرض بكرًا، والبكر يعني بعيرًا صغيرًا، وردَّ خيرًا منه وقال: «خَيْرُكُمْ، أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»<sup>(١)</sup>؛ ولهذا عبارة الفقهاء: (كُلُّ شَرَطٍ جَرَّ نَفْعًا لِلْمَقْرَضِ فَهُوَ رِبا)، ولم يقولوا كل زيادة.

﴿يُضَاعَفْ لَهُمْ﴾ هذا خبر (إنَّ) يعني إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفْ لَهُمْ، أي: يُعْطَوْنَ أَجْرَهُمْ مُضَاعَفًا، عشرة إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب الوكالة في قضاء الديون، رقم (٢٣٠٦)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئًا ف قضى خيرًا منه، رقم (١٦٠١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثواب كريم، والكريم هو الحسن الطيّب، وذلك أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأصل الكرم الحسن، ودليل ذلك قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما بعثه لليمن: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» يعني إذا أخذت الزكاة اجتنب كرائم الأموال، يعني أحاسنه، «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»<sup>(١)</sup>.




---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

## الآية (١٩)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشَّٰهَدَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ءَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾﴾  
[الحديد: ١٩].

• • • • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ءَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ وَالشَّٰهَدَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الإِيمان بالله يتضمَّن أربعة أشياء:

الأوَّل: الإِيمان بوجُوده.

الثَّاني: الإِيمان برُبوبيَّته.

الثَّالث: الإِيمان بألوهيَّته.

والرَّابع: الإِيمان بأسمائه وصِفاته.

والإِيمان بوجُود الله لا يُنكره إلَّا مُكابر في الواقع؛ لأنَّ كُلَّ إنسان يَعْرِف أنَّ هذا الكون المُستَقَرَّ المُنظَّم لا بُدَّ له من مُوجِدٍ ومُنظَّم، والمُوجِد والمُنظَّم هو الله عَزَّجَلَّ؛ لأنَّ كُلَّ إنسان يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يستطيع أحد من البشر أن يَتَصَرَّفَ بهذا الكون، مَنْ الَّذِي يَأْتِي بِاللَّيْلِ مع وُجود النَّهار؟ وَمَنْ الَّذِي يَأْتِي بِالنَّهار مع وُجود اللَّيْلِ؟

لا أحد يَقْدِر.

إذن: كلُّ إنسان عاقل فهو مؤمن بقلبه وإن أنكر بلسانه، مؤمن بوجود الله عزَّجَل، وجه ذلك أن هذه الخليقة العظيمة لا بُدَّ لها من مُدبِّر.

لو قال قائل: إنَّها جاءت هكذا صُدفة.

فنقول: إنَّ الشَّيء إذا جاء صُدفة لا يكون مُنظَّمًا.

ولو قال قائل: هي أُوْجِدَت نَفْسَها.

نقول: هذا أيضًا مُحال عقلاً، كيف تُوجد نَفْسَها وهي عَدَم، هذا لا يُمكن.

إذن: لا بُدَّ لها من مُوجد؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ٥٨ ﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩].

والجواب: بل أنت يا ربِّنا، نحن لا نقدر أن نخلق جنينًا في بطن أمِّه أبدًا، قال الله عزَّجَل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾ استمعوا يا أيُّها النَّاس، خطاب للنَّاس كلِّهم: الكافر والمؤمن.

ولهذا إذا قرأت الآية يجب أن تستمع ﴿إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ هذا الذُّباب المِهين لا يُمكن أن يَخْلُقوه ﴿وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ﴾، كلُّ المعبودات لا يُمكن أن تَخْلُق ذبَابًا وهو من أصغر الحيوان وأدَّهًا، زد على هذا ﴿وَلَنْ يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ﴾ يعني لو أن الذُّباب أخذ من هذه الأصنام شيئًا ما استطاعت أن تستنقذه منه.

قال أهل العلم: المعنى لو وقع الذُّباب على أحد هذه الأصنام وامتنصَّ من الطَّيب الَّذي فيها؛ لأنَّهم يُطَيَّبون أصنامهم، ما استطاعت الأصنام أن تستنقذه ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، فلا يُمكن لأحد أن يُنكر من صميم قلبه

وجود الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَبَدًا؛ لَأَنَّهُ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ أَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، وَلَا أَحَدٍ يُحْدِثُ هَذَا الْكَوْنَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ.

الثاني: الإيمان برُبوبِيَّتِهِ، أي أَنَّهُ وَحْدَهُ عَزَّجَلَّ الْخَالِقِ الْمَالِكِ الْمُدَبِّرِ لَجَمِيعِ الْأُمُورِ، فَلَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا مُدَبِّرَ لِلْكَوْنَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا مَالِكَ لِلْكَوْنَ إِلَّا اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى مُلْكُ الْإِنْسَانِ مَا فِي يَدِهِ لَيْسَ مُلْكًا حَقِيقِيًّا، وَالذَّلِيلُ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا فِي يَدِهِ كَمَا يَشَاءُ، لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أُحْرِقَهُ مُنِعْتُ شَرْعًا، وَحَرَامَ عَلَيَّ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ إِضَاعَةِ الْمَالِ <sup>(١)</sup>.

إذن: ملك الإنسان ما بيده ليس ملكًا حقيقيًّا، بل إِنَّهُ يُحْتَصَصُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ فَقَطْ. الثالث: الألوهية: هي أن تؤمن بَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أي: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّجَلَّ، وَعِبَادَةَ الْأَصْنَامِ غَيْرَ حَقٍّ، كَمَا قَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

إذن: الألوهية أن تؤمن بَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أي لَا مَعْبُودَ حَقًّا إِلَّا اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وَمَا عُدَّ مِنْ دُونِهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَعَلَيْهِ فَلَا تَصَرَّفُ الْعِبَادَةَ إِلَّا اللَّهُ.

الرابع: الإيمان بالأسماء والصفات: قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَصِفَاتِهِ كَذَلِكَ عَلِيًّا لَيْسَ فِيهَا صِفَةٌ نَقْصٍ، قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، أي الْوَصْفُ الْأَعْلَى، وَأَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرَةٌ لَا يُمَكِّنُ حَصَرُهَا مَهْمَا أَرَدَتْ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال، رقم (٢٤٠٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والدليل على ذلك حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ يُصِيبُهُ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ أَوْ حَزَنٌ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِي حُكْمِكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤِكَ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»<sup>(١)</sup>، فَجَعَلَ اللهُ الْأَسْمَاءَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، مَا أَنْزَلَهُ فِي كِتَابِهِ.

مثال الاسم الذي جاء في القرآن (الرَّحْمَن) أو عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ مثل (الرَّبِّ، الشَّافِي)، جاء في السُّنَّة، قال النَّبِيُّ ﷺ: «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»<sup>(٢)</sup>، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظُمُوا فِيهِ الرَّبُّ»<sup>(٣)</sup> فهذا مِمَّا عَلَّمَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ.

«أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ» هذا الْقِسْمُ الثَّلَاثُ مَا اسْتَأْثَرَ اللهُ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ، واستأثر بمعنى انفرد، وما انفرد الله بعلمه فلم يُنْزِلْهُ فِي الْكِتَابِ وَلَمْ يُعَلِّمْهُ أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ لَا يُمَكِّنُ الْإِحَاطَةَ بِهِ.

إذن: أَسْمَاءُ اللهِ لَا يُمَكِّنُ الْإِحَاطَةَ بِهَا وَلَا هِيَ مُحْصَوْرَةٌ بَعْدُ؛ لِأَنَّا لَا نَعْلَمُهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»<sup>(٤)</sup> فالمعنى

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٩١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٧)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك، رقم (٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وعلقه البخاري: كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم إلا واحدًا (٧٣٩٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



أَنَّ مِنَ الْأَسْمَاءِ تِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا مِّنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هَذَا الْمَعْنَى.

ومعنى (أحصاها) أي: عَرَفَهَا لَفْظًا، وَعَرَفَهَا مَعْنَى، وَتَعَبَّدَ اللَّهُ بِمَقْتَضَاهَا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ تَحْفَظَهَا فَقَطْ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ حِفْظِ اللَّفْظِ وَفَهْمِ الْمَعْنَى، وَالتَّعَبُّدُ لِلَّهِ بِهَا بِمَقْتَضَاهَا، فَمَثَلًا: إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ غَفُورٌ فَتَعَرَّضَ لِلْمَغْفِرَةِ، لَا تَقُلْ اللَّهُ غَفُورٌ، وَتَفْعَلِ الذَّنْبَ مَتَى شِئْتَ، بَلْ تَعَرَّضْ لِلْمَغْفِرَةِ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ تَجِدَ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ فَتَعَبَّدَ اللَّهَ بِمَقْتَضَى هَذَا وَتَخَافَ مِنْهُ وَتَحْذَرْ، وَهَلُمَّ جَرًّا.

أَمَّا الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ تَصَدِيقَهُمْ كُلَّهُمْ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ بِمَا أَخْبَرُوا بِهِ، إِذَا صَحَّ عَنْهُمْ، وَأَمَّا الْعَمَلُ بِشَرَائِعِهِمْ فَإِنَّا لَا يَلْزَمُنَا الْعَمَلُ إِلَّا بِشَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ كُلَّهَا نُسِخَتْ بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ - يَعْنِي أُمَّةَ الدَّعْوَةِ - يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

﴿أُولَئِكَ﴾، أي: الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ أي: الْبَالِغُونَ فِي الصَّدَقِ مَبْلَغًا كَبِيرًا؛ لِأَنَّ الصَّدِيقَ صِغَةً مَبَالِغَةٌ، وَالصَّدَقُ يَكُونُ بِالْقَصْدِ وَبِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ، فَأَمَّا الصَّدَقُ بِالْقَصْدِ فَإِنْ يَقْصِدُ الْإِنْسَانُ بَعَادَتَهُ وَجْهَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَقْصِدُ غَيْرَهُ، وَإِذَا قَصَدَ بَعَادَتَهُ شَيْئًا غَيْرَ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ وَلَا يُقْبَلُ عَمَلُهُ؛ لِقَوْلِهِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ﷺ في الحديث القدسي عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشَّرْكَاءِ عَنِ الشَّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»<sup>(١)</sup>.

الثاني: الصدق في القول بأن يكون الإنسان صادقاً فيما يُخبر به، وقد أثنى الله تعالى على الصادقين، وأمرنا أن نكون معهم، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وأثنى على المهاجرين الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وأمر النبي ﷺ بالصدق وحثَّ عليه، ورغب فيه، فقال: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»<sup>(٢)</sup>.

أما الصدق بالفعل فمُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ صَادِقًا فِيمَا يَدَّعِي مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ فَلْيَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﷺ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقد سَمَّى بعض السَّلف هذه الآية آيةَ المَحَنَةِ، يَعْنِي الامْتِحَانَ، فَمَنْ ادَّعَى حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قُلْنَا لَهُ: عَلَيْكَ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، فَإِنْ أَتْبَعَهُ فَهُوَ صَادِقٌ، وَإِنْ خَالَفَهُ فَلَيْسَ بِصَادِقٍ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الشهداء جمع شهيد، والمراد بهم من قُتِلُوا في سبيل الله، والقتال في سبيل الله: أن يُقاتِلَ الإنسان عدوَّ الله لتكون كلمة الله هي العليا، قال ذلك النَّبِيُّ ﷺ حين سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُقاتِلُ شجاعة، ويقَاتِلُ حميةً، ويقَاتِلُ ليرى مكانه: أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

فالشُّجاع يُحِبُّ الْقِتَالَ، كالصيَّاد يُحِبُّ أن يَصِيدَ، ويخْرُجُ وَيَتَجَشَّمُ المصائبَ لِيَصِيدَ الصيدَ، وإذا صادها صارت عنده أرخصَ من كلِّ شيءٍ، فهذا يُقاتِلُ شجاعة؛ لأنَّه شجاع يُحِبُّ أن يُقاتِلَ، ويقَاتِلُ حميةً يَعْنِي عصبيةً لقومه، ويقَاتِلُ ليرى مكانه، أي: رِياءَ كما جاء في اللَّفْظِ الْآخَرِ، «وَيُقَاتِلُ رِياءً» قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَمَنْ قَاتَلَ لِيَسْتَرِدَّ أرضه المَغْصُوبَةَ فهو من باب الحمية إِلَّا إذا قال: أريد أن أَسْتَرِدَّهَا لأَقِيمَ عليها شعائر الإسلام، فهذا في سبيل الله، أمَّا مَنْ قَاتَلَ؛ لأنَّ هذه أرضه ويريد أن تُرَدَّ إليه، فهذا حمية ليس له أَجْرُ الشُّهَدَاءِ إذا قُتِلَ، هؤلاء الشُّهَدَاءُ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٢]، أي: ثوابهم العظيم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

ولما ذَكَرَ سُبحانَهُ وتعالى أهل الإيمان وثوابهم ذَكَرَ أصحاب الشَّمالِ بعد ذلك قال:

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً، رقم (١٢٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ لَأَنَّ الْقُرْآنَ مِثْلَانِ، تُشْنَى فِيهِ الْأُمُورُ وَالْمَعَانِي.

ولهذا تجدد القرآن الكريم في الغالب إذا ذَكَرَ اللهُ الْجَنَّةَ ذَكَرَ النَّارَ، وإذا ذَكَرَ أولياء الله ذَكَرَ أعداء الله، والحكمة من ذلك أن لا يَمَلُّ الإنسان؛ لَأَنَّهُ كُلَّمَا تَنَقَّلَ المعنى إلى معنى آخر نشط الإنسان، وحكمة أخرى أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله، أي متعبَّدًا إلى الله بين الخوف والرجاء؛ لَأَنَّهُ إِذَا مَرَّتْ بِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ قَوِيَ جَانِبُ الرَّجَاءِ، وَإِذَا ذُكِرَتْ أَحْوَالُ الْكَافِرِينَ غَلَبَ جَانِبُ الْخَوْفِ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ عطف التَّكْذِيبِ عَلَى الْكُفْرِ وَهُوَ نَوْعٌ مِنْهُ؛ لَأَنَّهُ أَشَدُّ، فَالَّذِي يَكْفُرُ وَلَمْ يَكْذِبْ أَهْوَنُ مِنَ الَّذِي يَكْفُرُ وَيُكْذِبُ، فَعُطِفَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا عَلَى كَفَرُوا مِنْ بَابِ عِطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، كَعُطْفِ الرُّوحِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَهُوَ مِنْهُمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، وَالرُّوحُ جَبْرِيلُ وَهُوَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: ﴿الْجَحِيمِ﴾ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّارِ، وَأَصْحَابُهَا يَعْنِي الْمَلَازِمِينَ لَهَا؛ وَلِهَذَا إِذَا مَرَّتْ آيَةٌ فِيهَا (أَصْحَاب) فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ مَلَازِمُونَ لَهَا مَخْلَدُونَ فِيهَا، نَسَأَلَ اللهُ الْعَافِيَةَ.

وفي هذه الآيات التَّغْيِيبُ بِالْأَوْصَافِ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَى الْجَنَّاتِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَذْكُرْ لَنَا هَذِهِ الْأُمُورَ لِتَنْطَلِعَ عَلَيْهَا فَقَطْ، وَلَكِنْ لِنَسْعَى لَهَا، وَفِيهَا التَّحْذِيرُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ؛ لِئَلَّا يَقَعَ الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْعِقَابِ الْأَلِيمِ.



## الآية (٢٠)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلْ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْفُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

• • •

لما ذكر الله أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين وهم في الدنيا، كل يعمل على شاكلته، بين حقيقة الدنيا ما هي، وأمرنا أن نعلم من أجل أن يجتهد الإنسان في التأمل والتفكير، فالأمر بالعلم بشيء واقع يعني أن المطلوب أن تتأمل كثيرا حتى يتبين لك الأمر، ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ وهي حياتنا هذه ﴿لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ﴾، خمسة أشياء: اللعب بالجوارح، بأن يعمل الإنسان أعمالاً تصده عن ذكر الله وعن الصلاة، وأما اللهو بالقلوب فهو الغفلة، وهذا أشد وأعظم، وغفلة القلب -أعاذنا الله منها وأحيا قلوبنا- الغفلة عظيمة تفقدك جميع لذات الطاعة، وتحرم من جميع آثارها؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨] لم يقل: لا تطيع من أسكتنا لسانه، بل قال: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾، وما أكثر ذكرنا باللسان مع غفلة الجنان، وهذا لا شك أنه ينقص الثواب، وينقص الآثار المترتبة على الذكر من صلاح القلب، والاتجاه إلى الله، والإنابة إليه وغير ذلك.

﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: زينة بالملابس، وزينة بالمراكب، وزينة بالمساكن، وزينة في كل شيء، ولذلك نجد الإنسان ولو كان فقيراً يُحِبُّ أن يُزَيَّنَ بيته، وكذلك سيارته عند الزواج إذا أراد الزواج يركب سيارة يجعلون عليها عقوداً من الأزهار وغيرها من الزينة ﴿وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: كل واحد يفخر على الثاني، إمّا بالقبيلة، أو بالعلم، فهذا يكون عنده علم بالطب، وهذا لا يعرف، وهذا علمه بالهندسة وهذا لا يعرف، فيفخر عليه.

وأقبح من ذلك التفاخر بالعلم الشرعي؛ لأن العلم الشرعي يجب على الإنسان إذا اكتسبه ومن الله عليه به أن يزداد تواضعاً، وأن يعرف نفسه وقدر نفسه. ومن ذلك ما يحصل بين الشعراء في بعض الأحيان من التناول على الآخرين ومن التفاخر كما يوجد في بعض الأفراح وبعض المناسبات مما نسمع.

﴿وَتَكَاثُرُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي يُحِبُّ أن يكون أكثر أموالاً وأكثر أولاداً، وهذا كقوله سبحانه وتعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤] هذه حقيقة الدنيا، ومع هذا اللهو واللعب والتفاخر والزينة لا تبقى، فلا بُدَّ أن تزول، وإذا طال الزمان عاد الإنسان إلى الهرم، وفي هذا يقول الشاعر<sup>(١)</sup>:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنْغَصَّةٌ      لَذَائِهِ بِادِّكَارِ الْمَوْتِ وَالْهَرَمِ

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (٤٢٨/١).

كُلُّ إِنْسَانٍ إِذَا فُكِّرَ فِي عَيْشِهِ وَأَنَّهُ فِي نَعِيمٍ يَقُولُ: مَا بَعْدَ ذَلِكَ؟! مَا الَّذِي بَعْدَهُ،  
 إِمَّا مَوْتَ أَوْ هَرَمَ، إِمَّا أَنْ تَمُوتَ وَتَنْتَهِيَ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ تَهْرَمَ، وَتَكُونَ عَالَةً عَلَى  
 ابْنِكَ وَبِنتِكَ حَتَّى أَهْلَكَ يَمْلُوكَ؛ وَهَذَا أَشَارَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ فَقَالَ: ﴿إِمَّا  
 يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ لِأَنَّهُمَا إِذَا  
 بَلَغَا الْكِبَرَ اخْتَلَّتْ تَفْكِيرُهُمَا وَصَارَا يَتَعَبَّانَ، فَأَنْتَ إِمَّا أَنْ تَمُوتَ وَأَلَّا تَصِلَ إِلَى حَالِ  
 الْهَرَمِ، هَذَا إِنْ بَقِيَ لَكَ الدُّنْيَا، وَأَلَّا فَقَدْ تُسَلِّبُ إِيَّاهَا قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى الْهَرَمِ وَقَبْلَ  
 أَنْ تَمُوتَ، فَنَأْخُذْ مِنْ هَذَا الْحَذَرِ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ أَطْغَتْهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا  
 فَهَلَكَ، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ إِذَا أُغْنِيَتْهُ أَفْسَدَهُ الْغِنَى» بَلْ قَدْ  
 قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُفْتَحَ الدُّنْيَا  
 فَتَنَافَسُوا فِيهَا كَمَا تَنَافَسَ فِيهَا مَنْ قَبْلَكُمْ فَتَهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وَصَدَقَ الرَّسُولُ ﷺ، فَأَكْثَرُ الْفَسَقَةِ، وَأَكْثَرُ الْكُفْرَةِ مِنَ الْمَلَأَ وَالْأَشْرَافَ، وَاقْرَؤُوا  
 الْقُرْآنَ، مَنْ يَكْذِبُ الرُّسُلَ؟ هُمُ الْمَلَأُ وَالْأَشْرَافَ، وَاعْتَبَرُوا بِالْوَاقِعِ الْآنَ، أَكْثَرُ مَنْ  
 يُفْسِدُ الدُّنْيَا هُمُ الْأَثْرِيَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ، الَّذِينَ فُتِحَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، فَلْيَحْذَرُوا الْعَاقِلُ  
 اللَّبِيبُ، وَلْيَقْتَصِرْ مِنْهَا عَلَى مَا يَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ.

ثُمَّ ضَرَبَ اللَّهُ لَهَا مَثَلًا؛ لِأَنَّ الْأَمْثَالَ تُقَرِّبُ الْمَعَانِي، إِذْ إِنَّ الْمَثَلَ يَعْنِي قِيَاسَ  
 الْمَعْنَى عَلَى الْمَحْسُوسِ ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ أَي: مَطَرٌ تَنْبُتُ بِهِ الْأَرْضُ وَتَزُولُ بِهِ الشَّدَّةُ،  
 ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ﴾ أَي: النَّبَاتُ النَّاشِئُ عَنْهُ، وَأَعْجَبَهُمْ: أَي: اسْتَحْسَنُوهُ،  
 وَالْكُفَّارُ هُمُ الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ تُعْجِبُهُ الدُّنْيَا وَيَفْرَحُ بِهَا وَيُسَرُّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ مَا يَحْذَرُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا، رَقْمُ (٦٤٢٥)،  
 وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الزَّهْدِ وَالرِّقَاقِ، رَقْمُ (٢٩٦١)، مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بها، وقلبه مُتعلّق بها ليس له هَمٌّ إِلَّا ما يراه من زِينَتِها ولهوها، فهو قد أعجب الكفَّار بالله.

وخصَّ الكفَّار؛ لأنَّ الكفَّار هم الَّذِينَ يَسْتَحْسِنُونَ الدُّنْيَا وَيُعْجَبُونَ بِهَا وَتَتعلّق قلوبهم بها، أمّا المؤمنون فهم على العكس لا يُهمُّهم إِلَّا ما فيه مصلحة الآخرة، وقيل: إنّ المراد بالكفَّار هنا الزُّرَّاع، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأنَّ إطلاق الكفَّار على الزُّرَّاع نادر جدًّا، هذا إنَّ صحَّ، والَّذين يقولون: إنّ المراد بهم الزُّرَّاع يقولون: لأنَّ الزَّارع يكفر الحبَّ، أي: يَسْتُرُه في الأرض، ولكن ما قرَّره أوَّلًا هو الصَّواب: أن المراد بالكفَّار، هم الكفَّار بالله، يُعْجِبُ الكفَّار نباته ثمَّ بعدما يَظْهَر ويُعْجِب الكفَّار وَيَسْتَحْسِنُونَهُ وَيَتَعْجَبُونَ مِنْهُ ﴿يَهِيْجُ﴾ أي: يَيْبَس وَيَجِفُّ.

﴿فَرَلَهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد أن كان أخضر ناميًا يكون مُصْفَرًّا دائماً، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ يعني: يَتَحَطَّم وَيَتَكَسَّر؛ لأنَّه ييس، فماذا كانت النَّتِيجة لهذا الزَّرْع؟ التَّلَف، والزَّوال، هذه حال الدُّنيا، تزهو للإنسان بنعيمها وقصورها ومراكبها وأموالها وأولادها وغير ذلك، وإذا بها تَتَحَطَّم، كم من غني كان مَسْرورًا في أهله، مُنعمًا في بيته وفي مركوبه وفي ثيابه، وفي كلِّ أحواله، وإذا به يعود فقيرًا، فتتَحَطَّم دُنياه، فإن لم تُكُنْ، مات وتَحَطَّمت دُنياه بفراق هذه الدُّنيا، فلا بُدَّ من أحد أمرين: فإمّا أن تُفَارِقَكَ الدُّنيا، وإمّا أن تُفَارِقَها، هذه حال الدُّنيا.

وهذا أمر لا يُشَكُّ فيه في الواقع، لكنَّ النُّفوسَ معها غفلة يسهو بها الإنسان عن مثل هذا الأمر الواقع، فيظن أنَّ كلَّ شيء على ما يُرام، وَيَسْتَبْعِدُ زوال الدُّنيا، أو زواله هو عن الدُّنيا، أمّا الآخرة فاستمع إليها.

قال عَزَّجَلَّ: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكافرين، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾



للمؤمنين، فأياها أحق أن يؤثر الإنسان؟ الدنيا التي مآلها الفناء والزوال، أو الآخرة؟!  
يؤثر الآخرة هذا العقل؛ لأنك إن أثرت الدنيا ففي الآخرة عذاب شديد، وإن  
أثرت الآخرة ففيها معفرة من الله ورضوان، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ للذنوب ﴿وَرِضْوَانٌ﴾  
بالحسنات.

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعَ الْفُورِ﴾ هذه الجملة فيها حصر طريقة النَّفْيِ  
والإثبات، وهو أعلى طرق الحصر، ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعَ الْفُورِ﴾، يَغْتَرِّبُهَا  
الإنسان، فيلهو ويلعب ويفرح ويبطّر ثم تزول، كلُّ هذه الجمل وهذه الأوصاف  
يُريد الله عَزَّجَلَّ وهو أعلم أن يزهد الإنسان في الدنيا ويُرَغِّبُهُ في الآخرة، وَمَنْ زَهَدَ  
بالدُّنْيَا وَرَغِبَ فِي الْآخِرَةِ لَمْ يَفُتْهُ شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ وَإِنْ افْتَقَرَ، فَإِنَّهُ لَا يَفُوتُهُ  
نَعِيمُ الدُّنْيَا.

ودليل هذا من القرآن والسُّنَّة: قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ  
أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾، لم يقل لنكثرون ماله وأولاده وقصوره  
﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ مُطْمَئِنَّةٌ مُّسْتَرِيحٌ الْبَالُ فِيهَا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ  
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وبَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ ذلك في قوله: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ  
ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ  
شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»<sup>(١)</sup>.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩)، من حديث  
صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (٢١)

• • ❦ • •

❦ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿[الحديد: ٢١].

• • ❦ • •

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أمر بالمُسَابَقَةِ، وقد جاء الأمر في آية أخرى بالمُسَارَعَةِ فيَجْمَعُ الإنسان بين المُسَابَقَةِ وهي شِدَّةُ الْعَدُوِّ في حال السَّيْرِ، وبين المُسَارَعَةِ يَعْنِي المُبَادَرَةَ إلى فعل الخير ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وذلك بفعل أسباب المغفرة، ومن أسباب المغفرة أن تسأل الله المغفرة، تقول: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أو تقول: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ.

ومن أسباب المغفرة فعل ما تكون به المغفرة كقول النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(١)</sup>، وكقول النَّبِيِّ ﷺ: «فَمَنْ تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ بَيْنَهُمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ اللَّهُ بِهِمَا مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»<sup>(٢)</sup>،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتساباً من الإيمان، رقم (٣٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في قيام رمضان، رقم (٧٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب المضمضة في الوضوء، رقم (١٦٤)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم (٢٢٦)، من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِثْلَ مَرَّةٍ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»<sup>(١)</sup> والأمثلة على هذا كثيرة.

﴿وَجَنَّةٍ﴾ هي دار النعيم التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أُذُن سَمِعَتْ، ولا خطر على قلب بشر، فيها فاكهة ونخل ورمان، وعسل ولبن وغير ذلك، لكن لا تظنَّ أنَّ ما فيها يُشابه ما في الدنيا؛ لأنَّ الله يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وليس في الجنة ممَّا في الدنيا إلاَّ الأسماء فقط، اسم رُمان لكن يختلف عن رمان الدنيا، فاكهة تختلف عن فاكهة الدنيا، فرش تختلف عن فرش الدنيا، وهلمَّ جراً.

وفي الحديث القدسي: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»<sup>(٢)</sup>.

﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ولا مُنافاة لأنَّ الأوَّل: عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ تشبيه، والثاني: عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أيضاً تشبيه، لكن يُسمِّيهِ أهل البلاغة تشبيهاً بليغاً ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ومَنْ يستطيع أن يُقدِّر عَرْضَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ لا أحد يستطيع، السَّمَوَاتُ بِسَعَتِهَا، السَّمَاءُ الدُّنْيَا واسعة جداً، كم بينها وبين الأرض

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾، رقم (٧٤٩٨)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من مسافة وهي محيطة بها، والسماء الثانية فوقها وهي أوسع منها، والثالثة أوسع وهلمَّ جرَّاء، إلى أن تصل إلى الكرسي.

والكرسي يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةِ أُلْقَيْتَ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»<sup>(١)</sup> حَلْقَةُ الْمِغْفَرِ صَغِيرَةٌ، أَلْقَاهَا فِي فَلَاةٍ فِي الْأَرْضِ مَاذَا تَكُونُ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَلَاةِ؟ لَا شَيْءٌ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الْحَلْقَةِ» فَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نُدْرِكَ عَرْضَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْجَنَّةِ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَقْلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنَزَلَةً مَنْ يَنْظُرُ إِلَى مُلْكِهِ مَسَافَةً أَلْفِي سَنَةٍ<sup>(٢)</sup>.

وإنما ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ عَرْضَهَا عَرْضَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَحْرِصَ عَلَى مَلَأِ هَذِهِ الْأَرْضِ أَرْضَ الْجَنَّةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَقْرَأُ أَمْتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ قِيَعَانُ، وَإِنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»<sup>(٣)</sup>.

فاحْرِصْ يَا أَخِي عَلَى أَنْ تَمْلَأَ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ هَذِهِ الْجَنَّةِ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ عَرْجَلًا﴾، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٨٩]، وَمَعْنَى الْإِعْدَادِ التَّهْيِئَةُ لِلشَّيْءِ.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (١٨١/٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٦/١)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٣/٢)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، رقم (٢٥٥٣)، وفي كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة القيامة، رقم (٣٣٣٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، رقم (٣٤٦٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ءَامَنُوا بِاللَّهِ، وبكلِّ ما أَوْجَبَ اللهُ الإِيْمَانُ بِهِ، من الإِيْمَانِ بِاللَّهِ، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وقوله: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يَشْمَلُ جميع الرُّسُلِ الَّذِينَ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنَّ إِيْمَانَنَا بِالرُّسُلِ يَخْتَلِفُ عَنْ إِيْمَانِنَا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإِيْمَانُنَا بِالرُّسُلِ بِأَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ مُبْلَغُونَ عَنْ اللهِ، وَنُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا صَحَّ مِنْ أَخْبَارِهِمْ.

أَمَّا اتِّبَاعُهُمْ فَلَا اتِّبَاعَ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَهَمَّ يَشْتَرِكُونَ مَعَ الرَّسُولِ بِأَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ، وَأَنْ كُلِّ مَا أَخْبَرُوا بِهِ صِدْقٌ، وَأَنْ كُلِّ مَا جَاءُوا بِهِ فَهُوَ عَدْلٌ وَمُنَاسِبٌ لِأَحْوَالِ أُمَمِهِمْ فِي وَقْتِهِمْ، أَمَّا الْإِتِّبَاعُ فَلَا نَتَّبِعُ إِلَّا وَاحِدًا مِنْهُمْ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وقوله: ﴿ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرُسُلِ اللهِ، وَالذَّلِيلُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالكَافِرُ بِرَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ كَافِرٌ بِالْجَمِيعِ، كَيْفَ وَقَدْ جَاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِنَسَخِ جَمِيعِ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيًّا مُرْسِلًا﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ نُوحًا أَحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَذَبَ رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ فَقَدْ كَذَبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَذَبَ مُحَمَّدًا ﷺ الَّذِي نَسَخَتْ شَرِيعَتُهُ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ، وَالَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أَخَذَ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ كُلِّهِمْ. ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ ءِصْرِي قَالُوا اقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: ٨١]، وَهَذَا الرَّسُولُ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، الرُّسُلُ كُلُّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالرَّسُولِ ﷺ؛ وَلِهَذَا فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ كَانَ مُحَمَّدٌ

ﷺ إمامهم في صلاتهم، فاليهود والنصارى ليسوا من أهل الجنة بعد بعثة الرسول ﷺ؛ لأنهم لم يؤمنوا برُسُلِهِ؛ لأنهم كفروا بمُحمَّد، بل هم كفروا برُسُلِهِم أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبِيَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولأنَّ عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَشَّرَهُمْ بِمُحَمَّدٍ، قال الله عَزَّجَلَّ فِي سُورَةِ الصَّفِّ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِيْ اِسْرَءِيلَ اِنِّىْ رَسُوْلُ اللهِ اِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُوْلِيْ اَتَى مِنْ بَعْدِي آتَمُهُمْ اَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦]، فلما جاءهم هذا الرسول الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى، قالوا: هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ، وكفروا به، فهم كفروا بعيسى وردُّوا بِشَارَتِهِ وأنكروها، ولا يجوز لنا أبدًا أن نقول أو نعتقد أن أديان اليهود والنصارى اليوم أديانٌ صحيحة أبدًا، بل هي أديان باطلة، غير مقبولة عند الله، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ما أعدَّ الله لهؤلاء المؤمنين بالله ورُسُلِهِ فضل الله في أنَّهم آمنوا بالله وآمنوا برُسُلِهِ واتبَعُوا الرُّسُولَ ﷺ أثبَتُوا بهذه الجَنَاتِ.

﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ المشيئة هنا مُقْتَرَنَةٌ بِالْحِكْمَةِ، يَعْنِي مَنْ كَانَ أَهْلًا لِلْفَضْلِ آتَاهُ اللهُ الْفَضْلَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهُ لَمْ يُؤْتِهِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فَلَنْ يَجْعَلَ رِسَالَتَهُ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا، وَقَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥]، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْتُ أَنَّنَا يَهْدِي اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فَلَا تَظَنَّ أَنَّ اللهَ يُعْطِي الْفَضْلَ لِمَنْ شَاءَ بَدُونِ سَبَبٍ، لَا بُدَّ مِنْ سَبَبٍ، فَمَتَى عَلِمَ اللهُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ خَيْرًا آتَاهُ الْخَيْرَ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي آيَاتِكُمْ مِنَ الْآسَرَةِ إِنْ يَسْلِمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]، فَاصْلِحْ قَلْبَكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تَجِدِ الْخَيْرَ كُلَّهُ.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، أي: صاحب الفضل العظيم عَزَّوَجَلَّ، فلا أحد أعظم مِنَّةً من الله تعالى، أوجَدَكَ من العَدَم، وأَعَدَّكَ وأَمَدَّكَ بالنَّعم، يَسِّرُ لك الهُدَى، فلا أحد أعظم مِنَّةً من الله؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وَلَمَّا جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْصَارَ فِي غَزْوَةِ حُنينٍ حين قَسَمَ الْغَنَائِمَ بَيْنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ كان يُقَرِّرُ عَلَيْهِمْ قال لهم: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي» قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ. قال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَ اللَّهُ قُلُوبَكُمْ بِي»؟<sup>(١)</sup> قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ. كلِّمًا قال قولًا قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ، يَعْنِي أَعْظَمُ مِنَّةً.

فالحاصل: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَلَكِنْ يُؤْتِي فَضْلَهُ مَنْ هُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ أَنْ تَهْدِيَ قُلُوبَنَا وَتُصَلِّحَ أَعْمَالَنَا، وَتَخْتِمَ لَنَا بِخَيْرٍ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦١)، من حديث عبدالله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٢٢)

• • • • •

﴿قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

• • • • •

يَعْنِي جَمِيعَ الْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُ الْإِنْسَانَ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي نَفْسِهِ قَدْ كُتِبَتْ مِنْ قَبْلِ. وَالْمُصِيبَةُ فِي الْأَرْضِ كَالْجَدْبِ، وَقَلَّةُ الْأَمْطَارِ، وَغُورُ الْمِيَاهِ وَصُعُوبَةُ مَنَاهَا، وَرُبَّمَا يُقَالُ أَيْضًا الْفِتْنِ وَالْحُرُوبُ وَغَيْرَهَا.

﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي: فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ذَاتِهِ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ فَقْدِ حَبِيبٍ، أَوْ فَقْدِ مَالٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُّهَا ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، هَذَا الْكِتَابُ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، كَتَبَ اللَّهُ فِيهِ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ، لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَلَمُ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّي وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكُتِبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup>.

سُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَعْظَمَ هَذَا اللَّوْحَ الَّذِي يَسَعُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ هَذَا بَغَرِيبٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

(١) أخرجه أحمد (٣١٧/٥)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: كتاب القدر، رقم (٢١٥٥)، من حديث عباد بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



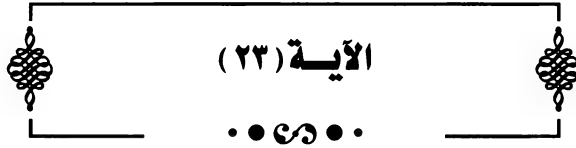
ولقد كان الإنسان يتعجب من قبل ولكن لا يستبعد أن يُكتب في هذا اللوح مقادير كل شيء، فقد ظهر الآن من صنْع آدمي قطعة صغيرة يُسجَّل فيها آلاف الكلمات وهي عبارة عن لوحة صغيرة كالقُرْص تُسجَّل فيها آلاف الكلمات، وقد يُسجَّل فيها جميع كُتُب الحديث المؤلَّفة، أو جميع التَّفاسير، أو جميع كُتُب الفقهاء وهي من صنْع آدمي، فكيف بِصُنْع مَنْ يقول للشيء كُن فيكون، ولمَّا قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، كُتِبَ ما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمصائب التي تُصيب النَّاس هي في أمر سابق؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾.

وقوله: ﴿نَّبْرَأَهَا﴾ قِيلَ: إنَّها تعود على المصيبة، وقِيلَ: على الأرض، وقِيلَ: على النَّفس، وقِيلَ: على الجميع، والصَّحيح أنَّها على الجميع، أي من قبل أن نَبْرَأ كُلَّ هذه الأشياء، أي: أن نخلُقها، وذلك لأنَّ الله كُتِبَ مقادير كل شيء قبل أن يخلُق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني إنَّ كتابة هذه المصائب يَسِيرُ على الله عَزَّجَلْ؛ لأنَّه قال للقلم اكتب فكَتَبَ وهذا يسير، كلمة واحدة حَصَلَ بها كل شيء ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، كل شيء فهو يسير على الله؛ لأنَّ الأمر كلمة واحدة كُن فيكون، أَرَأَيْتُمُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُ بكلمة واحدة، قال الله عَزَّجَلْ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال عَزَّجَلْ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣]، أي: على وجه الأرض خَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ، هذا يسير، ولمَّا قال زكريَّا لله عَزَّجَلْ حِينَ بَشَّرَهُ بِالْوَلَدِ قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]، يعني من الْكِبَرِ ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]، قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ

رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ [مريم: ٩]، فالله سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيء، ولا يستعصي عليه شيء، ولا يتأخر عن أمره الكوني شيء.





﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣].



﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: أخبرناكم بأنَّ كلَّ مُصِيبَةٍ تَقَعُ فِيهِ فِي كِتَابٍ، ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ اللَّامُ لِلتَّلْعِيلِ، وَكَيْ بِمَعْنَى أَنْ، أَي: لَأَنْ لَا تَأْسَوْا، وَمَعْنَى تَأْسَوْا تَنْدَمُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أَي: لَا تَفْرَحُوا فَرَحَ بَطَرٍ وَاسْتِغْنَاءٍ عَنِ اللَّهِ بِمَا آتَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّيْءَ مَكْتُوبٌ مِنْ قَبْلِ فَلَا تَنْدَمُ عَلَىٰ مَا فَاتَ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ، وَالْمَكْتُوبُ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ، وَلَا تَفْرَحَ فَرَحَ بَطَرٍ وَاسْتِغْنَاءٍ إِذَا آتَاكَ اللَّهُ الْفَضْلَ؛ لِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ مِنْ قَبْلِ، فَكُنْ مُتَوَسِّطًا لَا تَنْدَمُ عَلَىٰ مَا مَضَىٰ، وَلَا تَفْرَحَ فَرَحَ بَطَرٍ وَاسْتِغْنَاءٍ بِمَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ». الْقَوِيُّ فِي إِيمَانِهِ وَلَيْسَ الْقَوِيُّ فِي بَدَنِهِ، وَأَصْحَابُ الرِّيَاضَةِ يَجْعَلُونَ هَذَا عِنَايَةً: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» وَيَقُولُ: الْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِ الْقَوِيِّ فِي بَدَنِهِ، وَهَذَا غَلَطٌ، (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ) هُنَا وَصْفٌ يَعُودُ إِلَى مَا سَبَقَهُ وَهُوَ الْإِيمَانُ، «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، وَهَذَا يُسَمِّيهِ الْبَلَاغِيُّونَ الْإِحْتِرَاسَ، بِمَعْنَى أَنَّهُ قَدْ يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ الضَّعِيفَ

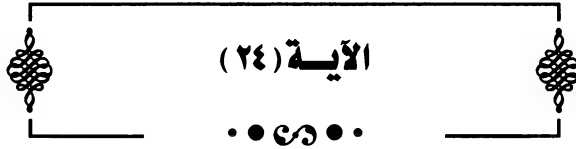
لا خَيْرَ فِيهِ، قَالَ: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ» ثُمَّ قَالَ: «اخْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفْتَحْ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»<sup>(١)</sup>.

والإنسان إذا عَلِمَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُقَدَّرٌ وَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ رِضِي بِمَا وَقَعَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ رَفْعَ مَا وَقَعَ أَبَدًا؛ وَلِهَذَا يُقَالُ: دَوَامُ الْحَالِ مِنَ الْمُحَالِ، وَتَغْيِيرُ الْحَالِ - بِمَعْنَى رَفْعِ الشَّيْءِ بَعْدَ وَقُوعِهِ - مِنَ الْمُحَالِ.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، مُخْتَالٌ فِي فِعْلِهِ، فَخُورٌ فِي قَوْلِهِ، وَمِنْ الْإِخْتِيَالِ فِي الْفِعْلِ أَنْ يُجَرَّ ثَوْبُهُ، أَوْ مَشْلُوحُهُ، أَوْ عِبَاءَتُهُ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْخِيَلَاءِ، حَتَّى وَإِنْ لَبَسَ ثَوْبًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَازِلًا لَكِنَّهُ يُعَدُّ خِيَلَاءً فَهُوَ خِيَلَاءٌ، الْفَخُورُ هُوَ الْمُعْجَبُ بِنَفْسِهِ الَّذِي يَقُولُ: فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ وَفَعَلْتُ، يَفْخَرُ بِهِ عَلَى النَّاسِ؛ لِأَنَّكَ مَا دُمْتَ فَاعِلًا الشَّيْءِ تُرِيدُ ثَوَابَ اللَّهِ فَلَا حَاجَةَ أَنْ تَفْخَرَ بِهِ عَلَى النَّاسِ، بَلْ اشْكُرْ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَحَدِّثْ بِهِ عَلَى أَنَّهُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ.



(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

• • •

ثم ذكر الله تعالى أوصافهم فيما بعد فقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ أي: يَمْنَعُونَ ما يجب عليهم بذله من مال، أو جاه، أو علم.

مثال الأول: الذي يَبْخُلُ بِالزَّكَاةِ وهي أعظم وأوجب ما يُنْفَقُ، والإنفاق على من نَجِبَ نَفَقَتُهُ من الأقارب والزَّوجَات.

ومثال الثاني: أن يجد الإنسان شخصاً مسلماً واقعاً في مظلمة يَتَطَلَّبُ المقام أن يَشْفَعَ فيها، ليرْفَعَ عنه هذا الظُّلْمَ ولكنه يَبْخُلُ، فهذا بخل بجاهٍ.

ومثال الثالث: أن يَبْخُلَ بتعليم الناس ممَّا علَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأن يَبْخُلَ بالجواب والفتوى إذا اسْتَفْتِيَ عن مسألة دينية وتعيَّن عليه أن يُفْتِيَ فيها، وفي حديث عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْبَخِيلُ مَنْ إِذَا ذُكِرَتْ عِنْدَهُ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»<sup>(١)</sup> اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عليه، وهذا نوع من البُخْلِ؛ لَأنَّهُ بَخِلَ بما يجب عليه، إذ إنَّ القول الرَّاجِحَ أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ وَجِبَ عَلَى مَنْ سَمِعَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عليه، بدليل الحديث

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٠١/١)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٤٦)، من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الَّذِي فِي السُّنَنِ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ. قُلْ: آمِينَ. فَقَالَ: آمِينَ»<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: يقولون للرجل: لا تنقص من مالك، لا تتعب نفسك في الشفاعة لفلان، لا تتعب نفسك في تعليم العلم، فهؤلاء أمروا بالبخل فصاروا -والعياذ بالله- فاسدين مُفسدين، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرض عن طاعة الله.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ ليس بحاجة إليه، فهو عز وجل غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو الحميد، أي: المحمود على غناه؛ لأنه ليس كل غني يكون محموداً، فالغني البخل غير محمود، لكن الله عز وجل غني حميد يُحمد على غناه؛ لأن الله سبحانه وتعالى واسع العطاء، كثير العطاء، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان الذي يتولى عن طاعة الله إنما يضر نفسه، ولا يضر الله شيئاً، فإن الله غني، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَأَخَرَكُمُ وَإِنْسَكُمُ وَجَنَّكُمُ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً»<sup>(٢)</sup>.



(١) أخرجه البزار في مسنده (١٩٢/١٠ رقم ٤٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه قوله: «قُلْ: آمِينَ». وأخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٥٩٢٢)، وابن حبان في صحيحه رقم (٩٠٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين».

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## الآية (٢٥)

• • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

• • •

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ هذه جملة مؤكدة باللام وقد والقسم المقدّر، والتقدير: والله لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيّنات.

ولعل قائلًا يقول: كَيْفَ يَقْسِمُ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؟ وكيف يُؤكّد الله خبره بالقسم وهو الصّادق بدون ذلك؟

والجواب أن يُقال: القرآن الكريم نَزَلَ بلسان عربيٍّ مُبين، واللّسان العربيُّ المبين يُؤكّد الأشياء الهامّة، أو الأشياء المنكّرة بأنواع المؤكّدات حتّى يطمئنّ المُخاطَب ولا يَرْتَاب المُرتاب، وهذا يُذكر في القرآن كثيرًا، والتّوكيد هنا ليس مُنصبًّا على إرسال الرُّسل؛ لأنّ إرسال الرُّسل معلوم ﴿وَلِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، لكنّه مُنصبّ على قوله بالبيّنات أي أنّ الرُّسل جاؤوا بالبيّنات، والبيّنات صفة لموصوف محذوف، والتّقدير بالآيات البيّنات أي العلامات البيّنة الدّالة على صدق رسالتهم وصحّتها، فإنّ الله تعالى ما بعث نبيًّا إلّا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشّر، وهذا من الحكمة والرّحمة.

أَمَا كُونُهُ مِنَ الْحِكْمَةِ؛ فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ وَيَقُولُ لِلنَّاسِ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بِدُونِ آيَةٍ، بِدُونِ بَيِّنَةٍ، وَلَوْ كَلَفَ النَّاسُ بِالْإِيمَانِ بِرَسُولِ اللَّهِ بِدُونِ بَيِّنَةٍ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ أَيْدَ الرَّسُولِ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الظَّاهِرَةِ.

قال العلماء: والله تعالى من حكمته ورحمته جعل لكل نبيٍّ من الآيات ما يُثَبِّتُ به رسالتهم، مثال ذلك أَرْسَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَعْطَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، مِنْهَا الْعَصَا الْعَجَبِيَّةُ، عَصَا عَادِيَّةٌ فِيهَا آيَاتٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، مِنْهَا أَنَّهُ لَمَّا اجْتَمَعَ السَّحَرَةُ الْفُجَّارُ بِأَمْرِ فِرْعَوْنَ وَمُسَانَدَتِهِ وَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ، وَصَارَتْ هَذِهِ الْجِبَالُ وَالْعِصِيُّ كَأَنَّهَا حَيَّاتٌ وَنُعَابِينَ أَرْهَبَتِ النَّاسَ حَتَّى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً؛ لِأَنَّهَا فَوْقَ مَا يَتَصَوَّرُ، سَحَرَةٌ مَهْرَةٌ أَتَوْا بِكُلِّ قَوْتِهِمْ وَأَلْقَوْا فَمَلَّوْا الْأَرْضَ حِبَالًا وَعِصِيًّا، فَجُعِلَتْ هَذِهِ الْجِبَالُ وَالْعِصِيُّ كَأَنَّهَا حَيَّاتٌ وَنُعَابِينَ، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ يُلْقِيَ الْعَصَا، فَانْقَلَبَتْ هَذِهِ الْعَصَا حَيَّةً، وَجَعَلَتْ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. كُلُّ الْجِبَالِ الَّتِي جَاءُوا بِهَا أَكَلَتْهَا هَذِهِ الْحَيَّةُ، فَهَذِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ، كَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ الْحَيَّةُ تَأْكُلُ كُلَّ هَذِهِ الْجِبَالِ وَالْعِصِيِّ، أَيْنَ تَذْهَبُ؟ لَكِنَّهَا -وَاللَّهُ أَعْلَمُ- بِمُجَرَّدِ مَا تَأْكُلُهَا تَكُونُ كَالْبُخَارِ، وَإِلَّا فَبَطْنُ هَذِهِ الْحَيَّةِ لَا يَسَعُهَا، لَكِنْ هَذِهِ آيَةٌ، وَنَحْنُ نَتَصَوَّرُ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ خَبْرًا، وَلَكِنْ لَوْ رَأَيْنَاهَا نَظَرًا كَانَ الْأَمْرُ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ.

فَنَحْنُ الْآنَ لَا نَتَصَوَّرُهَا إِلَّا فِي الْخَبَرِ وَفِي الذَّهْنِ فَقَطْ، وَلَكِنْ لَوْ شَاهَدْتَ عَرَفْتَ أَنَّ الْآيَةَ عَظِيمَةٌ.



والآية الثانية في هذه العصا أن موسى استسقاها قومه وطلبوا منه الماء فضرب حَجَرًا من الحِجَارَةِ فتفجَّرَ عيونًا، اثنتا عشرة عينًا؛ لأنَّ بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة قبيلة.

والآية الثالثة: أن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما أدركه فرعون وحشَّره إلى البحر أَيْقَنَ أصحاب موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُمْ هَالِكُونَ، وقالوا: إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، ليس لنا مَفَرٌّ، البحر أمامنا، إن خُضْنَاهُ غَرَقْنَا، وفرعون وجنوده خَلَفْنَا سَيَقْضُونَ عَلَيْنَا، قال أصحابه: إِنَّا لَمُدْرَكُونَ.

ولكن انظر إلى الإيمان واليقين، قال: ﴿كَلَّا﴾ لن نُدْرِكَ، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] أي: سيدلُّني على ما فيه النجاة. فأوحى الله إليه بأن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فَضَرَبَ البحر مرَّةً واحدة بالعصا فانفلق اثني عشر طريقًا على عدد قبائل بني إسرائيل، وكان كُلُّ فِرْقٍ كالطُّودِ العظيم أي كالجبل، وانظر إلى الإيمان أيضًا كيف دخلوا في هذه الطُّرُق والمياه على أيامهم وعلى شمائلهم ولكنه الإيمان؛ لأنَّهم عَرَفُوا أَنَّهُمْ ناجون ولا بُدَّ.

وعيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعطاه الله تعالى آيات بيِّنات، كان يُرِيءُ الأَكْمَةَ والأَبْرَصَ بإذن الله، وهذان المرَّضان لا حيلة للأطباء فيهما إلى الآن، اللَّهُمَّ إِلَّا الأَكْمَةَ، وكان يُحْيِي الموتى بإذن الله، يقول للجنَّاة أمام النَّاسِ: احْيِي. فتحيًا بإذن الله، وكان يُخْرِجُ الموتى من قُبُورِهِمْ، يَقِفُ على القبر ويأمر صاحب القبر بأن يُخْرِجَ ويخرُج حيًّا، مَنْ يستطيع هذا إِلَّا الله عَزَّجَلَّ وَجَعَلَهُ آيةَ لهذا النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكان يَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كهَيْئَةِ الطَّيْرِ فينفخه فيطير، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وفي قراءة ثانية: «يكون طائرًا»، وإذا جَمَعْتَ بين القراءتين صار المعنى

طيرًا بإذن الله يطير؛ لأنه ما كُلُّ طير يطير، فالنَّعامة لها جناح ولكنها لا تطير، لكن يكون طيرًا يطير يُشاهد في الجوِّ وهو خَلقه من طين، وهذا لا يَقْدِر عليه إلا الله، وجَعَله الله آية لعيسى.

فإن قال قائل: لماذا خَصَّ الله موسى بالعصا وخصَّ عيسى بإحياء الموتى وخلق الطيور؟

قال أهل العلم: إِنَّ الله عَزَّجَلَّ حَكِيمٌ يَجْعَلُ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُنَاسِبُ الْوَقْتَ، وحال النَّاسِ حَتَّى يُعْجِزَهُمْ، فَالسَّحَرُ تَرَقَّى إِلَى حَدٍّ بَعِيدٍ فِي عَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَأَرَاهُمْ الله آيةً يَعْجِزُونَ عَنْهَا بِالسَّحَرِ؛ وَلِهَذَا السَّحَرَةُ فِي قِصَّةِ مُوسَى الْعَارِفُونَ بِالسَّحَرِ مَا مَلَكُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا، أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، كَانَتْهُمْ بَغِيرَ اخْتِيَارٍ، فَسَجَدُوا وَقَالُوا إِعْلَانًا: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿[الشعراء: ٤٧-٤٨].

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَرَقَّى فِي عَهْدِهِ الطَّبُّ تَرْقِيًا عَظِيمًا فَأَعْطَاهُ الله آيةً لَا يَسْتَطِيعُ الْأَطْبَاءُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهَا، أَمَّا مُحَمَّدٌ ﷺ فَإِنَّهُ بُعِثَ فِي زَمَنِ الْبَلَاغَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَرَقَّتْ إِلَى أَعْلَى مَا يَكُونُ فِي الْعَرَبِ، وَاللُّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ أَفْصَحَ الْأَلْسِنَةِ وَأَدْلَاهَا عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ، فَبَعَثَهُ الله عَزَّجَلَّ بِقُرْآنٍ كَرِيمٍ أَعْجَزَ الْعَرَبَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، وَلَنْ يَأْتِيَ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ لَا الْجِنُّ وَلَا الْإِنْسُ، قَالَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وَصَدَّقَ اللهُ عَزَّجَلَّ، فَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ فَكَمَا أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَكَلَامُهُ لَيْسَ مِثْلَهُ كَلَامٌ.

وفي الحديث عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَا بَعَثَ نَبِيًّا إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا

يؤمن على مثله البشر حتى تقوم الحجة، قال: «وَلَيْتَ الَّذِي أُوتِيْتُهُ وَخِيَّ أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا»<sup>(١)</sup>، وحصل ما توقع، والحمد لله؛ لأن آيته الكبرى هي القرآن العظيم، والقرآن العظيم باقٍ، وكلُّ الناس يقرؤونه ويستنتجون منه من الآيات ما يزدادون به إيماناً، ويعلمون به صدق النبي ﷺ.

**فإن قال قائل: ما الحاجة إلى إعطاء الأنبياء آيات؟**

قلنا: الحاجة واقعة بل للضرورة، بل العقل أيضاً؛ لأنه ليس من العقل أن يأتي شخص ويقول: إنه رسول ثم يتبع، لا بُدَّ أن يكون هناك بينة تدلُّ على أنه رسول، ولو جاء إنسان في غير أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقال إنه رسول ولم يأت بآية، فالتناس معذورون إذا لم يتبعوه، وإلا لكان كلُّ واحد يدعي أنه رسول، أمّا بعد النبي ﷺ فالنبوة انقطعت؛ لأنه كان خاتم النبيين، لذلك لا بُدَّ أن يكون مع الأنبياء آيات تدلُّ على صدقهم وعلى صحة ما جاؤوا به من الشريعة.

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ الكتاب: هو الوحي الذي أوحاه الله تعالى إليهم وما من رسول إلا معه كتاب، بخلاف النبي، فالنبي قد لا يكون معه كتاب، لكن الرسول لا بُدَّ أن يكون معه كتاب؛ لأن الرسول لا بُدَّ أن يعطي الناس الذين يدعوه ما يشاهدونه بأعينهم. وفيه الأمر والنهي، والخبر والقصاص وغير ذلك مما تقتضيه الحال.

وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾ المراد الجنس، يعني الكتب، وقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم»، رقم (٧٢٧٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أي: العدل الذي تُوزَن به الأشياء ويُعرَف قَدْرُها وحالُها، وهذا يدلُّ دلالة واضحة على أنَّ القياس الصَّحيح ممَّا بُعِثَ به الرُّسل؛ لأنَّ القياس تسوية فرع بأصل في حُكم لِعِلَّة جامعة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: العدل والمُقايَسة بين الأمور ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي ليقوم النَّاس في الدِّين والدُّنيا بالقِسْط بالعدل في حقِّ الله، وفي حقِّ العباد.

والعدل في حقِّ الله ما ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ لمعاذ بن جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين قال له: «أَتَذَرِي يَا مُعَاذُ مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»<sup>(١)</sup>.

يعني أن لا يُعَذَّب مَنْ يَعْبُدُهُ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، أمَّا حَقُّ المخلوق، فقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرْ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِ مَيْتَتَهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»<sup>(٢)</sup> هذا الشَّاهد، أي: أن تُعَامِلَ النَّاسَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ، ولو أَنَّا عَامَلْنَا النَّاسَ بهذا لاستقام العدل ولم يَتَجَرَّأْ أَحَدٌ على ظُلْمِ أَحَدٍ، ولو أَنَّا شَعَرْنَا لِلنَّاسِ بِمَا نَشْعُرُ بِهِ لَأَنفُسَنَا لَحَلَّتْ فِي قُلُوبِنَا الرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُّعُ؛ لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ أَنْ يُعَامِلَهُ النَّاسُ بِالرَّحْمَةِ وَالتَّوَاضُّعِ، فَعَامِلِ النَّاسَ أَيْضًا بِالرَّحْمَةِ وَالتَّوَاضُّعِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رقم (٧٣٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة، رقم (٣٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤)، من حديث، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيَقُومَنَّ﴾ لِلتَّعْلِيلِ يَعْنِي أَرْسَلْنَا الرُّسُلَ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْمِيزَانَ لِهَذِهِ الْحِكْمَةِ، لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ؛ وَلِهَذَا لَا تَجِدُ أَعْدَلَ مِنْ دِينِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَكُلِّ مَا خَالَفَ دِينَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ فَهُوَ جَوْرٌ وَظُلْمٌ؛ وَلِهَذَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ أَظْلَمَ الظُّلْمِ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. ثُمَّ سُئِلَ: أَيُّ الظُّلْمِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»<sup>(١)</sup> فَلَوْ مَشَى النَّاسُ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ لَقَامُوا بِالْقِسْطِ، لَكِنْ كُلُّ مَنْ لَمْ يَتَمَسَّ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ فَهُوَ جَائِرٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ [النحل: ٩] يَعْنِي مِنَ السَّبِيلِ مَا هُوَ جَائِرٌ وَهُوَ سَبِيلُ الظَّالِمِينَ.

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا يَحْصُلُ بِهِ النَّصْرُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى؛ لِأَنَّ النَّصْرَ يَكُونُ بِالْوَحْيِ وَيَكُونُ بِالْبَأْسِ وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ يَعْنِي خَلَقْنَاهُ لَهُمْ مِنَ الْمَعَادِنِ، وَاسْتَنْبَطَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ عَلَى أَنَّ الْمَعْدِنَ إِذَا كَانَ فِي قِمَمِ الْجِبَالِ فَهُوَ أَقْوَى وَأَنْفَعُ مِمَّا إِذَا كَانَ فِي أَسْفَلٍ؛ لِأَنَّ التَّنْزِيلَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ أَعْلَى، فَاللَّهُ أَعْلَمُ، هَذَا يَرْجِعُ إِلَى عِلْمِ الْجَيُولُوجِيَا، لَكِنْ أَنْزَلْنَا بِمَعْنَى وَضَعْنَا لَهُمُ الْحَدِيدَ، وَهُوَ مَعْدِنٌ مَعْرُوفٌ مِنْ أَقْوَى الْمَعَادِنِ.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أَيُّ: فِي الْحَرْبِ، تُصْنَعُ مِنْهُ السُّيُوفُ وَالْخَنَاجِرُ وَجَمِيعُ آلَاتِ الْحَرْبِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ بَعْدَ ذِكْرِ الْكُتُبِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ لَا يَقُومُ إِلَّا بِهَذَا: بِالدَّعْوَةِ وَالْقِتَالِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رَقْمُ (٤٤٧٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ كَوْنِ الشَّرِكِ أَقْبَحَ الذُّنُوبِ وَبَيَانُ أَعْظَمِهَا بَعْدَهُ، رَقْمُ (٨٦)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا أبى الكُفَّار أن يكون دين الله هو العالي فحينئذ يُقاتلون بالحديد.

﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ جَمَعَ المنافع؛ لَأَنَّهَا لَا تُحْصَى أَجْنَاسُهَا، فَضْلاً عَنْ أَنْوَاعِهَا وَأَفْرَادِهَا، فَمَنْ يُحْصِي الْمَنَافِعَ الَّتِي تُحْصَلُ بِالْحَدِيدِ؟! وَلِهَذَا جَاءَتْ بِالْجَمْعِ الْمَعْرُوفِ بِصِيغَةِ مُنْتَهَى الْجُمُوعِ، ﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ دِينِيَّةً وَدُنْيَوِيَّةً، فَرْدِيَّةً وَجَمَاعِيَّةً ﴿وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى ﴿لَيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وَالْمُرَادُ عِلْمُ الظُّهُورِ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ أَوِ الْعِقَابُ، أَمَّا عِلْمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ، فَهَذَا سَابِقٌ عَلَى إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ عَالِمًا بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ لَا يَشْكُلُ عَلَيْكَ الْأَمْرُ، لَا تَقُلْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ إِلَّا بَعْدَ هَذَا، نَقُولُ: الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ بِالشَّيْءِ قَبْلَ وُجُودِهِ، وَعِلْمٌ بِالشَّيْءِ بَعْدَ وُجُودِهِ. وَالْعِلْمُ السَّابِقُ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ حَتَّى يُمْتَحَنَ لِلنَّاسِ، ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، أَيُّ: يَنْصُرُ دِينَهُ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى يَنْصُرُ نَفْسَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبَلَّوْا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [عَمَد: ٤].

فلو قال قائل: كيف تُفسَّر الآية يَنْصُرُ دِينَهُ والله يقول: ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ هذا تفسير مُخَالِفٌ لِلْفِظِ وَأَنْتُمْ تُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِمَا يُخَالِفُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ، فَمَا الْجَوَابُ؟  
فَالْجَوَابُ: نَحْنُ لَا تُنْكِرُ عَلَى النَّاسِ إِذَا فَسَّرُوا الْقُرْآنَ بِمَا يُخَالِفُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ؛ وَلِهَذَا إِذَا قَالَ قَائِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، الْمَعْنَى إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ أَيُّ أَرَدْتَ قِرَاءَتَهُ، فَهَذَا فَسْرُهُ بِخِلَافِ ظَاهِرِهِ، وَلَكِنَّهُ تَفْسِيرٌ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ، وَلَيْسَ إِذَا تَمَّ الْقِرَاءَةُ، بِدَلِيلِ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يُفِيدُ أَنْ يَسْتَعِذُّ الْإِنْسَانُ بِاللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ لِيَقْرَأَ وَالشَّيْطَانُ بَعِيدٌ عَنْهُ.

على كلِّ حال: إذا قال لك قائل: كيف تُفسِّر قوله تعالى: ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي مَنْ يَنْصُرُ دِينَهُ وأنت تُنكِر على مَنْ يفسِّر القرآن بخلاف ظاهره.

فالجواب: أننا لا نُنكِر على مَنْ يُفسِّر القرآن بخلاف ظاهره إذا كان في ذلك دليل صحيح.

والدليل على أن المراد يَنْصُرُ دِينَهُ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ليس به حاجة، ولا يحتاج إلى أحد، فهو قويٌّ عزيزٌ غالبٌ، غالب بقوة لا يلحقها ضعف.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرُسُلُهُ﴾ نصر الرُّسل، إذا كان الرُّسل حيًّا فالمراد يَنْصُرُ الرُّسل نفسَه وشريعته، وبعد موته يَنْصُرُ شريعته، وفي هذا دليل على أن نصر الشريعة نصر لمن جاء بها، فلا يشكل على هذا أن الله عزَّجَل قد يُميت الرُّسل قبل أن يرى النصر الواسع له؛ لأننا نقول: نصر شريعته نصر له.

وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: أنه يَنْصُرُ الله عزَّجَل وَيَنْصُرُ رُسُلَهُ وهو لم ير الله؛ لأنَّ الله تعالى يُنصر ولا يُبصر في الدنيا؛ ولهذا قال بعض السلف: (يَنْصُرُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَهُ) تفسيرًا لقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يَنْصُرُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَهُ، فالمراد لا يُبصرُونَهُ في الدنيا، أمَّا في الآخرة فنظر الله تعالى حق ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

إذن: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: يَنْصُرُونَهُ الله وهو غائب، ويَحْتَمِلُ أن يكون المعنى بالغيب، أي: بِغَيْبَتِهِمْ عن النَّاس، فيكون في هذا دليل على إخلاصهم، وأنهم ليسوا بمنَّ يَعْبُدُونَ الله إذا كانوا بين النَّاس، بل يَعْبُدُونَ الله تعالى في الغيب والشَّهادة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان أن نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس عن ضعف ولا عن قهر، بل هو قويٌّ عزيز لا يحتاج إلى أحد يَنْصُرُهُ بنفسه، ولكن النصر لدينه، نسأل الله أن يجعلنا من أنصار دينه إنَّه على كلِّ شيء قديرٌ.

## الآية (٢٦)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٦].

• • • • •

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكّدات، الأول: القَسَم المحذوف. والثاني: اللّام. والثالث: قد، ونوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أوّل الرُّسل عَلَيْهِ السَّلَامُ من أُولي العِزَم الخمسة، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء مِنْ بعده، وإليه يَرْجع الأنبياء، أي: إلى مِلَّتِهِ؛ ولهذا يَتَنَازَع فيه المسلمون واليهود والنصارى، فاليهود يقولون: إِنَّه يهودي، والنصارى يقولون: إنه نصراني، والمسلمون يقولون: إِنَّه حنيف مسلم، وهذا هو الحقُّ، والعجب أَنَّ اليهود والنصارى يقولون: إِنَّه يهودي أو نصراني، وما كانوا يهودًا ونصارى إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ، ولكنهم ليس لهم عقول.

﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ﴾ أي: ذُرِّيَّة نوح وإبراهيم عليهما الصَّلَاة والسَّلَام النُّبُوَّة والكِتَاب، يَعْنِي الرُّسل عليهم الصَّلَاة والسَّلَام. وفي هذا دليل على أَنَّ آدَمَ ليس برسول، وأنَّ إدريس ليس قبل نوح كما ذكره بعض المؤرِّخين، وهو خطأ مخالف للقرآن الكريم، فليس قبل نوح رسول، وآدم نبي مكَلَّمه الله عَزَّوَجَلَّ بما شاء مِنْ وَحْيِهِ، ثُمَّ سار على نهجه بَنُوهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَلَمَّا انتشر النَّاس وكثروا صار بينهم اختلاف،



كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله: ﴿الْكِتَابَ﴾، المراد الجنس؛ لأنَّ كلَّ رسول معه كتاب، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾.

﴿فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ﴾ أي: بعضهم مُهْتَدٍ، وحُذِفَتِ الباء كما هي القاعدة في اللغة العربيَّة، وأصلها مُهْتَدِي بالياء، لكن حُذِفَتِ للتخفيف ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي: غير مُهْتَدِينَ، وهذا هو الواقع أنَّ بني آدم أكثرهم ضالَّ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ خَلَوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].



## الآية (٢٧)

• • ❦ • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ثُمَّ فَفَقِينَا عَلَيَّ ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَفَقَقِينَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَفَاتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَسُفُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

• • ❦ • •

﴿ ثُمَّ فَفَقِينَا عَلَيَّ ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَفَقَقِينَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾: ﴿ فَفَقِينَا ﴾ بمعنى اتَّبَعْنَا، مأخوذ من القفا؛ لأنَّ مَنْ يَمْشِي مِنْ قِفَاكَ هُوَ تَابِعٌ لَكَ ﴿ عَلَيَّ ءَاثَرِهِمْ ﴾ أي: آثار نوح وإبراهيم وَمَنْ كَانَ مِنَ الرُّسُلِ الْآخَرِينَ عَلَيْهِم الصَّلَاةُ وَالسَّلَام ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ أي: التَّابِعِينَ لَهُمْ، ﴿ وَفَقَقِينَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ نَصَّ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولٌ، بَلْ وَلَا نَبِيٌّ أَيْضًا، لَيْسَ بَيْنَهُ رَسُولٌ وَلَا نَبِيٌّ، وَمَا يُقَالُ: إِنَّ خَالِدَ بْنَ مَعْدَانَ وَغَيْرَهُ لَهُ النَّبُوءَةُ فَكُلُّهُ كَذِبٌ.

﴿ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ هُوَ كِتَابُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى عِيسَى، وَيُعْتَبَرُ مَكْمَلًا لِلتَّوْرَةِ؛ لِأَنَّ التَّوْرَةَ هِيَ أُمُّ الْكُتُبِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾، ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ النَّصَارَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا عِيسَى ﴿ رَافَةً ﴾ الرَّافَةُ نَوْعٌ مِنَ الرَّحْمَةِ وَلَكِنَّهَا أَرْقُ وَالْطَّفُ ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ فَهُمْ مِنْ أَرْقِ النَّاسِ قُلُوبًا، وَأَرْحَمُهُمْ بِالْخَلْقِ لَمَّا كَانُوا عَلَى شَرِيعَةِ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

ولكن بعد أن كفروا بمُحمَّد صاروا أغلظَ النَّاس، أو مِن أغلظ النَّاس، كما جرى بين المسلمين وبين النَّصارى في الحُرُوب الصليبيَّة وغيرها ﴿وَرَهْبَانِيَّة﴾ الانقطاع عن الدُّنيا للعبادة، ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ يعني مِن عند أنفسهم، كما فَعَلَت بعض فِرَق المسلمين، ابْتَدَعُوا رَهْبَانِيَّة ما أنزل الله بها من سُلطان، لكن معهم رِقَّة ورحمة.

﴿مَا كُتِبَتْهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ يعني أَنَّا لم نَفَرِضها عليهم، ولكن هم طَلَبُوا رِضْوَانَ اللَّهِ؛ ولهذا نقول: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء مُنْقَطِع، ولكن مع كونهم ابتدعوها واختاروا بأنفسهم ﴿فَمَارَعُوهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يعني ما قاموا بِرِعَايَتِهَا الواجبة من إحسان هذه الرَّهْبَانِيَّة التي ابتدعوها، وإِنَّمَا تَصَرَّفُوا فِيهَا كَمَا يَشَاؤُونَ، ﴿فَتَأْتِينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أي: ثوابهم.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: كثير من هؤلاء النَّصارى فاسق، أي: خارج عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وفي هذا دليل على أَنَّ الإنسان إذا ابتدع بدعة فَإِنَّهُ لَا يُوفِّقُ لِإِقَامَتِهَا، فيكون ضالًّا في الأصل، وضالًّا في الفرع، حتَّى لو اجتهد، حتَّى لو خَشَعَ، إِنَّكَ تَجِدُ كثيرًا من النَّاس الَّذِينَ ابْتَدَعُوا أَذْكَارًا، أو صَلَوَات، أو أدعية، أو ما أشبه ذلك تَجِدُهُمْ خاشعين، قلوبهم باكية، قلوبهم خاشعة لكن لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ، نسأل الله السَّلَامَةَ والعَافِيَةَ.



الآيتان (٢٨، ٢٩)

• • • • •

﴿ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْزِكُمْ كَفْلًا مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ اَهْلُ الْكِتَابِ اَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَاَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٨-٢٩].

• • • • •

﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ المراد بهم هذه الأمة، فيكون قوله: ﴿اَتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرِسُولِهِ﴾ يعني اثبتوا على الإيمان، ولا تبدّلوا الإيمان؛ لأنّ الإيمان قد حصل، حيث قال: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فيكون المعنى ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبكم ﴿اَتَّقُوا اللَّهَ﴾ بجوارحكم.

﴿وَأَمِنُوا بِرِسُولِهِ﴾ أي: حقّقوا الإيمان واثبتوا عليه، وليس كلّ مَن آمن يكون مؤمناً حقّاً، وهذا هو ما يعنيه العلماء بقولهم، هذا نفي كمال الإيمان مثل قوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»<sup>(١)</sup>، ليس المراد نفي مُطلق الإيمان، بل نفي الإيمان المُطلق الكامل.

وقد زعم بعض المُفسّرين أنّ هذه الآية في أهل الكتاب؛ لأنّه قال: ﴿وَأَمِنُوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم (٤٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِرَسُولِهِ ﴿٢٨﴾، ولكن هذا قول ضعيف جدًا، ولا يُمكن أن يُنادي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ وهم كَفَرَةٌ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ أَبَدًا، لَا يُمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿٢٩﴾ يا أَيُّهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؛ لِأَنَّهُمْ حِينَ نَزُولِ الْقُرْآنِ إِذَا بَقُوا عَلَى يَهُودِيَّتِهِمْ وَنَصْرَانِيَّتِهِمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ.

والمراد ﴿بِرَسُولِهِ﴾ ﴿٢٨﴾ هنا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالْإِيمَانُ بِالرَّسُولِ ﷺ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، يَعْنِي فِي الْإِيمَانِ بِهِ، لَا فِي الْإِتِّبَاعِ.

فَفِي الْإِتِّبَاعِ نُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّسُلِ، فَتَتَّبِعُ مِنْهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ، لَكِنِ الْإِيمَانُ كُلَّهُمْ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ، نُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ حَقًّا.

﴿نُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ﴿٢٩﴾ أَي: نَصِيبَيْنِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ؛ وَهَذَا مِثْلُ النَّبِيِّ ﷺ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِالنِّسْبَةِ لِمَا قَبْلَهَا كَرَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجْرَاءَ، مِنْهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، وَطَائِفَةٌ مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى الْعَصْرِ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَالطَّائِفَةُ الْأُولَى أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دِينَارًا، وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ دِينَارًا، وَالثَّلَاثَةُ أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ دِينَارَيْنِ فَاحْتَجَّ الْأَوَّلُونَ: لِمَاذَا تُعْطَى هَؤُلَاءِ دِينَارَيْنِ، وَهُمْ أَقَلُّ مِنَّا عَمَلًا؟ فَأَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: «هَلْ نَقَضْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «ذَلِكَ فَضْلِي أَوْتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»<sup>(١)</sup>، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ، هَذِهِ الْأُمَّةُ لَهَا مِثْلُ أَجْرِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ مَرَّتَيْنِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنَ الْعَصْرِ قَبْلَ الْغُرُوبِ، رَقْم (٥٥٧)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾، أي: أنكم إذا آمنتُمْ وحققتُم الإيمان مع التَّقوى يُشَبِّهَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: علمًا تَسِيرُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّقْوَى مِنْ أَسْبَابِ حُصُولِ الْعِلْمِ، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَنْشُدُونَ الْعِلْمَ، وَيَنْشُدُونَ الْحِفْظَ، وَيَطْلُبُونَ الْفَهْمَ.

فَنَقُولُ: إِنَّ تَحْصِيلَهُ يَسِيرٌ، وَذَلِكَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ، الَّذِي هُوَ مُوجِبُ الْعِلْمِ، فَاعْمَلْ بِمَا عَلِمْتَ يَحْصُلْ لَكَ عِلْمٌ مَا لَمْ تَعْلَمْ، فَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ مِنْ أَسْبَابِ زِيَادَةِ الْعِلْمِ وَلَا شَكَّ.

ولهذا قال: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: تَسِيرُونَ بِهِ، أي: بِسَبِيلِهِ سِيرًا صَاحِبًا يُوصِلُكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّجَلَّ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: يَسْتُرْهَا عَلَيْكُمْ، وَيَعْفُو عَنْكُمْ، فَلَا عِقَابَ وَلَا فَضِيحَةَ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذُو مَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

فَالْغَفُورُ يَعْنِي ذَا الْمَغْفِرَةِ، وَالرَّحِيمُ يَعْنِي ذَا الرَّحْمَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَغْفِرَةِ ذُنُوبٍ وَقَعَتْ مِنْهُ، وَإِلَى رَحْمَةٍ تُسَدِّدُهُ وَيَتَجَنَّبُ بِهَا الْمَعَاصِي، وَيَهْتَدِي إِلَى التَّوْبَةِ إِنْ عَصَى، ثُمَّ قَالَ: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: جَعَلَ لَكُمْ هَذَا الثَّوَابَ، لِيَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَحْسُدُواكُمْ عَلَى مَا آتَاكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، مَعَ مُحَاوَلَتِهِمْ الشَّدِيدَةِ أَنْ يَحْسُدُوا النَّبِيَّ ﷺ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فَيَقُولُ عَزَّجَلَّ هُنَا: ﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ

فَضَّلَ اللَّهُ ﴿ لَا إِعْطَاءَ وَلَا مَنَعَ ﴾ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴿ عَزَّجَلَّ ﴾، وَهُوَ الْمُدَبِّرُ لِكُلِّ مَا يُرِيدُ عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: صَاحِبُ الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَمَا أَعْظَمَ فَضْلَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَلَى عِبَادِهِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُؤْتِيَنَا مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.







## فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة



الحديث

- «لَا تَقْدَمُوا رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ وَلَا يَوْمَيْنِ» ..... ١٠
- «مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي يَشْكُ فِيهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ عليه السلام» ..... ١٠
- «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ» ..... ١٣، ١٠
- «كُلْ بِذَعَةٍ صَلَاةٌ» ..... ١٠
- «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ..... ١٣
- «كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ عليه السلام لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ» ..... ١٥
- «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي الْحُجْرَةِ -أَيِ حُجْرَةِ النَّبِيِّ عليه السلام- وَالْمَرْأَةُ تُجَادِلُهُ وَهُوَ يُجَاوِرُهَا وَإِنَّهُ لَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُ حَدِيثِهَا» ..... ١٦
- «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ؟» ..... ١٩
- «التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا» ..... ٢٣
- «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ» ..... ٢٣
- «أَعْفُوا اللَّحَى» ..... ٢٩
- «إِنَّهَا لَا تَحِلُّ الْمَسْأَلَةُ» ..... ٣١
- «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ» ..... ٣٢
- «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ..... ٣٢

- «مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ» ..... ٣٥
- «أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» ..... ٣٥
- «إِنَّكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ» ..... ٣٥
- «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفَّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتَنِبْتَ الْكَبَائِرَ» ..... ٣٧
- «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ» ..... ٤٤
- «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِيهَا كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ» ..... ٤٤
- «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ» ..... ٤٧
- «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» ..... ٤٧
- «مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ» ..... ٤٧
- «لَا تُظْهِرِ الشَّهَادَةَ بِأَخِيكَ فَيَعَافِيَهُ اللَّهُ وَيَتَّيْلِكَ» ..... ٤٨، ٥٠
- «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» ..... ٤٩
- «الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ..... ٥١
- «كَفَّارَةٌ مَنِ اغْتَبَتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ» ..... ٥٤
- «لَلَّهِ أَشَدُّ قَرَحًا بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ» ..... ٥٧
- «لَا يُخْبِرُنِي أَحَدٌ عَن أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ» ..... ٦٠
- «الْغِيبةُ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» ..... ٦١
- «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَن عَاتِقِهِ، انْكِحِي أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ» ..... ٦٢

- ٦٣ ..... «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ»
- ٦٥ ..... «انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا»
- ٧٢ ..... «إِنَّهُمْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»
- «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ
- ٧٣ ..... الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحْجَّ الْبَيْتَ»
- «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» ... ٧٣
- ٧٤ ..... «الْإِيمَانُ بِضَعٍّ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»
- ٧٨ ..... «لَا تُعْطِهِ مَالُكَ»
- ٨٢ ..... «أَلَمْ أَحِذْكُمْ فِي ضَلَالٍ فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِِي»
- ٨٧ ..... «كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيْمَنُ فِي تَعْلِيهِ، وَتَرْجُلِهِ، وَطَهْوَرِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ»
- ٨٩ ..... «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»
- ٩٤ ..... «خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لثَلَاثٍ»
- ٩٩ ..... «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرًا مِثْلُهَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ»
- ١٠٦ ..... «مَنْ وَجَدَ نَمُوهُ يَغْمَلُ عَمَلٍ قَوْمٍ لَوْ طِ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»
- ١١٢ ..... «إِنَّ الَّذِي تَدْعُوهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»
- ١١٣ ..... «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»
- ١١٦ ..... «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»
- «تُكَلِّتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُتُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا
- ١١٦ ..... حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»
- ١١٨، ١١٧ ..... «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»

- ١١٩ ..... «إِنَّ لِلْمُوتِ سَكْرَاتٍ»
- ١١٩ ..... «الْمَوْتُ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»
- «نَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، نَعِسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، نَعِسَ عَبْدُ الْحَمِيصَةِ، نَعِسَ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ»..... ١٢٩
- «لَا تَرَالُ جَهَنَّمَ تُلْقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَرِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ عَلَيْهَا قَدَمَهُ» ..... ١٣٤
- «أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ» ..... ١٣٥
- «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» ..... ١٤٣
- «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» ..... ١٤٤
- «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِشَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ» ..... ١٥٤
- «أَخْبَرَنِي عَنِ السَّاعَةِ» ..... ١٥٧
- «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا» ..... ١٦٢
- «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ..... ١٦٣
- «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَخَّرَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِئِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» ..... ١٦٣
- «مِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ» ..... ١٧٣
- «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ صَيفَهُ» ..... ١٨١، ١٨٢
- «لَا يَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ» ..... ١٩٢
- «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ» ..... ١٩٢

- «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ» ..... ١٩٣
- «مَنْ وَجَدَ نَمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلٍ قَوْمٍ لَوْ طِ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ..... ١٩٥
- «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادًا بِالدُّبُورِ» ..... ٢٠٦
- «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» ..... ٢٠٩
- «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْحَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ،  
إِنْ أُعْطِيَ رِضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطٌ» ..... ٢١٨
- «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ..... ٢٢٠
- «أَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ» ..... ٢٣١
- «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ..... ٢٣٢
- «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا  
شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ» ..... ٢٤١
- «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ..... ٢٤
- «وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» ..... ٢٤٧
- «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» ..... ٢٥١، ٢٥٠
- «إِنَّمَا هُوَ مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ» ..... ٢٥٨
- «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ..... ٢٥٩
- «وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً» ..... ٢٥٩
- «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا فَكَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتَنِ لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ» ..... ٢٦٥، ٢٦٤
- «كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ» ..... ٢٦٥
- «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ» ..... ٢٧٠

- «أَيُّ جُورٍ هَذَا»..... ٢٧٩
- «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» ..... ٢٧٩
- «أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» ..... ٢٨٠
- «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ إِلَّا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا» ..... ٢٨٠
- «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»..... ٢٨١
- «إِذَا شَكَ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ» ..... ٣٠٦
- «لِمَوْضِعِ سَوَاطِئِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ..... ٣٠٩
- «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا» ..... ٣١١
- «لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظِرَ الصَّلَاةَ» ..... ٣١٥
- «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»..... ٣١٩
- «قَدْ سَرَرْتُنَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ..... ٣٢٠
- «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ» ..... ٣٣٠، ٣٢٨
- «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ..... ٣٣٠
- «قَدْ سَرَرْتُنَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ..... ٣٣١
- «لَوْ رَحِمَ اللَّهُ أَحَدًا لَرَحِمَ أُمَّ الصَّبِيِّ» ..... ٣٤٢
- «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟» ..... ٣٤٧
- «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ..... ٣٥١
- «إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا - يَعْنِي بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ سَبَقَهُمْ - إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا» ..... ٣٥٢

- «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلٍ قَوْمٍ لَوْ طِ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ..... ٣٨١
- «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجَزَ وَالْكَئْسَ» ..... ٣٨٧
- «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» ..... ٣٨٨
- «أَنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ» ..... ٣٩٣
- «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مِثْلُهَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ» ..... ٤٠١
- «لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ، لَيْلَةَ الْجِنِّ، فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُودًا مِنْكُمْ، كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَيُّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ» ..... ٤٠٦
- «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ» ..... ٤١٥
- «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» ..... ٤١٧
- «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتَيْتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آتَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا» ..... ٤٢٨
- «لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءُ فَقَطُّ» ..... ٤٢٩
- «فَمَا رَأَيْتُ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَهُ» ..... ٤٣١
- «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ» ..... ٤٣١
- «بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا» ..... ٤٣٢
- «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» ..... ٤٣٤
- «إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» ..... ٤٣٩
- «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» ..... ٤٤٢
- «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ» ..... ٤٥٧

- «اجْعَلُوها فِي رُكُوعِكُمْ» ..... ٤٥٧
- «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ..... ٤٥٩
- «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ» ..... ٤٦٣
- «كَانَ يُصَيِّنَا ذَلِكَ فَنُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ» ..... ٤٧٤
- «الظَّاهِرُ: الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ» ..... ٤٧٦
- «الْبَاطِنُ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ» ..... ٤٧٦
- «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ» ٤٨٧، ٤٨٠
- «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ  
مِنَ الْأَرْضِ» ..... ٤٨١
- «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْحَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ» ..... ٤٨٤
- «حِجَابُهُ الثُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» .. ٤٨٦
- «مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ» ..... ٤٩٤
- «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ» ..... ٤٩٤
- «مَا تَرَكْتُ لِأَهْلِكَ؟» ..... ٤٩٤
- «وَأَعْلَمَ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا» ..... ٥٠٠
- «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثْرَاتِهِمْ إِلَّا الْخُدُودَ» ..... ٥٠٢
- «مَنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ شَرِبَ فَاجْلِدُوهُ، ثُمَّ إِنْ  
شَرِبَ فَاقْتُلُوهُ» ..... ٥٠٢
- «لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى» ..... ٥٠٣
- «إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كَنَانَةَ، وَاضْطَفَى مِنْ كَنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاضْطَفَى  
مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاضْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» ..... ٥٠٣



- «خَيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا» ..... ٥٠٣
- «وَأَنْقُلُ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ وَصَلَاةَ الْفَجْرِ» ..... ٥٠٩
- «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ..... ٥١٣
- «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ» ..... ٥١٦
- «خَيْرُكُمْ، أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً» ..... ٥١٧
- «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ..... ٥١٨
- «وَاتَّبِعْ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيَسَّرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ» ..... ٥١٨
- «مَا مِنْ إِنْسَانٍ يُصِيبُهُ هُمٌّ أَوْ غَمٌّ أَوْ حَزَنٌ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيتِي بِيَدِكَ» ..... ٥٢٢
- «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ» ..... ٥٢٢
- «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظُمُوا فِيهِ الرَّبُّ» ..... ٥٢٢
- «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» ..... ٥٢٢
- «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ -يعني أُمَّة الدَّعوة- يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ» ..... ٥٢٣
- «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ» ..... ٥٢٤
- «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ، فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ» ..... ٥٢٤
- «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ..... ٥٢٥
- «إِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ إِذَا أَعْنَيْتُهُ أَفْسَدَهُ الْغِنَى» ..... ٥٢٩

- «وَاللَّهُ مَا الْفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تُفْتَحَ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوا فِيهَا  
 ٥٢٩ ..... كَمَا تَنَافَسَ فِيهَا مَنْ قَبْلَكُمْ فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»
- «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ  
 ٥٣١ ..... ضَرَاءٌ فَصَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»
- «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» ..... ٥٣٢
- «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِثْلَ مَرَّةٍ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ» ..... ٥٣٣
- «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى  
 ٥٣٣ ..... قَلْبِ بَشَرٍ»
- «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاحٍ مِنْ  
 ٥٣٤ ..... الْأَرْضِ»
- «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاحِ عَلَى هَذِهِ الْحَلْقَةِ» ..... ٥٣٤
- «أَقْرَأُ أَمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ قِيَعَانُ، وَإِنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ،  
 ٥٣٤ ..... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»
- «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِِي» ..... ٥٣٧
- «أَلَمْ أَجِدْكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَ اللَّهُ قُلُوبَكُمْ بِِي» ..... ٥٣٧
- «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» ..... ٥٤١
- «الْبَخِيلُ مَنْ إِذَا ذُكِرَتْ عِنْدَهُ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَىَّ» ..... ٥٤٣
- «رَغِمَ أَنْفُ أَمْرِي ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ. قُلْ: آمِينَ. فَقَالَ: آمِينَ» ..... ٥٤٤
- «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ  
 ٥٤٤ ..... مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»
- «وَإِنَّمَا الَّذِي أَوْتَيْتُهُ وَخِيَّ أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا» ..... ٥٤٩

- «أَتَدْرِي يَا مُعَاذُ مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» ..... ٥٥٠
- «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» ..... ٥٥٠
- «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاً وَهُوَ خَلَقَكَ» ..... ٥٥١
- «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» ..... ٥٥٨
- «هَلْ نَقَضْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئاً» ..... ٥٥٩
- «ذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» ..... ٥٥٩





## فهرس الفوائد

الصفحة



الفائدة

## مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ

- سُورَةُ الْمُفَصَّلِ الَّتِي تَبْتَدِئُ مِنْ سُورَةِ (ق) عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، أَوْ مِنْ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ  
عِنْدَ آخَرِينَ..... ٩
- سُورَةُ الْحُجُرَاتِ فِيهَا مِنَ الْأَدَابِ الْعَظِيمَةِ النَّافِعَةِ..... ٩
- الْبِدْعُ فِي الْعَقِيدَةِ تَدْوُرُ عَلَى شَيْئَيْنِ..... ١١
- صُورٌ مِنَ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ..... ١٠، ١٣
- السَّمْعُ يَتَعَلَّقُ بِالْمُسْمُوعَاتِ، وَالْعِلْمُ يَتَعَلَّقُ بِالْمَعْلُومَاتِ..... ١٥
- فِي خَيْرِ الْفَاسِقِ فَائِدَةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ يُحَرِّكُ النَّفْسَ حَتَّى نَسْأَلَ وَنَبْحَثَ..... ٣٠
- خُلَاصَةُ الْكَلَامِ فِي النِّعْمَةِ..... ٣٩
- الْاِقْتِتَالُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ أَسْبَابٌ مُتَعَدِّدَةٌ..... ٤١
- يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَدَّبَ بِمَا أَدَّبَهُ اللَّهُ بِهِ، فَلَا يَسْخَرُ مِنْ غَيْرِهِ عَسَى أَنْ يَكُونَ  
خَيْرًا مِنْهُ..... ٤٨
- يَجِبُ عَلَى كُلِّ طَالِبٍ عِلْمٍ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَمَثِلُ أَمْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَيَحْتَنِبُ نَهْيَهُ..... ٤٨
- مَا مَعْنَى التَّوْبَةِ؟..... ٥٢
- تَوْبَةُ الْعَبْدِ تَحْتَاجُ إِلَى شُرُوطٍ..... ٥٢
- مَا الْعَمَلُ إِذَا كَانَ الذَّنْبُ فِي حَقِّ الْإِنْسَانِ؟..... ٥٦
- الظَّنُّ بِالْإِنْسَانِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ..... ٥٨

- أَيُّهَا أَكْثَرُ الظَّنِّ الْمَنْهِي عَنْهُ أَمْ الظَّنُّ الْمُبَاحُ؟ ..... ٥٩
- تَكُونُ الْوَقَايَةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِأَمْرَيْنِ ..... ٦٤
- الْمُرَادُ بِتَعَارُفِ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَا التَّفَاخُرُ  
بِالْأَحْسَابِ وَالْأَسَابِ ..... ٦٨
- الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ..... ٧٣
- مَا الطَّرِيقَةُ الَّتِي تُوجِبُ لِلإِنْسَانِ ثُبُوتَ الْإِيمَانِ وَاسْتِقْرَارَهُ؟ ..... ٧٧

### مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ ق

- لَا تَكَادُ تَجِدُ سُورَةَ ابْتَدَأَتْ بِالْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ إِلَّا وَبَعْدَهَا ذِكْرُ الْقُرْآنِ ..... ٨٦
- ذِكْرُ اللَّهِ الْمُكَذِّبِينَ فِي سُورَةِ (ق) لِفَائِدَتَيْنِ ..... ١٠٢
- الْقَادِرُ عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى إِعَادَتِهِ مِنْ بَابِ أُولَى ..... ١٠٩
- فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَأَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ هَلِ الْمُرَادُ قُرْبُ ذَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا أَوِ الْمُرَادُ قُرْبُ مَلَائِكَتِهِ؟  
وَنَظَائِرُ ذَلِكَ. .... ١١١
- التَّنْفُخُ فِي الصُّورِ نَفْخَتَانِ ..... ١٢١
- يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمُ الْوَعِيدِ لِلْكَفَّارِ، وَيَوْمُ الْوَعْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلِمَاذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا  
الْوَعِيدَ دُونَ الْوَعْدِ؟ ..... ١٢١
- كَيْفَ صَحَّ أَنْ يُخَاطَبَ الْوَاحِدُ بِخُطَابِ الْإِثْنَيْنِ؟ ..... ١٢٦
- يُوجَدُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَلِمَاتٌ تُحَذَفُ بَلْ رُبَّمَا جُمْلٌ تُحَذَفُ، وَذَلِكَ فِيمَا إِذَا دَلَّ عَلَيْهَا  
السِّيَاقُ ..... ١٣٣
- إِذَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي التَّفْسِيرِ أَوْ غَيْرِ التَّفْسِيرِ فَلنَرْجِعْ إِلَى مَا قَالَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ..... ١٣٤
- الذِّكْرَى تَكُونُ لِصِنْفَيْنِ مِنَ النَّاسِ ..... ١٤٠

## مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ

- الآيَاتُ الْكَوْنِيَّةُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَفَعُّ بِهَا وَيَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى مَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ .. ١٦٨  
 أَيُّ شَيْءٍ يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ الْاسْتِفْهَامَ لِلتَّشْوِيقِ، أَوْ لِلتَّهْدِيدِ، أَوْ لِلْاِسْتِخْبَارِ أَوْ مَا أَشْبَهَ  
 ذَلِكَ؟ ..... ١٧٦  
 الْحَكِيمُ لَهُ مَعْنَيَانِ ..... ١٨٦  
 آدَابُ السَّلَامِ ..... ١٨٩  
 الرِّيحُ الْعَقِيمُ هِيَ الرِّيحُ الْغَرِيبَةُ ..... ٢٠٦  
 الْجَوَابُ عَنْ أَنَسٍ يَذْهَبُونَ إِلَى أَمَاكِنِ الْمُعَذِّبِينَ وَهُمْ غَيْرُ بَاكِينَ وَلَمْ يُصَابُوا بِشَيْءٍ ... ٢٠٦  
 الْإِنْسَانُ إِذَا شَارَكَهُ غَيْرُهُ فِي الْعَذَابِ هَانَ عَلَيْهِ، عَدَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..... ٢٢٠  
 الْعِبَادَةُ تُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيْنِ ..... ٢٢٧

## مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الطُّورِ

- الطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ..... ٢٣٥  
 الْقَاعِدَةُ فِي التَّفْسِيرِ: أَنَّ الْآيَةَ إِذَا احْتَمَلَتْ مَعْنَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا مُنَافَاةٌ  
 وَجَبَ أَنْ تُحْمَلَ عَلَى كُلِّ مَنُهَا ..... ٣٦٣، ٢٣٧، ٧٢  
 إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الدَّارُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَهَلْ  
 يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ فِي الدُّنْيَا؟ ..... ٢٤٩  
 الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَفْسُهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنَ الْغَيْبِ ..... ٢٧١  
 الْإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ ..... ٢٧٣  
 قَوْلُهُ: ﴿وَادْبَرْ النُّجُومِ﴾ هَلِ الْمُرَادُ أَدْبَارُ صَوْنِهَا بِانْتِشَارِ نُورِ الشَّمْسِ، أَوْ أَدْبَارُ دَوَاتِهَا  
 عِنْدَ الْغُرُوبِ؟ ..... ٢٨٠

## مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّجْمِ

- الإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ كَانَ بَيِّنَاتٍ لِلرَّسُولِ ﷺ وَرُوحِهِ ..... ٢٨٧
- شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ ..... ٣٠٢
- قِصَّةُ الْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ الْيَهُودِيِّ الرَّيَّاتِ حَوْلَ: الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ ..... ٣٠٩
- إِيْمَانُنَا بِأَنَّ اللَّهَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَفِيدُ فَائِدَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ ..... ٣١٣
- هَلْ نَأْخُذُ بِقَوْلِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَخَرَّصُونَ، وَيَقُولُونَ: عُمُرُ الدُّنْيَا الْمَاضِي كَذَا وَكَذَا؟ ..... ٣٤٦

## مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَمَرِ

- قِصَّةُ انشِقَاقِ الْقَمَرِ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ ..... ٣٥٢
- الْعُبُودِيَّةُ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ ..... ٣٥٩
- الْعَالِبُ أَنَّ قِصَّةَ نُوحٍ هِيَ الْأُولَى فِي قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ ..... ٣٦٥
- الرَّاجِحُ أَنَّ اللُّوَاطَ يَجِبُ فِيهِ الْقَتْلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ..... ٣٨٠

## مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ

- الْمُرَادُ بِالْمِيزَانِ هُنَا الْعَدْلُ ..... ٤٠٠
- نَصَّ عَلَى النَّخْلِ، لِأَنَّ ثَمَرَتَهَا أَفْضَلُ الثَّمَارِ ..... ٤٠١
- الْمِلْحُ يَمْنَعُ الْإِنْتَانَ وَالْفَسَادَ ..... ٤٠٧
- الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ ..... ٤١٥
- ﴿يَنْتَعَشِرَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ أَخْطَأَ غَايَةَ الْخَطَأِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ مِنَ الطَّيْرَانِ، حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَمِنْ جَاذِبَتَيْهَا ... ٤١٩



ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يُكْرِمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِكْرَامَ، وَهُوَ يُكْرِمُ عَزَّجَلَّ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ ... ٤٣٣

### مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْوَاقِعَةِ

- ٤٤٥ ..... الْأَنْهَارُ فِي الْجَنَّةِ تَجْرِي فِي غَيْرِ أُخْدُودٍ .....
- ٤٥٦ ..... الْمَرْخُ وَالْعَقَّارُ لَهُ خَاصِيَّةٌ إِذَا ضُرِبَ بِالْمِرْوِ أَوْ شَيْءٍ يَنْقَدِحُ مَعَ الْمَاسَةِ .....
- ٤٥٨ ..... قَوْلُهُ: ﴿بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ اخْتَلَفَ فِيهَا الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ .....
- ٤٦٠ ..... مَعْنَى الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ .....
- ٤٦٠ ..... حُكْمُ مَسِّ الْمُصْحَفِ بِغَيْرِ طَهَارَةٍ .....
- ٤٦٢ ..... الْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَبْرُزَ بِدِينِهِ وَيَفْتَحِرَ بِهِ وَيُظْهِرَهُ .....
- ٤٦٤ ..... كَيْفَ يُضِيفُ اللَّهُ الشَّيْءَ إِلَى نَفْسِهِ وَالْمُرَادُ الْمَلَائِكَةُ؟ .....
- ٤٦٦ ..... قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُحْتَضَرِّينَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ .....
- هَذِهِ السُّورَةُ لَوْ لَمْ يَنْزَلْ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا هِيَ، لَكَانَتْ كَافِيَةً فِي الْحَثِّ عَلَى فِعْلِ الْحَيْرِ
- ٤٧٠ ..... وَتَرَكِ الشَّرَّ .....

### مِنْ فَوَائِدِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَدِيدِ

- ٤٧٢ ..... كُلُّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُسَبِّحُ اللَّهَ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْمَقَالِ .....
- ٤٧٣ ..... الْحَكِيمُ لَهَا مَعْنِيَانِ .....
- الْوَسَاوِسُ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَى الْقَلْبِ وَلَا يَمِيلُ الْإِنْسَانُ إِلَيْهَا بَلْ يُحَارِبُهَا، وَيُحَاوِلُ
- ٤٧٨ ..... الْبُعْدَ عَنْهَا بِقَدْرِ إِمْكَانِهِ لَا تَضُرُّهُ شَيْئًا .....
- ٤٧٩ ..... السَّمَوَاتُ أَشْرَفُ مِنَ الْأَرْضِ .....
- ٤٨٠ ..... أَلَيْسَ اللَّهُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي حَظَّةٍ؟ .....
- ٤٨٢ ..... جِنَايَةُ مَنْ فَسَّرَ الْإِسْتِوَاءَ بِالْإِسْتِيلَاءِ عَلَى النُّصُوصِ .....

- ٤٨٨ ..... يَجِبُ عَلَيْكَ إِذَا أَلَمْتَ بِكَ مَلَمَّةٌ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ
- ٤٩٨ ..... النَّبِيُّ ﷺ سَبَبٌ فِي إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
- ٥٠١ ..... الرَّدُّ عَلَى عِبَارَةٍ: (الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ دِينُ مُسَاوَاةٍ)
- ٥٠٥ ..... شَرْطَانِ فِي كُلِّ عَمَلٍ
- ٥١٧ ..... لَمَّاذَا عَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَرْضِ وَهُوَ الْغِنَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟
- ٥١٩ ..... الْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ
- ٥١٩ ..... الْإِيمَانُ بِوُجُودِ اللَّهِ لَا يُنْكِرُهُ إِلَّا مُكَابِرٌ فِي الْوَاقِعِ
- ٥٢٣ ..... مَعْنَى (مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)
- ٥٢٣ ..... الْإِيمَانُ بِالرُّسْلِ يَتَضَمَّنُ تَصْدِيقَهُمْ كُلَّهُمْ
- ٥٢٤ ..... مَا هِيَ آيَةُ الْمِحْنَةِ؟
- ٥٢٩ ..... الْأَمْثَالُ تُقَرِّبُ الْمَعَانِي
- ٥٣٢ ..... مِنْ أَسْبَابِ الْمَغْفِرَةِ أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ
- ٥٣٩ ..... لَا يُسْتَبَعَدُ أَنْ يُكْتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرُ كُلِّ شَيْءٍ
- ٥٤٣ ..... الْقَوْلُ الرَّاجِحُ أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَبَ عَلَى مَنْ سَمِعَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ
- ٥٤٥ ..... كَيْفَ يُؤَكِّدُ اللَّهُ خَبْرَهُ بِالْقَسَمِ وَهُوَ الصَّادِقُ بِدُونِ ذَلِكَ؟
- ٥٤٨ ..... لَمَّاذَا خَصَّ اللَّهُ مُوسَى بِالْعَصَا وَخَصَّ عِيسَى بِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَخَلَقَ الطُّيُورَ؟
- ٥٥٨ ..... مِثَالُ لِنَفْيِ كَمَالِ الْإِيمَانِ



## فهرس آيات السور

الآية	الصفحة
تقديم.....	٥
سورة الحجرات.....	٧
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾.....	٧
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾.....	٢٠
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾.....	٢٢
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.....	٢٤
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦﴾.....	٢٧
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْأَعْيَانُ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ ۝٧﴾.....	٣٢
” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾.....	٣٦

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَنَلَوْا فَاَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾﴾ ..... ٣٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾﴾ ..... ٤٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تُلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ ..... ٤٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُم بِبَعْضِ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسُّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَئْسَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ ..... ٥٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٤﴾﴾ ..... ٦٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَلِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ..... ٦٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ ..... ٧٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ ..... ٧٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُونَا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ

- عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَكُمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ..... ٧٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
- ﴿١٨﴾ ..... ٨١
- سورة ق ..... ٨٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ ..... ٨٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ عِصُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ
- ﴿٢﴾ أَوَدَّا مِنَّا وَكُنَّا نُرَائِيَا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٢﴾ ..... ٨٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ ..... ٨٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِیْجٍ ﴿٥﴾ ..... ٨٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا
- مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ..... ٩١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
- بِهَیْجٍ ﴿٧﴾ ..... ٩٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَصِيرَةٌ وَذَكَّرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ ﴿٨﴾ ..... ٩٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ
- ﴿٩﴾ ..... ٩٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ ..... ٩٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَزَقْنَا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ..... ٩٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَشُعُوبٌ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
- وَإِخْوَنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَّعٌ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾ ..... ١٠٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَعَبِينَا بِالْحُلُقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ..... ١٠٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ فَنَسُوهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

- ١٠٨..... ﴿١٦﴾ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ يُلَاقَى الْمُتَلَقَّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾..... ١١٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ﴿١٨﴾..... ١١٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ﴿١٩﴾..... ١١٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ ﴿٢٠﴾..... ١١٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿٢١﴾..... ١٢١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ
- حَدِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾..... ١٢٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ﴾ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ
- ﴿٢٤﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾ ﴿٢٥﴾..... ١٢٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ ﴿٢٦﴾..... ١٢٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٢٧﴾ قَالَ
- لَا تَخْصِمُوهُ لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ
- ﴿٢٩﴾..... ١٢٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ ﴿٣٠﴾..... ١٣١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ
- حَفِيفٍ﴾ ﴿٣٢﴾..... ١٣٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ ﴿٣٣﴾..... ١٣٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا
- مَزِيدٌ﴾ ﴿٣٥﴾..... ١٣٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي
- الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِصٍ﴾ ﴿٣٦﴾..... ١٣٧

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) ..... ١٣٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (٣٨) ..... ١٣٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (٣٩) ..... ١٤١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾ (٤٠) وَأَسْتَعِمْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ..... ١٤٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ..... ١٤٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِيدُ﴾ (٤٥) ..... ١٤٥
- سورة الذاريات ..... ١٤٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَأَلْجَمَتِ وَفَرَّ ﴿٢﴾﴾ ..... ١٤٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَالْجَنَّةِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْمَقَسَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا نُوعِدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (٥) ..... ١٤٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْمُبْكِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَن أُولَىٰ ﴿٩﴾ ..... ١٥١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمِنَ الْفَرَّصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَوْ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿١٢﴾﴾ ..... ١٥٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَتَنَّاكُمُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ سَتَعْمَلُونَ﴾ (١٤) ..... ١٥٨

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ (١٥) ..... ١٦٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ (١٦) ..... ١٦٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (١٨) ..... ١٦٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١٩) ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُتَفَكِّرِينَ﴾ (٢٠) ..... ١٦٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) ..... ١٦٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) ..... ١٧١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُورِبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطُقُونَ﴾ (٢٣) ..... ١٧٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْبِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾ (٢٤) ..... ١٧٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ (٢٥) ..... ١٧٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَاغَ إِلَيَّ أَهْلِيهِ فَبَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾ (٢٦) ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٧) ..... ١٧٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنْصَحَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨) ..... ١٨٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْثَهَا فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٢٩) ..... ١٨٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٠) ..... ١٨٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ ثَجَرِمِينَ﴾ (٣٢) ﴿لِتُرْسَلَ عَلَيْهِمْ حَجَارَةٌ مِّن طِينٍ﴾ (٣٣) ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٤) ..... ١٩٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦) ..... ١٩٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَرَّكُمَا فِيهَا ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧) ..... ١٩٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨) ..... ٢٠٠



- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَوَلَّ بِرُكْبِهِ وَقَالَ سَجِرٌ أَوْ جَنُونَ﴾ (٣٩) ..... ٢٠٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاخَذَتْهُ وُجُوْدُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٤٠) ..... ٢٠٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْسِ﴾ (٤٢) ..... ٢٠٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٣) فَتَوَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْغَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٤) مَا اسْتَطْلَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ﴾ (٤٥) ..... ٢٠٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٤٦) ..... ٢١٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) ..... ٢١٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُنْهَدُونَ﴾ (٤٨) ..... ٢١٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩) ..... ٢١٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) ..... ٢١٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥١) ..... ٢١٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَقَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ﴾ (٥٢) ..... ٢١٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِءَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣) ..... ٢٢١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (٥٤) وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَىٰ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٥) ..... ٢٢٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ..... ٢٢٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ (٥٧) ..... ٢٢٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨) ..... ٢٢٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ﴾ (٥٩) ..... ٢٣٠

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ١٠ ﴿..... ٢٣٢

سورة الطور ..... ٢٣٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَنُشُورٍ ٣﴾ وَالْيَتِ

الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّفِيفِ الرَّمُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ ..... ٢٣٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨﴾ ..... ٢٣٨

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠﴾ قَوْلٌ

يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢﴾ ..... ٢٤٠

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ

بِهَا تُكْذِبُونَ ١٤﴾ ..... ٢٤٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥﴾ ..... ٢٤٤

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾ ..... ٢٤٥

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ

وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ١٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩﴾

مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْشُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٢٠﴾ ..... ٢٤٦

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا

الْنِّتْنَهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍمْ وَلَحْمٍ

مِمَّا يَشْتَهُونَ ٢٢﴾ يَنْشَرُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ٢٣﴾ \* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ

غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ ٢٤﴾ ..... ٢٥١

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي

أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦﴾ فَمَرَعَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَفْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا

مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ٢٨﴾ ..... ٢٥٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ٢٩﴾ ..... ٢٥٥

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّرٰىصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرٰبُصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَرٰىصِينَ ﴿٣١﴾﴾..... ٢٥٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلٰهُم بِهٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾..... ٢٥٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾..... ٢٦١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾..... ٢٦٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَآئِنُ رِيكِ أَمْ هُمْ الْمُهَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾﴾..... ٢٦٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلٰمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلِيَآتٍ مُّسْتَمِعُهُمْ يَسْطَلِّنِ مُيِّنِ ﴿٣٨﴾﴾..... ٢٦٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنٰتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾..... ٢٦٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾..... ٢٦٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾﴾..... ٢٦٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾..... ٢٧٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾..... ٢٧٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾..... ٢٧٣
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾..... ٢٧٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾..... ٢٧٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٩﴾﴾..... ٢٧٨
- سورة النجم ..... ٢٨١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوٰى ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَٰحِبُكُمْ وَمَا غَوٰى ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوٰى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحٰى ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوٰى ﴿٥﴾ ذُو مِرَآةٍ قَاسَتْوٰى

- ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ ﴿٨﴾ مَكَانَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾ ..... ٢٨١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١١﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١٢﴾ ..... ٢٨٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٣﴾ أَفَتُمْنُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٥﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٦﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٧﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴿١٨﴾ ..... ٢٨٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٩﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿٢٠﴾ ..... ٢٩١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٢١﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ..... ٢٩٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٢٣﴾ أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿٢٤﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٥﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢٦﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٧﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَمَا بَاوَدُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٨﴾ ..... ٢٩٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٢٩﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٣٠﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٣١﴾ ..... ٢٩٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٢﴾ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٣٣﴾ ..... ٣٠٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْتَوْفُونَ إِلَهُكُمَا تَسْبِيحَ الْأُنثَىٰ ﴿٣٥﴾ ..... ٣٠٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٦﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٣٧﴾ ..... ٣٠٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٩﴾ ..... ٣٠٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٠﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴿٤٢﴾ ..... ٣١٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٣﴾ الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفُوحْشِ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ آجِنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ

- فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ ..... ٣١٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٣﴾ أَفَرَأَيْتَ أَلَدَى تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ أَلَدَى وَفَى ﴿٣٧﴾ أَلَّا نَزِرَ وَازِرُهُ وَذَرَ الْخُرَى ﴿٣٨﴾ ..... ٣٢٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٣٩﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٤٠﴾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرى ﴿٤١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَى ﴿٤٢﴾ ..... ٣٢٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٣﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٤﴾ ..... ٣٣٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٥﴾ وَأَنْتُمْ هُمْ أَضْحَكُ وَأَبْكَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْتُمْ هُمْ أَمَاتٌ وَلَحِيَّا ﴿٤٧﴾ ..... ٣٣٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٨﴾ وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّجُلَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٩﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٥٠﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ الشَّيْءُ الْآخَرَى ﴿٥١﴾ ..... ٣٣٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٥٢﴾ وَأَنْتُمْ هُمْ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٥٣﴾ وَأَنْتُمْ هُمْ رَبُّ الشَّعْرَى ﴿٥٤﴾ ..... ٣٣٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٥٥﴾ وَأَنْتُمْ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٦﴾ وَتَمُودًا قَا أَتَى ﴿٥٧﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴿٥٨﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٩﴾ فَغَشَّاهَا مَا عَشَى ﴿٦٠﴾ ..... ٣٤٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٦١﴾ فَإِنِّي مَالَاءُ رَبِّكَ نَحْمَايَ ﴿٦٢﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٦٣﴾ ..... ٣٤٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٦٤﴾ أَرَأَيْتَ الْآرِيفَةَ ﴿٦٥﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةُ ﴿٦٦﴾ ..... ٣٤٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْخَلِيقَ تَعْبُودُونَ ﴿٦٨﴾ وَتَضَعُكُمْ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٩﴾ وَأَنْتُمْ سَائِدُونَ ﴿٧٠﴾ فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوا ﷻ ﴿٧١﴾ ..... ٣٤٧
- سورة القمر ..... ٣٥١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١﴾ اقْرَأْ بِالسَّاعَةِ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿٢﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٣﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأُنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٥﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُعِنُّ أَلْتَذُّرُ ﴿٦﴾ ..... ٣٥١

- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ ٦ ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ ٧ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِيرٌ﴾ ٨﴾..... ٣٥٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ ٩ ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ ١٠ ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ ١١ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ١٢ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ ١٣ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ ١٤ ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ١٥ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ١٦ ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ١٧﴾..... ٣٥٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ١٨ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحِيزُ مُسْتَمِرٍّ﴾ ١٩ ﴿تَزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ ٢٠ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ٢١ ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ٢٢﴾..... ٣٦٥
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ﴾ ٢٣ ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا نَبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ٢٤ ﴿أُمْلِئِ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ ٢٥ ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنِ الْكَذَّابِ الْأَشِيرِ﴾ ٢٦ ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ ٢٧ ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ﴾ ٢٨ ﴿فَادْوُوا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى مَقَرَّ﴾ ٢٩ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ٣٠ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِرِ﴾ ٣١ ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ٣٢﴾..... ٣٦٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنُّذْرِ﴾ ٣٣ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ حَافِيَ لَهُمْ بِسَعْرِ﴾ ٣٤ ﴿رَقْمَةٍ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْرِي مِنْ شُكْرِ﴾ ٣٥ ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ﴾ ٣٦ ﴿وَلَقَدْ رَدَدُوهُ عَنْ حَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ٣٧ ﴿وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بِكْرَةٌ عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ ٣٨ ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ٣٩ ﴿وَلَقَدْ

- يَسْرَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ ..... ٣٧٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ ..... ٣٨٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سِيَهَرُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ ..... ٣٨٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ ..... ٣٨٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ ..... ٣٩٠
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾﴾ ..... ٣٩١
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ ..... ٣٩٢
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾﴾ ..... ٣٩٤
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّيْلَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ ..... ٣٩٥
- سورة الرحمن ..... ٣٩٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ ..... ٣٩٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الزُّنْتَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ ..... ٣٩٩
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ

الْجَنَّانَ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ..... ٤٠٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبُّ الشَّرَفَيْنِ وَرَبُّ الْغَرَبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ ..... ٤٠٥

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْحٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ ..... ٤٠٧

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ ﴿٢٢﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ ..... ٤٠٩

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ ..... ٤١١

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ ..... ٤١٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ ..... ٤١٥

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ ..... ٤١٨

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْعَشَرُ الْحَيْنُ وَالْآسِ إِذْ اسْتَعْتَضْتُمْ أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِنَ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ ..... ٤١٩

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ ..... ٤٢١

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَصِي وَالْأَقْبَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ ..... ٤٢٣



” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ①﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ② ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ③﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ④ ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ⑤﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑥ ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٍ ⑦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑧ ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ⑨﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑩ ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرُفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ⑪﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑫ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ⑬﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑭ ﴿هَلْ

جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ⑮﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑯ ﴿..... ٤٢٤

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ⑰﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑱ ﴿مُدْهَاتِنِ ⑲﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑳ ﴿فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ㉑﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉒ ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ㉓﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉔ ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتُ حِسَانٍ ㉕﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉖ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ㉗﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉘ ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ㉙﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉚ ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ

حِسَانٍ ㉛﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رِبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉜ ﴿..... ٤٢٨

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَبِّكَ أَسْمَ رَبِّكَ ذِي اللَّيْلِ وَالْإِكْرَامِ ㉝﴾ ..... ٤٣٢

سورة الواقعة ..... ٤٣٥

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ①﴾ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ② ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ ﴿وُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥ ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦﴾ فَأَصْحَابُ الْيَمِينَةِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ⑧ ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَّةِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَّةِ ⑨﴾ ..... ٤٣٥

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ⑩﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑪ ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ⑫﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ⑬ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ⑭﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ⑮ ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ⑯﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ⑰ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ

مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصُدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَكَهَفَ مِمَّا يَخْتَارُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا طَغَى مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْيِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾ ﴿٤٣٨.....

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٢٧﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَطَلْحٍ مَانُودٍ ﴿٣٠﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣١﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣٢﴾ وَفِكَهَفٍ كَثِيرٍ ﴿٣٣﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ وَفُرشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٥﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ﴿٣٦﴾ لَجَعَلْنَاهُمْ أَتْبَارًا ﴿٣٧﴾ عُرَىٰ أَتْرَابًا ﴿٣٨﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٠﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤١﴾ ﴿٤٤٥.....

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٤٢﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤٣﴾ فِي سُورٍ وَمَجْمِرٍ ﴿٤٤﴾ وَظِلِّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴿٤٥﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٧﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ الْحَنِثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٨﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مَنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٩﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٥١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَآ الصَّالُونَ الْمَكِيدُونَ ﴿٥٣﴾ لَّا يَكُونُ مِن شَجَرٍ مِّنْ زُفَيْرٍ ﴿٥٤﴾ فَالِثُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٥٥﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَيْمِ ﴿٥٦﴾ فَشَرِبُوا شَرْبَ الْغَيْمِ ﴿٥٧﴾ هَذَا نُزِّلُهُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٨﴾ فَخَنَّا خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴿٤٤٨.....

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٦٠﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٦١﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٦٢﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٦٣﴾ عَلَىٰ أَن يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴿٤٥٢.....

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٦٦﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٧﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٨﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَلًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٩﴾ إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ﴿٧٠﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴿٤٥٤.....

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٧٢﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٣﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٧٤﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْلًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴿٤٥٥.....

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٧﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ

الْمُنِشُّوْنَ ﴿٧٢﴾ تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتْنًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ

الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ..... ٤٥٧

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٧٤﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْجِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لِّو تَعْلَمُونَ

عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا

الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ..... ٤٥٩

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٨١﴾ أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ

﴿٨٣﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمَخْلُومَ ﴿٨٤﴾ وَأَنْتُمْ جِنْدٌ نَّظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ

وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿٨٦﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٧﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

﴿٨٨﴾ ..... ٤٦٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٨٩﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٩١﴾

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٢﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ

مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٤﴾ فَتُزَلُّ مِنْ حِمِيمٍ ﴿٩٥﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ ﴿٩٦﴾ ..... ٤٦٧

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿٩٧﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٨﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٩﴾ ..... ٤٧٠

سورة الحديد ..... ٤٧٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٠٠﴾ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠١﴾ لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٢﴾ ..... ٤٧٣

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٠٣﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ..... ٤٧٨

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٠٥﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ

مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ..... ٤٨١

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٠٧﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٨﴾ ..... ٤٨٩

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿١٠٩﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

﴿٦﴾ ..... ٤٩١

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ

ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفِقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ..... ٤٩٤

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ

مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ..... ٤٩٨

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ

إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ..... ٥٠٠

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا

يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا

مِنْ بَعْدٍ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ..... ٥٠٢

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ

﴿١١﴾ ..... ٥٠٧

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ

بُشِّرَانِكُمْ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ..... ٥٠٩

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ

نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ

مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَنِمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ

وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ

لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَفِيهَا الْمَصِيرُ

﴿١٥﴾ ..... ٥١١

” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ

مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ

- وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ..... ٥١٤  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ..... ٥١٦  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ ..... ٥١٨  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّاهِدَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ ..... ٥٢١  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَبًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ ..... ٥٢٩  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ ..... ٥٣٤  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ ..... ٥٤٠  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ ..... ٥٤٣  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ ..... ٥٤٥  
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

- وَالْمِيرَاتِ لِقَوْمِ النَّاسِ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْعَفَةٌ  
لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَصْرُهُ، وَرُسُلُهُ، بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٥﴾ ..... ٥٤٧
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ  
وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُتَقِدِّمٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٣٦﴾ ..... ٥٥٦
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ فَفَعَلْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِبْرَاهِيمَ وَفَقَعْنَا عَلَيْهِمُ ابْنَ مَرْيَمَ  
وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً  
ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا  
فَتَأْتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٣٧﴾ ..... ٥٥٨
- ” قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كَهْلَيْنِ  
مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٨﴾ لَيْلًا  
يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ  
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣٩﴾ ..... ٥٦٠
- فهرس الأحاديث والآثار ..... ٥٦٥
- فهرس الفوائد ..... ٥٧٧
- فهرس آيات السور ..... ٥٨٣

